مظاهر التقاء الحضارتين المصرية والإغريقية
فى عهد البطالمة

يرجع أول عهد مصر باستقرار الإغريق فيها إلى ما قبل الفتح المقدونى بحوالى أربعة قرون ، أو بعبارة أخرى إلى حوالى بداية القرن السابع قبل الميلاد ، عند ما أخذ الكثير من تجارهم يستقرون فى شمال مصر[١] . وإذا كانت مصر قد أفادت عندئذ من نشاط الإغريق التجارى وقوة سواعدهم فى جمع ثروة كبيرة وبناء جيش قوى ، مما حدا بفراعنة العصر الصاوى إلى الترحيب بهم وموالاة النعم عليهم[٢] ، فإن الإغريق قد جنوا عندئذ من مصر خير الثمرات ، إذ أنهم لم يجمعوا ثروات طائلة فحسب ، بل أفادوا كثيراً من الحضارة المصرية[٣] . حقا كان العصر الذهبى لحضارة الفراعنة قد ولى وانقضى ، لكن العصر الصاوى كان عصر نهضة رائعة تهدف إلى إحياء تقاليد الماضى المجيد . وفى أثناء تلك النهضة المصرية الزاهرة كانت بلاد الإغريق لا تزال فى مهد الحضارة ، فلا عجب إذن أنه كان للحضارة المصرية أثر مشهود فى صناعات الإغريق وعلومهم وفنونهم ، وآية ذلك أنهم كانوا يحجون إلى مصر لتلقى العلم فيها .

وبين أواخر القرن السادس وأواخر القرن الرابع قبل مولد السيد المسيح كان الفلك قد دار دورة من دوراته العجيبة ، إذ حين عجزت مصر ، وقد هد المشيب قواها ، عن صد عدوان الفرس عليها ، تمكنت بلاد الإغريق فى فتوتها وشبابها من الصمود أمام الفرس . ولذلك فإنه بينما دخلت مصر فى حظيرة الإمبراطورية الفارسية ، وأخذ نجم الحضارة المصرية فى الأفول ، احتفظ الإغريق باستقلالهم ، وكان لنجاحهم فى صد عدوان الفرس عليهم رد فعل

---

(١) راجع موسوعة كمبردج فى التاريخ القديم ، المجلد الثالث ، ص٢٩١ .

(٢) إبراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، ص ٢ — ٣ .

(٣) انظر Diod. I, 96-8.

عجيب فى نفوسهم قفز بحضارتهم إلى ذروة المجد فى أقصر فترة عرفها التاريخ .

ويوم قُسِّمت إمبراطورية الإسكندر الأكبر بين قواده عام ٣٢٣ ق . م ، وآلت مصر إلى أحد هؤلاء القواد ، وأعنى بطلميوس بن لاجوس ، الذى أقام على ضفاف النيل صرح مملكة حمل سلالته من بعده صولجانها قرابة ثلاثة قرون ، كان لواء الزعامة فى عالم البحر الأبيض المتوسط معقوداً دون منازعة للحضارة الإغريقية ، فإنه منذ قرنين على الأقل كان العالم المتحضر يدين للمدن الإغريقية بالغالبية لعظمى من كل المبتكرات الخصيبة فى حلبة الأفكار والفنون والصناعات[1] .

فما كانت نتيجة التقاء هذه الحضارة الإغريقية اليافعة ، حضارة السادة الفاتحين ، مع الحضارة المصرية الهرمة ، حضارة الرعايا المغلوبين على أمرهم ، فى وادى النيل ؟ وهل كان العلامة ابن خلدون صادقاً فى رأيه القائل إن المغلوب مولع دائما أبدا بالاقتداء بالغالب » هذا ما سنحاول إظهاره الآن فى إيجاز .

لقد كان البطالمة قبل كل شىء ملوكاً يعنيهم توطيد دعائم حكمهم بأفضل السبل التى تحقق أهدافهم ، غير أنهم كانوا ملوكاً مصطبغين بالحضارة الإغريقية ، وفى حاجة ملحة إلى الإغريق . فقد كانت أعز أمانى البطالمة الأوائل المحافظة على استقلال مصر السياسى والاقتصادى ولعب الدور الأول فى السياسة الدولية[2] . وقد كانت الدعامة الأولى للاستقلال والسيادة الدولية تجنيد جيش قوى وبناء أسطول كبير ، من طراز جيوش وأساطيل منافسيهم ، التى كانت مؤلفة من خيرة محاربى العصر ، وأعنى المقدونيين والإغريق الذين أثبتت حملات الإسكندر تفوقهم على محاربين ممتازين كالفرس . وقد كانت وفرة المال الدعامة الثانية للاستقلال والسيادة الدولية ، ومصر على غنى مواردها الطبيعية كانت لا تستطيع مواجهة المطالب الجديدة إذا بقيت شئونها الإدارية وحالتها الاقتصادية ونظمها المالية على ما كانت عليه عند الفتح المقدونى ، ولا سيما بسبب ما حاق

---

(١) Jouguet : Hist. Nat. Eg., III, pp. 15-16.

(٢) راجع إبراهيم نصحى : الكتاب سالف الذكر ، ص ٥٢ ، وكذلك (Rostovtzeff, Soc. and Econ. Hist. Hell. World, p. 29;)

بها من التدهور نتيجة للاضطرابات التى شهدتها البلاد فى خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، إبان حكم الفرس فى مصر وثورات المصريين للتخلص من نيرهم . فلم يكن هناك بد من إعادة تنظيم شئون الإدارة ، والنهوض بمرافق البلاد الاقتصادية ، ووضع نظام مالى دقيق . وللقيام بهذه الأعمال الإنشائية الواسعة ، كان البطالمة فى حاجة إلى رءوس أموال ، وإلى أعوان مخلصين يستطيعون فهم مراميهم والتفانى فى خدمتهم(١) . وجملة القول أن البطالمة كانوا فى حاجة ملحة إلى الاغريق من أجل تحقيق أغراضهم الداخلية والخارجية ، فلكى يضمنوا لأنفسهم مكانة ممتازة فى بلاد الإغريق ، وكذلك استمرار وفود الإغريق على مصر بكثرة واستقرارهم فيها على الدوام ، لم يكتفوا فقط بفتح أبواب مصر على مصاريعها للإغريق ، بل أجزلوا لهم العطاء ومنحوهم مركزاً ممتازاً فى وطنهم الجديد ، وهيئوا لهم البيئة التى تواءم ما ألفوه من أساليب الحياة فى بلادهم ، ونصبوا أنفسهم حماة للحضارة الإغريقية ، فهرع الإغريق إلى مصر زرافات ووحداناً(٢) .

وإذا كانت قد وفدت على ضفاف النيل فئة كبيرة من الأجانب ، فإن هؤلاء الأجانب كانوا أقلية ضئيلة بالنسبة إلى أهل البلاد الذين كانوا يعدون بالملايين ، فى حين كان الأجانب يعدون بالآلاف . ومهما بلغت حاجة البطالمة إلى الأجانب ، فإنه لم يكن لهم غناء على الإطلاق عن المصريين الذين كانوا عماد ثروة البلاد .

وهكذا نرى أن البطالمة قد وجدوا أمامهم فريقين رئيسيين من سكان البلاد ، لكل منهما نظم خاصة للحكم ؛ فالإغريق نشأوا فى مدن اعتادوا على الاشتراك فى حكمها ، والمصريون نشأوا فى دولة ملكية مطلقة تقوم على حق الملوك الإلهى . فماذا فعل البطالمة حماة الحضارة الإغريقية الذين كانوا يحرصون على أن تظهر دولتهم أمام العالم باعتبارها دولة إغريقية ، لا دولة شرقية(٣) ؟ حقاً إنهم سمحوا للمدن الاغريقية الثلاث فى مصر بلون من ألوان الحكم الذاتى ، لكن إغريق هذه المدن ، وكذلك الإغريق الذين

---

(١) إبراهيم نصحى الكتاب سالف الذكر ، ص ٧٢٤ .

(٢) Jouguet: in Chronique d'Egypte, 1935, pp. 95-6.

(٣) Rostovtzeff : op.cit., pp. 264-5.

يعيشون فى أنحاء مصر الأخرى كان شأنهم شأن المصريين فى خضوعهم جميعاً للملك[١] . هذا إلى أن البطالمة لم يكثروا من إنشاء المدن الإغريقية ، على نحو ما فعل الإسكندر وخلفاؤه السليوكيون فى إمبراطوريتهم ، بل إن البطالمة لم ينشئوا إلا مدينة إغريقية واحدة وهى بطوليس ، لكنهم ساهموا فى إنشاء الإسكندرية ؛ أما نقراطيس فإنها ترجع إلى عهد الأسرة السادسة والعشرين . وقد يقال إنّ البطالمة وإن كانت حضارتهم هى الإغريقية فإنهم أصلا مقدونيون ، ومن ثم لا داعى لأن نعزو إلى مصر نظام الحكم الذى اتبعوه فيها ، فقد كان يحكم مقدونيا ملوك مطلقو السلطة . ولكن هذا الدفع ، كما يقول رجال القانون ، وإن كان مقبولا شكلا فهو مرفوض موضوعا ، لأن البطالمة أقاموا ملكيتهم على أساس إلهى ، وفى مصر نشأت فكرة حق الملوك الإلهى منذ أقدم العصور[٢] . وفضلا عن ذلك فإن البطالمة اتخذوا أولا صفات الفراعنة ، ولم يلبثوا أن تتوجوا على نمطهم فى المعابد المصرية[٣] . ولكى يبرروا سلطتهم المطلقة فى نظر رعاياهم الإغريق لم يكتفوا فقط بنشر الرسائل الفلسفية التى تمتدح سلطة الملوك ، بل رفعوا أنفسهم إلى مصاف الآلهة الإغريقية[٤] . ومعنى ذلك أن البطالمة لم ينشروا بين المصريين نظم الحكم الاغريقية ، بل اقتصدوا أيما اقتصاد فى إقامة هذه النظم بين إغريق مصر ، وأخذوا عن المصريين الأساس الذى أقاموا عليه دعائم سلطتهم الملكية .

وفى الإدارة المحلية ، احتفظ البطالمة بالنظام التقليدى الذى عرفته مصر منذ أقدم العصور ، نظام تقسيم البلاد إلى مصر العليا ومصر السفلى ، وتقسيم كل من هذين القسمين إلى أقاليم أو مديريات[٥] . وفضلا عن ذلك فقد كان دعامة الإصلاحات الاقتصادية والمالية التى قام بها البطالمة مبدآن مصريان ينافيان المبادىء التى كانت تقوم عليها المدن الإغريقية الحرة . وهذان المبدآن هما : — أن الملك صاحب الأرض وما عليها وما فى

---

(١) Rostovtzeff : op. cit., p. 323.

(٢) Jouguet : Macedonian Imp., p. 286; Moret and Davy, From Tribe to Empire, pp 131 ff.; Moret: Du caractère religieux de la royauté pharaonique, p. 17.

(٣) إبراهيم نصحى ، ص ١٨٦ — ١٩١ (٤) إبراهيم نصحى ، ص ٢١٦ وما بعدها .

(٥) Jouguet : op. cit., p. 300.

باطنها ، وأن الأهالى يطيعون هذا الملك الإله طاعة عمياء . وعلى الرغم من أن نظم البطالمة الاقتصادية والمالية قد قامت على هذين المبدأين المصريين ، فإن البطالمة قد تأثروا إلى حد بعيد فى وضع هذه النظم بتعاليمهم الإغريقية وبتجارب أعوانهم الإغريق ؛ ولذلك فإن هذه النظم وإن كانت مصرية فى جوهرها فإنها مصطبغة بصبغة إغريقية قوية . ولا أدل على الأثر الإغريقى من تنظيم النواحى الاقتصادية المختلفة بقوانين ونظم إغريقية فى روحها ومنطقها ، واتساقها ودقة صياغتها واصطلاحاتها ، ومن طريقة تنظيم الضرائب . وقد كان يتصف بروح إغريقية أيضاً إشراف الإدارة المالية على موارد الدولة المختلفة ، وكذلك نظام المحاسبة والمراجعة الذى يختلف كلية عن أى شىء من هذا القبيل عرفته مصر حتى ذلك الوقت . ومع ذلك فقد أغفلت نظم البطالمة الاقتصادية والمالية إغفالا يكاد يكون تاماً جوهر النظام الاقتصادى الإغريقى ، ويتلخص فى شيئين : — أحدهما الامتلاك الخاص الذى كانت الدولة تعترف به وتحميه ، باعتباره أساس حياة الجماعة ، والآخر هو حرية النشاط الاقتصادى ، إذ أن الدولة قلما كانت تتدخل فى ذلك . حقاً إن البطالمة لم يقضوا قضاء مبرما على هاتين الظاهرتين ، إلا أنهم لم يسمحوا لهما إلا بقدر محدود يتمشى مع خطة البطالمة العامة ، التى كان سداها ولحمتها إشراف الدولة إشرافاً دقيقاً على كافة نواحى الحياة الاقتصادية[1] .

وجملة القول إن أداة البطالمة الحكومية وإن كانت فى جوهرها من تراث الماضى ، إلا أنها أصبحت فى مجموعها أداة إغريقية منظمة تنظيما دقيقاً . ولا نعرف كيف استطاع البطالمة تكوين هذه الأداة الحكومية الدقيقة فى بلد أجنبى ، ووسط ظروف غريبة من عناصر لم تتوافر فيها المؤهلات اللازمة لمثل هذا العمل . فإن رءوس هذه الإدارة ومديرى مصالحها المختلفة وأقسامها المتعددة كانوا كلهم تقريباً من الإغريق الذين لم يعدّهم ماضيهم للإضطلاع بمثل هذه المهام المعقدة ، إذ أنهم قبل ذلك كانوا يديرون شئونهم الخاصة بطريقة بدائية ، كما أن إدارة الشئون العامة التى اشترك فيها بعض هؤلاء المهاجرين فى بلادهم كانت أولية ، إذا قيست بالنظم

(١) Rotovtzeff : op. cit., pp .272-3.

البطلمية . إن نجاح البطالمة فى إعادة تنظيم الأداة الحكومية لتحقيق أهدافهم يعتبر من أبدع مبتكرات العبقرية الإغريقية ، ومن أوضح الأدلة على مرونتها واستعدادها لتكييف نفسها وفقاً للظروف التى توجد فيها[١] . ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا الصدد أنه لم يكن لهذه التعديلات التى أدخلت على الأداة الحكومية والنظم المالية إلا أسوأ الأثر فى المصريين ، إذ أن البطالمة لم يستهدفوا إلا تحقيق أغراضهم الأنانية الخاصة . ولم تؤد النظم الجديدة بعسفها وبطشها إلى سوء حال المصريين المادية فحسب ، بل إلى انحطاط أخلاقهم أيضاً ؛ فقد دفعهم الظلم إلى التحايل على القانون بشتى الطرق ، كما دفعهم الفقر وشظف العيش إلى وأد أطفالهم . وهكذا كانت للظلم آثار مادية ومعنوية سواء بسواء[١] .

وحين وجه البطالمة عنايتهم إلى النهوض بمرافق مصر الاقتصادية لم يعتمدوا على خبرة المصريين المتوارثة فحسب ، بل اعتمدوا أيضا على دراية الإغريق الفنية والحركة العلمية الإغريقية ، إذ أن المهندسين الإغريق هم الذين أشرفوا على استصلاح مساحات واسعة من الأراضى فى الفيوم[٣] ، وغيره من الأقاليم[٤] التى تشبهه ، وبوجه خاص فى الدلتا . وبعد أن كان المصريون لا يعرفون إلا الشادوف لرفع المياه إلى الأراضى المرتفعة ، أصبحوا يعرفون الساقية ولولب أرخميدس[٥] (الطنبور) ؛ وكانت هاتان الآلتان من ثمرة العلم الإغريقى . ولتفادى إضعاف التربة وضع نظام دقيق للدورة الزراعية ، بحيث كانت الأرض لا تزرع زراعة ثقيلة ثلاثة أعوام متتابعة ، ولا تترك فى نفس الوقت دون زرع[٦] ؛ وأصبحت أغلب الأدوات الزراعية تصنع كلها أو بعض أجزائها من الحديد[٧] . وللإغريق فضل كبير فى نشر غرس الكروم والفاكهة والزيتون ، وإدخال أنواع

---

(١) Rostovtzeff, op. cit. : pp. 1078-81.

(٢) إبراهيم نصحى ، ص ص ٥٨٦ ، ٦٥٠ — ٦٥٧ ، ٧٥٨ — ٧٦٣ .

(٣) Rostovtzeff : op. cit., p. 361.

(٤) Edgar : Zeno Papyri in Michigan, p. 10.

(٥) Calderini : in Aegyptus, I, pp. 37-62, 189-216, 309-317.

(٦) P. Tebt.I : p. 561.

(٧) Rostovtzeff : op. cit., pp. 362-3.

جديدة منها اومن مختلف أنواع النبات[١] . وقد وجه البطالمة عنايتهم إلى مسألة أخرى تتصل بالزراعة اتصالا وثيقاً ، وهى تربية الحيوان ، فلم يعنوا فقط بالحيوانات التى كان المصريون يألفونها منذ القدم ، بل عنوا أيضاً بأقلمة ما كان مألوفاً منها عند الإغريق ، وخاصة الحيوانات ذات الأصواف الممتازة [٢].

وتعزى النهضة الصناعية فى عصر البطالمة إلى مهارة أهل البلاد ، وكذلك إلى مواهب المهاجرين إليها . ولا بد من أن الحركة العلمية فى الإسكندرية قد غزت الصناعة كما غزت الزراعة بثمرة تقدم العلوم والهندسة . وقد ساعد على ازدهار الصناعة إنشاء المصارف المالية ، وانتشار تداول النقود ، ووفرة رءوس الأموال اللازمة للنهوض بالصناعة ، ورواج التجارة ، واهتمام الملوك باستغلال الصناعة استغلالا لم تعرفه مصر فى أى عهد من عهود تاريخها الطويل ؛ فإن ملك مصر لم يكن أكبر ملاك الأراضى فحسب ، بل كان أيضاً أكبر أقطاب الصناعة فيها[٣] . وإذا كان المصريون قد اقتبسوا من الإغريق بعض أساليب الصناعة التى كانوا أساتذة فيها ، كصناعة الزيت والنبيذ والمنسوجات الصوفية ، فإن الإغريق بدورهم اقتبسوا فنون الصناعة التى بلغ فيها المصريون حدا يقرب من الكمال فى عهد الفراعنة . وكان شأن الإغريق فى مصر كشأنهم فى أى مكان آخر اتصلوا فيه بأساليب الحضارة الرفيعة القديمة ، فإنهم اقتبسوا أولا فن الصناعة الوطنى وتعلموا كل ما لم يعلموه منه قبل ذلك ، بل أخذوا عنه بعض المظاهر وأشكال الزخرفة ، ثم صبغوا كل ذلك بالصبغة الإغريقية ، وجعلوه محببا مقبولا للذوق الإغريقى[٤] . فامتلأت أسواق العصر الهيلينستى بآنية فخارية وزجاجية ومعدنية مصنوعة على أساس الأساليب المصرية فى الصناعة ، وإن كان طراز المصنوعات إغريقياً . وهل أدت مساهمة الإغريق فى حياة مصر الاقتصادية إلى إدخال ما ألفوه فى بلادهم من نوع اليد العاملة فى الصناعة ، أى العبيد ، على

---

(١) إبراهيم نصحى ، ص ص ٣٧٣ ، ٣٧٤

(٢) Rostovtzeff : op. cit., pp. 292-5

(٣) إبراهيم نصحى ، ص ٣٨٣

(٤) Rostovtzeff : Large Estate, p. 135.

الرغم من وفرة اليد العاملة الحرة فى مصر وقلة أجرها ؟ تشير القرائن إلى أنه فى مدن مصر الإغريقية – وخاصة فى الإسكندرية – لم ينهض بالصناعة الإغريقية طبقة كبيرة من أهل الحرف والصناعات الأحرار فحسب ، بل من العبيد أيضاً . أما فى بقية أنحاء مصر ، خارج مدنها الإغريقية – أو على الأقل خارج الإسكندرية – ، فإننا نلاحظ أنه لا يوجد فى نصوص القوانين الخاصة بنظام العمل فى الزراعة والصناعة ما يستدل منه على استخدام العبيد فيها . ومعنى هذا أن الإغريق لم يغيروا قواعد الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى البلاد بوجه عام(١) .

وقد تمخض نجاح سياسة البطالمة الخارجية ، وتقدم الزراعة وازدهار الصناعة ، عن رواج تجارة مصر الخارجية . وساعد على ذلك أيضا خبرة الإغريق العريقة فى هذا المضمار ، وإنشاء المصارف المالية ، وانتشار تداول النقد ، ومبتكرات العبقرية الإغريقية التى كان فى مقدمتها فنار الإسكندرية المشهور الذى كان نوره يشاهد على بعد ٦٠ ك . م ؛ ومنذ أدرك الناس قيمة الفنارات انتشر هذا الاختراع سريعاً فى الموانى المختلفة .

وتمخضت أبحاث تيموستنيس ، أمير البحر البطلمى ، عن كتاب « المعارف البحرية » الذى وفر لربابنة السفن معلومات قيمة عن أحوال الموانى المختلفة وأوصافها ، والمسافة بين كل منها . وقد ترتب على كل هذه التسهيلات أن ازدادت كثيرا فى العصر الهيلينستى سرعة انتقال البضائع ، دون أن تزداد سرعة السفن نفسها زيادة كبيرة ، وذلك لأن السفن أصبحت تشق أواسط البحر بدلا من أن تتلمس طريقها بمحاذاة الشاطىء ، كما أصبحت تسافر فى أثناء الليل أيضاً بدلا من النهار فقط(٢) .

إن البطالمة الأوائل لم يدخروا وسعاً فى العمل على تقدم مرافق مصر الإقتصادية ، فازدادت مساحة الأرض المنزرعة واستغلت الأرض الصالحة للزراعة استغلالا لم يسبق له مثيل ، وازدهرت الصناعة وراجت التجارة . ولكن إذا كان لم يستفد من ازدياد مساحة الأرض سوى الإغريق ، الذين

---

(١) Préaux : L'économie royale des Lagides, p. 305.

(٢) Glotz : Le travail dans la Grèce ancienne, pp. 440-1.

منحوا هذه الأراضى ، والملك الذى كسب من وراء ذلك ولاء الإغريق وخدماتهم ، فضلا عن الضرائب التى فرضها على هذه الأراضى ؛ وإذا كان الملك هو صاحب أرض مصر ، وكانت الحكومة هى القابضة على ناصية الصناعة ، والإغريق هم أقطاب التجارة والصناعة ، فماذا جنى المصريون أصحاب البلاد وعماد ثروتها ؟ ماذا جنوا من تضاعف مساحة الأرض المنزرعة ، أو ازدياد استغلال الأرض ، أو ازدهار الصناعة ، أو رواج التجارة ؟ لقد كانوا كالشمعة التى تحترق لتنير للغير ، ولم يكن نصيبهم سوى نصيب العبد الكسير الذى يشقى وينصب ليملأ خزائن سيده بالأموال . وهل أدرك البطالمة أنفسهم من وراء سياستهم الاقتصادية ونظمهم المالية كل ما كانوا يؤملون فيه ؟ الجواب نعم ولا . فقد أحرزوا كل ما يقوى المال على ابتياعه ، ولكنهم أغفلوا من حسابهم أمرا لعله كان يسيراً فى نظرهم ، إلا أنه هو العماد الأقوى لكل ملك يراد له البقاء ، وذلك هو الروح المعنوى للشعب . فلا عجب أنه عندما استعاد المصريون ثقتهم بأنفسهم هبوا ثائرين فى وجه طغاتهم ، وزلزلوا الأرض تحت أقدامهم ، فكانت ثوراتهم من العوامل الحاسمة فى القضاء على دولة البطالمة .

ولما كان بطلميوس الأول يعتقد أن ثروة مصر تتوقف على مساهمة المصريين والإغريق سويا فى العمل على تقدم مرافق البلاد الاقتصادية ، فإنه رأى من الضرورى أن يؤلف بين قلوب هذين العنصرين ، ولا سيما أنه كان يعرف أن للمصريين ديانة موروثة راسخة القدم ، وأن الإغريق أحضروا معهم دياناتهم ومذاهبهم . ولذلك وجه همه إلى التغلب على النفور الدينى الذى كان هرودتوس قد لاحظه من قبل ، وكان من المحتم أن يعوق الألفة بينهم ، بإيجاد ديانة جديدة تربط بين هذين العنصرين المختلفين اللذين كان أهم عنصرين بين سكان البلاد .[١] وقد استقر الرأى على أن تكون محور الديانة الجديدة ثلاثة آلهة مصرية ، قُدّمت للمصريين فى ثوبها المصرى ، وللإغريق فى ثوب إغريقى ، على أنها نظائر لآلهتهم . ولم يعبد الإغريق هذه الآلهة فقط ، بل كانوا يعبدون أيضا الآلهة المصرية تحت أسماء إغريقية وبعضها بأسمائها المصرية ، فقد أدخل على عقولهم

(١) Jouguet: Mac.. Imp., p. 339.

أن تلك الآلهة لا تختلف فى شىء عن آلهتهم . وفضلا عن ذلك ، فإنهم كانوا يعتبرون أنفسهم ضيوفاً على البلاد ، ولذلك كان من إصالة الرأى أن يستجدوا عطف الآلهة التى تشملها بالرعاية(١) ، إلا أنه حيثما كان الإغريق ينزلون فى كثرة ، سواء أكان ذلك فى المدن الإغريقية أم فى خارجها ، كانوا يقيمون المعابد لآلهتهم القديمة(٢) ، مثل زيوس وابولو وديمتر . ويكاد يكون من المحقق أن الديانة الحقيقية للإغريق كانت عبادة آلهتهم القديمة ، التى ظلوا على تمسكهم بها إلى أن تلاشى الروح القومى فى نفوسهم(٣) . وإذا كنا نعرف أن الديانة المصرية قد استهوت الإغريق فأقبلوا عليها — ولو إلى حد — إلى جانب ديانتهم القومية ، فإننا لا نعرف أن المصريين أقبلوا على الديانة الإغريقية على الإطلاق .

وقد سلف القول إن البطالمة الثلاثة الأوائل رأوا سلامتهم فى الاعتماد على المقدونيين والإغريق وأشباههم ، فى تكوين قواتهم البرية والبحرية(٤) ، لكن هؤلاء الملوك رأوا ألا يسرحوا الفرق المصرية ، خوفاً من أن يؤدى ذلك إلى إثارة المصريين . ولذلك استبقوها فى جيشهم الإغريقى ، بنظمها وأسلحتها القديمة ، بمثابة فرق احتياطية يلجأ إليها فى أوقات الضرورة القصوى . وقد استمر الحال كذلك حتى أواخر القرن الثالث ، عند ما واجهت بطلميوس الرابع أزمة خطيرة ، بسبب انقضاض أنطيوخوس الثالث ملك سوريا على ممتلكاته . وكان ذلك فى وقت قل فيه وفود الإغريق على مصر ، وضعفت الروح الحربية بين المقيمين منهم فى مصر ، فاضطر إلى الاعتماد على المصريين فى منازلة أنطيوخوس ، ولذلك كانوا منذ ذلك الوقت يسلحون بالأسلحة المقدونية ، ويدربون وفقاً لأحدث الأساليب الحربية(٥) .

وكانت لمصر عاداتها وقوانينها التى ترجع إلى عهود بعيدة تسبق بقرون طويلة الفتح المقدونى الذى حمل فى طياته الإغريق بعاداتهم وقوانينهم .

---

(١) Jouguet: Mac. Imp., p. 338.

(٢) Bevan : p. 89.

(٣) إبراهيم نصحى ، ص ٢٩٠

(٤) Bevan : p. 166.

(٥) إبراهيم نصحى، ص ص ١٦٤ و ١٦٥

وقد رأى البطالمة فى حكمتهم أن يتجنبوا بقدر ما تسمح أحوال الحكومة الجديدة المساس بما ألفه المصريون من العادات والقوانين(١) ، بل أخذوا على عاتقهم تدوين القوانين المصرية ونشرها(٢) . وفى نفس الوقت استنوا من القوانين ما يتفق وأفكار الإغريق ومن على شاكلتهم ، وذلك من أجل تنظيم العلاقات بين هؤلاء النزلاء الأجانب(٣) . وهكذا كان يطبق على المصريين قوانينهم التقليدية ، وعلى الإغريق قوانين إغريقية من وضع البطالمة . لكن استمرار وجود هاتين المجموعتين من القوانين جنباً إلى جنب أفضى إلى تأثير كل منهما فى الأخرى . وتبدو مظاهر الأثر الإغريقى فيما أدخل على القوانين المصرية من الأحكام الخاصة بشئون الرقيق ، وحماية العقار من اعتداء الغير عليها ، وبعض الالتزامات وبعض شئون الميراث .

ونلمس الأثر الإغريقى أيضا فى بعض المسائل الخاصة بحقوق المرأة ، فقد كان القانون المصرى يخول للمصرية أن تتصرف فى نفسها وفيما تملك ، دون أى قيد أو شرط ، وذلك على خلاف المرأة الإغريقية . لكن المرأة المصرية لم تنعم طويلا بهذه الحرية فى عهد البطالمة ، فإنهم على الرغم من ادعائهم احترام التقاليد المصرية رأوا أن يساووا بين المرأة المصرية والمرأة الإغريقية ، وذلك دون شك لكى لا تتبرم الإغريقية وتضيق ذرعاً بحالتها ، إزاء ما كانت تنعم به المصرية من الحقوق . إذ يعزى إلى بداية عهد بطلميوس الرابع أمر ملكى يحظر على المرأة المصرية الزواج دون إذن وصى ، والتعاقد مع طرف ثالث دون إذن زوجها . وعلى مر الأيام أخذ المصريون عن الإغريق أحد أنواع عقود الزواج الشائعة بينهم باسم Syngraphai Synoikisiou ، ومعناها عقود المعاشرة ، وكانت تتضمن تفصيل التزامات الزوج الخاصة بالطلاق والوراثة(٤) .

ومن ناحية أخرى تأثر القانون الإغريقى بالقانون المصرى ، فقد أخذ الإغريق عن المصريين القواعد الخاصة بسيطرة الأبوين على أبنائهما ،

---

(١) Jouguet: op. cit., p. 313; Bevan, p. 157.

(٢) Taubenschlag: The Law of Greco-Roman Egypt in the Light of the Papyri, p. 2.

(٣) Rostovtzeff : Social and Economic, p. 324.

(٤) Laubenschlag: pp. 14-16.

وكذلك عقود الزواج الخاصة بإثبات كل المسائل المالية ، وذلك النوع من الزواج الشائع بين المصريين الذى يدعى Gamos agraphos أى زواج المتعة أو الزواج العرفى ، وأخذوا عنهم أيضاً « الرهن الضمانى » و « البيع الوفائى » وبعض أحكام القانون المصرى الخاصة بالالتزامات وببعض نواحى الميراث(١) .

وقد تكشف تأثير كل من القانون الإغريقى والمصرى فى الآخر عن ظهور مجموعة قوانين تتألف من عناصر مصرية وإغريقية ، وتطبق على العنصرين المصرى والإغريقى من السكان . ومع ذلك كانت لاتزال توجد قوانين إغريقية بحت لا تطبق إلا على الإغريق ، وأخرى مصرية بحت لا تطبق إلا على المصريين(٢) .

وبسبب افتقارنا إلى الأدلة لا نستطيع الكلام عن الأثر المتبادل فى العلوم والطب ، على عهد البطالمة ؛ لكن يمكننا الجزم بأن الأدب الإغريقى البطلمى كان أدبا إغريقياً بحتاً ، فإن علماء الأدب انصرفوا إلى تحقيق النصوص الإغريقية القديمة وترتيبها وتبويبها . أما الكتاب والشعراء، فقد انصرفوا إلى موضوعات لا تمت بصلة إلى الشعب المصرى أو البلاد المصرية ، حتى أن ثيوكريتوس عند ما كان يتغنى بوصف الطبيعة كان لا يصف مصر بل كوس وسيراكوز . وكان الشعراء الإغريق لا يعرفون عن مصر — حتى بعد أن عاشوا فيها — إلا ما قرأوه فى القصص والخرافات الإغريقية ، أو ما كتبه هرودوتوس وأفلاطون ، وكانوا لا يوجهون عنايتهم إلى شيء من المميزات المحلية إلا ما يستطيعون استخدامه فى إطراء الملك الذى يرعاهم(٣) . ومع ذلك فإن الكثير من الإغريق قد تعلموا اللغة المصرية ، وحسبنا الإشارة إلى الخطاب الذى أرسلته سيدة إغريقية إلى ابنها ، لتهنئه على تعلمه اللغة المصرية وتعيينه مدرساً خصوصياً ، عند أسرة طبيب مصرى للأمراض الباطنية(٤) .

---

(١) Taubenschlag: pp. 16-19.

(٢) Taubenschlag: pp. 19.

(٣) إبراهيم نصحى ، ص ٨٠٥ .

(٤) U.P.Z., 148; Préaux: in Rev. Belge, VIII, 1929, p. 767.

ولكى نقدر مدى انتشار الثقافة الإغريقية بين المصريين – على عهد البطالمة – يجب أن نشير إشارة سريعة إلى طبقاتهم ، وحال التعليم عندهم . كانت تأتى فى مقدمة المصريين ، قبل الفتح المقدونى ، طبقة الأرستقراطية بشقيها الدنيوى والدينى . أما الأرستقراطية الدنيوية ، فيبدو أنه قد قضى عليها قضاء مبرماً ، منذ أوائل القرن الثالث قبل الميلاد(١) . أما الأرستقراطية الدينية ، فإن البطالمة كانوا أفطن من أن يحاولوا القضاء عليها ، وإن كان أوائلهم قد عملوا على تقليم أظافرها(٢) ، ومع ذلك كانت أهم الطبقات المصرية على عهد البطالمة . وكانت تلى الأرستقراطية الوطنية طبقة المحاربين ، وكانت محدودة العدد فى عهد البطالمة ، مهملة الشأن فى الشطر الأول منه ، ثم تحسنت حالها فى الشطر الثانى(٣) . وبعد هذه الطبقة كانت تجىء طبقة الموظفين ، وكانت تتألف بوجه عام من صغار الموظفين فى الإدارات المحلية . وكان يأتى فى مؤخرة الطبقات الإجتماعية ملايين المصريين الذين كان منهم الزراع والصناع والتجار والعمال ، وقد استغلهم البطالمة والإغريق أسوأ استغلال ، وفرضوا عليهم أثقل التبعات والالتزامات ، فلم يكن على شىء من اليسر من هذه الملايين إلا نفر قليل . وكان بعض أولئك النفر القليل زراعاً ناجحين ، واتاهم التوفيق مرتين : إحداهما فى أعمالهم الزراعية ، والأخرى فى الحصول على إذن من الحكومة باستصلاح بعض الأراضى وزرعها كروماً أو فاكهة ، وبذلك أصبحوا فى عداد أرباب أراضى الإمتلاك الخاص . أما البعض الآخر ، فكانوا أولئك الصناع الناجحين الذين لم تحتكر الحكومة صناعاتهم احتكاراً كليا ، وبذلك لم تغلق دونهم باب الكسب إغلاقاً كاملاً(٤) .

ونستخلص من الأدلة الطفيفة التى لدينا عن التعليم : — أولا ، أن الأمية كانت فاشية بين المصريين على عهد الفراعنة ، وبطبيعة الحال لم يعن البطالمة بنشر التعليم بينهم ، لأن نشر التعليم يساعد على تنبيه الوعى القومى ومطالبة الأفراد بحقوقهم ، ويؤدى حتما إلى رفع مستوى المعيشة ، وهو

(١) Jouguet: in B.I.F.A.O., XXX, p. 519, fn. 1.

(٢) Jouguet: in B.I.F.A.O., XXX, p. 515.

(٣) Cf. Rostovtzeff : op. cit., pp. 729-9.

(٤) إبراهيم نصحي ، ص ٧٥٨ — ٧٥٩

ما كان البطالمة يحرصون على تفاديه تحقيقاً لأهدافهم الأنانية[١] . يضاف إلى ذلك أنه إذا كانت الغالبية العظمى من المصريين لم تقبل على التعليم فى أزهى عصور حكامها الوطنيين ، عند ما لم تكن مرهقة بمثل ما أرهقت به فى عصر البطالمة ، فإننا نستبعد أنها وجهت أى عناية تذكر إلى التعليم ، عند ما كانت فريسة للبؤس على عهد طغاتها الأجانب . ونستخلص ثانيا ، أن المدارس المصرية على عهد الفراعنة كانت على الأقل منذ عهد الدولة الحديثة نوعين : — أحدهما المدارس الملحقة بمصالح الحكومة الرئيسية لتعليم الأولاد القراءة والكتابة وتدريبهم على أعمال الحكومة[٢] ؛ والنوع الآخر مدارس المعابد[٣] ، فقد كان لكل معبد مدرسته ومكتبته . ولا شك فى أن هذه المدارس كانت أعرق من المدارس الحكومية وأرقى منها ، لأن المنشآت الدينية أقدم عهداً من سائر المنشآت ، ولأن الكهنة كانوا أكثر الطبقات المصرية علماً ، ولأن الديانة كانت تلعب دوراً كبيراً فى حياة المصريين القدماء . ولا عجب إذن أن كانت أشهر مدارس مصر القديمة طراً مدرسة معبد هليوبوليس التى ذاع صيتها فى العالم القديم ، فحج إليها الكثير من فلاسفة الإغريق وكان أفلاطون من بينهم[٤] .

ولا يبعد أن المدارس الحكومية قد بقيت فى عهد البطالمة ، وبما أن اللغة الإغريقية قد أصبحت عندئذ اللغة الرسمية فى البلاد ، فلا شك فى أنه قد فرض تدريسها فى هذه المدارس ، وإن كنا نستبعد أنه قد أبطل تعليم اللغة المصرية فيها ، وذلك لأن الهيروغليفية والديموطيقية بقيتا مستعملتين عندئذ ، لا على جدران المعابد ونصب الموتى فحسب ، بل كذلك فى اللوائح والقوانين ، وخاصة ما كان منها متعلقاً بشئون الضرائب[٥] . فلا بد إذن من أنه قد فرض على طبقة الموظفين المصريين تعلم اللغة الإغريقية ، لكن الشك لا يخامرنا فى أن أغلب أولئك الموظفين كانوا لا يتذوقون شيئاً من الآداب الإغريقية ، وفى أن حظهم من الحضارة الإغريقية كان تافهاً . ولا بد

(١) راجع إبراهيم نصحى ، ص٦٤٨ وما بعدها

(٢) Erman-Ranke: Aegypten U. Aeg. Leben in Altertum, pp. 374 ff.

(٣) Dawson: The Age of the Gods, pp. 76-7, 112-3, 123, 132.

(٤) Encycl: Americana, vide Heliopolis.

(٥) Schubart : Einfuhrung,p.307.

من أن مدرسة الجيش كانت إحدى المدارس الحكومية ، ولا يبعد أن الإغريقية كانت تدرس فيها أيضاً ، وأن حظ أبناء هذه المدرسة من الثقافة والحضارة الإغريقية لم يختلف كثيراً عن حظ أبناء سائر المدارس الحكومية .

وإذا كان البطالمة لم يكلأوا مدارس المعابد برعايتهم ، وفقدت مدرسة هليوبوليس مكانتها القديمة إزاء عظمة جامعة الإسكندرية ، فلا شك فى أن المعابد المصرية ، أو على الأقل أكثرها ثراء ، احتفظت بمدارسها[١] . وإذا كانت الإغريقية قد اقتحمت طريقها إلى المدارس الحكومية ، فإننا نكاد نجزم بأن مدارس المعابد أوصدت دونها أبوابها ، وذلك لأن هذه المدارس كانت معاقل الثقافة المصرية ، واشتهرت باستمساكها بتقاليدها على مرّ العصور . ولعل مرد ذلك أن أقطاب هذه الثقافة كانوا رجال الدين ، وهم بطبيعتهم فئة محافظة ، كانت تعتبر أفرادها حراساً أوفياء على تراث الماضى . ولذلك لم تتغير تقريباً محتويات مكتبات المعابد فى عصر البطالمة — بل فى العصر الرومانى — عما كانت عليه من قبل[٢] . ولذلك أيضاً لا شك عندنا فى أن الثقافة المصرية لم تتأثر بوجه عام بالثقافة الإغريقية فى عصر البطالمة ، غير أننا لا نستبعد بل نرجح أن الكهنة النابهين أو الطامعين فى كسب الحظوة لدى البطالمة كانوا يستكملون مؤهلاتهم بتعلم الإغريقية على أيدى مدرسين خصوصيين . وقد أقبل كذلك على التعليم الإغريقى أفراد تلك الفئة القليلة من المصريين الذين واتاهم التوفيق فى نشاطهم الاقتصادى ، وأخذوا على عهد البطالمة الأواخر يعملون على صبغ أنفسهم بصبغة إغريقية ، طمعاً فى الفوز بمركز يعادل مركز الإغريق . ولعل أبناء هذه الفئة كانوا يتعلمون الإغريقية على أيدى مدرسين خصوصيين ، أو فى المدارس الإغريقية المنتشرة فى طول البلاد وعرضها من أجل تعليم الإغريق .

ويتضح إذن مما مرّ بنا أنه لما كانت الغالبية العظمى من المصريين أميين ، وكان حظ أبناء المدارس الحكومية من الثقافة الإغريقية تافهاً ، وكان النابهون من الكهنة وكذلك الوصوليون منهم أو من الزراع والصناع

---

(١) Encycl. Brit., ed. 11, vide Heliopolis.

(٢) Thompson : Ancient Libraries, Berkeley, California, 1940, p. 2.

الناجحين قليلى العدد ، فإننا نستطيع أن ندرك كيف أن تغلغل الثقافة الإغريقية بين المصريين كان محدوداً .

ومما يجدر بالملاحظة أن انتشار الثقافة الإغريقية هذا الانتشار المحدود بين المصريين ، كان فى النصف الثانى من حكم البطالمة ؛ إذ أنه عند ما ضعف البطالمة ، أخذ أواخرهم – وكذلك الإغريق – يتقربون إلى المصريين ، مما أفضى إلى نتيجتين : – إحداهما انتشار التعليم الإغريقى والآداب الإغريقية بين نفر من المصريين اكتسبوا تبعاً لذلك مركزا يعادل مركز الإغريق ، والنتيجة الأخرى تعدد حالات التزاوج بين الإغريق والمصريين ، وانتشار الأسماء المختلطة بين المصريين المتأغرقين والإغريق المتمصرين . ولا بد من أنه قد صحب ذلك أيضاً أن استبدل أولئك المتأغرقون بثيابهم المصرية ثياباً إغريقية . لكن إذا كان من المسلم به أن أغلب المصريين لم يعرفوا شيئاً من اللغة الإغريقية وآدابها ، وأنهم بطبيعة الحال لم يتزاوجوا مع الإغريق ، فلا بد أيضاً من أنهم لم يتخذوا جميعاً أسماء إغريقية ولا ثياباً إغريقية . وعلى كل حال ، فإن الثياب لم تكن فى أى عصر دليلا على حضارة مرتديها .

وينهض طراز الفن البطلمى دليلا قوياً على لون حضارة كل من العنصرين المصرى والإغريقى ، ومدى تأثر أحدهما بالآخر . وبسبب ندرة ما وصل إلينا من التصوير البطلمى ، فإننا سنقصر ملاحظاتنا على فنى العمارة والنحت . إن الغالبية العظمى من بقايا هذين الفنين تشير إلى احتفاظ كل من الفن المصرى والفن الإغريقى بخصائصه القومية ، طوال عصر البطالمة . هذا وإن كانت الآثار تشير إلى محاولات طفيفة تجاه مزج طرز الفنين ، لكنها كانت محاولات غير ناجحة . ومن ثم كانت البقايا التى تدل عليها قليلة فى عددها متواضعة فى قيمتها الفنية ، بالنسبة إلى بقايا الفن المصرى الخالص. والفن الإغريقى الخالص . فقد كان كل من الفنين المصرى والإغريقى يختلف عن الآخر كل الاختلاف ، ولذلك كان من العبث مزجهما والفوز بمنتجات خليقة بما عُرف عن المصريين والإغريق من الذوق الفنى الرفيع . فلا عجب إذن أنه طالما احتفظ المصريون والإغريق بمستوى ذوقهما الفنى ، احتفظ كل من الفن المصرى والفن الإغريقى بطابعه

الخاص ، وكانت محاولات المزج بين الفنين محدودة[1] . لكن عند ما تدهور هذا الذوق فى خلال العصر الرومانى كثرت هذه المحاولات ، وفى الوقت نفسه قلت المبتكرات الفنية الجديرة بهذا الاسم .

إن الإغريق عند ما انتقلوا إلى مصر حرصوا على أن يحضروا معهم تقاليدهم وعاداتهم ، واستمسكوا بأساليب حياتهم وحضارتهم التى كانوا يعتبرونها أرقى الحضارات طراً ، ولا سيما أنه قد توافرت لهم فى مدن مصر الإغريقية — وفى الجاليات الإغريقية المنتشرة بين جنبات الوادى خارج هذه المدن — كل الأسباب التى تساعدهم على أن يحيوا حياة إغريقية خالصة . وإذا كان كثير من الإغريق قد تأقلموا ، فإن غالبيتهم العظمى بقيت بوجه عام إغريقية .

ومن ناحية أخرى استمرت الكثرة العظمى من المصريين تعيش بوجه عام ، كما كان أجدادهم يعيشون . فقد استمسكوا هم أيضا بعاداتهم وتقاليدهم ودياناتهم ، واعتزوا بحضارتهم القديمة المجيدة التى لم يكن قد مضى عندئذ وقت طويل منذ كانت أعظم حضارة فى العالم القديم ، بل حتى عهد قريب كان الإغريق أنفسهم يحجون إلى مصر للاغتراف من مناهل تلك الحضارة . وإذا كنا لا نزال حتى اليوم نفاخر بحضارة أجدادنا على الرغم من تقادم عهدها ، فإننا لا ندهش إذا كان أجدادنا فى عصر البطالمة — أى منذ اثنين وعشرين قرناً تقريبا — يزهون ويفاخرون ويتمسكون بحضارة أجدادهم .

وبعد فإننا نستطيع أن نستخلص مما أوردنا أن قيام حضارتين مجيدتين — كالحضارة المصرية والحضارة الإغريقية جنباً إلى جنب — كان طبيعياً أن يؤدى إلى التقائهما فى بعض النواحى . لكن استمساك كل من أهل هاتين الحضارتين بحضارتهم حال دون اقترابهما ، وامتزاجهما امتزاجاً كليا بحيث تتغلب إحداهما على الأخرى . حقاً كانت الحضارة الإغريقية أرقى حضارة فى العالم يومئذ ، بل كانت حضارة حكام مصر ؛ لكن الحضارة المصرية كانت حضارة عريقة ، وحضارة أمة أثبتت فى كل أدوار تاريخها الطويل قوة حيويتها وشدة استمساكها بتقاليدها ، فلم يفلح غازٍ من غزاتها العديدين

(١) Noshy : The Arts in Ptolemaic Egypt, p. 142.

ئ أن يفرض عليها طابعه الخاص . ويجب ألا يغرب عن البال أنه إذا كان فى وسع أى حاكم قوى أن يدخل فى دولته ما يحلو له من نظم الحكم والقوانين والإصلاحات الاقتصادية ، وأن يعلم جنوده ما يشاء من فنون الحرب ، وأن يجعل لغة بعينها اللغة الرسمية فى البلاد ، فإن هذا الحاكم مهما توافر له من السلطة المطلقة لا يستطيع أن يفرض حضارة جديدة على رعاياه ، ولا سيما إذا كانت لهم حضارة قومية عريقة قوامها معتقدات دينية متغلغلة فى نفوسهم حتى الأعماق .

إبراهيم نصحى

غارات النورمانيين على الأندلس

بين سنتي ٢٢٩ و ٢٤٥ هـ – ٨٤٤ و ٨٥٩ م

وسفارة يحيي الغزال إلى ملك النورمند فى سنة ٢٣٠هـ / ٨٤٥ م .

١

عبد الرحمن الأوسط وعصره

حينما تولى الأمير عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالأوسط العرش كان الأندلس الإسلامى قد سلخ من عمره قرناً وإحدى عشرة سنة . وكانت الإمارة الأموية الأندلسية قد خلفت وراءها ستاً وستين سنة ، وهما فترتان قصيرتان لم يكد أى قطر إسلامى آخر يحقق خلالها شيئاً ذا بال ، فقد كانت مصر مثلاً إذ ذاك ولاية إسلامية تابعة للخلافة العباسية لم تظهر بعد شخصيتها ، وكان أهلها لا يزالون يتحسسون طريقهم إلى الوعى الذى لن يظهر بصورة واضحة بعض الشيء إلا فى ظلال الطولونيين ، بعد ذلك بنحو نصف قرن . أما الأندلس الإسلامى ، فكان قد أيفع فى ذلك الحين واشتد عوده ، وظهرت شخصيته القوية ونزعة أهله القومية التى حفزتهم إلى هذا النضال المجيد الذى حملوا عبئه دفاعاً عن قطرهم ، من غارات نصارى الفرنج فى الشمال الشرقى ونصارى الإسبان فى الشمال الغربى .

ولعل قطراً إسلامياً آخرلم يسر فى طريقه بخطى ثابتة ، وعن وعى ناضج ، كما فعل الأندلس الإسلامى ، منذ قيام الإمارة الأموية سنة ١٤٠ هـ /٧٥٦ م ؛ فقد استطاع عبد الرحمن الأول أن يقضى على عناصر الفوضى ونزعات الانفصال التى كانت تملأ أذهان العرب والبربر الذين اقتطعوا لأنفسهم نواحى الأندلس وأرادوا الاستقلال بها ، على عهدهم إذا لم يقسرهم سلطان حازم على الوحدة والطاعة والنظام ، وقضى فى ذلك ثلاثاً وثلاثين سنة لم يعرف خلالها للراحة طعماً ، إلا خلال ثلاث سنوات متفرقة يعينها المؤرخون بالذات .

ثم أقبل ابنه هشام ، فجعل همه القضاء على أطماع النصرانية فى الشمال ؛ وأقبل بعده الحكم بن هشام ،وكان شاباً مرحاً طروباً للحياة ، فحسب الأندلسيون أنهم بالغون فى عهده ما أعجزهم بلوغه فى أيام أبيه وجده ، واستخفوا به ووثبوا به هذه الوثبة الخطرة التى تعرف « بثورة الربض » ، فألهبت هذه الوثبة شرارة العبقرية الكامنة فى نفسه ، فتصدى لها بحزم وثبات ، وقضى عليها ، وأعاد أهل الأندلس إلى صوابهم . وحينما انتهت حياته فى ذى الحجة سنة٢٠٦ هـ — ٨٢٠م استطاع الحكم أن يسلم ابنه عبد الرحمن بلداً هادئاً وادعاً ، تشرئب نفوس أهله إلى فترة من الأمن والسلام ، ليريحوا أنفسهم من قلاقل السنوات الماضية .

وكان عبد الرحمن نفسه شاباً ذكياً متفائلا بالحياة ، يعرف كيف يستمتع بأطايبها دون أن يخلد إلى الخمول والترف ، فكان على انصرافه إلى اللهو المعتدل يقظاً يرقب كل شيء بعين الواثق من نفسه المستعد للنهوض إلى الأهوال إذا تداعت . . . وهبت على رعيته نسمات من خلقه ، فانصرفت إلى العمل والدرس والاستمتاع بالحياة ، وكثر ورود المشارقة إلى الأندلس ، حاملين الخير الكثير والعلم الكثير . وأخذ الشعب الأندلسى الذى نشأ من مزاج من العرب — بذكائهم الفطرى وشجاعتهم واعتزازهم بأنفسهم — والبربر بدأبهم على العمل وصبرهم على المضانك وإخلاصهم لما يؤمنون به ، والإيبيريين الرومان بما عرف فيهم من شجاعة وشدة مراس وميل إلى الإبداع الفنى ، أخذت مواهب هذا الشعب تتجلى خلال النصف الأول من القرن الثالث الهجرى (النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى) وقامت دولتهم زاهرة ، بين عالم إسلامى شرقى منهار متفكك يسير نحو الفوضى والاضطراب ، وعالم أوربى نصرانى غربى انحلت وحدته وسادته الفوضى من جديد بعد انهيار الدولة الشرلمانية وتقسمها بمعاهدة ڤردان سنة ٨٤٣ م ، ولعل مؤرخاً لم يجمل وصف حال البلاد الأندلسية حينما صارت أمورها إلى عبد الرحمن الأوسط بمثل ما قاله صاحب الأخبار المجموعة : « ... وألفى الملك قد مُهد ووطد ، فخلا بلذاته وانفرد بشهواته ، فكان كداخل الجنة التى جمع فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين[1] » . . . فأتيحت لعبد الرحمن الداخل الفرصة لينهض بالعمل الذى أجمله ابن الأبار حين قال : « وهو الذى استكمل فخامة الملك

(١) الأخبار المجموعة ، ص١٣٥.

بالأندلس ، وكسا الإمارة أبهة الخلافة ، وظهر فى أيامه الوزراء والقواد وأهل الكور ، وشيد القصور وجلب المياه من الجبل ، وبنى الرصيف على الوادى ،' وهو القائل متشوقاً ومفتخراً :

فقدت الهوى مذ فقدت الحبيبا فما أقطع الليـــل إلا نحيبا
ولمـــا بدت لى شمس النهـــا ر طالعة ذكرتنى « طروبا »

و « طروب » هى جاريته المفضلة العزيزة عليه بين نسائه ، وقد قال فيها عبد الرحمن شعراً كثيراً وأغدق عليها مالا كثيراً[1] .

وكان عبد الرحمن إلى جانب ذلك ذا إحساس فطرى بما ينبغى للملك وإدارة شؤون الدولة من سمت ونظام ، ولا يصور لنا هذه الملكة فيه قول عيسى بن أحمد الرازى : « إنه الذى أحدث فى قرطبة دار السكة » وضرب الدراهم باسمه ، ولم يكن فيها ذلك منذ فتحها العرب ، وفى أيامه دخل إلى الأندلس نفيس الجهاز من ضروب الجلائب لكون ذلك نفق عليه وأحسن لجالبيه ، ووافق انتهاب الذخائر التى كانت فى قصور بغداد عند خلع الأمويين ، فجلبت إليه ، وانتهت جبايته ألف ألف دينار فى السنة ، وهو الذى اتخذ للوزراء فى قصره بيت الوزارة ، ورتب اختلافهم إليه فى كل يو م ، يستدعيهم منه أو من يختص منهم ، أو يخاطبهم برقاع فيما يراه من أمور الدولة[2] » . وهى عبارة عظيمة الأهمية فى تاريخ النظم السياسية الأندلسية .

وكان الرجل يفهم واجب الحاكم حيال الرعية حق الفهم ، ولابن سعيد رواية تضع عبد الرحمن فى الرعيل الأول من أجلاء حكام المسلمين وأعرفهم بمصالح الرعية ، وذلك حيث يقول : « رفع له أحد المشتغلين بتثمير الخراج أن القنطرة التى بناها جده على نهر قرطبة ، لو رسم على الدواب والأحمال التى تعبر عليها رسم لاجتمع من ذلك مال عظيم ، فوقع : نحن أحوج إلى أن نحدث من أفعال البر أمثال هذه القنطرة ، لا أن نمحو ما خلده آباؤنا باختراع هذا المكس القبيح ، فتكون عائدته قليلة لنا ، وتبعته وذكره ألسن علينا . وهلا كنت نبهتنا إلى إصلاح المسجد المجاور لك الذى قد تداعى

---

(١) الحلة السيراء ، طبعة دوزى ، ص ٦٢ . وانظر رأى دوزى فى هذه الجارية فى :
•Dozy: Musulmans d'Espagne. 1, p. 309.

(٢) رواه ابن سعيد : المغرب (مخطوط دار الكتب) ، ح ٣ ، ص١٠٢ .

جداره واختل سقفه ، وفصل المطر مستقبل ؟ ولكن أبى الله أن تكون هذه المكرمة فى صحيفتك ! وقد جعلتُ عقوبتك بأن تصلح المسجد المذكور من مالك على رغم أنفك ، فيكون ما ينفق فيه منك ، وأجره لنا إن شاء الله[١] . . »

ولكن عبد الرحمن كان إلى جانب ذلك كله ليناً لا يعسر على أحد التسلط عليه ، فكان « نصر » الخصى صاحب سلطان واسع فى دولته ، يفعل ما يشاء ، حتى لقد بلغ به الأمر أن استهان بمولاه وحاول « سمه بشربة ، لولا أن نبه عليها عبد الرحمن ، فقال له : « اشربها أنت ! » فشربها وخرج ، فأشار عليه طبيبه بلبن العنز فلم يوجد حتى هلك[٢] » . وكانت « طروب » تسرف فى الدلال عليه ، فلا يتحرج من التذلل لها ؛ وكان الشوق إليها ربما دفعه إلى ترك الجيش الصادر إلى الغزو والعود إليها مسرعاً ، وكانت تبرم الأمور مع نصر الخصى[٣] » ، وكان يتبذل مع خواصه تبذلا يتنافى مع جلال مركزه : ومن دلائل ذلك ما ذكره ابن حيان : « أن الأمير عبد الرحمن كان مصغياً لأحكام التنجيم ، ولم يكن عنده من المنجمين مثل « ابن الشمر » ، فلما عاد عبد الرحمن ذات مرة من الغزو قرر أن يبيت خارج قرطبة فيدخلها من الغد فى موكب كامل ، فقال ابن الشمر : لتعلم أنك مغلوب على ذلك ! ولا بد لك الليلة من المبيت فى قصرك ! فقال : والله لادخلته ! فقال : والله لتدخلنه مكرهاً ، ولأكونن فى هيئتى شبهك فى طريقى إليه ، وسوف ترى » ، مما يدل على جرأة ابن الشمر واستطالته عليه فى الحديث . وكان يحيى بن يحيى الليثى فقيه الأندلس إذ ذاك يتصرف فى أمور القضاء تصرف المستبد الجرىء[٤] .

وكانت نتيجة هذا الإسراف فى اللين ، وهذا التبذل المفرط ، أن اختصم رجال الدولة على السلطان ، وجعل بعضهم يكيد لبعض ، وقد رأينا « نصرا » الخصى يدبر اغتيال الأمير ، وكانت الخصومة حامية بين زرياب المغنى ورجال الدولة ، وسنرى أنها ستشتد بين زرياب هذا ويحيى الغزال ، وستنتهى بنفى

---

(١) ابن سعيد ، المغرب ، جـ ٣ ص ١٠٧ ب ، ١٠٨ ا

(٢) ابن سعيد ، المغرب ، جـ ٣ ص ١٠٦ ب

(٣) المقرى ، نفح الطيب ، جـ ١ ص ٢٢٥ .

(٤) ابن سعيد ، المغرب ، جـ ٣ ، ص ١١٣ ا .

يحيى إلى المشرق ، وكان الأمير فى هم دائم من ناحية أبنائه حتى كان يحبسهم فى قصور بعيدة ويضع عليهم الأحراس خوفاً منهم(١) ، ويخيل لمن يقرأ أخبار هذه الفترة أنه فى بلاط بيزنطى تسوده الفتن والدسائس والتدبيرات .

ولا شك أن الحظ السعيد حالف عبد الرحمن ، فلم تضطرب عليه النواحى ، كما اضطربت على أبيه وجده ، وكما ستضطرب على ابنه محمد وحفيديه المنذر وعبد الله من بعده ، بل سادها هدوء يبدو لنا كأنه فاصل بين عهدين من الاضطراب الشديد . وربما كان لين عبد الرحمن ، وإسرافه فى الاستمتاع بثمرات جهود من سبقوه ، هو الذى أجج النار فى نواحى الأندلس على عهود هؤلاء الأمراء الذين أتوا من بعده . وكان أهل الأندلس فى هذه العصور من أميل الناس إلى الوثوب والخروج على الطاعة ، وكانت طبيعة بلادهم تواتيهم على ذلك . ولكن البلاد لم تكن هادئة تماماً على عهد عبد الرحمن ، ولا شك أن ابن سعيد المغربى قد بالغ فى إحسان الظن بعصره حينما قال : « وكان سعيداً . قال ابن فرج : ما علمت أنه خرج عليه مع طول أيامه خارج خلا ما كان من موسى بن موسى بن قسى بناحية الثغر الأعلى ، ولم يشغله النعيم ووصل البعوث إلى دار الحرب . وكان مكرماً لأصناف العلماء محسناً إليهم ، وكان يخلو بكبير الفقهاء يحيى بن يحيى كثيراً(٢) ويشاوره » . وقد بالغ ابن سعيد فى هذا القول ، لأن الواقع أن المؤرخين سجلوا لنا كثيرا من الثورات وحركات العصيان فى أيامه(٣)، ثم إن

(١) المقرى ؛ نفح الطيب ؛ جـ ٢ ص ٣٨٩ وما بعدها .

(٢) ابن سعيد ، المغرب ؛ جـ ٣ ص ١١٧٢ .

(٣) أوجز «جوستاف ديركس» أخبار الاضطرابات التى نشأت فى نواحى الأندلس على أيام عبد الرحمن فيما يلى : ثورة موسى بن قسى فى سرقطة وهزيمته لجند الأمير عبد الرحمن بمساعدة النفاريين ؛ واستقلال ماردة عن حكومة عبد الرحمن ، وثورة طليطلة وأهلها واستعصاؤهم على الطاعة رغم ما بذله عبد الرحمن وأبوه الحكم من جهود ؛ ثم استقلال طليطلة وإقليمها بين سنتى ٨٢٩ و ٨٣٧م ومحالفتهم أرودينو الأول ملك أشتريس ؛ والحرب المخربة التى ثارت بين القيسيين والمصريين فى إقليم مرسية ؛ ثم غزوات النورمانيين .

Gustav Dierks: Gesch. Spaniens von den fruehesten Zeite bis auf die Gegenwart p. 227.

النورمانيين هاجموا الأندلس على أيامه ، وهددوا الدولة الإسلامية تهديداً خطيراً ، لولا أن استطاعت حكومة عبد الرحمن ردهم عن البلاد بكفاية وحزم عظيمين ، وكان هجومهم أعظم ما تهدد مصير الدولة الأموية الأندلسية إلى ذلك الحين من أخطار .

٢

النورمانيون

نجد هؤلاء النورمانيين فى جميع مراجعنا العربية مذكورين باسم « الأردمانيين » أو « المجوس » . فأما التسمية الأولى فواضحة الدلالة ، فالأردمانيون هم النوردمانيون أى أهل الشمال ، وقلب النون إلى همزة فى أوائل أسماء الأعلام ليس بغريب فى لسان أهل الأندلس ، فهم يقولون مثلا « أربونة ». فى « نربونة » . وأما تسمية النورمانيين المجوس فلم أجد بين القدماء أو المحدثين من حاول تعليلها ، لأنهم لم يكونوا مجوساً ، وإن كان معظمهم فى ذلك الحين وثنيين ، فيهم من يعبد النجوم ومظاهر الطبيعة[١] . ولعل العرب قد أطلقوا عليهم هذه التسمية ، لأنهم كانوا يشعلون النار فى كل مكان يمرون به : كانوا إذا نزلوا بمكان وعسكروا فيه أشعلوا ناراً ضخمة فى معسكرهم ، وإذا فاجأوا بلداً أشعلوا النار فى مبانيه ونهبوا ما فيه ، ويغلب على الظن أن المسلمين حسبوهم من عباد النار فسموهم بالمجوس .

ويجمع المؤرخون الإسلاميون على أنهم ظهروا أمام سواحل الأندلس لأول مرة فى سنة ٢٣٠ هـ — ٨٤٤ م . ويحدد ابن سعيد تاريخ ظهورهم تحديداً دقيقاً فيجعله يوم « الأربعاء لأربع عشرة خلت من المحرم[٢] من هذا العام » (٢٣٠هـ سبتمبر ٨٤٤م) ، وقبل أن نمضى فى تتبع غزواتهم فى الأندلس يحسن أن نتتبعهم إلى بلادهم لنرى من أين أتوا بالضبط وأسباب طرقهم الأندلس فى ذلك التاريخ بالذات .

---

(١) Karl Weinhold: Altnordisches Leben, S. 244.
وانظر . ابن القوطية ، افتتاح الأندلس ؛ ص ٦٦ .

(٢) ابن سعيد ، المغرب ؛ ج ٣ ص ١٠٦ ا .

من أين أتى النورمانيون الذين أغاروا على الأندلس ؟ يعرف النورمانيون فى التواريخ الأوربية باسم الفايكنجز *Vikings* ، وهى كلمة مشتقة من لفظ *Vik* أى الخليج أو « الفيورد » ، ويراد بذلك عادة أولئك القرصان الملاحين الذين يأوون إلى الخلجان ، ويستخدمونها كمراكز يشنون منها الغارات على ما يجاورها[١] . ومواطنهم الأولى فى شبه جزيرة اسكنديناوة (السويد والنرويج) ، وشبه جزيرة چوتلند ، وما يجاورها من الجزائر (دانيمرقة) . وهم جنس آرى قديم سكن هذه النواحى منذ أزمنة سحيقة فى القدم ، وقد ذكرهم يوليوس قيصر فى بعض كتاباته فى القرن الأول قبل الميلاد ، ولكنهم لم يظهروا على مسرح التاريخ إلا من أوائل القرن السادس الميلادى . إذ قامت حرب بينهم وبين الفرنجة[٢] .

ومنذ أوائل القرن التاسع الميلادى ، أخذت أعداد النورمانيين النازلين فى « جوتلاند » — وما يحيط بها من الجزائر — تتزايد تزايداً دفعهم إلى التماس المخرج فيما يجاورهم من البلاد . وكان شرلمان فى حروبه مع السكسون قد أوغل فيما وراء الراين حتى وصل شلزويج[٣] ، فرده الدانيون (الدانماركيون) عن بلادهم ، والتحموا لأول مرة فى حرب مع الفرنجة وانتصروا عليهم ، فجرأهم انتصارهم عليهم على التقدم فى إمبراطوريتهم والتماس المخرج والمغنم فيها . وكانت زيادة السكان فى اسكنديناوة قد دفعت بالنورمانيين فى السويد والنرويج إلى الخروج إلى الغزو ، ولم يستطيعوا النزول بأراضى شرلمان ، فاتجهوا فى تيارين عظيمين نحو الشرق والغرب : عبر السويديون البلطيق ونزلوا عند مصب الدنيبر ، وعبر النرويجيون بحر الشمال إلى جزائر « شتلاند » و « فارو » و « إيرلندا » ، وتوقف اندفاع نورمان دانيمرقة إلى الجنوب حتى إذا مات شرلمان ، وأخذت إمبراطوريته تتفكك ، زال ذلك الحاجز الذى كان يحول بينهم وبين فرنسا وإسبانيا وبلاد البحر الأبيض المتوسط ، فانحدروا نحو الشرق والغرب والجنوب فى ثلاثة تيارات عنيفة لا يكاد يقف فى طريقها شىء .

ولكى نكوّن لأنفسنا فكرة عن قوة هجوم هؤلاء الشماليين ومدى التغير الذى كانوا قادرين على إحداثه فى البلاد التى لا يجدون فيها ما يمنعهم من

---

(١) Allen Mawer : The Vikings, Cambr. Med. Hist. III, p. 306.

(٢) John Danstrup : A Hist. of Denmark, p. 15.

(٣) Danstrup: op. cit. p. 17.

تثبيت أقدامهم على أرضها ، نذكر أن النورمانيين الذين خرجوا من السويد وعبروا البلطيق نزلوا عند مصب « الدنيبر » فى أوائل القرن الثامن الميلادى ولم يلبثوا أن أنشأوا لأنفسهم مركزاً كبيراً عند بحيرة « لادوجا » ، ومن ثم أخذوا يتوغلون فى الروسيا هابطين مع الڤولجا ، وأنشأوا بلداً كبيراً هو « هولمجارْت (نوفجورود) » وأسسوا مدينة « كييف » وسط جماعات الصقالبة (السلاف) التى كانت تسكن السهوب الروسية فى ذلك القرن . وكان يقود هؤلاء النورمانيين السويديين قائد عظيم قادر هو روريك *Rurik* ، فاتخذ من «كييف» و « نوفجورود » مركزين لأعماله ، وسيطر على الصقالبة فى هذه النواحى سيطرة بلغ من امتدادها أن لفظ روتسى *Ruotsi* — وهو الاسم الذى « أطلقه الفنلنديون على جيرانهم السويديين منذ أيامهم الإولى بحوض البحر البلطيق» — أصبح يطلق على الصقالبة الذين خضعوا لهم[1]. وعن « روتسى » نشأ لفظ « روس » *Ros* الذى عرف به صقالبة حوض الڤلجا والدنيبر من ذلك الحين . وقد ظل السويديون يحكمون حوض الڤلجا من سواحل بحر البلطيق إلى البحر الأسود وأسوار القسطنطينية بضعة قرون ، وحاصروا القسطنطينية أربع مرات (٨٦٠ و ٨٨٠ و ٩٠٧ و ٩١٤ م) وعلموا عشائر السهوب الروسية إنشاء الدول ، ووجهوا تاريخهم كله توجيهاً جديداً [2] .

وأما التيار النورمانى الذى خرج من النرويج واتجه غرباً ، فقد خرج من النرويج وبدأ ينوش سواحل إنجلترا وإيرلندا منذ أوائل القرن السابع ، حتى إذا بدأ القرن التاسع ازداد هجومهم عنفاً ، ولم يكن أقل من التيار السويدى الشرقى شدة ولا بعد أثر . فقد غزوا انجلترا ولم يلقوا مقاومة تذكر ، وكانت غزواتهم أول الأمر غارات سريعة لا تلبث أن تنقضى ، ثم أخذوا يستقرون على الشواطىء ابتداء من ٨٣٥ م ، وتشجع النورمانيون الدانيون ، فأقبلوا يشدون أزر بنى عمومتهم النرويجيين ، وعم طوفان غزواتهم معا انجلترا وإيرلندا بين سنتى ٨٥٠ — ٨٩٢ م حتى اضطر ملوك «وِسِكْس» إلى أن يتنازلوا لهم عن جزء عظيم من جنوبى غرب إنجلترا

---

(١) انظر . تاريخ العصور الوسطى تأليف فيشر وترجمة زيادة والعرينى ، القسم الأول ، ص ١١٥ . وعلى هذه الوتيرة انتقلت تسمية « العرب » من الفاتحين إلى كثير من الشعوب التى فتحوا بلادها كالمصريين مثلا ، فصاروا يسمون بالعرب أو أولاد العرب .

يمتد من لندن إلى تشيستر . ولم يرتد أذى النورمان عن إنجلترا إلا حينما نهض « ألفريد الكبير » ملك وسكس ، واستطاع هزيمتهم وتخليص إنجلترا من أذاهم حوالى سنة ٩٠٠ م [١] . أما فى أيرلندا ، فقد بدأت غزواتهم هناك منذ القرن السابع الميلادى : أقبلوا إليها من الشمال عن طريق جزائر « شتلند » « وفارو » ، وكان القائمون بها نورديون ، وقد أخذت هذه الغزوات أول الأمر شكل غارات سريعة : فكانوا ينزلون من مراكبهم حيث يجدون من السكان غرة يلتمسونها ، ويخطفون من القرى والمزارع ما يستطيعون حمله ثم يعودون إلى سفنهم . فلما أنسوا من أهل الجزيرة ضعفاً ، جعلوا يستقرون على ضفاف مصبات الأنهار ، ويتخذونها مراكز يتوغلون منها إلى الداخل ، وربما ابتنوا حصوناً ليحتموا بها من الأهلين إذا ساروا إليهم . ثم أقبل الدانيون فى أثر إخوانهم النرويجيين ، وأخذوا يشنون على البلاد غارات عنيفة منذ سنة ٨٤١م ، وأخذت غاراتهم شكلا عنيفاً خطراً فى سنة ٨٤٢م ، حيث غزوا أيرلندا بأسطول مكون من ٣٥٠ سفينة ، واستولوا على « دبلين » ، واشتدت وطأتهم على الأديرة والكنائس خاصة ، فلم يدعوا ديراً أو كنيسة فى متناول أيديهم إلا نهبوها نهباً ذريعاً . وانتهى أمرهم إلى الاستقرار فى أيرلندا ، وفى شمالها بوجه خاص [٢] .

وحوالى سنة ٨٣٤ م ظهر من بين هؤلاء القراصنة النورمان المسيطرين على أيرلندا زعيم قوى يسمى « تورجايس *Turgeis* » غزا شمالى أيرلندا كله ، ونهب ميث *Meath* وكونوت *Cnnaught* ، واستطاع أن يسود الجزيرة وينشر فيها وفيما يجاورها من النواحى رعبه وأذاه ، وبلغت قوته أوجها سنة ٨٤١ م حيث نهب دير أرماغ *Abbacy of Armugh* . وكانت الحرب دائمة بينه وبين الأيرلنديين ، فما زالوا به حتى وقع فى أيديهم وأغرقوه فى « لوخ أويل» *Loch Owel* سنة ٨٤٥م ؛ واشتد أذى النورمان بعد موته حتى لم تسلم من عاديتهم ناحية من نواحى أيرلنده ، وفى سنة ٨٥٣م أقبل « أولاف الأبيض » ملك النرويج إلى هذه الجزيرة ، وأطاعه جميع من كان فيها من النرويجيين والدانيين والأيرلنديين [٣] .

---

(١) J. Danstrup: op. cit. p. 18.

(٢) Allen Mawer: op. cit. p. 311.

(٣) Allen Mawer, op. cit. p. 317.

ويذهب الأستاذ « ألين ماور » إلى أن سفارة يحيى بن حكم الغزال – التى سنتحدث عنها – إنما أتت إلى أيرلندا وقابلت هذا الزعيم تورجايس الذى ذكرناه ، ويذكر تأييداً لرأيه أنه كانت لتورجايس هذا زوجة تسمى أوتا *Ota* أو *Tota* ، يرجح أنها « طود » أو « تود » الملكة النورمانية التى تحدث عنها الغزال ، وقال فيها شعراً كثيراً كما سيجىء[١] .

ولكن « جيورج ياكوب » – الذى ترجم نص رحلة الغزال إلى الألمانية وعلق عليه – لا يذهب هذا المذهب ، ويقرر أن الغزال لا بد أن يكون قد لقى ملك النورمان فى ناحية من نواحى جوتلاند ، واعتمد فى ذلك على ما قرره فابريتسيوس قبله[٢] . ولم يحدد « دوزى » لهذا اللقاء مكاناً ، ولكنه يقرر أن النورمانيين الذين أغاروا على الأندلس كانوا دانيين ، وأنهم أقبلوا من دانيمرقة إلى بلاد الفرنج وأشتريس والأندلس ، فإذا كان الغزال قد سفر إلى ملك من ملوك النورمانيين ، فلا بد أن يكون هذا الملك ملك دانيمرقة ، ولا بد أن الغزال لقيه فى دانيمرقة نفسها[٣] . فلنلق نظرة على تطور الأحوال فى دانيمرقة فى ذلك الحين ، ولنتبع انسياح غارات النورمانيين الدانيين إلى الجنوب حتى وصلوا إلى بلاد المسلمين فى غرب إسبانيا وجنوبها .

٣

ظهور النورمانيين فى الأندلس

خلال السنوات الأخيرة من القرن الثامن الميلادى كان شرلمان مشغولا بحرب السكسون وزعيمهم « فيدوكند » . ولم يكن يفكر فى المساس ببلاد النورمانيين الدانيين فى جوتلاند ، لأن حروبه مع السكسون وانشغاله بتأمين دولته من غارات الجرمان فى كل ناحية ، واهتمامه بأمور إيطاليا والبابوية

---

(١) Allen Mawer: op. cit. p. 317.

(٢) انظر Georg Jacob: Arabische Berichte... p. 38 No. I
A. Fabricius, apud: Akten des Stockholmer Orientalisten Kongresses. Section 1, Fascicule 1, Leiden 1891, 8. 121 ff.

(٣) انظر : Dozy: Recherches, 1, pp. 250-251.

لم تكن لتسمح له بالفراغ اللازم للتدخل فى شؤون النورمانيين فى جوتلاند وما يليها شمالا . ولكن حدث أنهم آووا «فيدوكند» بعد انهزامه سنة ٧٧٧ م ، فغزا شرلمان جنوب جوتلاند ، وأنشأ حصناً عند « إيتزهو » *Itzhoe* على نهر الألب ، فكانت نتيجة ذلك أن قام « جوديفريدوس » *Godë fridus* (*Gotricus* =) ملك دانيمرقة فى ذلك الحين وجمع جيشاً وأسطولا وأرصدهما بناحية سلسفيك *Slesvik* (= *Schleswig*) ، ليؤمن بلاده من غارات الفرنجة ، وأخذ يستعد لمهاجمة شرلمان ، ولكنه توفى سنة ٨١٠ م قبل أن يشرع فى ذلك . وجاء بعده الملك هارولد *Harold* ، وأفاد من استعدادات سلفه ، وساعده الحظ بموت شرلمان سنة ٨١٤ م ، فجرؤ على السير برجاله نحو الجنوب لمغاورة نواحى بلاد الفرنجة ، وتوالت غارات النورمانيين على النواحى الشمالية القاصية من دولة الفرنج . واستشعر هؤلاء العجز عن رد أولئك الغزاة المغامرين الذين كانوا يضربون ضربات سريعة ثم يعودون إلى بلادهم ، وحاولوا أن يتقوا شرهم بتحويلهم إلى المسيحية كما استطاعوا اتقاء شر السكسون بنشر المسيحية بينهم ، ولكنهم لم يوفقوا إلى شيء كبير : على الرغم من أن «هارولد» نفسه دخل فى النصرانية سنة ٨٢٦ م(١) . وزادت غارات الدانيين على بلاد الفرنجة عنفاً خلال العشرين سنة التى تلت موت شرلمان ، لأن أبناءه احتربوا من بعده ، وحينما استقر الأمر للملك لوثار بن لويس التقى فى دولة الفرنجة صالح « هارولد » على أن يسكت عنه مقابل إعطائه جزيرة فالخيرين *Walcheren* . ولم يكف الدانيون عن مغاورة بلاد الفرنجة رغم ذلك . فأغاروا على جنوبى الموزل سنة ٨٤٢ م ، وأخذت غاراتهم على شواطئ دولة الفرنجة تمتد إلى الجنوب شيئاً فشيئاً .

ثم حدث نزاع على العرش الدانى بين « هارولد » وزعيم آخر من أقاربه يسمى « هوريك » أو هاريك ، واستطاع هذا الأخير أن يتغلب على هارولد ، وينفيه ، وينادى بنفسه ملكاً على نورمان الدانيمرقة سنة ٨٤٤م . ولما كانت غارات هؤلاء النورمان على الأندلس قد بدأت فى ذلك العام ، فلا بد أنها وقعت فى عهد « هوريك » هذا ، وقد ظل على العرش إلى

---

(١) John Danstrup: A Hist. of Denmark, p. 21.

سنة ٨٥٤ م[١] ، ومن ثم فهو الذى سفر الغزال إليه ولقيه كما سنرى .

وكان الدانيون قد احتلوا ناحية فريزلاند (*Friesland*) من شواطئ بحر الشمال ، واتخذوها مركزاً دائماً لهم يخرجون منه للإغارة على شواطئ بحر الشمال وسواحل دولة الفرنجة الغربية وما يليها إلى الجنوب . ففى سنة ٨٤٣ م ظهروا عند مصب « الموار » ، واحتلوا جزيرة « نوارموتييه *Noirmoutier* » واتخذوها قاعدة حربية بحرية ، وفى أواخر هذا العام وصلت مراكبهم مصب جَرُونه « الجارون » ، ودخلته وعبثت بالبلاد الواقعة على مجراه الأدنى ؛ وهكذا وصل النورمانيون إلى أقصى شواطئ الفرنجة ودوقية أكويتين ، ولم يبق أمامهم إلا الانسياح نحو الجنوب والإغارة على شواطئ إسبانيا الغربية . وقد بدأ هذا منذ أوائل سنة ٨٤٤ م .

ولما كانت دولة الدانيين تشمل جزءاً كبيراً من جنوب النرويج فى ذلك الوقت ، فقد كانت بعض طوائف الغزاة والقرصان النورمانيين التى قامت بهذه الغارات على سواحل أوربا الغربية آتية من النرويج ، وقد استنتج الباحثون ذلك من أن كتاب هذا العصر يسمون هؤلاء الغزاة فى بعض الأحيان باسم القستفالدنجى *West faldingi* ، أى القستفالديين ؛ وقستفلد *West fald* مقاطعة فى غرب النرويج كانت خاضعة للدانيمرقة فى ذلك الحين[٢] .

بدأت غزوات النورمانيين على شواطئ إسبانيا بغارة على سواحل « اشتريس » الشمالية ، فنزلوا بالساحل عند بلدة جيخون[٣] ونهبوا إقليمها . ثم واصلت سفنهم سيرها بحذاء الساحل حتى وصلت جليقية عند « برج هرقل » الذى كان يسمى إذ ذاك « فاروم بريجانتيوم *Farum Brigantium* » على مقربة من « كورونيا » (*Coruna*) ، وأغاروا على هذه الناحية[٤] . ولم يكادوا يتوغلون داخل جليقية حتى تصدى لهم ملك اشتريس ردمير الأول *Ramiro I* ، وأرسل للقائهم قوات أجبرتهم على العودة إلى مراكبهم ،

(١) Allen Mawer, op. cit. III. pp. 313-315
وهو يسميه Georg Jacob, op. cit. p. 38 No. 1. Eric Haric

(٢) Allen Mawer, op. cit. III. p. 316.

(٣) وأصل الاسم فى اللاتينية Gegio.

(٤) Espana Sagrada, XIX p. 13 sqq.

وحاربهم الأشتوريون فى البحر ، وأحرقوا سبعين سفينة من سفنهم[١] . فمضوا بما بقى لهم من المراكب وساروا بحذاء الساحل الغربى للأندلس الإسلامى ، فظهر وأمام أشبونة يوم الأربعاء أول ذى الحجة ٢٢٩ هـ — ٢٠ أغسطس ٨٤٤ م على ما ذكرناه .

* * *

ولم تكد مراكب النورمانيين تظهر فى بحر أشبونة « حتى ورد كتاب وهب الله بن حزم عامل الأشبونة (إلى عبد الرحمن الأوسط) يذكر أنه حل بالساحل قبله أربعة وخمسون مركباً من مراكب المجوس ، معها أربعة وخمسون قارباً . فكتب إليه الأمير عبد الرحمن وإلى عمال السواحل بالتحفظ[٢] » مما يدل على أن عبد الرحمن وعماله كانوا مقيمين على الأهبة دائماً حتى من هذه الناحية الغربية التى لم يتهددهم منها أى خطر إلى هذه الساعة ، بل لم يكن ينتظر أن يهددهم منها أى خطر .

ولم ينتظر أهل الأشبونة حتى تأتيهم قوات الأمير ، بل نهضوا للقاء الغزاة الذين استولوا على البلد وعاثوا فيه ثلاثة عشر يوماً ، وتمكن أهل الناحية من هزيمتهم وإرغامهم على العودة إلى سفنهم . فساروا فى البحر بحذاء الساحل يبحثون عن ناحية ينزلون بها ، وتفرقت سفنهم إلى جماعات صغيرة ، طرق بعضها « قادش » وبعضها « شُذونة » ، ولكن معظم مراكبهم تجمعت أمام مدخل « الوادى الكبير » ، لتقوم بغارة مركزة على إقليم إشبيلية فى أوائل سنة ٢٣٠ هـ — سبتمبر ٨٤٤ م .

ويصف ابن عذارى ظهورهم فى مياه إشبيلية وطرقهم إياها بقوله : « فخرج المجوس فى ثمانين مركباً كأنما ملأت البحر طيراً جوناً ، كما ملأت القلوب شجواً وشجوناً ، فحلوا بأشبونة ثم إلى « قادس » وإلى شذونة ، ثم قدموا على إشبيلية ، ونازلوها نزالا إلى أن دخلوها قسراً ، واستأصلوا أهلها قتلا وأسراً ، فبقوا بها سبعة أيام يسقون أهلها كأس الحمام[٣] » .

وقد أحدث ظهورهم فى بحر إشبيلية ودخولهم مصب الوادى الكبير

---

(١) Dozy: Recherches, I. p. 250.

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ؛ ج ٢ ص ٨٩ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ؛ ج ٢ ص ٨٩ . وقوله « طيرا جونا » إشارة إلى أشرعة مراكب المجوس : وكانت سوداء .

ذعراً شديداً بين السكان يصفه ابن القوطية بقوله : « ففروا بين أيديهم ، وأخلى أهل أشبيلية أشبيلية ، وفروا منها إلى « قرمونة » وإلى جبال أشبيلية ، ولم يتعاط أحد من أهل الغرب مقاتلتهم ، فاستنفر الناس بقرطبة وما والاها ، وخرج الوزراء بأهل قرطبة ومن جاورها من الكور ، وقد كان استُنفر أهل الثغر من أول حركة المجوس عند احتلالهم أول الغرب ، وأخذهم بسيط لشبونة ، فحل الوزراء ومن معهم بقَرمونة ، ولم يقدروا على مقاعرة القوم (يريد مقارعتهم) لشدة شوكتهم . حتى قدم عليهم أهل الثغر[1] » ، مما يفهم منه أن النورمان لم يستولوا على إشبيلية وحدها حينما طرقوها ، وإنما انساحوا فى بسيطها ، واستولوا على كثير من نواحيها . ثم يقول ابن عذارى بعد ذلك ، فأقاموا ثلاثة عشر يوماً ، (ووقعت) بينهم وبين المسلمين بها وقائع ، ثم ساروا إلى قادس ثم إلى شذونة ، فكان بينهم وبين المسلمين وقائع[2] » . ونزولهم بهذه الموانى الإسلامية الثلاثة فى فترة قصيرة يدل على أن أسطولهم — حينما وصل أشبونة — تفرق إلى شعب كثيرة ظل بعضها فى أشبونة ونواحيها ، وطرق بعضها الآخر ما مرّ به من الموانى على عهد النورمان ، حينما كانوا يغيرون على ناحية . ثم تجمع أسطولهم بعد ذلك فى مدخل الوادى الكبير ، ليقوم بغارة كبيرة على أشبيلية ونواحيها . وكانت أشبيلية إذ ذاك ثانى مدائن الأندلس الإسلامى ، وكان إقليمها من أعمر الأقاليم وأكثرها قرى ومزارع .

وتقوم فى مدخل الوادى الكبير جزيرتان إحداهما كبيرة تسمى « بالجزيرة الكبيرة » *Isla Mayor* ، والثانية « بالجزيرة الصغيرة » *Isla menor* ، وكانت تسمى كابتل *Captel* وعرّب المسلمون اسمها إلى « قبطيل » . وكانت هذه الجزائر الواقعة فى مصبات الأنهار خير ما يجتذب قراصنة النورمانيين إلى دخولها والإيغال فى البلاد عن طريق مجاريها ، وكانت « قبطيل » فى ذلك الحين عامرة بمراعى الماشية والخيل والمزارع ، فعجل النورمانيون بالنزول إليها فى ١٢ محرم سنة ٢٣٠ هـ — ٢٩ سبتمبر ٨٤٤ م ، وتحصنوا بها وأقاموا

---

(١) ابن القوطية : افتتاح ؛ ص ٦٣ .

(٢) ابن الأثير : الكامل (أورد هذا النص زاييل) ص ٢١ . ويؤيد ذلك ابن خلدون (زاييل ص : ٣٤ وما بعدها) ، والنويرى (نفس المرجع ص : ٣٢ — ٣٣) .

بها معسكراً (١) . وصعدت أربع من سفنهم فى النهر إلى مسافة أربعة أميال حتى أدركت قرية « قورية *Coria del Ria* » ، فأغاروا عليها ونهبوها ، وقتلوا من أهلها عدداً كبيراً .

وتوالت الأخبار بذلك إلى عبد الرحمن فعجل بالعمل ، فاستنفر الناس من قرطبة ، وقدم على الخيل عيسى بن شُهيد الحاجب ، فأسرع نحو إشبيلية ، وأردفه عبد الرحمن بخيل أخرى يقودها ثلاثة من أكبر قواده ، هم عبد الله بن كُليب ومحمد بن رستم (٢) وعبد الواحد الإسكندرانى ، فتلاحقوا بعيسى بن شهيد فى معسكره « بالشَّرَف » ، وهو حافة الهضبة المشرفة على أشبيلية وواديها ؛ ولم تحدد لنا المراجع المكان الذى عسكر فيه ابن شهيد بأكثر من ذلك . ولم يكتف عبد الرحمن بهذا ؛ بل أردف هذه القوات بأرسال من الرجالة . ثم تقدمت القوات إلى « قرمونة » ، فعسكرت بها استعداداً للقاء .

وكان النورمانيون قد تقدموا فى أثناء ذلك من « قبطيل » نحو الشمال ، وتجمعت سفنهم واخترقت البلد فى النهر ، وريع الأشبيليون حين رأوا سفنهم بأشرعتها السود تشق بلدهم ، وحاول بعضهم أن ينظم المقاومة فلم يستطع ، وأسرع عامل البلد ففر إلى قرمونة ، وأرسل الأشبيليون بضع مراكب لتلقى مراكب النورمانيين وتوقف تقدمها ، فاستقبلها هؤلاء بوابل من الأسهم النارية ، فلم تلبث النار أن اشتعلت بأشرعتها ، واحترقت المراكب . وعلى إثر هذه الهزيمة تسارع الناس إلى الهرب من البلد ، ونزلها المجوس ، وأخذوا ينهبونها نهباً ذريعاً ، وفتكوا بمن وجدوه من أهلها ، ومضوا على ذلك أسبوعاً كاملا ، لم يغادر النورمانيون خلاله طفلا أو شيخاً إلا قتلوه ، وأسروا عدداً عظيما حملوه فى السفن . فلما امتلأت أيديهم من الغنائم وسفنهم من الأسرى تحركوا بمراكبهم عائدين نحو « قبطيل » ، ليضعوا غنائمهم وأسراهم بها فى مأمن ،

---

(١) جاء فى « الروض المعطار » تحت مادة « قبطيل » : « بالأندلس ؛ مفرغ وادى إشبيلية فى البحر ويعرف أيضاً بالعسكر ، لأنه موضع عسكر فيه المجوس واحتفروا حوله خندقاً أثره باق إلى الآن » .

عبد المنعم الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٥٠ . وقد كتب « الروض » حوالى ٨٦٦ هـ ، مما يدل على أن آثار المجوس كانت باقية فى الأندلس إلى ذلك الحين .

(٢) أورد ابن عذارى اسم هذا القائد : ابن وسيم ، وقد صححتها من القطعة الصغيرة من « المقتبس » لابن حيان التى بين أيدينا .

فلما تم لهم ذلك عادوا إلى البلد ، فوجدوه قاعاً صفصفاً لا يعمره أحد ، خلا جماعة من أتقياء الشيوخ لجأوا إلى مسجد فقتلوهم ، فسمى هذا المسجد من ذلك الحين « مسجد الشهداء » .

ولما كان معظم رجالهم قد ركبوا من الخيل التى غنموها من قبطيل ، فقد نظموا أنفسهم فرقاً من الخيالة ، وأخذوا يغيرون على ما جاور أشبيلية من النواحى ، ولم يستطيعوا التصعيد فى النهر نحو قرطبة ، لأن التيار فيما يليها عنيف لا يصعد فيه بسهولة[١] .

وقد وصف لنا ابن القوطية ما فعله المجوس بجامع أشبيلية وصفاً أسطورياً بعض الشىء ، ولكنه يصور لنا أفاعيلهم فى البلد و « الوقع » الذى خلفوه فى نفوس أهل الأندلس ، قال : « وكان عبد الرحمن بن الحكم يرى فى نومه عند تمام جامع أشبيلية أنه يدخاله فيجد النبى صلى الله عليه وسلم ميتاً مسجى فى قبلته ، فانتبه مغموماً ، فسأل أهل العبارة عن ذلك ، فقالوا : هذا موضع يموت دينه . فحدث فيه إثر ذلك ما كان من غلبة المجوس على المدينة ... وحدّث غير واحد من شيوخ أشبيلية أنهم كانوا يحمون سهامهم فى النار ، ويرمون بها سماء المسجد ، فكان إذا احترق ما حول لسهام سقط ، وآثار السهام فى سمائه إلى وقتنا هذا ظاهرة ، فلما يئسوا من إحراقه جمعوا الخشب والخضر فى أحد البلاطات ليدخلوا النار وتتصل بالسقف ، فخرج إليهم من جانب المحراب فتى فأخرجهم عن المسجد ، ومنعهم دخوله ثلاثة أيام ، حتى حدثت الوقيعة فيهم . وكان المجوس يصفون الحَدَث اخرج لهم بجمال تام[٢] » .

وبلغ عبد الرحمن وقوف قواته عند « قرمونة » وتقاعسهم عن لقاء النورمانيين ، فأرسل فتاه « نصراً » فى قوات جديدة أقبلت من الكور ، وتجمعت فى قرطبة فى ذلك الحين[٣] ، وجعل إليه القيادة . فتقدم « نصر » حتى لحق ببقية القواد عند « الشَّرَف » ، وأقاموا جميعاً عند « قرمونة » لا يستطيعون أمام النورمانيين شيئاً .

---

(١) أكملت المعلومات التى تقدمها المراجع التى بين أيدينا بالتفاصيل الواردة فى مخطوطة « مقتبس » ابن حيان ؛ ومن :

Lévi Provençal: Hist. de l'Esp. Mus. 1, pp. 185 sqq.

(٢) ابن القوطية ، افتتاح ، ص ٦٦ .

(٣) ابن عذارى ، البيان ، حـ ٢ ص ٨٩ .

ولعل السبب فى عجز قوات عبد الرحمن عن لقاء هؤلاء القراصنة هو هذا الرعب الشامل الذى نشروه فى غرب الأندلس كله ، بسبب ما أنزلوه بأشبيلية من التخريب والقتل من ناحية ، وبسبب أسلوبهم فى مغاورة القرى والبلاد من ناحية أخرى ؛ فقد كانوا يرسلون قطعاً من الخيل فى غارات سريعة ، تضرب ضربات قاسية ، وتقتل وتنهب وتسبى وتحرق ، ثم تعود قبل أن يثوب للناس رأى فى النهوض إليهم . ثم إن استعمالهم النار فى الحرب روع الأندلسيين ترويعاً بالغاً ، فقد كانوا يرمون أسهماً من نار تنشر اللهب فى كل ناحية. وقد روعوا نواحى «الوادى الكبير » ، وأنزلوا بأهله فظائع شديدة . ولم تعرف القوات الإسلامية كيف تلاقى هذه الجماعات من القراصنة الذين يسيطرون على مدخل النهر وشواطئه ، ويشنون الغارات الخاطفة ثم يعودون إلى معسكرهم على الشاطىء أو فى الجزر ، فوقفوا فى « قرمونة » يتأملون هذه الكارثة دون أن يعرفوا السبيل إلى دفعها .

وبحث عبد الرحمن عن قوات جديدة يرسلها ، فلم يجد إلا قوات الثغر الأعلى التابعة لموسى بن قَسِىّ . وموسى هذا هو موسى بن موسى بن فرتون Fortunio ، ثانى الأمراء المسلمين من أسرة بنى قسى القوطية التى اعتنقت الإسلام ودخلت فى ولاء الخليفة الوليد بن عبد الملك . وكان موسى فى أول أمره عاملا على « تُطِيلة » Tudela ، وكان يتولى قيادة قوات عبد الرحمن الأوسط الذاهبة إلى الحرب فى بلاد إفرنجة ، مما يلى جبال البرتات (التى تسمى خطأ جبال البرانس) ، ثم اختلف مع أحد رجال عبد الرحمن ، وخلع الطاعة ، وحالف جاره ملك نَبَرّه (نقّار) ، واشترك معه فى حرب جيوش الإمارة الأموية ، وظل على هذا العصيان ، حتى وجد عبد الرحمن نفسه مضطراً إلى مصالحته ، ليستعين به على حرب النورمان[١] .

وبعث عبد الرحمن إلى موسى يطلب نجدته ، واضطر إلى التلطف معه «وتذكيره إياه بولائه للوليد بن عبدالملك ، وإسلام جده على يديه ، فلان

---

(١) انظر : سبستيان السلمنقى ، فقرة ٢٥ ــ ٢٦ .
ابن القوطية ، افتتاح ، ص ٦٣ .
ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ٦٣ ــ ٦٤ .
Dozy : Recherches, I, p. 211 sqq.

بعض الباين وقدم فى عدد كثيف [١] » .

فلما وصل موسى بن قسى بمن معه من قوات أهل « الثغر الأعلى » ، لم يشأ أن ينضم إلى قوات الإمارة وأهل الكور التى كانت معسكرة بناحية « قرمونة » ، فعسكر بمن معه على مقربة منها ؛ ولعل السبب فى ذلك هو أنه لم يرضَ أن يكون تحت راية « نصر » الفتى . ثم اجتمع هو ورجاله ببقية القواد الآخرين وسألوهم عن حركة القوم ، فأعلموهم أنها تخرج لهم فى كل يوم سرايا إلى جهة فِرِّيش [٢] ولَقَنْت [٣] ، وإلى جهة قرطبة ومَوْرُور (Moron) ؛ فسألوا عن مكمن بمكان يمكن [٤] أن يستتر فيه بقرب حاضرة إشبيلية ، فدُلوا على قرية كِنْتُش مَعافِر [٥] (Quintos) التى بقبلى إشبيلية ، فخرجوا إليها فى جوف الليل ، ومكنوا (يريد كمنوا) فيها ، وبها كنيسة أولية صعّدوا فيها « نظوراً » فى أعلاها على رأسه حزمة حطب . فلما انبلج الصبح خرجت لهم يد (أى طابور سريع الحركة) فيها ستة عشر ألفاً منهم يريدون جانب « مورور » ، فلما قابلوا القرية أشار إليهم (أى إلى المسلمين الكامنين) الناظور ، فتوقفوا عن الخروج إليهم حتى أبعدوا ، فلما أبعدوا قطعوا بينهم وبين المدينة ، وحمل السيف على جميعهم ، ثم تقدم الوزراء فدخلوا إشبيلية ، وألفوا العامل فيها محصوراً فى قصبتها ، فخرج إليهم وتراجع الناس [٦] » ، وبهذا استطاع موسى بن موسى بن قسى أن يقضى على هذه القوة النورمانية التى ذهبت نحو مورور ، ويبدو أنها

---

(١) ابن القوطية ، افتتاح ، ص ٦٣ .

(٢) ذكرها الإدريسى (انظر طبعة دوزى ، ص ٢٠٧) ، وهى فى منتصف المسافة تقريباً بين إشبيلية وقرطبة ، واسمها هنا معرب عن اللاتينية Firrix .

(٣) ليس المقصود هنا لقنت Alicante الميناء المعروف بشرق الأندلس ، بل Lecanto التى تسمى أيضاً Fuente de Cantos فى أقليم إشبيلية .

(٤) فى الأصل: « بمكان أن . . »

(٥) كنتش تعريب لاسمها باللاتينية Cuintos ، وقد رسمها عبد المنعم الحميرى قنتش بالقاف ؛ ومعافر نسبة إلى القبيلة العربية المعروفة .

(٦) ابن القوطية ، افتتاح ٦٣ ـ ٦٤ ، وهو يذكر أن عامل إشبيلية كان محاصراً فى قصبتها ، بخلاف ما يذكره ابن حيان من أن هذا العامل فر من إشبيلية إلى قرمونة لأول نزول النورمان فيها على ما ذكرناه . انظر :
Cf, Lévi-Provençal: Hist. de l'Espagne Musulmane, I, p. 154.

كانت أكبر السرايا النورمانية ، لأن مركزهم فى ناحية إشبيلية تأثر تأثراً ظاهراً بعد هزيمتها . وانتهز القواد فرصة هذا النصر وما أحدثه من الذعر بين القرصان فأسرعوا إلى إشبيلية ودخلوها وخلصوا عاملها ، وأخذ أهلها الذين كانوا قد فروا منها يعودون إليها .

أما السريتان النورمانيتان الأخريان اللتان اتجهت أولاهما نحو « لقنت » والثانية نحو قرطبة ، فقد بلغت الثانية قرية « بنى الليث » وعبثت بها .

وكان النورماند قد فارقوا إشبيلية عند دخول المسلمين إياها فلم يبق فيها إلا قوة صغيرة منهم . فلما بلغتهم أنباء هزيمة البعث الذى كان قد سار نحو « مورور » ، وأبصروا خيل المسلمين تدخل إشبيلية أدركهم الخوف ، فتركوا معسكرهم ، وصعدوا إلى مراكبهم التى كانت راسية فى مدخل « الوادى الكبير » عند جزيرة قبطيل ، وهناك أمنوا على أنفسهم من أن يقضى عليهم الأندلسيون قضاء مبرماً .

واستعدوا للدفاع عن أنفسهم بظواهر أشبيلية وما يليها من النواحى إلى الجنوب ، ومضت جماعة منهم . إلى « قورية » Coria del Rio على اثنى عشر ميلا من إشبيلية ، حيث قتلوا عدداً عظيما من أهلها . واتجهت جماعة ثالثة منهم نحو طَبْلاطه Tablada على ميلين من إشبيلية[1] ، وظهروا بالغداة بموضع يعرف « بالفخارين » ، وأقبلت قوات إسلامية نحوهم فصعدوا إلى سفنهم . فلما رأوا أن القوات الأندلسية تتبعهم وتضيق عليهم الخناق نزلوا إلى البر واعتركوا مع المسلمين ، فانهزم المسلمون وقتل منهم ما لا يحصى[2] » . ثم عاد المجوس إلى مراكبهم ، وسارت جماعة منهم إلى

---

(١) طلياطه Tabliata . هكذا رسمها ابن عذارى وابن الأثير والنويرى ، وزاد الأول أن المسافة بينها وبين إشبيلية اثنا عشر ميلا ، كما يقرر ذلك ابن عذارى وهو تحديد غير دقيق، لأنها أبعد من ذلك ، وهى على نهير صغير غربى الوادى الكبير (انظر مادة طلياطة فى الروض المعطار، ص ١٢٨) . وقد ذكرها ابن حيان فى المقتبس طبلاطه Tablada على هذه الصورة فى تاريخه ، وطبلاطه هذه تقع فعلا على اثنى عشر ميلا شمالى اشبيلية ، ولهذا عدلت إلى « طبلاته » على الرغم من أن بقية النصوص التى بين أيدينا تكتبها « طلياطة » فى منتهى الوضوح . وقد فضل ليفى بروفنسال صيغة ابن حيان أيضاً

Cf: Lévi-Provençal, op. cit. I. p. 154.

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ٩٠ .

« شذونة » Medina Sidonia ، فنزلوها ونهبوا ما استطاعوا نهبه منها ، وخرجت سرية منهم وطرقت قادش Càdis

وتسارعت قوات المسلمين تلاحقهم ، لتحول بينهم وبين الاستمرار فى الأذى ، وكانت جماعات منهم لا تزال تسيطر على الوادى الكبير عند إشبيلية ، وكان معسكرهم فى قبطيل حصيناً مليئاً بالغنائم والأسرى ، ولم يكونوا ينتظرون إلا أن يتراخى المسلمون فى تعقب آثارهم لكى يعودوا إلى التصيد فى الوادى الكبير ليصلوا إلى قرطبة وإقليمها العامر بالقرى والمزارع والعمران .

ورأى المسلمون أن خير وسيلة يقاومونهم بها هى أن ينصبوا لهم المجانيق على ضفتى النهر ، لترجم سفنهم بالحجارة إذا أرادت السير ؛ وأخذت هذه المجانيق ترمى مراكب المجوس بالحجارة . وتوافت الأمداد من قرطبة ، وتشجع المسلمون ، وشددوا التضييق على مراكب المجوس المحصورة فى النهر ، وأخذت مراكبهم تتراجع نحو الجنوب فى اتجاه إشبيلية ، والمسلمون رصد لها على شطى النهر يرمونها بالحجارة والنار .

وعول القائد محمد بن رستم على أن يرغم المجوس على النزول إلى البر وملاقاة المسلمين فى موقعة برية فاصلة ، فشدد الرمى بالمجانيق عليهم ، وأغرق كثيراً من سفنهم وقتل منهم نحو خمسمائة . فلم يسع المجوس إلا النزول إلى البر ، ودارت المعركة الحاسمة بينهم وبين المسلمين عند « طبلاطة » ، يوم الثلاثاء ٢٥ صفر ٢٣٠ هـ — ١١ نوفمبر ٨٤٤ م ، « قتل فيها منهم خلق كثير ، وأحرق من مراكبهم ثلاثون مركباً ، وعلق من المجوس بإشبيلية عدد كثير ، ورفع منهم فى جذوع النخل التى كانت بها ، وركب سائرهم مراكبهم[1] » .

وعلى أثر هذه الهزيمة الشديدة عول المجوس على اختراق إشبيلية فى النهر والتراجع إلى قبطيل . وتجشموا فى ذلك عناء عظيما ، حتى إذا بلغوا « قلعة الزعواق » شمالى إشبيلية توافت إليهم فلول إخوانهم الذين كانوا قد تفرقوا فى غارات على النواحى ، فأصعدوهم معهم فى السفن .

و « اجتهد المسلمون فى حربهم ، ومضوا يناهشونهم ويرمونهم بالحجارة

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٩٠

والأوظاف ، فلما صاروا تحت إشبيلية بميل صاحوا إلى الناس : إن أحببتم الفداء فكفوا عنا ! فكُفّ عنهم ، وأباحوا الفداء فيمن كان عندهم من الأسارى ، ففدى الأكثر منهم ، ولم يأخذوا فى فدائهم ذهبا ولا فضة ، إنما أخذوا الثياب والمأكول ، وانصرفوا عن إشبيلية[١] » .

وكانت جماعة منهم قد انقطعت عن البقية ، فلم تستطع اللحاق بها فشردت إلى ناحية لَبْلَة Niebla ، ومنها إلى الأشبونة ، حيث ركبوا السفن ، « وانقطع خبرهم » كما يقول ابن عذارى[٢] .

ولم تطل غارتهم تلك على غرب الأندلس من أشبونة إلى إشبيلية ونواحيها إلا نحو شهرين[٣] ، إذ بدأت فى أوائل المحرم سنة ٢٣٠ ، وانتهت فى أواخر صفر من نفس السنة (سبتمبر - أكتوبر ٨٤٤ م) . ففجأت الأندلس على غرة وعلى غير أهبة لحرب البحر . ولم يكن أهله ليتوقعوا أى هجوم من هذه الناحية الغربية ، فما هو إلا أن وطئ النورمان البلاد ، وأوغلوا فى ناحية الأشبونة ، حتى نهضت لحربهم الإمارة الأموية فى حزم وكفاية يدلان على انتظام أمورها وقدرة أميرها عبد الرحمن ورجاله على تلافى الأخطار من أية ناحية . فقد بدأوا فأرسلوا القوات القائمة فى قرطبة ، فلما استبانوا عدم كفايتها استدعوا قوات الكور وأرسلوها إلى ناحية إشبيلية ، وكان العدو قد انتقل إليها . فلما رأوا أن القواد الذين أرسلوا وقفوا أمام النورمانيين موقف المتحير الذى لا يعرف سبيل العمل ، عرفوا أنه ليس للأمر إلا رجال الثغر الأعلى ، ممن دربوا على حرب النصارى و « المجوس » ، وتعلموا كيف يلاقون السرايا الخاطفة فى حرب العصابات الجبلية التى كانت نارها لا تخمد بين أهل الثغر الإسلامى الأعلى ، مما يلى سرقسطه إلى الشمال ، ومن يجاورهم من أمراء النصارى . وقد كان عبد الرحمن ورجاله على الحق فيما ارتأوا ، لأن موسى بن موسى بن قسى لم يكد يصل إلى ناحية « قرمونة » حتى سأل عن اتجاهات سرايا النورمانيين ، وترصد لإحداها ،

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ، ص ٩٠ .
ابن القوطية ، افتتاح ، ص ٦٥ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ٩٠ .

(٣) يذكر ابن عذارى (نفس الصفحة) أنهم أقاموا فى ناحية أشبيلية اثنين وأربعين يوماً .

و « قتالها » كما يقول ابن القوطية . وأتاح ابن قسى بذلك الفرصة لقوات الإمارة ، فدخلت إشبيلية ، وطردت النورمان منها ، وخلصت عامل البلد من الحصار الذى كان يعانيه . وكانت هذه الضربة التى وفق إليها موسى بن موسى ابن قسى كافية لإشاعة الاضطراب فى خطط النورمانيين وإرغامهم على الانقلاب من الهجوم إلى الدفاع ، فإذا تم هذا فقد توالى الهجوم عليهم من كل ناحية ، وتفطن الأندلسيون إلى إمكان محاربتهم بنصب المجانيق على شواطىء النهر وقذف مراكبهم بالحجارة والنار ، وما زالوا بهم حتى ألجأوهم إلى النزول إلى البر وملاقاتهم فى موقعة برية حاسمة عند طبلاطة ، انهزم النورمانيون فيها انهزاماً كاملا . واضطروا إلى طلب الصلح ومغادرة البلاد .

ولو لم ينهض الأندلسيون للقائهم بهذه النجدة لأقاموا فى البلاد واستوطنوها — أو بعض أجزائها — ، كما فعلوا فى إنجلترا وإيرلندا وأجزاء كثيرة من دولة الفرنجة وسواحل البحر البلطى ونواحى روسيا ، وكما سيفعلون بعد ذلك فى ناحية إسلامية أخرى لم تستطع رد عاديتهم ، وهى صقلية التى استقروا فيها وأزالوا دولة الإسلام منها ، وأنشأوا بها دولة نورمانية شاملة جنوبى إيطاليا خلال النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) .

ولو جاز لنا أن نتخذ مقاومة النورمان مقياساً لقوة دول ذلك العصر من الناحية الحربية ، لاستطعنا أن نقرر أن دولة الإسلام فى الأندلس كانت أقوى الدول الأوربية فى ذلك الحين ، وأكثرها همة ونشاطاً وكفاية . وإذا ذكرنا ما كانت الخلافة العباسية تعانيه إذذاك من الاضطراب والفوضى ، بسبب ضعف الخلفاء وتواتر وثوب حكام النواحى وثورة الزنج ، وما كانت الدولة البيزنطية تعانيه إذذاك قبيل قيام الأسرة السورية (الإيسورية) ، لاستطعنا القول بأن دولة الأمويين فى الأندلس كانت أقوى دول العالم المعروفة إذذاك ، وأكثرها كفاية من الناحية الحربية ، فضلا عما امتازت به على غيرها من النظام الإدارى والنهوض الحضارى الذى أشرنا إليه ، وهذه كلها حقائق ذات أهمية لا تخفى قيمتها فى تاريخ الحضارة البشرية .

* * *

لم ينته أمر هذه الغارة النورمانية بمغادرة المجوس الأندلس وعودتهم إلى بلادهم ، بل خلفت فى تاريخ الأندلس الإسلامى آثاراً بعيدة المدى ، أولها أنها نبهت أذهان أمراء قرطبة إلى ضعف سواحلهم الغربية والجنوبية الغربية وتعرضها للغزوات من ناحية البحر ، فشرعوا فى تحصين بلاد هذه النواحى وتأمينها من كل مفاجأة ، وأخذوا ينشئون الرباطات على الساحل من « أشبونة » إلى « أرقُش » . وتسارع الأندلسيون ، بما عرف فيهم من حمية للدين وإقبال على الجهاد إلى هذه الرباطات وعمروها ، وقامت — من ذلك الحين — على هذا الساحل كله الرباطات يقيم فيها المرابطون المحتسبون ، والمحارس يقيم فيها الحراس يراقبون الشواطىء[١] .

واهتم عبد الرحمن ببناء سور إشبيلية ، ولم يكن لها سور قبل ذلك[٢] ، فأمن البلد بفضل هذا الإجراء . وسنرى أن النورمانيين لن يبلغوا منها مبلغاً كبيراً حينما يفجأونها بعد ذلك بعشر سنوات ، فى إمارة محمد بن عبد الرحمن .

وثانى هذه الآثار هو ميلاد البحرية الأندلسية ، وهو حادث عظيم الأثر فى ذاته . ويقول ابن القوطية بصدد البدء فى إنشاء هذه القوة البحرية : « واستعد الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، فأمر بإقامة دار صناعة بإشبيلية ، واستعد برجال البحر من سواحل الأندلس فألحقهم ووسع عليهم ، فاستعد بالآلات والنفط . فلما قدموا القدمة الثانية سنة ٢٤٤ هـ ، فى أيام الأمير محمد ، تلقوا فى مدخل نهر إشبيلية فى البحر ، فهزموا فحرقت لهم مراكب ، فانصرفوا[٣] » وهى عبارة على جانب عظيم من الأهمية ، إذ تعين ميلاد البحرية الرسمية الحربية لإمارة قرطبة ، وتبين لنا أن عبد الرحمن جمع لها الرجال من أهل الشواطىء ، وأغدق عليهم الأموال ، وأنشأ دور الصناعة وأخذ يبنى السفن ويسلحها بما ينبغى لها من الآلات والنفط . وقد تم إنشاء هذه البحرية فى زمن قصير جداً ، وسنرى أثرها عند عودة النورمانيين إلى الأندلس ، بل سيكون ميلادها بدءاً لسيطرة الأندلس الإسلامى على غرب البحر الأبيض المتوسط .

---

(١) انظر Lévi-Provençal: op. cit. I, p. 157. على أنه لم يذكر مرجعه عن نشأة هذه الرباطات فى ذلك الحين ، والغالب أنها من « مقتبس » ابن حيان .

(٢) ابن القوطية ، افتتاح ، ص٦٣ .

(٣) ابن القوطية ، افتتاح ، ص٦٧ ، وكذلك Lévi-Provençal, op. cit. I, p. 157.

وسيبدأ هذا الأسطول نشر سيادته بغزو جزائر ميورقة ومنورقة ويابسة ، بعد ذلك بسنوات قلائل ؛ وسيلعب هذا الأسطول الأندلسى دوراً خطيراً فى تاريخ الأندلس الإسلامى ، وفى تاريخ البحر الأبيض المتوسط كله ، لأن هذه النواة التى كونها عبد الرحمن لم تلبث أن تمت على عجل بفضل إقبال الأندلسيين من أهل الشواطىء على العمل فيها ، فما هى إلا سنوات حتى نشأت دار صناعة جديدة أخرى فى قرمونة[1] ، وأعقبتها دور جديدة فى لقنت ومرسية وبلنسية . وكثرت المراكب الحربية وأصبحت لها إدارة خاصة وقواد مختصون بشؤونها ، ولم تلبث أن سيطرت على غرب البحر الأبيض المتوسط حتى جزيرة صقلية وسواحل تونس . وأكمل المسلمون بذلك السيطرة على البحر الأبيض المتوسط كله شرقاً وغرباً ، وهذه فى ذاتها حقيقة تاريخية على أعظم جانب من الأهمية ، وسيكون هذا الأسطول عماد خلفاء بنى أمية فى السيطرة على المغرب ومناهضة الفاطميين . وبعبارة أخرى : كانت غارة المجوس هذه ميلاداً لقوة إسلامية كبرى ، وإرهاصا بحادث تاريخى بعيد الأثر .

٤

سفارة يحيى بن حكم الغزال
إلى ملك النورمانيين

وكأنما أراد عبد الرحمن أن يؤمن بلاده من نوازل هؤلاء القراصنة العتاة ، فلم يكد يلمس عند بعض رجالهم رغبة فى الصلح والمهادنة حتى قرر إرسال سفارة إلى ملكهم . ومراجعنا الإسلامية غامضة جداً فيما يتصل بالأسباب التى حدت بعبد الرحمن إلى إرسال هذه السفارة ، ويفهم من كلامها إجمالا أن ملك النورمانيين أرسل رسلا يطلب الصلح ، فيقول ابن دحية فى « المطرب » : « ولما وفد على السلطان عبد الرحمن رسل ملك المجوس بطلب الصلح ، بعد خروجهم من إشبيلية وإيقاعهم بجهاتها ثم هزيمتهم بها وقتل قائد الأسطول

(١) عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار ، ص ١٩٢ (مادة قرمونه) .

فيها ، رأى أن يراجعهم بقبول ذلك ، فأمر الغزال أن يمشي في رسالته إلى رسل ملكهم ...[١] » . ولسنا نستطيع تعرف الأسباب التى دعت ملك النورمانيين إلى مراسلة عبد الرحمن فى الصلح ، لأنه كان المعتدى ، ولأن بلاده لم تكن لتخشى شيئاً من ناحية الأندلس . ولكننا نعرف أن ابن دحية يأخذ أخباره — فى هذا الجزء على الخصوص — عن تاريخ لتمام بن علقمة الذى عاصر هذه الأحداث ، مما يجعلنا أميل إلى قبول كلامه فى هذا الموضوع ، وإن كان فى حاجة إلى ما يؤيده من المراجع الأخرى .

وربما كان هذا هو الذى حدا بليڤى بروڤنسال إلى إنكار موضوع هذه السفارة جملة ، لأنه لم يجد لها ذكراً مفصلا فى القطعة التى بين أيدينا من « مقتبس » ابن حيان متعلقة بتاريخ عبد الرحمن الأوسط ، وإليك رأيه فى موضوع هذه السفارة :

قال بعد أن ذكر تفاصيل سفارة يحيى الغزال إلى تيوفيل إمبراطور القسطنطينية : « ويذهب بعض مؤرخى العصور المتأخرة من المسلمين إلى أن يحيى الغزال هذا قد كلفه عبد الرحمن الأوسط بأن يسير فى سفارة جديدة مع زميله الذى صاحبه فى سفارته إلى تيوفيل — إلى ملك النورمانيين ، وذلك فى سنة من السنوات التى أعقبت عودته من القسطنطينية ، لكى يحول بين النورمانيين وبين أية محاولة جديدة للنزول فى الأندلس . وهم يزعمون أن الشاعر ورفيقه قد قاما بمهمتهما فى شمال أوربا بعد رحلة مليئة بالمخاطر ، وعادا إلى قرطبة بعد تسعة أشهر . وهذا الموضوع كله إن هو إلا أسطورة مخترعة من أولها الى آخرها ، وقصة هذه السفارة المزعومة إلى اسكنديناوة قد اخترعت خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر (الميلاديين) ، وتبدو لنا مشكوكاً فى صحتها شكاً شديداً إذا كلفنا أنفسنا عناء بحثها فى عناية : إن العناصر — العجيبة بعض الشىء — التى تتكون منها ، مستعار معظمها من فقرات سجلت منذ القرن العاشر من رحلة يحيى الغزال إلى الإمبراطورية البيزنطية . لقد كان مسلك الإمبراطور البيزنطى حيال قرطبة وغارة النورمانيين الجريئة على إسبانيا سبباً فى ذيوع تفاصيل خيالية معينة ، وانتهى

---

(١) ابن دحية ، المطرب ، ص ١٠٥ ب .
ونقلها المقرى ، نفح ، ج ١ ، ص ٦٣٠ .

الحادثان بالاختلاط والامتزاج فى أذهان الشعب فى الأندلس ، ونشأت عنهما أسطورة مشتركة أخذت تشوّه الحقيقة التاريخية شيئاً فشيئاً مع الزمن ...[١] » .

وواضح أن الأساس الذى بنى عليه پروڤنسال هذا الرأى هو أنه لم يجد فيما بين يديه من روايات ابن حيان وغيره من مؤرخينا شيئاً ذا بال عن سفارة الغزال إلى ملك النورمانيين ، وثانياً أنه وجد أن أهم مصدر لأخبارها هو كتاب « المطرب » لابن دحية الإشبيلى ، وهو من أواخر القرن الثانى عشر الميلادى . فأما عدم ذكر ابن حيان إياها فلا يقوم حجة ، فقد أغفل ابن حيان أشياء كثيرة أثبتها غيره ، وأثبت كذلك أشياء أخرى كثيرة من الأساطير الشعبية التى انتشرت بين الناس فى عصره[٢] . ولو كان إغفال أحد كبار مؤرخينا لذكر حادث من الأحداث يكفى لنفيه ، لكان ولا بد أن ننفى حوادث إغارات النورمانيين على الأندلس جملة ، لأن صاحب « الأخبار المجموعة » لم يشر إليها بحرف واحد . ولو كانت سفارة الغزال إلى ملك النورمانيين أسطورة شعبية أخذت تنمو منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، لأشار إليها ابن حيان كما أشار إلى غيرها من الوقائع الخيالية الأخرى التى أخذ أخبارها من أفواه معاصريه . ثم إن علاقات الأندلس الدبلوماسية مع النورمانيين انقطعت بعد ذلك بسنوات قلائل ، لتحل محلها الحرب والعداوة من جديد ، بينما اتصلت علائق الأندلس الدبلوماسية ببيزنطة وحفلت سجلات ديوان قرطبة بأوراقها ، فوجد ابن حيان ما ينقله عنها ، فى حين لم يجد فى السجلات الرسمية عن علاقات أمراء قرطبة بالمجوس إلا أخبار الحرب والقتال فأثبتها .

ولو أن سفارة يحيى الغزال إلى بلاط ملك النورمانيين كانت مجرد أسطورة نشأت عن سفارته إلى بلاط بيزنطة ، لوجدنا أبا الخطاب بن دحية والمقرى يطيلان الحديث عن الأولى ويوجزان فى الثانية . ولكننا نجد العكس تماماً ، فهما لا يذكران سفارة الغزال إلى بيزنطة إلا فى سطور ، فى حين أنهما يتحدثان صفحات كثيرة عن سفارة الغزال إلى ملك النورمانيين ؛ ولا يفسر هذا

---

(١) انظر .Lévi-Provençal, op. cit. I, 177-178

(٢) انظر الجزء الثالث من ابن عذارى — طبعة ليڤى پرفنسال .

إلا بأن السفارتين صحيحتان . ثم ما هو الرأى فى هذه الأشعار التى تنسب إلى الغزال ، وفيها ذكر « تود » الأميرة النورمانية ذكراً صريحا ؟ لا يمكننا القول بأنها قيلت أول الأمر فى « تيودورا » زوج الإمبراطور تيوفيل ، ثم وجهها الناس إلى « تود » بعد ذلك . وما القول فى هذه التفاصيل المادية التى يذكرها ابن دحية عن الأحوال فى بلاد النورمانيين ، وهى تفاصيل يؤيد صحتها العارفون بتاريخ النورمانيين القدماء ؟ وماذا كان يدعو الناس إلى تكلف تحديد طريق عودة الغزال عن طريق شنت ياقوب ، وهو طريق لم يكن مألوفاً لرحالة المسلمين ومسافريهم ؟ ثم ما الرأى فى أن الذى رافق يحيى الغزال إلى بلاد النورمانيين لم يكن هو « يحيى صاحب المنيقلة » الذى صاحبه إلى القسطنطينية ، بل رجل يسمى يحيى بن حبيب ، ولو كان هو صاحب المنيقلة لأشار إلى ذلك أبو الخطاب ، وقد كان « المقتبس » بين يديه ينقل منه ويراجعه ، كما هو ثابت من كلامه[١] ؟ .

لا نستطيع إذن أن نحكم على سفارة الغزال إلى ملك النورمانيين بأنها مجرد أسطورة ، بل لا مناص لنا من قبولها كحقيقة تاريخية ، وهذا لا يمنع من الظن بأن بعض تفاصيل سفارة الغزال إلى بلاط بيزنطة قد اختلطت بها ، وذلك أمر لا يقلل من أهميتها على أى حال .

* * *

فإذا انتهينا إلى ذلك استطعنا أن نمضى فى دراسة تفاصيل رحلة الغزال إلى ملك النورمانيين ، ونحب أن نضيف إلى ماقلناه فى هذا المقام شيئاً : هو أن هوريك ملك النورمان كان متصل العلاقات بمن عاصره من ملوك الفرنجة ، وكانت رسله تتردد إليهم بالكتب كما يقول « ألن ماور » فى مقاله الذى أشرنا إليه مراراً ، فتوجيهه الرسل إلى عبد الرحمن ليس بالأمر الغريب الذى ينكره الواقع . وما دام الرجل قد أرسل كتباً وسفارات إلى جيرانه ملوك الفرنجة ، فلماذا نستبعد أن يكون قد وجه رسلا إلى عبد الرحمن الأوسط أعظم معاصريه وأقواهم ؟ وليس بمستبعد أن يكون دافعه إليه مجرد

---

(١) راجع تفاصيل سفارة يحيى الغزال إلى بلاط الإمبراطور تيوفيل فى :
Lévi Provençal: Un échange d'Ambassades entre Cordoue et Byzance au IX. siècle. dans: Byzantion XII, 1937, p. 1-24.

الرغبة فى الحصول على بعض طرف الأندلس من الثياب والآنية ، وقد رأينا النورمانيين حريصين على الحصول عليها ، وكان فى الأندلس فى ذلك الحين من طرف الصناعة ولطائف الثياب والخيرات ما كان حرياً بأن يدفع ملك النورمانيين إلى الرغبة فى الحصول على بعضها ، وقد بعث إليه عبد الرحمن بشيء كثير منها ، فسر بها سروراً عظيما كما سنرى ؛ ونحن نعرف ما كانت عليه بلادهم إذذاك من قلة الخيرات وندرة المصنوعات ... ثم إنه جرى على أن يكتب إلى جيرانه بعد الغزوات ، ليبرئ نفسه من تبعاتها قائلا إن الذين قاموا بها كانوا جماعة من الخارجين على طاعته ، فلماذا نستبعد إرساله نفراً من رجاله إلى عبد الرحمن ، ليبرئ نفسه من أوزار ما فعل القرصان ببلاد الأندلس؟

ولا شك أن عبد الرحمن تلقى رسل ملك النورمان بسرور عظيم ، لأن الأندلس لقى من غاراتهم بلاء شديداً ، ولم يكن أحب إلى أمير مسالم كعبد الرحمن من اتصال سلمى بملكهم ، تكون نتيجته كفّ أذاهم وعدوانهم عن المسلمين . فلم يكتف بحسن استقبال رسل ملكهم ، بل رأى أن يسير إليه رجلا ذكياً حاضر البديهة لطيف المدخل كيحيى الغزال ، ليتعرف أمورهم ويكسب ودهم ، ويأتيه من خبرهم بالنبأ اليقين . ولا يبعد أن يكون عبد الرحمن قد عرف عداءهم مع الفرنجة وحروبهم معهم ، فأراد أن يجتذبهم إلى جانبه ، وقد كان الفرنجة قد نهضوا على أيامه يحاولون التوغل فى الأندلس وإحياء « الثغر الإسبانى » فى ناحية برشلونة . ولو جاز لنا أن نأخذ بحكم المنطق فى الحقائق التاريخية لقلنا إن دولة الإسلام فى الأندلس كانت أحوج إلى سفارة إلى ملك النورمانيين منها إلى سفارة إلى إمبراطور بيزنطة ، لأن الأول كان عدواً للأندلس جديراً بأن يتقى شره بالسفارات والألطاف ، فى حين لم يكن الثانى غير إمبراطور بعيد لا تربطه بدولة الإسلام فى الأندلس أية علاقة حقيقية (١) .

---

(١) والأستاذ ليفى بروفنسال نفسه يتساءل عن الدوافع التى دفعت الإمبراطور تيوفيل إلى إرسال سفارته إلى عبد الرحمن الأوسط ، على قلة ما كان يربطهما من المنافع الحقيقية ، ويناقش هذه الفكرة مناقشة طيبة ، ولكنه لم يستطع أن ينكر حدوث هذه السفارة ، لأن مصادرها العربية بين يديه لا تحتمل الشك.

Cf. Lévi-Provençal: Cordoue et Byzance au IX. siècle dans: Islam d'Occident... pp. 82-83.

وليس إلى الشك سبيل فى أن ملك النورمانيين الذى ذهبت إليه السفارة كان هوريك (أو هاريك = إريك) ملك دانيمرقة ، لا الزعيم تورجايس كما ظن « ألن ماور » . فقد كان الغزاة نورمانيين دانيمرقيين ، وفيهم جماعة نرويجية كما بينا ، وكانوا قد خرجوا أول الأمر من « فريزلاند » ، وكانت فى طاعة هوريك ، وتمادوا مع شواطئ الفرنجة وشواطئ اشتريس حتى وصلوا إلى شواطئ الأندلس . أما القول بأن يحيى الغزال سفر إلى « تورجايس » زعيم النورمانيين فى أيرلانده ، فلا يؤيده إلا أن الغزال سمى زوج ملك النورمانيين الذى لقيه باسم « تود » ، وهو قريب من « أوتا » أو « توتا » زوج « تورجايس » على الحقيقة ، وهو دليل ضعيف . وسنرى من تفاصيل رحلة الغزال أنه يستبعد أن تكون تود التى تغزل فيها الغزال زوجا لهوريك ، وأن الغالب أنها كانت مجرد أميرة كبيرة من أميرات بلاطه .

* * *

وقبل أن نمضى فى ذكر تفاصيل رحلة يحيى الغزال إلى دانيمرقة ، ينبغى أن نقف لحظات عند شخصية هذا الرجل الذى اختصه عبد الرحمن بالسفارات مع معاصريه من الملوك ، لأن ذلك يلقى ضوءاً على ما كانت حكومة قرطبة فى القرن التاسع الميلادى تتصوره من الصفات والخلال اللازمة لمن يسفرون بين الملوك ، ويصور لنا لذلك جوانب طيبة من الحياة الأندلسية فى قرطبة فى ذلك الحين .

يصفه ابن حيان فى المقتبس بأنه « كان حكيم الأندلس وشاعرها وعرافها » ، ويذكر المقرى « أن حسبه يرتفع به إلى بنى بكر بن وائل ، أى أنه كان من أبناء البيوت العربية الأصيلة » ، ويصفه تمام بن علقمة بالجمال والطول والعرض . ويبدو أن الرجل كان ذا جمال ظاهر ، لأن الناس لقبوه بالغزال لجماله ، وكان الأمير عبد الرحمن يعجب بحسنه ، فقد دخل عليه مرة فقال عبد الرحمن : جاء الغزال بحسنه وجماله .

وطلب أحد الوزراء الحاضرين إلى يحيى أن يجيز شعر الأمير فقال بديهة :

قال الأمـيـر مداعبـاً بمقاله   جـاء الغـزال بحسنه وجماله

(١) رواه المقرى فى نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٦٢٩ .

(٢) رواية ابن دحية فى « المطرب » ، انظر النص بعد ذلك .

أين الجمال من امرئ أربى على ... متعدد السبعين من أحواله[١]

مما يدل على أن الرجل كان محتفظاً بهيئته الجميلة رغم سنه العالية ، وكان جماله هذا من الأسباب التى حدت بعبد الرحمن إلى انتدابه للسفارة بينه وبين الملوك ، فقد حسن موقعه منهم وسهل عليه اجتلاب رضاهم ، وكان إلى جمال وجهه رجلا طويلا عريضاً « مجتمع الأشد » ظاهر الصحة كثير النشاط.

ومن الطريف أن معظم ما لدينا من أخباره يتصل بشيخوخته دون صباه وشبابه ، وأقدم ما لدينا من أخباره يرجع إلى ما بعد الأربعين من سنى حياته . وقد كان عمره سنة ٢٣٠ هـ خمسين سنة ، أى أنه ولد سنة ١٨٠ هجرية ٧٩٤ م فى مطلع إمارة هشام بن عبد الرحمن الداخل[٢] ، وأيفع على أيام الحكم الربضى ، واكتهل على أيام عبد الرحمن الأوسط . فكيف لم ترد عنه أخبار أو أشعار إلا بعد كهولته ؟ وكيف اتفق أن كل ما لدينا من هذه الأشعار لا يزيد على بضع قصائد ، بينما يحدثنا المؤرخون أن الرجل كان مكثراً يقول الشعر فى كل مناسبة ، بل إن المقرى يذهب إلى أنه ألف تاريخاً لأمراء الأندلس إلى عهده شعرا[٣] ؟ لا بد أن شعراً كثيراً لهذا الشاعر المفطور قد ضاع . ولا يصدق هذا عن الغزال وحده ، بل ينطبق على معظم شعراء الأندلس إلى أوائل القرن الخامس ، ولو جمعنا كل ما لدينا من شعر الأندلسيين فيما بين القرن الثانى والقرن الرابع لما ملأت كراساً متوسط الحجم .

يذكر المقرى أن يحيى الغزال « كان من كبار رجال الدولة[٤] » ، ولكنه لم يذكر لنا شيئاً عن الوظائف التى كان يتقلدها ، ولم يرد له ذكر بين أسماء القواد والوزراء والحجاب ، مما يدل على أنه كان دون هؤلاء

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ٩٥ — ٩٦ .

(٢) لا فى أيام عبد الرحمن الداخل كما يقول المقرى (ج ١ ، ص ٦٢٩) .

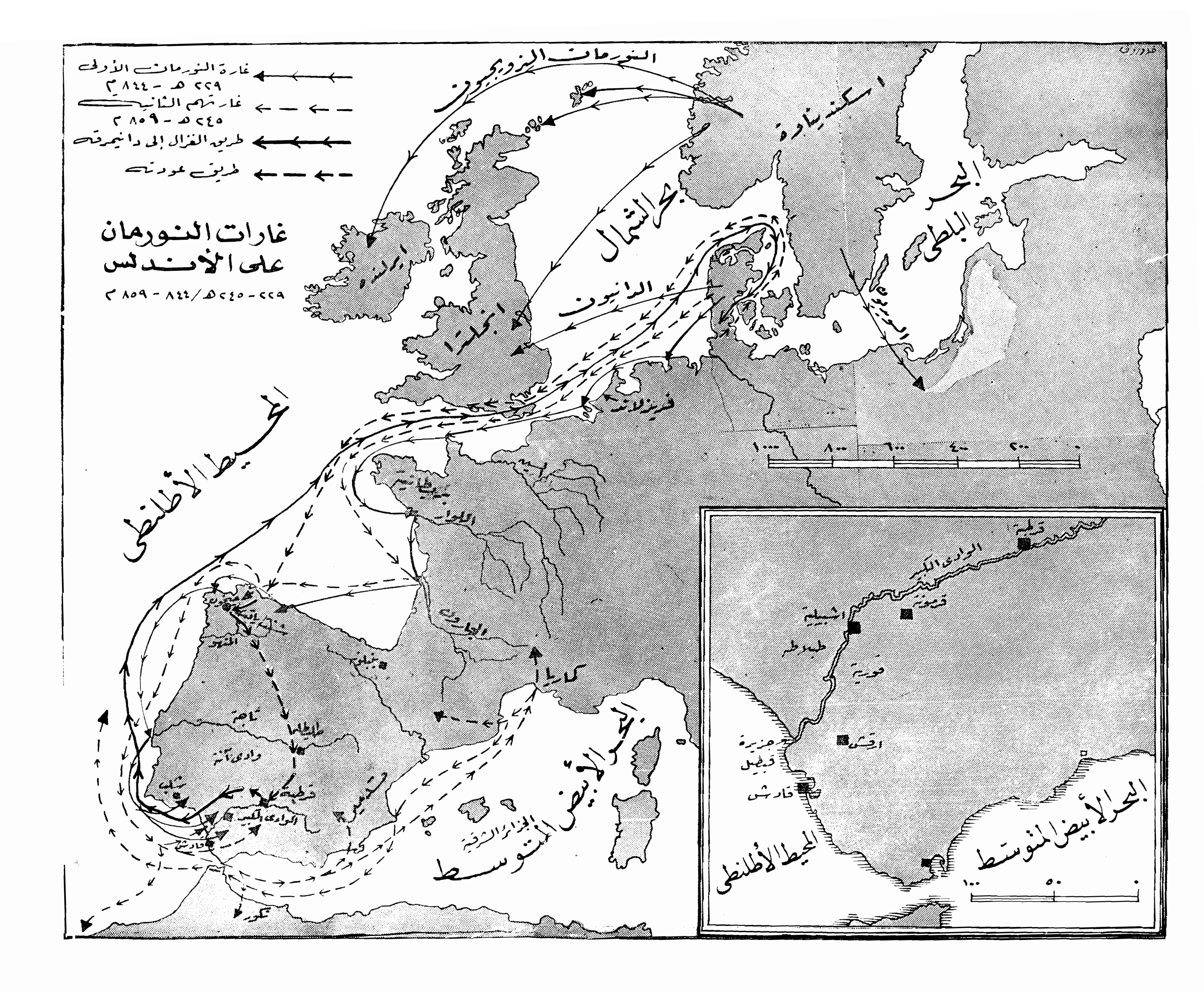
وللغزال بيت من الشعر يقول فيه :

أدركت بالمصر ملوكا أربعه ... وخامساً هذا الذى نحن معه

أى أنه توفى فى أيام الأمير المنذر .

(٣) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

(٤) المقرى ، نفح ، ج ١ ، ص ٢٢٣ .



غارات النورمان
على الأندلس
٢٢٩-٢٤٥هـ/٨٤٤-٨٥٩م
غارة النورمان الأولى
٢٢٩هـ - ٨٤٤م
غاراتهم الثانية
٢٤٥هـ - ٨٥٩م
طريق الغزال إلى دانيمرقة
طريق عودته
النورمان النرويجيون
اسكنديناوة
البحر البلطى
بحر الشمال
الدانيون
السويديون
أيرلندة
انجلترا
فريزلاند
المحيط الأطلنطى
كاريا
البحر الأبيض المتوسط
الجزائر الشرقية
طليطلة
قرطبة
لشبونة
الوادى الكبير
الوادى الكبير
قرمونة
اشبيلية
طبلوطة
قورية
وشقة
جزيرة قبطيل
قادش
المحيط الأطلنطى
البحر الأبيض المتوسط

مرتبة فى الوظائف الرسمية . ولأبى الخطاب بن دحية رواية تدل على أن يحيى بن حكم كان يتقلد الوظائف الإدارية فى الكور ، وذلك حيث يقول إن عبد الرحمن « كان ولاه قبض الأعشار ببلاط مروان واختزانها فى الأهراء »،ولم تكن تلك الوظيفة من الوظائف الكبرى على أى حال ، مما يدلنا على أن الغزال كان يتولى هذا النوع من الوظائف . وتدل بقية الخبر على أن الغزال كان رجلا رحيم القلب واسع الذهن حسن التصرف ، فقد اشتدت المجاعة وغلا السعر ذلك العام فى الأندلس ، فما كان من الغزال إلا أن « وضع يده فى البيع حتى أتى على ما كان عنده فى الأهراء ، ثم إنه نزل الغيث ورخص الطعام ، فأعلن السلطان بما صنع الغزال من البيع ، فأنكره وقال : « إنما نعد الأعشار لنفقات الجند والحاجة إليها فى الجهد فماذا صنع الخبيث ؟ خذوه بأداء ما باع من أثمانها واشتروا به طعاماً واصرفوه فى الأهراء إلى وقت الحاجة إليه[1] » . فرفض الغزال أن يدفع المال ، وعرض أن يرد مقادير الغلال التى تصرف فيها ، وثار الخلاف بين الأمير والغزال ، وانتهى الأمر بانتصاره ، وقال للأمير شعراً يسترضيه ، فأعجب به بعض حاشية الأمير وقالوا له :

« لقد أنصفك الغزال فى قوله :

لقد أحسن الله إلينـــا معا إن كـ ـان رأس المال لم يذهب

فإنه لو ذهب المال أيها الإمام أى ذمة كانت تفى به للغزال ، مع ما هو عليه من الإهمال[2] وقلة المال ؟ » . والعبارة الأخيرة تفسر لنا السبب فى قعود الغزال عن التقدم إلى الوظائف الكبرى ، فقد كان معروفاً بالإهمال والاستبداد برأيه . ثم إن الإشارة واضحة الدلالة على فقره وقلة ماله ، ولو كان ممن يتولون الوظائف الكبيرة لما كانت هذه حاله .

وكل ما يمكننا قوله عن مركز الغزال فى المجتمع القرطبى هو أنه كان من أولئك المساتير ذوى الحسب الذين وهبهم الله ملكة خصبة فى الشعر ، ونصيباً طيباً من العلم ، وشيئاً كثيراً من خفة الروح واللطف وحضور البديهة . فكان يلى الوظائف أحياناً ، ويخلد إلى الدعة ونظم الشعر والتردد على مجالس السلطان أحياناً أخرى ، فوصفوه بالحكيم ، بل بحكيم الأندلس فى عصره .

---

(١) و (٢) أبو الخطاب بن دحية ، المطرب ، ورقة ١٠٤ ا .

وانتشرت أحاديثه وذاعت دعاباته ، ويبدو أنه كان فى صباه ماجناً مفرطاً فى المجون ، لأن كثيراً جداً من شعره يدل على عدم تحفظ واستهتار . وكان هذا مما حببه إلى معاصريه ، فقد كان أهل الأندلس إلى ما قبل إمارة عبد الرحمن أجلافاً بعض الشىء ، ولم ترق أخلاقهم ولم تسد مجتمعاتهم رقة الحضارة إلا منذ أواخر أيام عبد الرحمن الأوسط .

هذا وشاعرية الغزال أمر ذائع معروف ، ولا يتسع المقام هنا لإيراد نماذج منها ، ويستطيع القارئ أن يقرأ أطرافاً لطيفة من هذا الشعر عند ابن حيان والمقرى وابن دحية فى المواضع التى أشير إليها فيما سلف ، وستقرأ أطرافاً من هذا الشعر فى أخبار رحلته ، تدلنا على مكانه من الشاعرية وجودة النظم ولطف الإلهام .

وربما كان السبب فى عدم توليه الوظائف الكبرى هو ما عرف عنه من نزوع إلى الحرية فى أقواله وأفعاله ، فكان لا يتحفظ فى رأى يقوله ، وربما حلق بفكره إلى آفاق تقترب به من الشك فى مسائل العقيدة . ومن أمثلة ذلك قوله بصدد البعث بعد الموت :

يا ليت شعرى أى شىء محصل يرى شخص من قد مات وهو دفين
أهو هو أم خلق شبيه بما رأى ؟ فهل للقلوب النائمات عيون ؟
وكيف يرى والعين قد مات نورها وواقعه شبه الوقار سكون ؟

بل ذكر المقرى أن يحيى ذهب مع الجرأة على الدين إلى حد أنه أراد معارضة سورة (قل هو الله أحد) ، فلما رام ذلك أخذته هيبة وحالة لم يعرفها ، فأناب إلى الله فعاد إلى حاله[1] » .

بيد أن الظرف كان أغلب على الرجل من الإلحاد ، وكانت مقطعاته القصيرة فى الهجاء والسخرية من الناس من أشيع الشعر على ألسنة الأندلسيين . وكان له كلف خاص بهجاء الفقهاء ، وهى ظاهرة لم ينفرد بها الغزال بين شعراء الأندلس ، فقد كان الأندلسيون يكرهون الفقهاء ، وينكرون عليهم سلطانهم واحتجانهم الأموال ، وكان شعراؤهم لا يدعون فرصة للنيل منهم إلا ابتدروها ، وكان يحيى من أشد الناس عليهم ، وله فيهم شعر لطيف[2] .

---

(١) المقرى ، ج ١ ، ص ٦٣٣ .

(٢) الأستاذ محمد عبد الله عنان . يحيى الغزال ، شاعر وفيلسوف وسياسى . مجلة الثقافة ، العدد ٢٦١ ، ص ١٥ وما بعدها .

وطبيعى أن يكون رجل هذه صفاته مرشحاً لمهام السفارة إلى الملوك إذا دعا إليها داع ، فله من شرف المحتد وحسن الأدب وسعة الذهن وخفة الروح وجمال الهيئة ما يمهد له السبيل إلى قلوب الملوك ورجال حاشيتهم ، وقد وفق الغزال فى المهمتين الدبلوماسيتين اللتين وصلتنا أخبارهما أحسن توفيق ؛ وسنقصر الكلام هنا على سفارته الثانية إلى هوريك ملك النورمانيين الدانيمرقيين . وينبغى ألا ننسى أن «السفارات» فى هذه الأيام كان لها معنى آخر غير ما نفهمه نحن من لفظ «سفارة» ، فلم تكن وظيفة من وظائف الدولة الثابتة الدائمة ، وإنما كانت مهمة طارئة يكلها الخليفة أو الأمير إلى من يريد ، وتنتهى بانقضاء المهمة . ولم يكن الأمراء يتخيرون لها رجالا «سياسيين» ، وإنما رجالا ذوى حسب ونسب وطلاقة لسان ، كيحيى بن حكم البكرى الغزال هذا ، وأسامة بن منقذ ، وفخر الدين عثمان الاستادار ، وغيرهم من سفراء ملوك المسلمين[1] .

صدر يحيى بن حكم البكرى الغزال فى سفارته على أثر وصول رسل من قبل هوريك ملك الدانيمرقة «يطلب الصلح بعد خروجهم من إشبيلية وإيقاعهم بجهاتها ، ثم هزيمتهم بها وقتل قائد الأسطول بها[2]» . فإذا كانت غزوة النورمانيين التى فصلنا أمرها قد انتهت فى صفر سنة ٢٣٠ هـ — أكتوبر ٨٤٤ م ، فلا بد أن شهوراً انقضت بعد ذلك حتى عاد مَن عاد من النورمانيين إلى بلاده ، وحدّث هوريك بأمر الدولة الأندلسية الإسلامية وما وقع لهم معها ، فثاب لهوريك رأى فى مراسلة عبد الرحمن . ولما كان النورمانيون لا يخرجون فى رحلاتهم البعيدة إلا فى مطالع الربيع ، فالغالب أن رسل هوريك كانوا فى قرطبة فى ربيع سنة ٨٤٥ م ، أى فى شوال أو

---

(١) سفارة أسامة بن منقذ بين صلاح الدين الأيوبى والمنصور أبى يوسف يعقوب الموحدى معروفة ، أما فخر الدين الاستادار فقد سفر بين سلطان مصر وملك برشلونة سنة ٧٠٣ هـ (انظر السلوك للمقريزى ، نشر زيادة ، ج ١ ، ص ٩٥١) . وتاريخ السفارات الإسلامية فى حاجة إلى دراسة ، ويعتبر يحيى الغزال نموذجا للسفير الإسلامى ، وهو يحقق كل الشروط التى اشترطها «ابن الفراء» فى السفير .

انظر : أبو الحسين على بن محمد المعروف بابن الفراء : كتاب رسل الملوك ، ومن يصلح للرسالة والسفارة (طبعة القاهرة ، ١٩٤٧) ، ص ١٣ — ١٧ .

(٢) ابن دحية . المطرب . ص ١٠٣ ا .

ذى القعدة من سنة ٢٣٠ هـ . فإذا قدرنا أن هؤلاء الرسل أقاموا فى قرطبة شهراً أو شهرين ، كان فى استطاعتنا القول أن يحيى الغزال صدر فى رحلته فى أوائل سنة ٢٣١ هـ ، أى فى أواخر صيف سنة ٨٤٥ م .

اصطحب يحيى الغزال فى رحلته تلك رجلا يسمى يحيى بن حبيب ، وأنشأت لهما الحكومة « مركباً حسناً كامل الآلة » ، وحمّلهما عبد الرحمن رداً على رسالة ملك النورمانيين مع هدية حسنة ، ولم يقدم لنا ابن دحية نص ذلك الرد . ولندع أبا الخطاب يروى رحلة الغزال إلى بلاد الدانمرك بأسلوبه الطريف الممتع[1] ، ولنكتف بالتعليق عليه بعد ذلك .

(١) النسخة الخطية من « المطرب من أشعار أهل المغرب » موجودة فى لندن . وتوجد منها نسخة مصورة فى دار الـكتب المصرية . وقد أخذنا منها نص رحلة الغزال (من ص ١٠٤ ا وما يليها) . وقد أوردها ابن دحية فى سياق ترجمته ليحيى الغزال ، وقد نشرها لأول مرة زيبل فى كتابه .

Alexander Seippel: Rerum Normannicarum fontes Arabici (Christiania 1896). ص ص ١٣ — ٢٠

وقد جمع فيه الفقرات التى أوردها كتاب العرب عن أهل أوربا بما فيهم النورمانيين . وقد استعملت نصوصه التى أوردها فيما سبق من أجزاء البحث . ونشر النص كذلك دوزى فى :

Dozy: Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyeen-Age (2. éd. Leyde 1881) appendice pp. LXXI sqq.

وترجمها إلى الفرنسية وعلق عليها فى نفس الـكتاب (ص ٢٦٧) وما يليها . وقد ترجمها إلى الألمانية وعلق عليها :

Georg Jacob: Arabische Berichte von Gesandeten an germanische Fuerstenhoefe aus dem q. u. 10. Jhdrt. Leipzig u. Berlin. 1910.

٥

رواية أبي الخطاب بن دحية

عن رحلة الغزال إلى بلاد الدانمرك

قال(١) ، ولما وفد على السلطان عبد الرحمن رسل ملك المجوس يطلب

---

(١) القائل هنا هو أبو الخطاب بن دحية ، واسمه الكامل مجد الدين أبو الخطاب عمر ابن الشيخ الإمام أبى على حسن بن على سبط الإمام أبى البسام الفاطمى المعروف بذى النسبين دحية والحسين . وقد اختصه ابن خلكان بترجمة هذا نصها « كان من أعيان الفقهاء ومشاهير الفضلاء ، متقنا لعلم الحديث وما يتعلق به ، عارفا بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها . واشتغل بطلب الحديث فى أكثر بلاد الأندلس الإسلامية ، ولقى بها علماءها ومشايخها . ثم رحل إلى بر العدوة ودخل مراكش ، واجتمع بفضلائها . ثم ارتحل إلى إفريقية ، ومنها إلى الديار المصرية ، ثم إلى الشام والشرق والعراق . وسمع ببغداد من بعض أصحاب ابن الحصين ، وسمع بواسط من أبى الفتح محمد بن أحمد الميدانى ، ودخل إلى عراق العجم وخراسان وما والاها ومازندران . كل ذلك فى طلب الحديث والاجتماع بأئمته والأخذ عنهم ، وهو فى تلك الحال يؤخذ عنه ويستفاد منه . وكانت ولادته فى مستهل ذى القعدة ٥٤٤ هـ — ١١٥٠ م ، وتوفى يوم الثلاثاء ١٤ ربيع الأول ٦٣٣ هـ — ١٢٣٥ م »

ابن خلكان . وفيات ج ١ ، ص ٥٤٤ .

وقد تفضل زميلى الدكتور جمال الشيال فنقل لى بضعة أسطر أوردها عن ابن دحية جمال الدين بن واصل فى « مفرج الكروب » جاء فيها أن ابن دحية كان فيمن وفد إلى الكامل سلطان مصر « وتقدم عنده ولازمه ، وبنى له دار الحديث بين القصرين فى الجانب الغربى ، وجعله شيخها » ، وختمها بقوله « وكان فى مجد الدين جرأة وحدة »

ابن واصل . مفرج الكروب (مخطوطة باريس) ص ٣ .

ويجمع بقية من ذكر ابن دحية من المؤرخين على انتقاد خلقه ، فعلاوة على هذه الإشارة الموجزة التى وردت فى عبارة ابن واصل نقرأ عنه فى تذكرة الحفاظ للذهبى : « وكان على كثرة علمه وفضائله معروفا بالمجازفة والدعاوى العريضة ، وأنه يدعى أشياء لا حقيقة لها ، ومن هؤلاء من اختبر لفظه أو امتحن فهمه . . . وعده مدلسا » . (انظر ج ٤ ، ص ٢٠٥) . ولم أجد فى أى نص من هذه النصوص إشارة إلى كتابه « المطرب فى أشعار أهل المغرب » الذى أخذنا عنه الكلام عن يحيى بن الغزال ورحلته . ويبدو من مجموع كلام هؤلاء المشارقة أنهم كانوا يبغضونه ، وسنلاحظ من سياق حديثه أنه هو الآخر يكرههم — شأن الكثيرين من الأندلسيين .

=

الصلح(١) بعد خروجهم من إشبيلية وإيقاعهم بجهاتها ، ثم هزيمتهم بها ، وقتل قائد الأسطول فيها ، رأى أن يراجعهم بقبول ذلك . فأمر الغزال أن يمشي في رسالته مع رسل ملكهم ، لما كان الغزال عليه من حدة الخاطر وبديهة الرأى ، وحسن الجواب والنجدة ، والإقدام والدخول والخروج من كل باب ، وصحبته يحيى بن حبيب . فنهض إلى مدينة « شلب » ، وقد أنشئ لهما مركب حسن كامل الآلة ، وروجع ملك المجوس على رسالته وكوفئ على هديته . ومشى رسول ملكهم في مركبهم الذى جاءوا فيه مع مركب الغزال ، فلما حاذوا الطرف الأعظم الداخل في البحر — الذى هو حد الأندلس في آخر الغرب ، وهو الجبل المعروف بألُويَة(٢) — هاج عليهم البحر ، وعصفت بهم ريح شديدة ، وحصلوا في الحد الذى وصف الغزال في قوله :

قال لى يحيى وصرنا بين موج كالجبال
وتولتنا رياح من دبور وشمال
شقت القلعين وانبتّت عرى تلك الحبال
وتمطى ملك المو ت إلينا عن حيال
فرأينا الموت رأى الـ ـعين حالا بعد حال
لم يكن للقوم فينا يا رفيقى رأس مال(٣)

= وقد نشر الأستاذ عباس العزاوى كتيباً صغيراً لابن دحية عنوانه « النبراس في خلفاء بنى العباس » قدم له بمقدمة طيبة عن ابن دحية .

وانظر عن ابن دحية أيضاً :

الخطط للمقريزى (ج ٣ ،) ص ٢٧ . طبعة مطبعة النيل . وفيها يذكر أنه « أول من ولى مشيخة دار الحديث الكاملية في القاهرة » .

وكذلك : ياقوت : إرشاد الأريب . ج ٧ ص ١٢٤

(١) طلب الصلح هذا من جانب ملك المجوس غير مفهوم . انظر التعليق بعد نهاية النص .

(٢) لم يستطع « جيورج ياكوب » تحقيق هذا اللفظ ، وعلق عليه دوزى بقوله : « الكلام يدور هنا من غير شك حول رأس « سان فنسنت » Saint Vincent » ، ولم أجد في أى موضع ذكراً لهذا الجبل الذى يذكره المؤلف . وكان القدماء يسمون رأس سان فنسنت هذا Promentarium Sacrum ، وكان الإسبان يسمونه في القرن الثانى عشر Promentario del Algarbe . وكان العرب يسمونه « كنيسة العقاب » . انظر الإدريسى ، ص ٢١٨ ، و :
Dozy, Recherches, 1, p. 270 n. 1.

(٣) لا بد أن الغزال يصف بهذه الأبيات مروره ببحر المانش وما قاساه من أمواجه ، وقد مر الغزال في هذا البحر في شهر سبتمبر ، وهو شهر تتعالى فيه أمواجه وتكثر أخطاره . وقد أورد المقرى في نفح الطيب هذه القصيدة وأضاف إليها أبياتاً أخرى .

ثم إن الغزال سلم من هول تلك البحار ، وركوب الأخطار ، ووصل أول بلاد المجوس إلى جزيرة من جزائرها ، فأقاموا فيها أياماً وأصلحوا مراكبهم وأجموا أنفسهم ، وتقدم مركب المجوس إلى ملكهم ، فأعلمه بلحاق الرسل معهم ، فسر بذلك ووجه فيهم ، فمشوا إليه إلى مستقر ملكه ، وهى جزيرة عظيمة(١) فى البحر المحيط ، فيها مياه مطردة وجنات ، وبينها وبين البر ثلاثة مجار ، وهى ثلاثمائة ميل ، وفيها من المجوس ما لا يحصى عددهم . وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة منها صغار وكبار ، أهلها كلهم مجوس . وما يليهم من البر أيضا لهم مسيرة أيام ، وهم مجوس . وهم اليوم على دين النصرانية ، وقد تركوا عبادة النار ، ودينهم الذى كانوا عليه ، ورجعوا نصارى إلا أهل جزائر منقطعة لهم فى البحر ، هم على دينهم الأول من عبادة النار(٢) ، ونكاح الأم والأخت وغير ذلك من أصناف الشنار(٣) ، وهؤلاء يقاتلونهم ويسبونهم . فأمر لهم الملك بمنزل حسن من منازلهم ، وأخرج إليهم من يلقاهم ، وانجفل المجوس لرؤيتهم ، فرأوا العجب العجيب من أشكالهم وأزيائهم .

ثم إنهم أنزلوا فى كرامة ، وأقاموا يومهم ذلك ، واستدعاهم بعد يومين إلى رؤيته فاشترط الغزال عليه ألا يسجد له ، ولا يخرجهما عن شىء من سنتهما ، فأجابهما إلى ذلك . فلما مشيا إليه ، قعد لهما فى أحسن هيئة ، وأمر بالمدخل الذى يفضى إليه فضُيق ، حتى لا يدخل عليه أحد إلا راكعاً . فلما وصل إليه جلس إلى الأرض ، وقدم رجليه وزحف على أليته زحفاً ، فلما جاز الباب استوى واقفاً ، والملك قد أعد له واحتفل فى السلاح والزينة الكاملة ، فما هاله ذلك ولا ذعره ، بل قام ماثلا بين يديه فقال : « السلام عليك أيها الملك وعلى من ضمه مشهدك والتحية الكريمة لك ، ولا زلت

---

(١) المقصود هنا شبه جزيرة چوتلاند ، والعرب يستعملون لفظ جزيرة لشبه الجزيرة ؛ ووصف الغزال لشبه جزيرة چوتلاند هنا فريد فى بابه . وهو من أقدم ما وصلنا من أوصافها الجغرافية . انظر : Cf: G. Jacob, op. cit. p. 38. n. 1.

(٢) هذه الملاحظة من يحيى الغزال صحيحة من الوجهة التاريخية ، فقد اعتنق نورمان دانيمرقة النصرانية فى ذلك الحين ، وبقى معظم من يليهم إلى الشمال فى جزر سكاجر راك واسكنديناوة على النصرانية .

(٣) يؤيد الغزال هنا كارل فاينهولد :

Cf: Karl Weinhold: Altnordisches Leben, S. 244.

تمتع بالعز والبقاء والكرامة المفضية بك إلى شرف الدنيا والآخرة المتصلة بالدوام فى جوار الحى القيوم ، الذى (كل شىء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه المرجع[1]) » . ففسر له الترجمان ما قاله ، فأعظم الكلام ، وقال : « هذا حكيم من حكماء القوم ، وداهية من دهاتهم » . وعجب من جلوسه إلى الأرض ، وتقديمه رجليه فى الدخول ، وقال : « أردنا أن نذله ، فقابل وجوهنا بنعليه ، ولولا أنه رسول لأنكرنا ذلك عليه » . ثم دفع إليه كتاب السلطان عبد الرحمن ، وقرئ عليه الكتاب وفسر له ، فاستحسنه وأخذه فى يده ، فرفعه ثم وضعه فى حجره ، وأمر بالهدية ففتحت عيابها ، ووقف على جميع ما اشتملت عليه من الثياب والأوانى ، فأعجب بها ، وأمر بهم فانصرفوا إلى منزلهم ، ووسع الجراية عليهم .

وللغزال معهم مجالس مذكورة ومقاوم[2] مشهورة فى بعضها ، جاول علماءهم فبكّتهم ، وفى بعضها ناضل شجعانهم فأثبتهم .

ولما سمعت امرأة ملك المجوس بذكر الغزال وجهت فيه لتراه ، فلما دخل عليها سلم ثم شخص فيها طويلا ، ينظرها نظر المتعجب ، فقالت لترجمانها : « سله عن إدمان نظره لماذا هو : ألفرط استحسان أم لضد ذلك ؟» فقال : « ما هو إلا أنى لم أتوهم أن فى العالم منظراً مثل هذا . وقد رأيت عند ملكنا نساءً انتخبن له من جميع الأمم ، فلم أر فيهن حسناً يشبه هذا » فقالت لترجمانها : « سله ، أمجد هو أم هازل ؟ » فقال : « لا ، بل مجد ! » فقالت له : « فليس فى بلدهم إذا جمال ! » فقال الغزال : « فاعرضوا علىّ من نسائكم حتى أقيسها بها » . فوجهت الملكة فى نساء معلومات بالجمال ، فحضرن فصعد فيهن وصوب ، ثم قال : «فيهن جمال ، وليس كجمال الملكة ، لأن الحسن الذى لها والصفات المناسبة ليس يميزها كل أحد ، وإنما يعنى به الشعراء . وإن أحبت الملكة أن أصف حسنها وحسبها وعقلها فى شعر يروى فى جميع بلادنا فعلت ذلك » . فسرت بذلك سروراً عظيما ، وزهيت وأمرت له بصلة ، فامتنع من أخذها الغزال وقال : « لا أفعل » فقالت للترجمان : « سله ، لم لا يقبل صلتى ؟ ألأنه حقرها أم لأنه حقرنى ؟ » ، فسأله فقال

(١) القرآن الكريم . سورة ٢٨ ، آية ٨٨ . وفى نص الآية : وإليه ترجعون .
(٢) كذا فى الأصل . وصحتها : مقامات

الغزال : « إن صلتها لجزيلة ، وإن الأخذ منها لتَشرُّف ، لأنها ملكة بنت ملك ، ولكن كفانى من الصلة نظرى إليها وإقبالها علىّ ، فحسبى بذلك صلة . وإنما أريد أن تصلنى بالوصول إليها أبداً » . فلما فسر لها الترجمان كلامه زادت سروراً وعجباً ، وقالت : « تحمل صلته إليه ومتى أحب أن يأتينى زائراً فلا يحجب ، وله عندى من الكرامة والرحب والسعة » ، فشكرها الغزال ودعا لها وانصرف .

قال تمام بن علقمة [١] : سمعت الغزال يحدث بهذا الحديث ، فقلت له : « وكان لها من الجمال بعض هذه المنزلة التى صورت فى نفسها ؟ » فقال : « وأبيك لقد كانت فيها حلاوة ، ولكنى اجتلبت بهذا القول محبتها ونلت منها فوق ما أردت » . قال تمام ابن علقمة : وأخبرنى أحد أصحابه ، قال : « أولعت زوجة ملك المجوس بالغزال ، فكانت لا تصبر عنه يوماً حتى توجه فيه ، ويقيم عندها يحدثها بسير الإسلام وأخبارهم وبلادهم ، وبمن يجاورهم من الأمم ، فقلَّما انصرف يوماً قط من عندها إلا أتبعته هدية تلطفه بها ، من ثياب أو طعام أو طيب ، حتى شاع خبرها معه ، وأنكره أصحابه وحُذّر منه الغزال . فحذر وأغب زيارتها ، فباحثته عن ذلك فقال لها ما حذر منه ، فضحكت وقالت له : « ليس فى ديننا نحن هذا ، ولا عندنا غيرة ، ولا نساؤنا مع رجالنا إلا باختيارهن ، تقيم المرأة معه ما أحبت ، وتفارقه إذا كرهت [٢] . وأما عادة المجوس قبل أن يصل إليهم

---

(١) توفى سنة ٢٨٣ هـ – ٨٩٦ م .

(٢) هذه حقيقة تاريخية أخرى عن حياة النورمانيين فى ذلك الحين ، وقد علق عليها جيورج ياكوب بقوله :

ورد فى كتاب « مختصر صرف اللغة الجرمانية :

Grundriss der germanischen Philologie, 2. Aufl. 3. Band, 1900, s. 422.

ما يلى :

« ويستطيع الإنسان أن يجد عاملا من العوامل التى ساعدت على استقلال ربة البيت فى السهولة التى كانت الزوجة تستطيع بها أن تحصل على الطلاق ، وتستعيد أملاكها من زوجها فى نفس الوقت ؛ بهذا تحدثنا الأساطير أيضاً . ويبدو أن حرية الطلاق لم تكن محدودة بشىء فى الفترة التى نشأت فيها هذه الأساطير ، فما نراه فيها من حوادث الطلاق لا يستند فى الغالب إلا إلى أسباب تافهة ، حتى إنه لمن العسير جداً أن نجد له قيوداً معينة »

Cf: G. Jacob: op. cit. p. 40. n. 3.

دين رومة ، فأن لا يمتنع أحد من النساء على أحد من الرجال ، إلا أن يصحب الشريفة الوضيع فتعير بذلك ، ويحجره عليها أهلها[١] » . فلما سمع ذلك الغزال من قولها أنس إليه وعاد إلى استرساله .

قال تمام : كان الغزال فى اكتهاله وسيماً ، وكان فى صباه جميلاً ، ولذلك سمى بالغزال . ومشى إلى بلاد المجوس وهو قد شارف الخمسين ، وقد وخطه الشيب ، ولكنه كان مجتمع الأشد ، ضرب الجسم ، حسن الصورة . فسألته يوماً زوجة الملك – واسمها « نود »[٢] – عن سنه ، فقال مداعباً لها : « عشرون سنة ! » فقالت للترجمان : « ومن هو ابن عشرين سنة يكون به هذا الشيب ؟ » فقال لترجمان : « وما تنكر من هذا ؟ ألم تر قط مهراً ينتج وهو أشهب ؟ » فضحكت « نود » وأعجبت بقوله ، فقال فى ذلك الغزال بديهاً :

كلفت يا قلبى هوى متعبا ... غالبت منه الضيغم الأغلبا
إنى تعلقت مجوسـية ... تأبى لشمس الحسن أن تغربا
أقصى بلاد الله فى حيث لا ... يلقى إليه فى ذاهب مذهبا
يا نود يا رود الشبـاب التى ... تُطلع من أزرارها الكوكبا
يا بأبى الشخص الذى لا أرى ... أحلى على قلبى ولا أعذبا
إن قلت يوماً إن عينى رأت ... مشبهه لم أعد أن أكذبا
قالت : أرى فوديه قد نوّرا ... دعابة توجب أن أدعبا

(١) يؤيد تلك الحقيقة فاينهولد فى كتاب «الحياة القديمة للنورمان» بقوله :
« ... وعلى العكس من ذلك كان زواج الأحرار بغير الأحرار غير ممكن ، وكانت عقوبة هذا النوع من العلاقات الموت فى أول الأمر » .

Weinhold: Altnordisches Leben, p. S. 243.

(٢) ورد اسم هذه الملكة بالنون فى الأصل : نود ، وكذلك فى المقرى (نفح ، حـ ١ ص ٦٣١) ، ويذهب جيورج ياكوب إلى أنه من الممكن أن تكون هذه الصورة تحريفاً لاسم : تود Tûd أو : ترود Trûd أو : ثود Thûd وما إلى ذلك . وقال إنه من الممكن أن يكون أصل هذه الملكة من بيت ملكي آخر غير بيت ملك النورمانيين . لأن سلطان زوجها كان يمتد إلى إسبانيا كما يقول الغزال . ولكن عبارة الغزال معناها أن سلطان زوجها — هاريك — كان يمتد إلى جميع النواحى التى كان النورمانيون يسيطرون عليها فى ذلك الحين . أى حتى شطآن إفرنجة وأكويتين إلى حدود إسبانيا النصرانية .

Cf.: G. Jacob, op. cit. p. 41 n. 1.

قلت لهـــا : يا بأبى إنه قد ينتج المهر كذا أشهبا
فاستضحكت عجباً بقولى لها وإنمـــا قلت لكى تعجبا

وهذا الشعر لو روى لعمر بن أبى ربيعة أو لبشار بن برد أو لعباس ابن الأحنف ، ومن سلك هذا المسلك من الشعراء المحسنين لاستُغرب له ، وإنما أوجب أن يكون ذكره منسياً أن كان أندلسياً ، وإلا فما له أُخْمِل ؟ وما حق مثله أن يهمل ، وهل رأيت أحسن من قوله :

تأبى لشمس الحسن أن تغربا ؟

أو كالبيت الأول من هذه القطعة ، أو كصفته لما جرى فى الدعابة ؟ هل وصفه إلا الدر المنتظم ، وهل نحن إلا نظلم فى حقنا ونهتضم[1] ؟ » .

ولنرجع إلى ذكر الغزال : فإنه لما أنشد « نود » الشعر ، وفسره الترجمان لها ، ضحكت منه وأمرته بالخضاب ، ففعل ذلك الغزال ، وغدا عليها يوماً ثانياً وقد اختضب ، فمدحت خضابه وحسنته عنده ، ففى ذلك يقول الغزال :

بكرت تحسن لى سواد خضابى فكأن ذاك أعادنى لشـــبابى
ماالشيب عندى والخضاب لواصف إلا كشمس جللت بضـــباب
تخفى قليلا ثم يقشعها الصبا فيسير ما سترت به لذهاب
لا تنكرى وضح المشيب فإنما هو زهرة الأفهام والألبـــاب
فلدى ما تهوين من شأن الصبا وطـــلاوة الأخـــلاق والآداب

ثم انفصل الغزال عنهم ، وصحبه الرسل إلى شنت يعقوب[2] بكتاب ملك المجوس إلى صاحبها ، فأقام عنده مكرماً شهرين حتى انقضى حجهم[3] ،

---

(١) هنا نجد دليلا على ما كان ابن دحية يتهم به من الحدة والجرأة ، وفيه كذلك دليل على ما كان الأندلسيون جميعاً يشعرون به من بغض للمشارقة واستعلاء عليهم ؛ ونجد هذه الروح — روح الثورة على المشرق والتسامى عليه — عند ابن بسام فى الذخيرة (انظر المقدمة) ابن حزم (انظر رسالته التى أوردها المقرى) وابن فرج فى مقدمة « الحدائق » .

ولعل ابن دحية يفرج عن نفسه بهذا الكلام ويتعزى به عما أصابه هو من مهانة على يد السلطان الكامل وفقهاء عصره

(٢) فى جليقية . ويرسمها كتاب المسلمين عادة : « شنت ياقب » ؛ وهى بالإسبانية : Santiago de Compostela.

(٣) أى حج نصارى الإسبان إلى بلدة « شنت ياقوب » ، وكان فيها قبر القديس يعقوب ، أحد كبار القديسين ، ويقال إنه كان من حواريى المسيح . وكان نصارى قشتالة يحجون إليه . وقد علق دوزى على هذه الفقرة بعد ترجمتها تعليقاً طويلا ذكر فيه أنها لا تعطى إلا =

فصدر على قشتالة مع الصادرين ، ومنها خرج إلى طليطلة حتى لحق بحضرة السلطان عبد الرحمن بعد انقضاء عشرين شهراً » .

* * *

وهذا الوصف وحده كاف لإقناعنا بأن خبر هذه الرحلة صحيح غير مختلق ، كما ظن ليڤي پروڤنسال . ففيه من الإشارات واللمحات ما يدل على أن ابن دحية يتحدث عن واقعة صحيحة ، لا عن « أسطورة مخترعة من أولها إلى آخرها » . ولو كان الغزال جغرافياً لاستطاع وصف رحلته على أدق من ذلك ، بل لو كان ابن دحية جغرافياً — ولم يكن أديباً — لما أضفى على الكلام هذا الطابع الأدبي الذى كان بعض الأسباب التى شككت پروڤنسال فى صحته .

ومن دلائل صدق الرواية أن أبا الخطاب يسندها إلى تمام بن علقمة ، وكان من كبار رجال الأمويين الأندلسيين ومواليهم ، وقد قام بدور عظيم فى تاريخ الأندلس أثناء إمارات هشام والحكم الربضى وعبد الرحمن الأوسط ، وتوفى عن سن عالية سنة ٢٨٢ هـ—٨٩٦ م . وقد أنشأ تمام تاريخاً منظوماً لأمراء الأندلس إلى عهده ، وكتب فى التاريخ نثراً كذلك . وقد نقل ابن دحية أخبار الغزال ورحلته إلى بلاد النورمانيين عن أحد مؤلفاته ، ولم يكن بحاجة إلى أن يكلف نفسه عناء هذا الاختلاق إذا كان غرضه مجرد رواية بعض أشعار ليحيي الغزال . هذا ، وقد كان إسناد هذه الرواية إلى تمام من الأسباب التى حدت بدوزى إلى قبولها ، وقد كان عالماً ناقداً لا يجوز عنده إلا الصحيح[1] ، ولم يقع فى أيدينا — بعد دوزى — نص واحد ينفى هذا الخبر . والقول بكذبه يحتاج إلى ما يؤيده ، غير مجرد إهمال ابن حيان إياه ومشابهته لأخبار رحلة الغزال إلى القسطنطينية ، وربما يكون

معلومات ضئيلة عن بلاد النورمانيين فى ذلك الحين ، وأنها لا تذكر شيئاً عن غرض هذه السفارة . وعلق على شخصية الغزال بقوله : « إنه كان من غير شك سفيراً ماهراً ، كان رجل بلاط ، وكان ذا ذكاء وفهم ، وكان خبيراً بأمور الدنيا . ومن العجيب أن نرى كيف أن هذا العربى الذى عاش فى القرن التاسع توصل إلى هذه الحقيقة : وهى أنه لا بد من كسب ود النساء حتى يحقق الإنسان أعماله العظيمة . ولم يجاره فى فهم هذا الباب أحد ؛ فقد كان أقدر الناس على تملقهن بأسلوب ذكى رقيق . ويبدو أنه كانت له موهبة أخرى ، هى الصمت عند اللزوم . ولا بد أنه قص على أصحابه أثناء عودته شيئاً كثيراً عن مغامراته ، دون أن يفضى إليهم بشىء من أسرار الدولة التى اؤتمن عليها مما يزيد من قدره ؛ ولو أننا نأسف له من الناحية التاريخية » .

(١) Dozy : Recherches I, p. 278.

الغزال نفسه قد أدخل فى حديثه عن رحلته ما ظن أنه يزيدها طرافة ، وربما يكون المؤرخون من بعده خلطوا بين أحداث الرحلتين ، وهذا فى ذاته لا ينفى قيامه بالرحلة أصلا .

ثم إن وصف الغزال لشبه جزيرة چوتلاند وما يجاورها من الجزائر يؤكد لنا ذهابه إليها ، فهو أقدم وصف عربى لهذه الناحية ، إذ أن ابن دحية توفى فى القاهرة سنة ٦٣٣هـ-١٢٣٥م ، فمن أين استقى هذا الوصف الجغرافى الدقيق إلا من رجل ذهب إلى هناك ورآها بنفسه ؟ هذا ، ولم يحدثنا المسلمون عن واحد منهم ذهب إلى هذه البلاد الشمالية قبل ذلك الزمان ، بل إن من أتوا بعد ابن دحية لم يتحدثوا عن دانيمرقه بهذه الدقة ، فالقزوينى -زكريا بن محمد بن محمود- لم يذكرها فى « آثار البلاد وأخبار العباد » ، وإنما ذكر المجوس فقط دون تحديد لبلادهم ، ووصفها الإدريسى ، ولكن وصف الغزال -عن طريق تمام بن علقمة وأبى الخطاب بن دحية- أدق ، فهو يقول :

« ووصل -أى الغزال- أول بلاد المجوس إلى جزيرة من جزائرها ، فأقاموا فيها أياماً وأصلحوا مراكبهم وأجمعوا أنفسهم ، وتقدم مركب المجوس إلى ملكهم ، فأعلمه بلحاق الرسل معهم ، فسر بذلك ووجه فيهم ، فمشوا إليه إلى مستقر ملكه ، وهى عظيمة فى البحر المحيط فيها مياه مطردة وجنات ، وبينها وبين البر ثلاثة مجار ، وهى ثلاثمائة ميل ، وفيها المجوس ما لا يحصى عددهم . وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة منها صغار وكبار ، أهلها كلهم مجوس ، وما يليهم من البر أيضاً لهم مسيرة أيام ، وهم مجوس ، وهم اليوم على دين النصرانية ، وقد تركوا عبادة النار ودينهم الذى كانوا عليه ، ورجعوا نصارى إلا أهل جزائر منقطعة لهم فى البحر ، هم على دينهم الأول من عبادة النار . . . » وهو وصف طيب من الناحية الجغرافية ، وهو أقرب إلى الحقيقة على أى حال من قول الإدريسى : « وجزيرة دانا مرْخَة فى ذاتها مستديرة الشكل رملة ، وفيها من المدن أربع قواعد وقرى كثيرة ومراسٍ مستورة معمورة . فأول ذلك من فم الجزيرة إلى مدينة ألْسيَة على يسار الداخل خمسة وعشرون ميلا ، وهى مدينة صغيرة متحفزة بها أسواق قائمة وعمارات دائمة ، وهى على ساحل البحر . . . » فكيف أتيحت لتمام

ابن علقمة هذه المعرفة التى لم تتح للإدريسى ؟ إلا من رجل ذهب إلى هذه النواحى ورآها بنفسه ، وإذا كان هو نفسه يذكر أنه أخذه عن يحيى الغزال ، فما وجه القول بأن القصة مختلقة من أولها إلى آخرها ؟

وقرينة أخرى تؤيد صدق هذا الخبر ، هى قوله أن مجوس دانيمرقة كانوا على المجوسية ثم دخلوا النصرانية ، وبقيت منهم بقايا مجوسية وثنية فى الجزائر المحيطة بشبه الجزيرة . وهذا هو الواقع الذى تؤيده المراجع كلها ، فمن الثابت أن نورمان دانيمرقة دخلوا النصرانية قبيل رحلة الغزال إلى دانيمرقة ، فقد كان أول من تنصر من ملوكهم هارولد الأول — عم هوريك — تنصر فى إنجلنهايم سنة ٨٢٦م. وتبعه بقية قومه ، وانتشرت النصرانية فى شبه الجزيرة على أيام هوريك[١] ، وبقيت من النورمانيين الدانيمرقيين جماعات وثنية فى الجزائر . وأخذ هارولد ثم هوريك يغازونهم ، ليرغموهم على الطاعة والنصرانية معاً . وهذه كلها حقائق ذكرها تمام بن علقمة عن يحيى الغزال ، ولو كان أبو الخطاب بن دحية نقلها عن أحد معاصريه فى القرن الثالث عشر الميلادى لما ذكر هذه المعلومات التى لا تنطبق على دانيمرقة إلا فى الفترة التى زارها فيها الغزال . ثم إن مثل هذا الوصف الدقيق والحديث عن حالة المجوس الدينية لا يمكن أن يصدر إلا عن رجل رأى هذه البلاد بنفسه فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، ولم يبلغنا أن أحداً من المسلمين ذهب إلى هذه النواحى فى ذلك الحين إلا يحيى الغزال .

ثم إن قول تمام : « وانجفل المجوس لرؤيتهم ، فرأوا العجب العجيب من أشكالهم وأزيائهم » يدل بوضوح على أن وصف هذه الرحلة لا يمكن أن يكون مقتبساً من وصف رحلة الغزال إلى بلاط القسطنطينية ، لأن أهل هذا البلد الأخير لم يكونوا بحاجة إلى أن « ينجفلوا » لرؤية نفر من العرب ، وهم يعرفون العرب وأزياءهم جيداً بسبب الجوار واتصال العلائق ، أما النورماند فمن الطبيعى أن ينجفلوا لرؤية هؤلاء الأندلسيين فى ملابسهم الشرقية اللطيفة ، وهذه الإشارة تدل على أصالة الخبر وصدقه .

وهذا لا ينفى أن تفاصيل هذه الرحلة فيها مبالغة ظاهرة ، فهذه العلاقات الموصولة مع ملكة النورمانيين ، وهذه الدعابات المتواترة بينه وبينها ظاهرة

(١) J. Danstrup: A Hist. of Denmark, pp. 18-19.

التكلف ، ولا يبعد أن يكون الغزال نفسه صنعها ليزوق بها وصف رحلته ويضفى عليها طرافة . وإذا كان صحيحاً أن الغزال لقى امرأة تسمى « تود » فى الدانيمرقة وأعجب بها وأعجبت به وقال فيها هذا الشعر كله ، فالغالب أنها كانت من سيدات البلاط أو الظاهرات من نساء النورمانيين . وملاحظة « تمام » عن حرية المرأة فى الدانيمرقة فى ذلك العصر جديرة بالعناية ، وهى ولا شك تنفع من يدرسون تاريخ المجتمع الدانيمرقى فى هذه العصور .

بقيت لنا ملاحظة على طريق عودة الغزال ، فقد أربى بشاطىء إسبانيا فى الشمال على مقربة من شنت ياقب Santiago « بكتاب ملك المجوس إلى صاحبها ، فأقام عنده مكرماً شهرين حتى انقضى حجهم ، فصدر على قشتالة مع الصادرين ، ومنها خرج إلى طليطلة حتى لحق بحضرة السلطان عبد الرحمن بعد انقضاء عشرين شهراً » وهى إشارة يفهم منها أن ملك أشتريس إذذاك ردمير الأول (Ramiro I ٨٤٢ — ٨٥٠) كان على سلام مع عبد الرحمن الأوسط خلال السنة التى عاد أثناءها الغزال من رحلته وهى سنة ٢٣٢ هـ — ٨٤٦ م ، والواقع يؤيد ذلك من بعض الوجوه ، فليس فى تاريخ ردمير هذا حروب متصلة مع المسلمين فيما خلا معركة Cloijo المشكوك فى صحة خبرها سنة ٨٤٢ م ، وما تشير إليه المراجع الإسلامية من دخول ردمير فى ليون فى أواخر سنة ٨٤٦ م[1] . وإشارة تمام إلى العلاقات الطيبة بين هوريك وردمير الأول جديرة بأن يلاحظها مؤرخو أشتريس فى تلك العصور .

تلك هى سفارة يحيى الغزال إلى هوريك ملك الدانيمرقة ، وهى فى ذاتها حادث طريف فى تاريخ الإمارة الأموية الأندلسية وفى تاريخ « السفارات » الإسلامية على السواء . صحيح أنها لم تثمر شيئاً ، لأن النورمانيين عادوا فهاجموا الأندلس بعد ذلك بسنوات قليلة كما سترى ، ولكنها لا تختلف فى هذا عن كثير من سفارات هذه العصور ، فقد انتهت سفارة الغزال نفسه إلى بلاط تيوفيل إمبراطور بيزنطة إلى غير نتيجة كذلك[2] ، وإلى

---

(١) Ballesteros : Historia de Espana, II, p. 193.

(٢) Cf.: Lévi-Provençal: Byzance et Cordoue au IX siècle, dans: Hist. de l'Esp. Mus. I. p. 177.

مثل هذه النتيجة كانت تنتهى السفارات والمراسلات التى لم تنقطع بين أمراء الأندلس الأمويين وملوك الدويلات النصرانية فى شمال الأندلس ، وبينهم وبين أباطرة بيزنطة وغيرهم . ولكنها تدلنا — على أى حال — على أن عبد الرحمن الأوسط كان رجلا متفتح الذهن إلى مثل هذا اللون من الاتصال السلمى مع معاصريه من الملوك . وحسبه نتيجة لرحلتى سفيره الغزال إلى أقصى البحر الأبيض المتوسط فى الشرق وإلى دانيمرقة أن أحاط علماً بالأحوال فى تلك البلاد ، وعرف أشياء لها قيمتها عن أولئك « الأردمانيين » الذين كانوا لعنة هذه العصور ، لا للأندلس وحده بل لبلاد أوربا كلها وحوض البحر الأبيض المتوسط كله وشواطىء إفريقية بعد قليل .

٥

غارة النورمانيين على الأندلس
فى عهد الأمير محمد
٢٣٨ هـ — ٨٥٣ م

لم تنقض على عودة الغزال ثلاث عشرة سنة حتى عاد النورمانيين يهددون سواحل الأندلس من جديد : كان هوريك قد توفى سنة ٨٥٤ م ، وسادت الفوضى نواحى الدانيمرقة وكافة البلاد التى كان النورماند يسيطرون عليها مثل إيرلاندة ونورثامبريا فى شمال إنجلترا وبعض نواحى النرويج وفريزلاند على ساحل المانش ، وكانت نتيجة هذه الفوضى أن تحرر قرصان النورمان من كل قيد ، فمضوا يغيرون على الشواطئ التى استطاعوا الوصول إليها ، وتعتبر الفترة من ٨٥٠ إلى ٨٧٨ ميلادية أوفر فترات عهد القرصنة فى تاريخ النورمانيين نشاطاً . وقد ظهر فيهم خلالها زعيم يسمى بيُورْن يارنيسيِوا Bjorn Jarnisioaa قاد أساطيل مراكبهم ومضى يضرب بها شواطىء دولة الفرنجة فى عنف ، وأعانه على ذلك اشتغال أبناء « لويس التقى » بالحروب التى شجرت فيما بينهم بعد معاهدة ڤردان سنة ٨٤٣ م . فاستطاع النورمانيين الدانيمرقيون أن ينشئوا لأنفسهم مراكز جديدة فى مصبات أنهار « الرين »

و « الشلد » و « السوم » و « السين » و « اللوار » و « الجارون » . ولم يجد أهل هذه النواحى من يحميهم من أذى هؤلاء القراصنة العتاة ، فثاروا بهم وهاجموا مراكزهم بين السين واللوار هجوماً عنيفاً فى سنة ٨٥٩ ، ولكنهم لم يستطيعوا طردهم[١] .

وفى سنة ٨٥٩ م تحرك النورمانيون نحو شبه الجزيرة الإيبيرية من جديد ، ومروا بسواحل جليقية فى طريقهم إلى الشواطىء الغربية ، وكان يقودهم فى هذه المرة الزعيم « بيورن يارنسيوا » الذى ذكرناه ، وقرصان آخر من طرازه يسمى هاشتاين أو هيستنجز (Hasteinn,Hastings) . وكانا يرجوان من غارتهما تلك مغانم طيبة ، ولكنهما وجدا الأحوال على شواطىء الأندلس الإسلامى قد تغيرت تغيراً ظاهراً عما عهدها عليه أبناء جلدتهما ، قبل ذلك بخمس عشرة سنة .

كان الأمير عبد الرحمن قد توفى منذ سبع سنوات (٤ ربيع الآخر سنة ٢٣٨ هـ — ٢٣ سبتمبر ٨٥٣ م) ، وخلفه ابنه الأمير محمد ، وكان يختلف عنه فى كثير . فقد كان الأمير محمد نشيطاً يقظاً حازماً ، لا يميل إلى الدعة والرفاهية اللتين شغلتا عبد الرحمن الأوسط عن كثير من شؤون رعيته ، فكان دائم الجلوس إلى رجال دولته ، يحادثهم ويباحثهم فيما جل أو صغر من شؤون الدولة ، بل كان يسرف فى الاهتمام بشؤون الدولة ومراجعة تفاصيلها إلى حد كان يثير النقد فى بعض الأحيان . وإجماع المؤرخين القدامى منعقد على الإعجاب به وتقديره ، وتفاصيل حياته تدل على أن دوزى أخطأ فى نقده خطأ بالغاً ، إذ كانت لمحمد من صفات الكفاية والقدرة ما جعل ملوك « نكور » و « تاهرت » فى إفريقية من أتباعه ورجاله ، وما جعل شارل الأصلع (Charle le Chauve) ملك الفرنجة يعجب به وبعقله . وقد تمتعت الأندلس فى العشرين سنة الأولى من حكمه بفترة من الرخاء والهدوء تعتبر استمرارا لحكم عبد الرحمن الأوسط ، حتى نجمت

---

(١) Allen Mawer: op. cit. p. 220.

ويسمى عصر القرصنة في تاريخ الشعوب النورمانية فى الإنجليزية The Viking Period، وهو العصر الذى ملأت حوادثه بلاد دانيمرقة وشبه جزيرة اسكنديناوة ، ولهذا العصر فى تاريخ هذه الأمم حضارة خاصة .

Cf : J. Danstrup: op. cit. chap. III. pp. 15 sqq

فتنة عبد الرحمن الجليقى فى نواحى الغرب ، وفتنة « عمر بن حفصون » فى الجنوب ، وحتى وقع اضطراب العرب فى إقليمى إشبيلية ومرسية ، فبدأت الفتنة الكبرى خلال السنوات العشر الأخيرة من حكمه ، ومسئوليته فى هذه الاضطرابات كلها قليلة[1] .

فى عصر محمد هذا عاد النورمانيون إلى مهاجمة الأندلس . وسنستبين من تفاصيل غارتهم تلك كفاية الأمير محمد وسلامة نظام حكومة الأندلس على عصره .

ذكرنا كيف انساح المجوس نحو الجنوب رويداً ، بسبب اضطراب أحوال دولتهم بعد موت « هوريك » ، وكيف وصلوا إلى مصب الجارون سنة ٨٥٩ م ، وكيف خرجوا من هناك للإغارة على بلاد إسبانيا . ويتفق المؤرخون الإسلاميون وكتاب المدونات اللاتينية من الإسبان على أنهم ظهروا أول الأمر هذه المرة عند شواطىء أشتريس أيضاً سنة ٢٤٥ هـ (٨ أبريل ٨٥٩ — ٢٧ مارس ٨٦٠) . ورواية ابن عذارى أوفى ما بين أيدينا فى هذا المقام ، فهى تقول : « وفيها — (أى فى سنة ٢٤٥ هـ) — خرج المجوس أيضاً إلى ساحل البحر بالغرب فى اثنين وستين مركباً ، فوجدوا البحر محروساً ، ومراكب المسلمين معدة تجرى من حائط إفرنجة إلى حائط جليقية فى

---

(١) تجد أخبار الأمير محمد فى :
الأخبار المجموعة ، ص ١٤١ — ١٥٠ .
ابن القوطية ، افتتاح ، ص ٧٠ — ١٠٢ .
ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ٩٦ — ١٢٣ .
ابن الأثير ، الكامل ، ص ٢٣٠ — ٢٦٣ .
النويرى ، نهاية الأرب (طبعة جسبار ذَيميرو) ، ص ٢٠٥ — ٢١١ .
ابن الأبار ، الحلة ، ص ٦٤ — ٦٥ .
ابن الخطيب ، إعلام الأعلام ، ص ٢٢ — ٢٨ .
ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٣٠ — ١٣٢ .
المقرى . نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .
وكذلك فى :

Dozy, Musulmans d'Espagne, I, 346-362.
Simon-t, Hist. de los Mozaràbes, p. 443-525.
Ballesteros: Hist de Espana, II. p.
Lévi Provençal. Histde, l'Esp. Mus. pp. 196. sqq.

الغرب الأقصى ، فتقدم مركبان من مراكب المجوس ، فتلاقت بهم المراكب المعدة ، فوافوا هذين المركبين فى بعض كور « باجة، »فأخذوهما بما كان فيهما من الذهب والفضة والسبي والعدة .[١] » . وتهمنا هنا ملاحظة هذه الحراسة الدقيقة الشاملة التى أقامها الأندلسيون فى بحارهم الشمالية ، لأنها تدل على أنهم لم يكتفوا بحراسة سواحلهم الغربية ، بل انطلقت سفنهم إلى سواحل أشتريس، لترقب المجوس عند خروجهم من شواطىء غالة الغربية، ولتتلقاهم قبل أن ينحدروا إلى الجنوب ، مما يدلنا على أن الأندلسيين « درسوا » هذه المشكلة النورمانية ، وعرفوا من أين يخرج هؤلاء القوم ، وأقاموا طلائع من سفنهم فى هذه الناحية الشمالية لترقب حركاتهم . فلم يكد مركبان من مراكبهم ينفذان نحو الجنوب حتى تعقبتها سفن المسلمين، ودخلت خلفها فى « وادى آنة »، وما زالت بهما حتى استولت عليهما . أما بقية مراكب المجوس فقد اتجهت بعد ذلك نحو الجنوب، وسفن المسلمين وراءها تطاردها كما سنرى . وربما كان هذا دليلا جديداً على صحة رحلة يحيى الغزال ، فقد قلنا إنه كان من أغراض سفارته تعرف أحوال بلادهم ، والمواضع التى يخرجون منها لغزو بلاد المسلمين ، وبناء على المعلومات التى أتى بها اتخذت حكومة قرطبة احتياطها وأرصدت سفنها فى هذه البحار النائية لتستطلع حركات النورمانيين .

ويهمنا كذلك أن نلاحظ هنا أن الأسطول النورمانى المهاجم هذه المرة كان — كما فى المرة السابقة — مكوناً من مجموعات صغيرة من السفن تعمل كل منها لحسابها الخاص ، دون أن تكون لها وحدة أو قيادة واحدة توجه أعمالها ، فكانت كل مجموعة تضرب حيثما اتفق لها . ومن ذلك ما يحدثنا به أصحاب « المدونات الإسبانية النصرانية » من أن بعض قطع هذا الأسطول النورمانى أغارت على شواطىء أشتريس فى بعض المواضع، وأنزلت بها أضراراً جسيمة : فتذكر (مؤرخة البلدة Chronicon Albeldense) أنه فى حكم أوروديثو ظهر النورمانيون للمرة الثانية أمام شواطىء جليقية ، ولكن الكونت « بدرو » مزقهم إرباً[٢] » . ويقول « سباستيان السلمنقى » فى

---

(١) ابن عذارى : البيان ، ج ٢، ص ٩٩

(٢) Chronicon Albeldense, c. 61.

تفصيل أمر هذه الغارة : « وفى هذا الوقت ، وصل القراصنة النورمانيون للمرة الثانية أمام شواطئنا ، ثم ذهبوا إلى إسبانيا[١] » ، أى أن هذه القطع من السفن النورمانية لم توفق إلى كثير فى أشتريس وغالة ، كما لم توفق فى ناحية « باجة » على ما رأينا . فلنتبع كتلة السفن النورمانية التى اتجهت نحو الجنوب مساحلة شاطىء إسبانيا الغربية لنرى إلى أين انتهى بها المصير .

يقول ابن عذارى — وهو أدق مؤرخينا الأندلسيين فى هذا المقام : « ومرت سائر مراكب لمجوس فى الريف حتى انتهت إلى مصب نهر إشبيلية فى البحر ، فأخرج الأمير الجيوش ، ونفر الناس من كل أوب ، وكان قائدهم عيسى بن الحسن الحاجب . وتقدمت المراكب من مصب نهر إشبيلية حتى حلت « بالجزيرة الخضراء » ، فتغلبوا عليها وأحرقوا المسجد الجامع بها . ثم جازوا إلى العدوة ، فاستباحوا أريافها (فى الأصل : أربابها) ، ثم عادوا إلى ريف الأندلس ، وتوافوا بساحل تُدمير ، ثم انتهوا إلى حصن أوريوله ، ثم تقدموا إلى إفرنجة فشتوا بها ، وأصابوا بها الذرارى والأموال ، وتقلبوا بها على مدينة سكنوها ، فهى منسوبة إليهم إلى اليوم ، حتى انصرفوا إلى ريف بحر الأندلس ، وقد ذهب من مراكبهم أكثر من أربعين مركباً . ولقيهم مراكب الأمير محمد ، فأصابوا منها مركبين بريف « شذونة » فيها الأموال العظيمة ، ومضت مراكب المجوس[٢] » .

ومعنى ذلك أن النورمانيين لم يستطيعوا دخول «الوادى الكبير» هذه المرة ، لأن الأمير محمداً كان مستعداً لهم بالمراكب والعدة فى هذه الناحية ، ولم تكد مراكبهم تظهر فى مياه « إشبيلية » حتى سارعت قوات الأمير ، يقودها هذا الحاجب القائد الذى أرسله الأمير على جناح السرعة إلى هذه الناحية للدفاع عنها . ولم يملك الناس الرعب هذه المرة ، بل « نفروا من كل أوب » ليلاقوا هذا العدو الخطر ، وأمام هذا كله لم يجرؤ النورمانيون على النزول بناحية إشبيلية ، ومضت مراكبهم بحذاء الساحل تلتمس موضعاً ضعيفاً تنزل به ،

---

(١) Sebastian de Salamanca: Chronicón, c. 26.

ويريد سباستيان « بإسبانيا » هنا إسبانيا الإسلامية .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ج ٢ ، ص ٩٩ .

حتى إذا أدركت ناحية « الجزيرة الخضراء » وجدتها غير محروسة تماماً، فنزل القرصان بها ، واستولوا عليها وأحرقوا مسجدها ، ثم عادوا إلى سفنهم مسرعين ليمضوا إلى ناحية وجدوا أن هجومهم عليها أجدى ،وهى عدوة مراكش مما يلى سبتة إلى الشرق ، أى أنهم دخلوا البحر الأبيض للمرة الأولى فى تاريخهم سنة ٢٤٥ هـ – ٨٥٩م ، وذلك حادث تاريخى فريد فى بابه جدير بأن ينبه عليه وعلى أهميته . ولو لم يجد المجوس أية مقاومة فى ناحية الجزيرة الخضراء لأقاموا أطول مما فعلوا ، ولكن المسلمين الأندلسيين هبوا لملاقاتهم، وألزموهم بالفرار .

توجه النورمانيون إلى الشاطىء الإفريقى، ونزلوا به عند « نكور » . ويعطينا ابن خلدون بعض التفاصيل عن إمارة « نكور » فى ذلك الحين ، وما فعله النورمانيون بها، بقوله فى سياق الكلام عن تاريخ « بنى صالح » أصحاب نكور : « . . قال : وولى من بعده – يعنى المعتصم بن صالح بن منصور – أخوه إدريس ، فاختط مدينة « نكور » فى عدوة الوادى ، ولم يكملها ، وهلك سنة ثلاث وأربعين (ومائة)، وولى من بعده ابنه سعيد ، واستفحل أمره . وكان ينزل مدينة « تمسامان » ، ثم اختط « نكور » لأول ولايته ونزلها ، وهى التى تسمى لهذا العهد « المزمة » بين نهرين أحدهما « نكور » ومخرجه من بلاد « كزنّاية » ،ومخرجه ومخرج وادى « ورغة » واحد ، والثانى « غيس » ومخرجه من بلاد بنى « وَرْياغَل » ، يجتمع النهران فى « أكدال » ثم يفترق النهران إلى البحر ، وتقابل نكور من عدوة الأندلس بِزلْيانة ، وغزا المجوس نكور هذه فى أساطيلهم سنة ٤٤ (ومائتين) ، فتغلبوا عليها، ثم اجتمع إلى سعيد البرانس وأخرجوهم منها[١] » .

ويزيدنا ابن القوطية تفصيلا عما فعل هؤلاء النورمانيون فى غارتهم تلك على نكور ، فيقول : « وتوجهوا إلى « ناكور » وأسروا بها جد ابن صالح ، وفداه الأمير عبد الرحمن بن الحكم (كذا) ، وهى يد بنى أمية عند بنى صالح[٢] » . وهى عبارة تدل على أن المجوس لم يكتفوا بالإغارة على « نكور » وإفساد نواحيها ، بل استطاعوا أسر أميرها . وفى هذه العبارة أخطاء :

(١) أورد هذه الفقرة زيبلى فيما جمع من أخبار النورمانيين فى كتابه :
Rerum Normannicorum ... p. 35.

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص٦٦.

أولها أن ابن القوطية يجعل غزو « نكور » فى أيام الأمير عبد الرحمن ، بينما هى فى أيام محمد، أى فى سنة ٢٤٥ هـ – ٨٥٩ م ، وثانيها أنهم لم يأسروا الأمير إذذاك سعيد بن صالح ، بل اثنين من أبناء اخوته[١] ، ولكنها تفيدنا على كل حال ، وهى تبين لنا أن علاقات الولاء التى ارتبط بها كثير من أمراء العدوة بالأمويين فى الأندلس إنما ترجع إلى ما قبل أيام عبد الرحمن الناصر كما يظن عادة .

ويجمع معظم مؤرخينا على ذكر حادث آخر للمجوس بإفريقية ، وهم يذكرونه بتطويل لا نستطيع معه إيراده بنصه ، وملخصه أن جماعة من المجوس نزلت بموقع ميناء أصيلا اليوم « Arzila » . وأقبل البربر يدافعونهم عن بلادهم ، فقالوا لهم : « لم نأت لحرب ، وإنما لنا كنوز فى هذا الموضع ، فكونوا ناحية حتى نستخرجها ثم نشارككم فيها » . فابتعد البربر وحفر المجوس ، واستخرجوا دَخَناً كثيراً عفناً . فحسب البربر أنه ذهب ، وهجموا على المجوس ، وفر هؤلاء إلى سفنهم . فلما أصاب البربر الدخن ندموا على ما فعلوا، ورغبوا المجوس فى العودة واستخراج المال، فقالوا: « قد نقضتم العهد» ، وساروا إلى الأندلس[٢] ويجعل المؤرخون ذلك سنة ٢٢٩ هـ – ٨٤٤م ، أى قبل غزو النورمانيين إشبيلية الذى ذكرناه ، ويحتمل أن يكون قد وقع فى هذا التاريخ فعلا ، ويحتمل كذلك أن يكون قد حدث بعده ، لأن الذى قامت به كانت جماعة من المجوس لا أسطولهم الرئيسى الكبير . ويهمنا من هذا الخبر أن نستنتج أن المجوس كانوا إذا أصابوا فى غزواتهم شيئاً من من الحبوب التمسوا ناحية خالية يعرفونها من الساحل، وحفروا فيها ودفنوا الحبوب ليعودوا لاستخراجها وقت الحاجة ، وتلك ملاحظة لها أهميتها لمن يدرسون تاريخ النورمانيين .

ونمضى فى دراسة رواية ابن عذارى التى ذكرناها عن هذه الغزوة النورمانية الثانية ، فهو يقول إنهم بعد أن أغاروا على « نكور » اتجهوا إلى الأندلس، ونزلوا بساحل تُدْمير وهى مُرْسية . ويبدو أن الساحل فى هذه الناحية الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة الأندلسية لم يكن محروساً تماماً ،

---

(١) Dozy: Recherches, II, p. 282.

(٢) البكرى . المسالك والممالك . أورده زيبل، ص ٧ — ٨ .
ابن عذارى : البيان . ج ١ . أورده زيبل، ص ١٥ — ١٦ .

لأن أحداً لم يكن ينتظر أن تصل إليه ضربات المجوس . ولهذا استطاعوا النزول إلى البر ، وتمكنوا من صعود النهر إلى أوريوله Orihuela، وهى ليست بعيدة إلى الداخل .

ويجمع المؤرخون على أن النورمان ذهبوا بعد ذلك إلى « إفرنجة »، أى إلى جنوبى غالة ، ولا نعرف السبب فى انصرافهم السريع عن الأندلس ، ولكن حركتهم تلك تتفق مع طبيعة غاراتهم إذ ذاك ، فقد كانوا لا يكادون يفوزون بشىء من ناحية حتى يغادروها إلى غيرها إذا لاحت لهم فرصة غزو وغنم أسهل .

وتؤيد المراجع الفرنسية اللاتينية القديمة ما يذكره مؤرخو المسلمين من أن « المجوس » قضوا الشتاء عند ساحل فرنسا الجنوبى ، عند منابع الرون، وأنه غرقت لهم هناك أربعون سفينة فى عاصفة عنيفة. فيذكر « بنواسانت — مور Benoit Sainte-Maur » أن النورمانيين وصلوا سواحل إيطاليا فى هذه الغارة ، ثم أصابتهم عاصفة أثناء رجوعهم ، فغرق من سفنهم نحو أربعين . ويضيف الراوية « برودانس » أن النورمانيين نزلوا سواحل پروڤانس فى ذلك الحين ، وقضوا الشتاء بجزيرة كاماريا (Camaria = Camargue) ، أى فى المثلث المحصور بين فرعى مصب الرون . أما هذا المكان الذى يذهب ابن عذارى إلى أنه سمى باسم النورمانيين ، فلم نستطع تحقيقه ، وذهب دوزى إلى أن « كاماريا » ربما كانت تسمى باسم النورمانيين حتى زمن ابن عذارى — أو زمن المؤرخ الذى نقل عنه وهو عريب بن سعد القرطبى ، أى إلى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) ، ثم سميت كاماريا بعد ذلك .

فإذا انقضى الشتاء ، شتاء ٢٤٥ هـ — ٨٦٠ م — فقد عاد النورمانيون إلى الأندلس من جديد فى طريقهم إلى بلادهم بمحاذاة ساحل الأندلس الشرقى ، وهنا نجد رواية النويرى أكثر تفصيلا من رواية ابن عذارى ، فهو يقول بعد أن يتحدث عن غاراتهم على إفرنجة : « ثم انصرفوا فلقيهم مراكب الأمير محمد ، فقاتلوهم وأحرقوا مركبين من مراكب المجوس ، وأخذوا مركبين وغنموا ما فيها ، فجد المجوس عند ذلك فى القتال ، فاستشهد جماعة من المسلمين ، ومضت مراكب المجوس حتى وصلوا إلى مدينة بنبلونة

(١) Dozy: Recherches, I, p. 282.

Pampluna ، فأصابوا صاحبها غرسية الفرنجى ، ففدى نفسه بتسعين ألف دينار[1] » .

فأما إشارته إلى ملاحقة سفن الأمير محمد لأسطول النورمان ، فتدل على أن محمداً هذا عجل بإرسال سفنه إلى الساحل الشرقى لبلاده لحراستها من المجوس . ولم تظل هذه السفن تنتظرهم فى مياه الأندلس، بل سارت نحو ساحل فرنسا الجنوبى ، ولم تكد سفن المجوس تقلع فى اتجاه شاطىء الأندلس حتى هاجمتها سفن المسلمين هجوماً عنيفاً ، فأغرقت منها سفينتين واستولت على سفينتين أخريين . وتلك هى المرة الأولى التى نسمع فيها بأسطول أندلسى فى البحر الأبيض ، ومن ذلك الحين سنجد سفن هذا الأسطول تحرس هذا الساحل وتنشر سيادتها على مياهه ، بل ستستولى على جزائر البليار بعد قليل فى أيام الأمير محمد ، ومن ثم ستسود هذا الحوض الغربى للبحر الأبيض المتوسط. وستنشأ دور الصناعة فى مرسية والمرية ، بل ستنشأ موانىء جديدة مثل بجانة Pechina، ويصبح هذا الساحل من أحصن سواحل الأندلس الإسلامى وأكثرها عمارة ونشاطاً . وهكذا نرى أن هذه الغارات النورمانية كانت العامل الأول فى ميلاد البحرية الأندلسية على السواحل الغربية أولا ، ثم الجنوبية ثم الشرقية .

وأما ما ذكره النويرى من غارة النورمانيين على « مدينة بنبلونة » ، وأسرهم صاحبها غرسية ، فتؤيده المراجع الإسبانية النصرانية كذلك . فقد كان على عرش نافار (نبرة) إذذاك أمير يسمى غرسية بن انيجو Garcia-Inego ، ولكن النويرى وابن الأثير ينفردان[2] بذكر أسر النورمانيين إياه، وافتدائه نفسه بتسعين ألف دينار ، وتاريخ « نبرة » فى هذه العصور أغمض من أن نستطيع تحقيق هذه النقطة على أى حال .

واختفى المجوس بعد ذلك ، فلم يظهروا أمام شواطىء الأندلس إلا فى

---

(١) رواه زيبل فى كتابه الآنف الذكر ، ص ٣٣ .

(٢) انظر زايبل . ص ٢٣ . وقد ذكر المقرى جرثيا بن إنييجو باسم غرسية ابن ونقه،وهو تعريب Inigo ، وذكر أنه كان معاصراً للأمير محمد، ولأردونيو بن اذفنش ، وذكر أنه كان صاحب بنبلونه ، مما يثبت صحة ما ذهب إليه ابن الأثير والنويرى

انظر : المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .

Dozy, Recherches, I, 284-285.

خلافة الحكم المستنصر ، وفى أول رجب سنة ٣٥٥هـ — ٢٣ يونيو ٩٦٦ م ، على التحديد . ثم عادوا بعد ذلك بثلاثين سنة ، ونكتفى بهذا القدر من تفصيل غارات النورمانيين فى الأندلس ، لأن هاتين الغارتين الأخيرتين شديدتا الشبه بالغارتين اللتين فصلنا أمرهما .

وقد أشرت إلى النتائج التاريخية لكل غزوة فى موضعها من هذا البحث ، وبقى أن أختمه بالإشارة إلى ما خلقته هذه الغزوات من الرعب فى نفوس أهل الأندلس من هؤلاء القراصنة العتاة . وقد ظل هذا الخوف متأصلا فى نفوس أهل الأندلس إلى زمن الإدريسى ، أى بعد قرنين ونيف ، فهو يقول : « وكان يخرج فيها — أى فى المراكب التى أطلق الأندلسيون عليها اسم القراقر — أقوام يعرفون بالمجوس ، كانت لهم شدة وبأس وجلد على ركوب البحر ، وكانوا إذا خرجوا تُخلى أمامهم أهل السواحل ، يفرون منها مخافة منهم ، وكانوا لا يخرجون إلا على رأس ستة أعوام أو سبعة ، وكانوا أقل ما يخرجون فى أربعين مركباً ، وقد يخرجون فى مائة وأقل وأكثر ، وكانوا يغلبون كل من لقوه فى البحر ويسلبونهم ويأسرونهم[١] » .

---

(١) رواه زيبل . انظر كتابه الآنف الذكر . ص ١١ .

المراجع

مراجع عربية :

مخطوطات :

ابن حيان : « المقتبس » ، قطعة منه عن تاريخ الأندلس فى عصر عبد الرحمن الأوسط ، لدى الأستاذ عبد الحميد العبادى بك .

ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، مخطوط ، دار الكتب المصرية ، ج ٣ .

أبو الخطاب بن دحية : المطرب من أشعار أهل المغرب . نسخة مصورة من مخطوط أوكسفورد محفوظة فى دار الكتب المصرية .

كتب مطبوعة :

ابن الأبار : الحلة السيراء ، القطعة التى نشرها دوزى فى كتاب
Notice sur quelques manuscrits arabes, Leyde 1847-1851.
Zeippel: Rerum Normannicorum ..."

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، طبعة القاهرة سنة ١٩٤٥ والقطعة التى نشرها تسايبل فى

أخبار مجموعة ، طبعة لاڤويتنى أى الكانترا ، مدريد ١٨٦٧ .

الإدريسى : نزهة المشتاق ، طبعة دوزى ودى خوية ، ليدن ١٨٦٦ .

البكرى : صفة إفريقية والمغرب ، طبعة دى سلان ، الجزائر ١٩١١ .

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر (طبعة بولاق) ج ٦ ، والجزء الذى نشره تسايبل فى كتابه الآنف الذكر .

ابن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار فى خبر الأقطار ، طبعة ليڤى بروڤنسال ، القاهرة ١٩٣٨ .

ابن عذارى : البيان المغرب (طبعة دوزى) ج ١ ، ٢ ، ليدن ١٨٤٨ — ١٨٥١ .

الفراء ، أبو على الحسين بن محمد ، رسل الملوك ، طبعة القاهرة ١٩٤٧ .

القزوينى ، زكريا بن محمد ، آثار البلاد ، القطعة التى نشرها تسايبل فى كتابه الآنف الذكر .

ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، طبعة رميرا ، مدريد ١٩٢٦ .

المقرى ، نفح الطيب ، طبعة دوزى ورايت وكريل ودوجا ، ليدن سنة ١٨٥٥ — ١٨٦١ .

المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، طبعة الدكتور محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٣٨ .

النويرى ، نهاية الأرب ، ج ١، ٢ ، طبعة جسبار ريميرو ، مدريد ١٩١٨ .

مراجع غير عربية :

BALLESTEROS; *Historia de Espana y su influencia universal.* (Barcelona 1918-1936) vol. II.

Chronicon Albeldense apud A. HUICI: *Cronicas latinas de la Reconquista.* (Valencia, 1923) v. I.

DANSTRUP, JOHN, *A history of Denmark* (London 1930).

DIERKS, GUSTAV: *Geschichte Spaniens von den fruhsten Zeiten bis auf die Gegenwart.* (Hambourg 1890) vol. I.

DOZY, R., *Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la Conquête de l'Andalousie par les Almoravides* (2e. éd. Leyde 1931) vol. II.

DOZY. R., *Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen-âge.* (Leyde, 1ère éd.) vol. II. pp. 250 *sqq.*

FISHER: *A history of Europe.* (London 1937).

KRUSE, *Chronicon Nortmannorum...*, apud DOZY, *Recherches...*, II, p. 250.

KUNIK: *Die Berufung der schwedischen Rodsen durch die Finnen und Slawen,* tome II. apud DOZY, *Recherches...*, II, p. 257.

JACOB, GEORG; *Arabische Berichte von Gesandten an germanische Furstenhofe am g.u.* 10. *Johrhundert.* (Leipzig u. Berlin, 1927).

JACOB, GEORG: *Studien in arabischen Geografen.* (Berlin 1891) Heft 1.

LÉVI PROVENÇAL: *Un échange d'ambassades entre Cordoue et Byzance au IXe. siècle* dans: *L'Islam d'Occident.* (Paris, 1948) pp. 79 *sqq.*

Ibidem: *Histoire de l'Espagne musulmane.* tome I. (Le Caire 1944).

MAWER, ALLEN; *The Vikings. Camb. Med. Hist.* III.

MOOYER: *Die Einfalle der Normannen in die pyrenaische Halbinsel. Eine grosztentheils aus dem Danischen ubersetzte Zusammenstellung der daruber vorhandenen Nachrichten.* Munster u. Munden.

WEINHOLD, KARL: *Altnordisches Leben.*

حسين مؤنس

بحث فى
الجلاء الانجليزى عن مصر

وبعثة سير هنرى درمند ولف [1]

احتل الإنجليز مصر — أو أجزاء من أراضى مصر ثلاث مرات خلال القرن التاسع عشر ، وفى المرتين الأوليين كان الاحتلال مرتبطاً بالمسائل والظروف الأوربية أو ناشئاً عنها ، فى حين أنه فى المرة الأخيرة والثالثة كان الاحتلال كبير الصلة بمسائل البحر الأبيض المتوسط بصفة خاصة — وهدفه الأكبر هو تثبيت دعائم النفوذ الإنجليزى نهائياً فى وادى النيل .

وطئت أقدام الإنجليز مصر لأول مرة فى مطلع القرن التاسع عشر ، وذلك لإخراج الفرنسيين من مصر ، حين وجدت الحكومة الإنجليزية أن الأتراك وحدهم — وهم الذين يدعون لأنفسهم حق السيادة على مصر — غير قادرين على إرغام الفرنسيين على الجلاء ، وحين وجدت أن الثورات الداخلية وقوات المماليك عاجزة عن تنفيذ ما ترمى إليه السياسة الخارجية الإنجليزية من تطهير وادى النيل من الاحتلال الأجنبى الفرنسى .

ولم تكن السياسة الخارجية الإنجليزية ترمى فى ذلك الوقت — أى فى مستهل القرن التاسع عشر — إلى نجدة مصر ، أو أن هدفها كان العمل على إنقاذ مصر والمحافظة على ما تمتعت به من استقلال فعلى ، وإنما كانت

---

(١) هذا البحث معتمد إلى حد كبير على ما نشرته الحكومة الإنجليزية من وثائق سياسية فى الكتب الزرق Blue Books — سنتى ١٨٨٦ ، ١٨٨٧ — ، وعلى ما نشرته الحكومة الفرنسية من وثائق سياسية جمعتها فى الكتاب الأصفر Livre Jaune ، سنة ١٨٩٣ ، وفى مجموعة Documents Diplomatiques Français ؛ وتعد الوثائق التى نشرتها الحكومة الألمانية فى مجموعة Grosse Politik من أهم المصادر التى يرجع إليها فى هذا الموضوع . وهناك بعض الكتب المهمة أشير إليها فى خلال ذلك البحث .

ترى فى بقاء الفرنسيين فى مصر خطراً كبيراً يهدد كيان المستعمرات الإنجليزية فى الشرق ، وينذر المصالح الإنجليزية فى الهند بشر مستطير ، ويعطى لفرنسا قواعد بحرية وتجارية تجعلها تستطيع مطمئنة منافسة إنجلترا فى البحر الأبيض المتوسط وتثير الصعوبات والعراقيل فى سبيلها . وإذن كان على إنجلترا كما وجدت أن تحتل مصر فترة من الزمن ، بعد أن غادرها الفرنسيون ، ولكن الحكومة الإنجليزية والحكومة العثمانية تساءلتا ما هو أمد ذلك الاحتلال ، ومتى يتم الجلاء الإنجليزى عن البلاد .

فى هذه الحالة كانت إنجلترا مرتبطة باتفاقات لها صبغة قانونية دولية ، فهى مرتبطة بتحالفها مع الدولة العثمانية ، ذلك التحالف الذى ينص على عودة مصر إلى سيادة العثمانيين فى الوقت الذى يخرج فيه آخر جندى فرنسى من مصر . فكان على بريطانيا راضية أو كارهة أن تنفذ هذا الاتفاق ، ولكن تنفيذ ذلك الاتفاق لم يكن بالأمر الهين ، فهناك مصالح إنجليزية ترى حكومة لندن المحافظة عليها قبل كل شىء ، وهناك صلات الصداقة مع طائفة كبيرة من المماليك تحتم على إنجلترا رعاية مصالحهم وحمايتهم من انتقام العثمانيين ، فما كانت عداوة العثمانيين للمماليك بأقل من عداوتهم للفرنسيين — كما كان يهم إنجلترا ألا تعود الفوضى إلى مصر مرة أخرى ، فتصبح فريسة لغزو فرنسى آخر ، وتعود المسألة المصرية إلى الظهور من جديد .

وكانت مصلحة إنجلترا تستلزم — كما ترى الحكومة الإنجليزية — احتلال مصر أو أجزاء من مصر ، لتكن السواحل الشمالية مثلا ، لمنع أى دولة أوربية من غزو مصر أو التفكير فى غزوها ، ثم المحافظة على النظام فى مصر ، ثم حماية المماليك ؛ ولذا ترددت الحكومة الإنجليزية فى الجلاء . ولكن نصوص معاهدة أميان بين فرنسا وإنجلترا كانت تقرر بوضوح ضرورة جلاء الإنجليز عن مصر وسواحلها ، وكان نابليون الذى أصبح سيد أوربا حريصاً على تنفيذ ذلك الشرط ، ولذا أرسل سباستيانى إلى مصر ليطمئن إلى انتهاء الجلاء الإنجليزى ، فوجود الجنود الإنجليز فى مصر أمر لا تقبله فرنسا ولا تستسيغه ؛ واضطر الإنجليز أخيراً إلى الجلاء . وكان جلاؤهم ممهداً بلا ريب لارتقاء محمد على حكم مصر ، وللاستقلال

الذى نعمت به مصر فى عهده ، والنهضة الهائلة التى تمت على يديه[١] .

والمرة الثانية التى احتل فيها الإنجليز أجزاء من مصر كانت بعد مضى أربع سنوات من الجلاء الأول ، ولم يكن الغرض المباشر للحكومة الإنجليزية فى هذه المرة احتلال مصر أو القضاء على نفوذ محمد على أو مناصرة المماليك ، وإنما كما يقول مؤرخ هذه الفترة[٢] ، جاء احتلال الإسكندرية نتيجة للظروف الدولية الأوربية وموقف الدولة العثمانية منها . ولذا حين أعادت الدولة العثمانية النظر فى موقفها ، وسلكت مسلكاً يرضى الحكومة الإنجليزية لم يعد لبقاء حملة فريزر الإنجليزية فى الإسكندرية مبرر ، وانتهى الأمر بجلائها بعد أن فشلت مراراً فى احتلال الجهات القريبة من الاسكندرية .

وأما الاحتلال الثالث فلقد شاهده الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، ومنذ الوقت الذى وطئت فيه أقدام الإنجليز مصر وهم فى مصر فى أمر مضطرب . وهم فى قلق دائم على ذلك المركز الجديد الذى أصبح لهم فى وادى النيل ، ولم يكن ذلك الموقف بغريب على الدول الأوربية الكبرى ، أو غير معروف لها . ولقد صرح الوزراء الإنجليز بذلك أكثر من مرة وفى أكثر من موقف ، صرحوا بذلك مراراً إلى ألمانيا ، وطلبوا منها فى غير مواربة العون والنجدة والتأييد ، ولكنهم رفضوا بحزم وبقوة أى تدخل من جانب الدول الأوربية منفردة أو مجتمعة ، لحل مسألة مصر أو مناقشتها فى مؤتمر عام . فلقد اعتبرت الوزارات الإنجليزية المتتالية أن دخول الإنجليز مصر واحتلالهم لها قد وضع حدا نهائيا للمسألة المصرية ، وأعاد النظام والأمن إلى ربوع البلاد ، وحافظ على الرعايا الأجانب ومصالحهم . وماذا تتطلب الدول الأوربية أكثر من ذلك ؟ ولقد عجب جرانفل وزير الخارجية الإنجليزية فى سنة ١٨٨٢ كيف لم تقدم الدول الأوربية الشكر لإنجلترا على ما بذلت من مجهود وتكبدت من مشاق ونفقات ، فى سبيل القضاء على الثورة العرابية .

وبالرغم من ذلك تضاربت آراء الوزراء الإنجليز والرأى العام

---

(١) ولقد أجاد فى وصف الظروف الذى دعت إلى ذلك الاحتلال ، وما خالج الإنجليز من تردد فى الجلاء الأستاذ محمد شفيق غربال بك ، فى كتابه The Beginnings of the Egyptian Question .

(٢) محمد شفيق غربال بك ، فى نفس ذلك الكتاب السابق .

الإنجليزى فيما يجب أن يفعل فى مصر: هل يجلو الإنجليز عن البلاد فى وقت قريب؟ هل تضم نهائيًّا لإنجلترا، وتقطع السيادة العثمانية؟ أو هل يقتصر الأمر على مجرد احتلال مع الاحتفاظ بسيادة السلاطين العثمانيين؟ أو هل تعلن حماية صريحة على وادى النيل؟.

كانت الحكومة البريطانية تحس بضعف مركزها فى مصر، وتشعر بعدم شرعيته من ناحية القانون الدولى، ولما كانت مقتنعة بأن مصلحتها تقضى بألا تتحدى الدول الأوربية الكبرى التى ما كانت كلها راضية عن الاحتلال، وخاصة فرنسا التى رأت فى الاحتلال إذلالا وهزيمة لا تقل عن هزيمة سيدان، وناوءت الاحتلال بكل ما استطاعت من قوة، وتوالت انتقاداتها واحتجاجها، ولما كانت الحكومة الإنجليزية لا تبغى كذلك إثارة الأتراك واستثارة سخط المصريين واستيائهم، كان لزاماً عليها أن تعلن من حين لآخر، وفعلا أعلنت فى كثير من الأحيان فى البرلمان الإنجليزى وأمام الدول الكبرى — لا سيما فى السنوات الأولى للاحتلال — أن ليس فى نيتها البقاء فى مصر، وأن الجنود البريطانيين سيغادرون البلاد حين تثبت سلطة الخديو، وتهدأ عاصفة الثورة، حين يستقر الأمن والنظام نهائيًّا، ثم أضافت إلى ذلك فيما بعد — حين تعتقد اعتقاداً لا يشوبه شك بأن الإصلاحات التى تقوم بها قد ثبتت أصولها وأصبحت باقية راسخة.

ولقد وجدت الحكومة الإنجليزية قبل إعطاء هذه الوعود وبعد إعطائها، وجدت راضية أو كارهة أن ليس من السهل عليها الوفاء بهذه الوعود التى قطعتها على نفسها والتى واثقت بها الدول الكبرى وأخذتها على نفسها أمام المصريين.

وأما الرأى العام الإنجليزى فتستطيع الحكومة الإنجليزية بسهولة التأثير عليه وتوجيهه فى الناحية التى تريدها، وخاصة فى مسألة مثل البقاء فى مصر، والمحافظة على بلاد غنية تشرف على طرق مواصلاته العالمية، وعلى جانب كبير من تجارته، بلاد أصبحت للإنجليز فيها كما يرون، مصالح مادية واقتصادية كبيرة.

وأما أمام المصريين، فتستطيع الحكومة الإنجليزية أن تقنعهم بسلاح الحجة والبرهان وما عسى أن يجنوا من خيرات فى ظل الاحتلال، وإلا

فبسلاح القوة ، وخاصة فى وقت فشلت فيه الثورة العرابية ، ونال المصريين لمدة معينة – شاء الله أن تكون قصيرة – بعض اليأس والاستسلام .

وأما أمام الدول الأوربية ، فكما نعرف لم نجد دولة تعمل جادة على إثارة العراقيل أمام الإنجليز إلا فرنسا ، وإلا روسيا فى بعض الأوقات، وذلك حين تملى مصلحتها الخاصة ذلك . بل بالعكس لقد وجدنا الدولة الألمانية ، ولها من النفوذ الهائل فى أوربا ما لها ، تعمل على تأييد الإنجليز فى مصر وتعضيد الاحتلال ، وذلك إذا استثنينا الفترة ما بين سنتى ١٨٨٤ ، ١٨٨٥ .

حقيقة لقد وجدت إنجلترا فى السنوات الأولى للاحتلال فريقاً قليلا من المصريين أو ممن يدعون أنهم مصريون ، أو ممن يجدون فى الانضمام إلى جانب الإنجليز مغانم شخصية ، أو ممن وصل بهم اليأس والاستسلام بحيث أصبحوا يجدون أن مصير مصر أصبح من الناحية العملية معلقاً بهوى الدول العظمى وسياستها ، ففضلوا سيطرة بريطانيا .

وجدت بريطانيا فى هؤلاء مؤيدين للاحتلال ، ولكن الحكومات البريطانية لا تستطيع الاعتماد اعتماداً تاماً على ولاء مثل ذلك الفريق ، فهو قليل العدد من ناحية ، وهو غير مستقر من ناحية أخرى ، وأصحابه ذوو مطامع شخصية يؤثرون أنفسهم ومصالحهم قبل كل شىء ، فيميلون حيث تميل هذه المصالح . وإن كان هناك زعيم لذلك الفريق ، فلقد كان نوبار ذلك الرجل ؛ ترأس نوبار باشا ذلك الفريق الذى لم يكن له كيان معروف ولا مبادئ ثابتة ، ذلك الفريق الذى كان يرغب فى بسط الحماية البريطانية على مصر حتى قبل مجىء الإنجليز إلى هذه البلاد . فحين هاجت المسألة الشرقية فى سنة ١٨٧٧ ، وهى مشكلة بقاء الدولة العثمانية ، سافر نوبار باشا إلى لندن واجتمع بالساسة الإنجليز والألمان والأوربيين ليعرف رأى الدول فى أمر مستقبل مصر إذا ما انهارت الدولة العثمانية ، كان نوبار يرى الحرب الروسية التركية لن تكون حرباً محلية ، ولن تقتصر على الدولتين ، ولذا فالدولة العثمانية زائلة لا محالة فهى لن تستطيع الوقوف طويلا أمام روسيا ، وستقوم الحرب عندئذ بين روسيا وإنجلترا ، وستقسم ممتلكات الدولة العثمانية ، وهو يفضل فى هذه الحالة أن تفرض إنجلترا سلطانها على مصر ، ولا مفر من أن يضع والى مصر الخديو إسماعيل – لمصلحته هو الشخصية – نفسه

تحت حماية إنجلترا ، فحماية إنجلترا فى نظر نوبار خير من حماية فرنسية لاستنارة الإنجليز فى الاستعمار ، وهى ممكنة من الناحية العملية ، فالدول الكبرى لن تسلم بحماية فرنسية على مصر . ثم من ناحية ثانية لن تستطيع فرنسا فرض حماية على مصر أمام غضب إنجلترا .

ولقد عجب (منستر) السفير الألمانى فى لندن كيف تصدر مثل هذه الآراء من دبلوماسى مصرى . ولكنه لما كان إنجليزى الميول ، ولما كانت سياسة ألمانيا هى حث إنجلترا على الذهاب إلى مصر ، مدح حكمة نوبار السياسية وبعد نظره !

كان هذا رأى نوبار حين أقاله الخديو من الوزارة . وكانت هناك قلة من المصريين قليلة ترى رأى نوبار . ولما وجد نوبار عدم اكتراث الوزراء الإنجليز لآرائه نعى عليهم جهلهم بأمور مصر ، وقال « إن الأسد البريطانى مستغرق فى نومه إلى درجة أن أنيابه وأظفاره ستسرق منه دون أن يستيقظ[١] » على أن الأسد البريطانى حين هب من نومه اقتنص مصر ، ولكنه لم يكن هادئ البال ، فلقد اختلفت الآراء اختلافاً بينا بالنسبة للمسألة المصرية ومسألة الجلاء .

ففريق قليل العدد من الرأى العام البريطانى يناصر فكرة القومية ، وهو مخلص فى العمل على تحقيقها ، لا فيما يختص بالدول الأوربية المسيحية وحدها ، وإنما فيما يختص بالأمم الشرقية الإسلامية كذلك ، فهو لا يجد غضاضة فى أن تكون مصر للمصريين ، لهم وحدهم الحق فى تقرير مصيرهم وتحديد نوع الحكم الذى يختارونه ، على شرط أن يكون ذلك الحكم ديموقراطياً ، ولذا لا محيص فى نظر ذلك الفريق من الجلاء التام ، عقب القضاء مباشرة على هذه الثورة التى سببت الأزمة وأثارت الفوضى ، وعقب تدعيم سلطة الخديو بحيث يكون مركزه مطاعاً محترماً فى البلاد .

وربما كان يميل إلى هذا الرأى ، رأى مناصرة القومية ، وإنما بتحفظ شديد مستر جلادستون فى قرارة نفسه ، ولا سيما قبل أن يتولى الحكم . على أن هناك فرقاً كبيراً بين أقوال مستر جلادستون ونواياه وسياسته خارج الحكم ،

(١) الوثائق الألمانية Grosse Politik منستر إلى بيلوف وزير الخارجية الألمانية ، ٤ أبريل سنة ١٨٧٧ .

وأعماله وهو متربع على كرسى الحكم . وليس من الغريب جداً أن يقف هذا الرجل مثل ذلك الموقف، فهو قبل كل شىء مسيحى متعصب للمسيحية، فهو إلى رجل الدين أقرب منه إلى رجل السياسة ، وهو معروف بكرهه الشديد للتوسيع الاستعمارى وما يتشعب عنه من مشاكل ، ويرى فيه إرهاقاً للأمة الإنجليزية ، وإضرارا بمصالح إنجلترا الحقيقية ، وسفكاً للدم الإنجليزى فى غير وجه ، فجلادستون إذن من أنصار إنجلترا الصغيرة Little England ، وهو الذى انتقد انتقاداً مراً سياسة ديزريلى فى محاولة الاستحواذ على نصيب الخديو فى أسهم قناة السويس ، وحمل حملة شعواء على الخطة التى نسبت لديزريلى فى أنه يرغب فى شراء مصر من الباب العالى[١] . وهو يرى أن مصير الشعوب لا ينبغى أن يفصل فيه بالقوة ، وندد فعلا بأن امتلاك إنجلترا لمصر ما هو إلا خطوة فى سبيل التوسع الاستعمارى الممقوت ، وإنشاء إمبراطورية تمتد فى شمال إفريقية ومنابع النيل وإلى جنوبيها ، ورأى فى المراقبة الثنائية المالية التى فرضتها إنجلترا وفرنسا محاولة غير جديرة للإشراف السياسى على مصر ، وبكلمة عامة نعى على وزارة المحافظين سياستها العاملة على التوسع والقهر ، والسيطرة على مصر . .

عبر جلادستون عن هذه الآراء فيما بين عامى ١٨٧٧ ، ١٨٨٠ ، بدافع الكره الشخصى والحسد لديزريلى والحقد على المحافظين ، تحفزه فى الغالب عوامل الدعاية الحزبية السياسية ، والنزعة الدينية التى سيطرت على عقله وعواطفه خلال هذه المدة التى كان فيها خارج الوزارة ، فلما وصل إلى الحكم سنة ١٨٨٠ ، لم يعمل على تنفيذ المبادئ والأفكار التى نادى بها من قبل ، فهو مقيد بسياسة إنجلترا الخارجية العامة ، ولذا لم يجد بداً من انتهاج السياسة التى رسمتها والتى طالما ندد هو بها ، فأنكر أولا ما عزى إلى إنجلترا وفرنسا من محاولات لأخذ مصر ، ولم يتردد فى أن يعلن للملأ جميعاً أن سياسة إنجلترا يجب أن تكون المحافظة على ما تتمتع به مصر من استقلال ، كما تنص على ذلك الفرمانات المختلفة التى أصدرها الباب العالى . ولكنه أردف ذلك بإعلان آخر بأن الحكومة البريطانية لن تحيد عن مثل هذه

---

(١) Seton-Watson: Disraeli and Gladstone and the Eastern Question P. 310

السياسة إلا إذا أرغمتها الفوضى فى مصر على انتهاج سياسة أخرى ، كما رأى أن ليس من المصلحة فى شىء أن تحتل مصر قوة إنجليزية فرنسية .

ثم انحدر جلادستون فى تيار السياسة الحكومية التقليدية الجارف ، فنسى نسياناً تاماً أفكاره وآراءه القديمة ، فلقد خطب فى مجلس العموم البريطانى ، وذلك عقب ضرب الأسطول الإنجليزى لمدينة الإسكندرية يقول « نحن لا نؤدى واجبنا إزاء الإنسانية إذا لم نعمل على أن يحل السلام والنظام فى مصر محل الفوضى والاضطراب ، ونحن ننتظر الوقت الذى تساعدنا فيه دول أوربا المتمدينة إذا أرادت ، وإذا لم تنجح مساعينا فى الحصول على تعاون هذه الدول فستقوم إنجلترا بهذه المهمة وحدها »[١] ، ثم أعلن بعد ذلك أن مايدفعه للاهتمام بشئون مصر ثلاثة عوامل : — احترام القانون الدولى الأوربى ، وسلام شرقى أوربا ، والمحافظة على حقوق الخديو الشرعية ، وعدم الرغبة فى زيادة مسئوليات إنجلترا[٢] .

وكان جلادستون يرى إلى جانب ذلك أن لإنجلترا مهمة حضارية فى العالم لا بد لها من القيام بها ، وهى مناهضة الظلم والاستبداد ، ومناصرة النظم الدستورية الديمقراطية ، والعمل على رفع مستوى الشعوب المتأخرة التى تحتاج إلى توجيه وإرشاد ، فإنجلترا فى نظره لا تستطيع أن تقصر فى أداء ذلك الواجب ، ولن تستطيع التخلى عن مهمتها الحضارية ومهمتها السياسية الديمقراطية ، ووجد فى مصر كما سولت له نفسه مجالا لتحقيق هذه المهام .

على أن رئيس الوزارة الإنجليزية كان من الناحية العملية منصرفاً عن كل هذه الأمور ، كما تدل على ذلك خطاباته الخاصة[٣] . كان جلادستون منهمكاً قبل كل شىء فى مسائل السياسة الداخلية ، ومسائل الإصلاح الاجتماعى ، وعلاج مشكلة إيرلند التى ارتبط اسمها باسمه ، وأصبحت أزمة مستحكمة وداء عضالا ، حارت الحكومات الإنجليزية منذ مستهل القرن التاسع عشر إلى الآن فى كيفية علاجه ، وانصراف جلادستون إلى الأمور

---

(١) John Morley: Life of Gladstone. London. 1908.
جزء ٢ ، ص ٢٤١ ، ٢٦٨

(٢) نفس المصدر السابق

(٣) وهى موجودة بدار الوثائق الإنجليزية العامة Public Record Office . ولم تنشر بعد .

الداخلية جعل معلوماته فى الأمور الخارجية ضحلة وسطحية وقليلة ، وجعله يعهد بها إلى جرانفل Granville ويبعد مسئوليتها وتبعتها دائماً عن نفسه .

والحقيقة أن جلادستون كان حائراً بين مبادئه الدينية المتعصبة ، وأفكاره الخيالية المثالية ، ومعلوماته الضحلة فى السياسة الخارجية . وبين ما يتطلبه الحكم الفعلى من سياسية عملية رائدها المحافظة على مصالح إنجلترا فى الخارج فهو كما يدعى كاره للمغامرة المصرية . ووزارته هى التى أقدمت على إرسال أسطول إلى الإسكندرية وضربها بالقنابل وبعثت الجيوش إلى مصر لاحتلالها . ومبادئه القومية والخيالية تجعله لا يرى حقاً للإنجليز فى البقاء فى مصر . ولكن عقيدته فى مهمة إنجلترا الحضارية تدفعه على الاستمرار فى احتلال وادى النيل ، ولعدم خبرته بأمور السياسة الخارجيةهو يسرف فى إعطاء وعود للدول الكبرى بالجلاء عن مصر فى أقرب فرصة ، ولكن سياسة إنجلترا العملية ومصالحها وآراء زملائه ترغمه على عدم تنفيذ هذه الوعود . وهو مؤمن بالنظم الديمقراطية ، ولكن لا يرى أثناء وجوده فى الحكم تغذيتها أو تنميتها إلا بين الشعوب المسيحية الأوربية ، وهو يعمل على تحرير المصريين من الاستبداد المحلى ، كما يقول ، ليحل محله استبداداً أوربياً أجنبياً صارماً.

ولكن الوزير الإنجليزى الذى هاله حقيقة ضرب الاسكندرية ، وأفزعه احتلال مصر هو مستر بريت Birght وزير دوقية لانكستر ، فهو متمسك بمبادئ القومية مهما كانت الظروف وهويكره الحرب ، ويرى ألا فائدة منها ، ولذا اختلف اختلافاً شديداً مع مستر جلادستون على المسألة المصرية ، إذ لم ترقه سياسة الوزارة فى التدخل التدريجى ، ولم يجد مبرراً لضرب المدينة العظيمة ، ووجد حجة الحكومة الإنجليزية حجة واهية ، فلا حاجة فى نظره لإرسال الجنود الإنجليز إلى مصر ، ولذا خرج من الوزارة منتقداً سياستها ، غضبان أسفاً .

وهناك فريق ثان من الإنجليز لا يؤمن بفكرة الجلاء المباشر ، وعلى رأسه الملكة والبرنس أوف ويلز ولى العهد ، وهو فريق الأمبرياليين ، الاستعماريين المولعين بالسيطرة والتسلط ، والذين يرون حق إنجلترا فى عدم التخلى عما وضعت عليه يداها . وربما كان جانب كبير من الرأى العام

الإنجليرى فى صف هذا الفريق ، فتاريخ إنجلترا المعاصر حافل بالرجال الذين تغنوا بمجد إنجلترا وبالإمبراطورية الإنجليزية ، من أمثال ديزريلى وكارليل Carlyle وكنجزلى Kingsley ، ورسكن Ruskin وتينسيون Tennyson

وكانت الخطبة التى ألقاها ديزريلى فى ال Crystal Palace فى سنة ١٨٧٢ فاتحة الأمبريالزم الإنجليزى المعاصر حيث قال إن :

"The Empire was a proff of the commanding spirit of these island"

وكانت هذه الحركةبلا شك رد فعللظهور الدولة الألمانة وتفوقها فى أوربا ، فلم يكن هناك مناص من الاهتمام بالقومية الإنجلازية وبالإمبراطورية . ووجدت الحركة الإمبراطورية تعضيداً كبيراً كما عرفنا من رجال الأدب والتاريخ ، ومن رجال السياسة ، .من أمثال ديلك Dilke وفرود Froude وسيلى Seeley ، ويهمنا الثلاثة الأخيرون ، لأن كتبهم ظهرت ما بين سنتى ١٨٧٥ ، ١٨٨٥ . فديلك وهو من رجال السياسة كتب تاريخ إنجلترا العظمى Greater Britain ، وسيلى وهو من مؤرخى إنجلترا كتب توسع إنجلترا The Expansion of England ، وفرود كتب الإقيانوسة Oceane .

وكان من السهل على القائلين بهذه الفكرة إثارة الرأى العام الإنجليزى فى صالحهم ، فالطبقات العاملة كانت كبيرة التعضيد لحركة الأمبريالزم ، إذ فيه فتح لأسواق جديدة ، وفيه فتح مجال للعمل ، ومعالجة لمشكلة البطالة ، فالمسألة الاقتصادية كما يرى ذلك الفريق حافزة لبقاء الإنجليز فى مصر . وعمل على تشبثهم بالبقاء ، الضرائب الجمركية العالية التى فرضت على البضائع الإنجليزية الذاهبة الى أوربا ، وبعد ذلك ، هناك مزاحمة المصنوعات الألمانية . والطبقات العاملة بطبيعتها أسرع الى التأثر بالأعمال المدوية ، بضرب الإسكندرية وحادثة فاشودة مثلا ، أكثر من الطبقات الأخرى حتى الحاكمة منها . فلقد كانت أعمال البطولة والقوة والسيطرة أكثر تأثيراً وأسرع انطلاقاً الى عقول هذه الطبقة من الناس التى كانت تعنيها هذه المظاهر وهذه الأعمال الداوية أكثر مما تهمها مبادئ الحرية ومعانى الاستقلال وحقوق الشعوب المهضومة فى الحياة والكرامة . وستعمل بعض الكتب والمقالات التى نشرت أو ستنشر ، كما عملت بعض الصحف المؤيدة للاستعمار على

تعضيد المحافظين ، وتحبيذ سياسة الأمبريالزم وإظهارها فى مظهر عاطفى إنسانى خلاب أمام الرأى العام الإنجليزى يأخذ بمشاعره وينال تأييده .

كتب كبلج عن الهند ماضيها وحضارتهاوقصصها وعجائبها ، وكتب ملنر عن مصر وأشاد بالأعمال الحضارية التى قام بها الإنجليز على ضفاف النيل ، وكتب تشرشل عن حرب النهر Rivex watr وأعمال البطولة ، وكذا بادن باول وفيتز باترك — ستعمل هذه الكتب على استثارة غرائز التملك والتوسع ، وإهاجة شهوة الاستعمار والسيطرة — كما أن انتشار الصحافة الرخيصة بين طبقات الشعب الإنجليزى كانت كذلك عاملا على نمو الأمبريالزم الإنجليزى ، فى ذلك الوقت . واذا أضيف إلى هذا ، التنافس الشديد بين الدول الكبرى على الاستعمار ، وكتابات المؤلفين الاجتماعيين ، ونظرية دارون فى بقاء الأصلح ، وكذا النظرية البيولوجية السياسية التى تقول بحق الدول الكبيرة فى ابتلاع الدول الصغيرة ، وأن الشعوب الضعيفة يجب أن تموت وتفنى أمام الدول الكبيرة . كل ذلك كان أثره على الرأى العام الإنجليزى مشهوداً .

وهذا الفريق يرى من الطبيعى تعزيز مركز إنجلترا فى أوربا وفى الخارج ، وكانت حركته نتيجة لنمو القومية الإنجليزية ورد فعل لظهور الدولة الألمانية وتفوقها فى أوربا ، ولنمو رأس المال فى إنجلترا بعد أن أوصد أمامه كثير من أسواق أوربا ، فمن سنة ١٨٧٥ إلى سنة ١٩٠٠ نما رأس المال الإنجليزى إلى الضعف ، كذلك المنافسة التجارية الفرنسية والألمانية لإنجلترا وإقامة الحواجز الجمركية ، هذا أثار الاستعمارية الإنجليزية إلى التمسك بحقوقها . ولقد تأسست فى إنجلترا الجمعية الاتحادية الاستعمارية The Imperial Federation League للقيام على خدمة المصالح الاستعمارية الإنجلازية وتنميتها . وكان يؤيد هذه الجمعية بعض أساطين رجال السياسة الإنجليزية من أمثال مستر جوزف تشمبرلن ، ولورد روزبرى .

وأخذ يتضاءل حزب إنجلترا الصغيرة ، واضمحلت أراء كبدن والمانشستر سكول Manchester School ، وضعفت نظرية التجارة الحرة ، كما ضعفت الفكرة العالمية ، وسيطر الروح الحربى ، ونبغ الاستعماريون مثل تشمبرلن الذى كان عضواً نابهاً فى حزب الأحرار ، ثم اشترك فى حكومة

الاتحاديين Unionists ، ظهر مركز تشمبرلن ممتازاً بين الأمبرياليين .

وكانت النظرية الاستعمارية التى دعا إلى اعتناقها وروّج لها نظرية صبغتها اقتصادية ، فهو يرى ضرورة احتفاظ إنجلترا بممتلكاتها والزيادة عليها ، فكان يرى أن التجارة الإنجليزية تتبع العلم الإنجليزى أين يحل ، وأن المستقبل هو للإمبراطوريات الكبرى ، فيقول فى سنة ١٨٩٧ « نحن نعتقد فى عظمة الإمبراطورية ، نحن لا نخشى توسعها ، ونحن نرى أن الشعب كالفرد تماماً تعظم شخصيته وتعلو ، إذا كانت عليه مسئوليات عظيمة وواجبات ضخمة » .

وقبل تشمبرلن بفترة قصيرة نادى سير تشارلز ديلك « بأن مسألة مصر لا تحل إلا باستقلال الخديو ، أو باحتلال بريطانيا ، وإنى موقن بأنه يجب الحصول على مصر مثلما يجب المحافظة على الهند »[١] .

ومن أقوى القائلين بالإمبراطورية لورد روزبرى ، وهو من كبار الأحرار ، سيطر على وزارة الخارجية حيناً من الزمن ، وتزعم الأحرار وقتا ما . دحض لورد روزبرى الفكرة التى قال بها فريق من المفكرين والساسة الإنجليز ، بأن الامبراطورية البريطانية متسعة أكثر مماينبغى ، وقال بضرورة الزيادة فى هذه الممتلكات ، وبين أن الحكومة الإنجليزية لا يجب أن تنظر إلى الحاضر فحسب بل إلى المستقبل دائماً ، وأن هناك دولا تعمل على التوسع ، وتسعى حثيثاً وراء المغانم ، وتشرئب إلى التملك ، وتحن إلى السيطرة والغلبة ، فيجب أن تحرز إنجلترا قصب السبق فى هذه الميادين ، ويرى فوق ذلك أن لإنجلترا فى العالم رسالة حضارية ، ومهمة إنسانية لا مناص من القيام بها ، بل ويجب تأديتها على أكمل وجه ، فلا بد أن تسود اللغة الانجليزية والثقافة الانجليزية والنظم الانجليزية ومظاهر الحياة الانجليزية فى هذه الجهات من العالم التى يرفرف عليها العلم الإنجليزى ويجب أن تحافظ إنجلترا على ذلك التراث وتحميه .

ولقد غالى فريق الامبرياليين الانجليز فى اعتقاداته الاستعمارية ، فقال إن الانجليز هم بطارقة العالم الدينيين ! ! وأنهم استعماريون لا لأنهم أرادوا ذلك أو يريدون ، ولكن لقانون عالمى إلهى يوجههم ويهديهم إلى أداء

(١) Seton-Watson: Disraeli and Gladstone ص ٢٧٧ .

ذلك الفرض المقدس ، كما يدعون .

ويؤيد هذا الفريق بطبيعة الحال رجال الحرب ، فهم يرون أن الحرب ، بالرغم من كل أضرارها وسيئاتها ، تغذى فى الفرد والشعب روح الجرأة والاحتمال ، وتبعث فيه حب التضحية ، واحتقار الموت فى سبيل الوطن ، وفى سبيل المجد القومى أو أى مبدأ مقدس . ولهذا الفريق أيضا أنصاره من رجال البحرية ، فهم لا يتكلمون إلا عن الحرب ، ويتمنونها صادقين ، فالحرب فرصتهم الوحيدة ، فلها دربوا ، وإياها انتظروا ، لينالوا المجد والشرف والمكافأة المادية[1].

وهذا الفريق ، فريق « احكمى يا بريطانيا العالم » يرى من الطبيعى عدم سحب الجنود البريطانية من مصر فى وقت قريب ، بل يبقى الجنود الإنجليز فيها ما بقى للإنجليز نفوذ فى العالم ، ويجب أن تتوطد المصالح البريطانية توطيداً ما يضمن « لصاحبة الجلالة ملكة المملكة المتحدة وإمبراطورة الهند التفوق السياسى الدائم على ضفاف وادى النيل .

وفريق ثالث يرى أن تسير الضرورات السياسية خطة إنجلترا فى الحاضر والمستقبل ، فتعمل على حفظ توازن القوى فى البحر الأبيض المتوسط ، وخاصة بعد زيادة نفوذ فرنسا فى ذلك البحر ، فهو يرى أن الظروف السياسية فى ذلك البحر ، تملى على إنجلترا فرض الحماية البريطانية على مصر ، أسوة بما فعلته فرنسا فى تونس ، فإن خرجت فرنسا من تونس نظرت إنجلترا فى أمر الخروج من مصر ، وإن عادت فرنسا عادت إنجلترا . ولكن ، لكى يكون نظام الحماية له صبغته العملية القانونية الدولية ، هذا يستلزم بطبيعة الحال موافقة الدولة التى يفرض عليها النظام وموافقة الدول الكبرى ، أو على الأقل عدم معارضتها ، وما كان ذلك بالأمر الهين فيما يختص بمصر .

فمصر من الناحية القانونية الدولية تابعة للدولة العثمانية ، ولا يمكن بسط حماية أجنبية على أى جزء من أجزائها دون موافقتها ، ودون موافقة الدول التى أمضت معاهدة باريس سنة ١٨٥٦ ، ومعاهدة برلين سنة ١٨٧٨ ثم هناك اختلاف كبير بين مركز مصر الدولى ومركز تونس ، فمصر جزء من الدولة العثمانية لا تناطح دولتان فى ذلك ، ولكن مركز تونس بالنسبة للدولة العثمانية اختلفت فيه آراء الدول اختلافاً بيناً ، فبعضها لا يرى صلة سياسية ما

---

(١) Marder: British Naval Policy، صفحات ١٩ و ٢٠ .

بين الدولتين ، والبعض الآخر يرى أن تونس ما هى إلا جزء من الدولة العثمانية . أكدت الفكرة الأولى فرنسا ، وأيدت الفكرة الثانية إنجلترا ، وكانت فرنسا ترمى من وراء ذلك إلى إظهار الاختلاف بين مركز مصر ومركز تونس ، وأرادت إنجلترا أن تشير إلى أنه يحل لها فى مصر ما يحل لفرنسا فى تونس .

وفريق رابع متطرف فى الاستعمار يرى الفصل نهائياً فى أمر مصير مصر ، وحل الموقف حلا حاسما ، ووضع الدول أمام أمر واقع ، فتضم مصر نهائياً لتصبح جزءاً من الدولة البريطانية . وهذا الفريق تنقصه بلا شك الدراية والخبرة السياسية . ومعنى ذلك الرأى أن إنجلترا تكون قد أخذت نهائيـــاً بالرأى الذى يقول بتقسيم ممتلكات الدولة للعثمانية التى وافقت الدول على ضرورة المحافظة على كيانها السياسى . ولقد نوقشت فعلا مسألة ضم مصر إلى بريطانيا فى مجلس الوزراء البريطانى ، منذ أن وضع الانجليز أقدامهم فى مصر فى سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، ورأى كثير من الوزراء الأحرار ! ! هذا الرأى ، وطلب قطع الصلة نهائياً بين الدولة العثمانية ومصر ، ولا ريب فى أنهم كانوا مدفوعين بكرههم العميق للدولة العثمانية ، ولكن هذا الرأى لم يلق موافقة ، أولا ، لأن الحكومة الانجليزية رتبطت أمام الدول الكبرى بوعود الجلاء ، ثم فى هذا الرأى خرق للقانون الدولى لا توافق الدول الكبرى عليه بسهولة ، ثم إن لورد جرانفل وزير الخارجية رفض الموافقة عليه ، لما قد يسببه من إشكالات سياسية لا طاقة لانجلترا بها ، وحزب الأحرار فى غنى عنها ، ثم لأنه يرى أن مسألة الضم ليست فى صالح إنجلترا من ناحية أخرى ، لأنها ستثير المسألة الشرقية : مسألة بقاء الدولة العثمانية ، ولا ريب أن وزير الخارجية الانجليزية اتبع فى ذلك نصيحة المستشار الألمانى بزمرك ، فبزمرك كان لا يستسيغ فكرة القضاء على السيادة العثمانية على مصر . ولا يعضد فكرة ضم مصر إلى إنجلترا (١) .

وفريق خامس قال بضم محجب مستور وغير مباشر ، وبذلك تظهر إنجلترا أمام الدول الكبرى محترمة للقانون الدولى مراعية لحقوق الشعوب ، وفى نفس الوقت تتمتع بحرية كبيرة فى عمل ما تشاء فى مصر ، وعلى ممر الزمن تصبح مصر فى الأمر الواقع جزءاً من الإمبراطورية الإنجليزية .

---

(١) انظر للمؤلف موقف المانيا إزاء المسألة المصرية .
الوثائق الألمانية هربرت بزمرك إلى بزمرك ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ .

وفريق سادس يرى أن تجلو إنجلترا عن مصر إذا طلبت الدول الكبرى ذلك وألحت فى الطلب ، ولكن على إنجلترا أن تحتفظ لنفسها بحق الرجوع إلى مصر فى الوقت المناسب ، وللوصول إلى هذا الهدف يجب أن تثبت إنجلترا أقدامها فى الجيش المصرى والإدارة المصرية بحيث تضمن ضماناً تاماً تفوق نفوذها فى مصر .

وفريق سابع قليل العدد . يتهمه أعداؤه السياسيون بأنه لا يتقيد كثيراً بالواقع وبالضرورات السياسية ، وإنما يذهب به الخيال كل مذهب . يظن هذا الفريق أن خير حل للمسألة المصرية ترضى عنه الدول جميعاً ، وربما رضيه المصريون أيضاً ، هو أن تعلن مصر دولة محايدة كبلجيكا أو سويسره ، ولكن لا مناص من موافقة الدول الكبرى على ذلك المركز الجديد المقترح لمصر ، وإلا لما صار لهذا الحياد قيمة . وكان جرانفل يرى فى وقت ما هذا الرأى . وخاصة فى أوائل عهد الاحتلال ، فى سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، وعرض هذا الرأى فعلا على بزمرك ، ولكن المستشار الألمانى أشار إلى ضرورة موافقة الدول الكبرى على ضمان ذلك المركز الجديد لمصر ، وبين فى جلاء أن الدولة الألمانية غير مستعدة للاشتراك فى هذا الضمان ، لأنه ربما اعترضت على ذلك الحل إحدى الدول الكبرى ، فألمانيا غير مستعدة للدخول فى حرب من أجل مسألة مصر . ولقد نوقشت مسألة حياد مصر مرة ثانية فى سنتى ١٨٨٥ ، ١٨٨٧ ، فلم يكن عند الحكومة الإنجليزية مانع من قبول هذه الفكرة والجلاء عن مصر على أساس شروط معينة ، وهذا ما سنناقشه فى بعثة سير هنرى درمندولف .

وهناك فريق لم يقابل احتلال مصر بأى اهتمام ، والواقع أن الشعب الإنجليزى لم يقابل انتصار جنوده فى وادى النيل بحماس كبير ، فالاستعراض الذى أقامه المنتصرون لم يلق اهتماماً من جانب الشعب ، كما لم تلق الخطب التى ألقاها الوزراء الانجليز فى هذا الشأن أية حماسة من الجمهور إذ ليس فيها شىء من أعمال البطولة أو العظمة.

اختلفت إذن الآراء فى أمر مصير مصر ، ولقد ناقشت حكومة جلادستون — حكومة الأحرار — هذه الآراء جميعاً ، كما لم يكن مفر من مناقشتها فى

---

(١) الوثائق الألمانية هربرت بزمرك ، إلى بزمرك ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ .

عهد حكومة المحافظين التى خلفتها . ولكن وزارة جلادستون استقرت مؤقتاً على هذا الرأى ، وهو بقاء الاحتلال الإنجليزى فى ظل السيادة التركية ، ويبقى ما شاء الله إلى أن تصل الحكومة الإنجليزية إلى رأى جديد ، إلى الوقت الذى تعتقد فيه الدولة الانجليزية أنها قد قامت بمهمتها وأنه لا خوف على الأصلاحات التى قامت بها . وإن كان رئيس الوزارة نفسه يود لو تخلص عاجلا من المسألة المصرية التى سببت له كثيراً من المشاكل ، وأثرت أثراً سيئاً فى علاقة حكومته بفرنسا . رأت حكومة جلادستون صعوبة الجلاء ، وقدرت عظم المتاعب الملقاة على عاتقها ، فكما يقول سير تشارلز ديلك أحد أعضاء هذه الوزارة « لا بد للخديو من حرس قوى يقوى مركزه ، ولا بد من وجود قوة لمراقبة الأمور فى السودان ، وقوة ثالثة لمنع غارات البدو ولحماية قناة السويس » ، كما أن تقرير لورد نورثبرك الذى بعثته إنجلترا فى سنة ١٨٨٤ لدراسة أحوال مصر المالية بين سوء مغبة الجلاء عن مصر .

ولم يكن كره سولسبرى للمغامرة المصرية بأقل من كره جلادستون لها ، فقررت حكومته فكرة الجلاء على أساس شروط معينة ، وأرسلت لذلك بعثة سير هنرى درمند ولف .

ولعل الدافع المهم لذلك هو الموقف العدائى الذى اتخذته ألمانيا فى سنتى ١٨٨٤ ، ١٨٨٥ . ففى سنة ١٨٨٤ أعاد بزمرك المستشار الألمانى النظر فى موقفه بأزاء الامبريالزم الألمانى ، وأصبح على قدم الاستعداد لتأييد آمال ألمانيا الاستعمارية . وخشى الانجليز من جانبهم أن تشن ألمانيا سياسة استعمارية قوية ، بل وجدوا بالفعل أن تقدم الألمان فى الاستعمار أصبح أمراً جداً ، فأخذوا يضعون العراقيل والعقبات أمام الدولة الجديدة ، وهاجمت الصحف الانجليزية بعنف السياسة الاستعمارية الألمانية ، ولذا فلا عجب إذا ثارت ثائرة الشعب الألمانى والحكومة الألمانية ، وغضب المستشار الألمانى غضباً شديداً ، واتخذ من مسألة مصر وسيلة يتهدد بها إنجلترا ، فذكر الانجليز بمركزهم الضعيف من الناحية الدولية فى مصر ، وبين أنه مستعد لأن يأخذ جانب فرنسا وروسيا فى معارضة الاحتلال . وكانت المسألة الاستعمارية فى نظره جد خطيرة ، فلقد كانت الانتخابات

القادمة فى ألمانيا تحتم عليه أن يبين رأى الحكومة صراحة فى الاستعمار إذا كانت تريد تأييد نواب الشعب الألمانى لها .

ولم تقف ألمانيا عند هذا الحد ، بل وأيدت بالفعل وجهة النظر الفرنسية فى المسألة المالية المصرية ، وأعلنت أن لها بالفعل مصالح مالية مهمة فى مصر[١] . وإزاء هذا الموقف أخذت الحكومة البريطانية تفكر جديًّا فى حل المسألة المصرية حلا يرضى الباب العالى حتى لا تصبح شوكة فى جانبها تستغلها أى دولة كبرى ترغب فى مضايقة إنجلترا وإذلالها . ومن ناحية ثانية كانت الحكومة البريطانية على يقين بأن ألمانيا تؤيد اتفاق انجلترا مع الباب العالى بخصوص المسألة المصرية ، ومن هنا إلى حد كبير كانت بعثة سير هنرى درمند ولف إلى تركيا ومصر .

انتدب سير هنرى درمند ولف « كمندوب فوق العادة ووزير مفوض لدى السلطان ، « فى مهمة خاصة تتعلق بأمور مصر » ، ولم تكن شخصية سير هنرى مجهولة لدى السلطان ، كان شخصية محببة لدى السلطان ، عارفة بأخبار الشرق والمسلمين ، فلقد عمل مدة كقنصل جنرال ووزير مفوض لحكومته فى مراكش ، ولذا كان اختياره اختياراً موفقاً — وتبدأ التعليمات المرسلة إليه من اللورد سولسبرى رئيس الحكومة الانجليزية فى ١٧ أغسطس ١٨٨٥ « بأن رغبة حكومة صاحبة الجلالة تقتضى أن تعترف الاعتراف كله بمركز صاحب الجلالة السلطان ، كصاحب السيادة فى مصر ، ذلك المركز الذى تقره له المعاهدات (الدولية) ، وأن الحكومة الإنجليزية ترى أن سلطة السلطان على جانب كبير فى الأهمية فى العالم الإسلامى الذى يقع تحت حكمه ، وهذه السلطة ستوطد دعائمها بالاعتراف بمركزه الشرعى فى مصر . كما ترى كذلك بأن السلطان يستطيع أن يساعد فعلياً فى توطيد دعائم النظام والحكم الصالح فى مصر ، هذه البلاد التى وقعت فريسة منذ وقت لا يزال قريباً للثورة المسلحة » ، وأن تعاون السلطان سيكون له تأثير كبير على عدد كبير من السكان الذين يعتنقون الأسلام ، وسيقضى بلا ريب على الشكوك التى قد ثارت فى نفوسهم بشأن خضوعهم لدولة تختلف عنهم فى الدين ، كما أن السلطان يستطيع إمداد مصر بجنود ذوى كفاية يقدرون على تحمل جو

(١) انظر المؤلف . موقف المانيا إزاء المسألة المصرية .

مصر ، ويستطيعون المحافظة على النظام ، ويعملون على استتباب الأمن[1] .

فتعاون السلطان إذن — كما تقول هذه الوثيقة — ضرورى لصالح إنجلترا وصالح مصر . وليس المقصود هنا بتعاون السلطان تعاونه فى أمر إدارة مصر وحكمها ، وإنما تعاونه من الناحية الحربية للمحافظة على النظام فى هذه الأجزاء من مصر التى لا توجد فيها جنود مصرية .

وبين سولسبرى بعد ذلك ما يجب أن تكون عليه حدود سلطة الخديو ، وهنا يحسن أن نورد عبارته بنصها : يقول سولسبرى :

"For the present, the view of her Majesty's Government is that the direct dominion of the Khedive should not be carried further in the valley of the Nile than the region which may be conveniently controlled from a military station at the furthest terminus of the railways.

كانت مهمة سير هنرى درمندولف شاملة لمسألة مصر والسودان ، فكما تقول هذه الرسالة المؤرخة ٧ أغسطس سنة ١٨٨٥ « إن الحكومة البريطانية تجد واجباً عليها أن تعمل ما فى وسعها لأعادة الهدوء والنظام المستتب إلى السودان ، وإن تعاون السلطان فى هذه المسألة بالذات ضرورى ، وأنه إذا رفض السلطان التعاون فى هذه الناحية ، فستجد الحكومة البريطانية نفسها فى حل من الالتجاء إلى وسائل أخرى ، وعندئذ لا يحق للسلطان الاحتجاج على استخدام مثل هذه الوسائل التى قد تكون عاملة على إضعاف الصلة بين مصر وتركيا »[3] .

وبينت التعليمات المرسلة إلى سير هنرى درمندولف أن مسلكه فى مصر يجب أن يستنير بنتائج مفاوضاته فى الآستانة .

ولم يكن الغرض من بعثة سير هنرى إشراك الباب العالى فى أمر حكم مصر أو وضع مصر تحت حماية إنجليزية عثمانية ، وإنما كان الغرض أولا وقبل كل شىء المحافظة على نفوذ إنجلترا فى مصر ، ذلك النفوذ اللازم لحماية مصالح إنجلترا الإمبراطورية ، ثم إقامة حكومة مصرية قوية قد تطهرت بقدر المستطاع من أدران التدخل الأجنبى :

---

(١) الكتاب الأزرق Blue Book عن Egypt ، سنة ١٨٨٦ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

"The general object of your mission will be, in the first instance, to secure for this country the amount of influence which is necessary for its own imperial interests, and subject to that condition, to provide a strong and efficient Egyptian Government, as free as possible from foreign interference."

ولما كانت النظم الدولية فى مصر عاملة على عرقلة الإدارة المالية كان على سير هنرى درمندولف أن يوجه اهتماماً إلى هاتين الناحيتين : الناحية الدولية والناحية المالية .

ولقد انتدب السلطان عبد الحميد الثانى عاصم باشا وزير الخارجية وكياميل باشا وزير الأوقاف والذى سيصبح صدراً أعظم لمناقشة المسألة المصرية مع المندوب الانجليزى ، وطالت مناقشة المسألة واستغرقت بعض جلسات سير هنرى درمندولف مع السلطان نفسه أكثر من ثلاث ساعات .

واقترح المندوب الإنجليزى لرئيسه بأن يكون أساس الاتفاق العمل على تهدئة السودان ، وأن يذهب هو (أى سير هنرى) أو غيره مع مندوب من لدن السلطان إلى مصر لتنظيم أمورها . واقترح المندوبان العثمانيان أن يكون أساس الاتفاق الاعتراف بحقوق السلطان، والمحافظة على المعاهدات والفرمانات الموجودة ، كما اقترحا إرسال جنود عثمانية إلى مصر ، وهنا لاحظ هنرى درمندولف أن الحكومة الفرنسية قد تعترض على ذلك الاقتراح الأخير ، ولاحظ أنه ربما كان من الخير إرسال الجنود العثمانية إلى سواكن . ولكن مندوبى السلطان اعترضا على ذلك: بأن مركز السلطان فى العالم الأسلامى لا يسمح له بإرسال جنود عثمانيين يحاربون فى صفوف الإنجليز ضد المسلمين (أى المهديين) . وكان المندوب الإنجليزى فى أول الأمر لا يرى تعيين موعد سريع للجلاء عن مصر، لأن هذا من شأنه إضعاف سلطة بريطانيا فى مصر ، وشل يدها فى الاصلاحات التى تنوى القيام بها ، لأنه متى أعلن ذلك الموعد، فسيعمل المصريون وغيرهم على وضع العقبات فى سبيل هذه الإصلاحات .

على أنه فى آخر الأمر ، استطاع سير هنرى درمندولف أن يصل إلى

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) نفس المصدر رقم ١٩ ، هنرى درمند ولف إلى سولسبرى ، ٤ سبتمبر سنة ١٨٨٥ .

اتفاق مبدئى مع الباب العالى ، فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٨٥ ، وبمقتضى ذلك الاتفاق: ترسل كل من انجلترا وتركيا مندوباً سامياً إلى مصر ، وتقرر أن يكون مندوب إنجلترا سير هنرى درمندولف ، ومندوب تركيا الغازى مختار باشا . وتنص المادة الثانية فى هذا الاتفاق على أن يعمل المندوب العثمانى بالاتفاق مع الخديو أو مندوب الخديو على تهدئة الأمور فى السودان بالوسائل السلمية (وكانت ثورة المهديين فى السودان قد استفحل أمرها) . ويكون المندوب الإنجليزى على علم بهذه المحادثات ، وعلى المندوب العثمانى أن يتفق معه على الإجرآات التى تتخذ فى هذا السبيل . والمادة الثالثة تنص على أن يقوم المندوبان العثمانى والإنجليزى بتنظيم الجيش المصرى . وعليهما أن يقوما أيضاً متعاونين مع الخديو ببحث كل فروع الإدارة فى مصر ، وتنفيذ ما يقترحانه من تعديل ، وذلك فى حدود الفرمانات التى صدرت إلى مصر . وتنص الاتفاقية على أن تعترف الحكومة العثمانية بكل التعهدات التى أخذها الخديو على نفسه أمام الدول الأوربية المختلفة .

وينص الاتفاق أيضا على أنه حين يقتنع المندوبان مندوب تركيا ومندوب إنجلترا بأن الحالة قد استقرت تماماً على الحدود المصرية ، وأن الأمور قد انتظمت فى مصر ، يقدمان تقريراً إلى حكومتيهما ، كل إلى حكومته الخاصة ، وحينئذ تنظر الحكومة الإنجليزية فى عقد اتفاقية مع الباب العالى ، بها تسحب الجنود الإنجليزية من مصر فى فترة مناسبة[1] .

ونتيجة لهذه الاتفاقية المبدئية أتى المندوبان إلى القاهرة ، وأخذا فى دراسة شئون مصر المختلفة ، على الأساس الذى يرسمه الاتفاق ، واتفقا على بعض الأشياء ، وخاصة مسألة الامتيازات التى تجعل سير الحكومة سيراً منظماً أمرا مستحيلا . وتبينا البلوى التى تعم مصر من جراء وجودها ، وخبرا مساوئها ومضارها ، ولكنهما لم يستطيعا رؤية الوسيلة التى تمكن مصر من التخلص منها والغائها . واتفقا كذلك على ضرورة استعادة السودان ، لأنه كما يعترف سير هنرى درمندولف « جزء من مصر ومسألة حيوية بالنسبة

(١) انظر الكتاب الأزرق الإنجليزى لسنة ١٨٨٦ . ووثائق الكتاب الأصفر الفرنسى . Livre Jaune ١٨٨٤ — ١٨٩٣ . ملحق بالوثيقة رقم ٤ من دى نوال de Noailles السفير الفرنسى فى القسطنطينية إلى فريسنيه رئيس الوزارة الفرنسية ، ١٧ نوفمبر ١٨٨٥.

لها ، لأنها تستمد من النيل حياتها ورفاهيتها » .

واسترداد السودان لا يتحقق إلا بإعادة تنظيم الجيش المصرى ، وهنا اختلف المندوبان اختلافاً شديداً على طريقة تنظيمه ، فمختار باشا يقترح تنظيم الجيش المصرى على يد ضباط أتراك[١] على الطريقة التركية[٢] . ولم ترق هذه الفكرة فى نظر سير هنرى درمندولف الذى اقترح لهذه المهمة ضباطا إنجليزا ، ورجع إلى حكومته يستشيرها ، بل ذهب إلى لندن نفسها لذلك الغرض .

ولقد كانت العلاقات بين المندوبين بصفة عامة جيدة بالرغم من هذا الاختلاف ، بحيث استطاعا فى آخر الأمر أن يقررا إلى حكومتيهما ضرورة النظر فى عقد الاتفاقية التى تقضى بجلاء الجنود الإنجليز عن مصر .

ولكن ما كانت تهتم به الدولة العثمانية قبل كل شىء إنما هو انسحاب الجنود البريطانيين من مصر ، ولذا أعلن لورد سولسبرى عن رغبته فى مجاملة الباب العالى ، وذلك فى رسالته إلى سير هنرى درمندولف المؤرخة ١٥ يناير سنة ١٨٨٧ « إن حكومة جلالة الملكة لديها كل رغبة فى إرضاء الباب العالى من هذه الناحية ، وإن كانت لظروفها الخارجية لا تستطيع أن تعين موعداً قريباً لهذا الجلاء ، قبل أن تطمئن إلى سلام مصر الداخلى والخارجى ، وإن هدف إنجلترا هو هدف غيرها من الدول : إنما هو حيدة مصر ، ولكن إنجلترا لا بد عاملة على المحافظة على النظم التى أقامتها فى وادى النيل ، وعلى بقائها ، حتى لا تضيع هذه التضحيات التى قامت بها سدى ، وطالما حافظت الحكومة المصرية على مركزها ولم يقع أى اضطراب ... فإن من المرغوب فيه حقاً ألا يقر بأرض مصر جندى أجنبى واحد »[٣] .

على أن لورد سولسبرى لم يكن يفكر مطلقاً فى أن تجلو إنجلترا عن مصر دون شرط ، أو أن تتنازل عن نفوذها فى وادى النيل ، أو تمتنع عن القيام بمهمتها فى هذه البلاد . ويظهر هذا فى المذكرة القربال التى بعثت

---

(١) و (٢) نفس المصدر السابق . تقرير مختار باشا المؤرخ ١٤ مارس ١٨٨٦ . وفى هذا التقرير يتكلم مختار باشا عن الحالة فى مصر والسودان وطريقة علاجها . ويهتم بمسألة الجيش بصفة خاصة . فيتكلم عن طريقة تنظيمه وعدد جنوده وفرقه وأنواعها ومؤونته وسلاحه ومرتباته . كما يتكلم عن البوليس كذلك .

(٣) الكتاب الأزرق الإنجليزى لسنة ١٨٨٧ .

بها الحكومة الإنجليزية لرستم باشا السفير العثمانى فى لندن ، إذ تقول : إن حكومة جلالة ملكة إنجلترا تكرر تأكيداتها التى قالت بها فى ظروف متعددة ، بأنها ليست عندها رغبة فى استمرار الاحتلال الإنجليزى أكثر من الوقت اللازم للقيام بمهمتها الإنسانية التى أخذتها على عاتقها نحو نفسها ، ونحو مصر » ، ولكنها تشعر بأنها فى الوقت الحاضر غير مستطيعة تعيين تاريخ لجلائها عن مصر لتعارض ذلك مع القيام بهذه المهمة ، ولذا فهى تؤجل النظر فى موضوع الجلاء حتى يتم تأمين الحدود المصرية واستقرار الإدارة وحسن نظامها(١) .

ولهذا كان لا بد لإنجلترا من الوصول إلى اتفاق مع الباب العالى وإلى موافقة من جانب الدول الأوربية فيما يختص بالامتيازات وإدارة أراضى الدومين والدائرة السنية وتحديد سلطات صندوق الدين . وأعلنت إنجلترا من ناحيتها أنها مستعدة للدخول فى مفاوضات مع الباب العالى فى المسائل التى ليس للدول الأوربية أى صلة بها ، وذلك لكى يقترب ميقات الجلاء ، وإذا تمت هاتان المسألتان فانجلترا راغبة ومستعدة لإجلاء جنودها عن مصر « فى فتره مناسبة »(٢) .

فانجلترا قد أبدت رغبتها فى الجلاء ولكن بشروط تتعلق بظروف مصر الداخلية والخارجية ، وتقدير انجلترا لهذه الظروف .

ولقد أظهر رستم باشا عدم رضا الباب العالى عن كل ما جاء بهذه المذكرة الإنجليزية ، لأنها أولا لم تأخذ بالمقترحات التى قدمها مختار باشا لتنظيم الجيش المصرى ، وثانياً لأنها أدخلت الدول الأوربية فى أمر الاتفاقية . ولذا بينت الحكومة الإنجليزية فى صراحة أنها تنوى المفاوضة أولا مع الباب العالى ، فإذا ما وصلت الدولتان إلى اتفاقية تعرضان هذه الاتفاقية على الدول الكبرى طالبتين تعاونها(٣) . فسولسبرى يرى أن حالة مصر الداخلية لا تساعد على الاستقرار ، فوجود هيئات أجنبية متعددة تتمتع بامتيازات ضخمة ، ووجود مطالبين بالعرش المصرى ، وسهولة إثارة الشعور القومى والدينى عند المصريين ، وترقب الدول الكبرى للحالة فى مصر ، وعزمها على التدخل

---

(١) و (٢) نفس المصدر Note Verbale ، ٤ نوفمبر سنة ١٨٨٦ .

(٣) الكتاب الأزرق الإنجليزى لسنة ١٨٨٧ . رقم ٢ إلى سير و . هوايت W. White السفير الإنجليزى فى الأستانة ٥ نوفمبر ١٨٨٦ .

فى وادى النيل : كل ذلك يدعو إلى الاضطراب والفوضى والقلق . ولذا تجد إنجلترا نفسها مضطرة إلى استخدام ضباط إنجليز فى مراكز كبيرة فى الجيش المصرى لمدة طويلة ، حتى بعد خروج الإنجليز من مصر . وذلك لضمان ولاء الجيش وإخلاصه وللقضاء على الثورات الصغيرة . ولكن حتى هذا لم يكن كافياً فى نظر الإنجليز ، فلا بد إذن من الاعتراف بحق الإنجليز فى العودة إلى مصر فى ظروف تحددها إنجلترا ، وإنجلترا ترى فى هذا حملا عليهاوعبئاً ، ولكنه حق لا يمكن التنازل عنه إذا قامت الفوضى فى مصر من جديد . كذلك لا بد من التنظيم المالى والإدارى ولا بد من ضمان سلامة مصر من الأخطار الداخلية والخارجية وحماية القناة وضمان حرية الملاحة فيها (١).

واعترض الترك من جانبهم على حق الإنجليز فى العودة، لأن هذا من حق السلطان وحده، كما اعترضوا على طلب الإنجليز جعل مصر دولة محايدة عقب انسحاب انجلترا ، وعلى إطالة مدة الجلاء ، وأقترحوا أن يتم الجلاء بعد شهور قليلة ، وناضلوا فى سبيل ذلك مناضلة شديدة ، وطالبوا بتحديد الفترة التى يرى الإنجليز أن لهم فيها حق العودة إلى مصر ، وناقشوا مسألة الجيش واحتجوا على تعيين ضباط من الإنجليز، ثم طلبوا أن يحل الضباط الأتراك محل الضباط الإنجليز بالتدريج ، وناقشوا موضوع الامتيازات .

وكان المفاوضون الأتراك يعدلون اقتراحاتهم أمام ثبات سير هنرى درمندولف وتأييد النمسا وإيطاليا لإنجلترا ، فلقد بينت هاتان الدولتان للباب العالى ضرورة الاتفاق مع إنجلترا بشأن مصر . ولم تقف فرنسا أول الأمر موقف المعارضة إزاء هذه المفاوضات ، بل شجعت كياميل باشا الصدر الأعظم على السير قُدما فيها ولكن بشرط واحد ، وهو أن تنتهى هذه المفاوضات إلى نتيجة ترضاها الحكومة الفرنسية . بل ذهبت إلى أكثر من ذلك ، وأعلنت للباب العالى إعلاناً صريحاً بأنها لن تحتل مصر إذا خرج الإنجليز منها ، حتى يزول

---

(١) نفس المصدر رقم ١٤ سولسبرى إلى هنرى درمندولف ١٥ يناير ١٨٨٧ ، رقم ٢٥ سيرهنرى درمندولف إلى سولسبرى ، ٨ فبراير ١٨٨٧ .

بذلك العذر الذى تنتحله إنجلترا دائماً كمبرر لبقائها فى وادى النيل[1] .

ولقد تم الاتفاق أخيراً بين سير هنرى درمندولف « المندوب فوق العادة والوزير المفوض لبعثة خاصة لجلالة ملكة المملكة المتحدة وإيرلند وامبراطورة الهند » ، وبين محمد كياميل باشا ومحمد سعيد باشا ممثلى « جلالة إمبراطور العثمانيين » على الشروط الآتية :

١ — تأكيد كل الفرمانات الموجودة التى أصدرها الباب العالى خاصة بمصر إلا ما يعدله هذا الاتفاق الحالى .

٢ — وتشمل ممتلكات خديوية مصر كل الأراضى المنصوص عليها فى هذه الفرمانات .

٣ — تدعو الحكومة العثمانية الدول التى أمضت معاهدة برلين للموافقة على حرية الملاحة فى قناة السويس ، وفى هذه الاتفاقية تعلن الحكومة العثمانية حرية الملاحة فى هذه القناة على مدى الأيام فى وقتى السلم والحرب للسفن التجارية والحربية دون تمييز بين جنسياتها .... وهذه الاتفاقية يجب أن تنص على أن تتعهد الدول الكبرى بألا تعوق حرية عبور القناة وقت الحرب ، وعلى احترام ممتلكات القناة ومؤسساتها . كذلك تنص هذه الاتفاقية على ألا تحاصر الدول القناة ، ولا يجب أن يقع اعتداء فى منطقتها فى مدى ثلاثة أميال بحرية من بور سعيد والسويس . وأن يقوم ممثلو الدول السياسيون فى مصر بمراقبة تنفيذ هذه الاتفاقية ، وأن هؤلاء يجب أن يجتمعوا تحت رئاسة مندوب تركيا أو من ينيبه الخديو ، وذلك لدراسة الظروف التى ينشأ عنها خطر على القناة ، ويجب أن يجتمعوا مرة على الأقل فى السنة ، كما يجب ألا تقام عراقيل فى سبيل أية إجراآت تتخذ للدفاع عن مصر أو للمحافظة على القناة .

٤ — ولما كانت الأمور فى السودان وعلى الحدود المصرية لا تزال فى اضطراب ، ولما كانت الأمور الداخلية فى مصر لا تزال تحتاج إلى عناية ، فإن إنجلترا تتعهد بالدفاع حربيا عن البلاد ، ولذا تأخذ على عاتقها التنظيم العسكرى لجيوشها ، ولذا فهى ستحتفظ لنفسها بقوة عسكرية فى مصر ،

---

(١) الوثائق الدبلوماسية الفرنسية . الكتاب الأصفر أرقام ٣٠ و ٣١ و ٣٢ و ٣٣ مونتبلو Montebello سفير فرنسا فى الأستانة إلى دى فريسنيه ٣ و ٥ سبتمبر ١٨٨٦ .

ونشرف على الجيش المصرى .

٥ – وبعد مضى ثلاث سنوات من إمضاء هذه الاتفاقية تسحب إنجلترا جنودها من مصر .

فإذا ظهر فى خلال هذه المدة أى خطر داخلى أو خارجى تؤجل إنجلترا ذلك الجلاء .

وتجلو الجنود الإنجليزية مباشرة بعد زوال ذلك الخطر .

وبعد جلاء الجنود الإنجليزية عن مصر تصبح مصر دولة محايدة .

وبعد إمضاء هذه المعاهدة يطلب من الدول العظمى أن تمضى اتفاقية تقر فيها ضمان حيدة أرض مصر . وبذا لا يحق لأية دولة إنزال جنود فى أرض مصر إلا فى الأحوال التى تنص عليها هذه الاتفاقية .

ومع ذلك فمن حق الحكومة العثمانية أن تحتل مصر حربياً إذا قامت أسباب تدعو لذلك كغزو خارجى للبلاد ، أو إذا قام الاضطراب فى الداخل ، أو إذا رفضت الحكومة الخديوية القيام بواجباتها نحو الدولة العثمانية . أو أخلت بتعهداتها الدولية .

كما يحق لحكومة إنجلترا فى مثل هذه الظروف أن ترسل بجنودها إلى مصر ، وأن تتخذ الاجراءات اللازمة للقضاء على ذلك الخطر .

وعلى كل من الجنود الانجليزية والعثمانية أن تنسحب من مصر عقب زوال الظروف التى تستدعى ذلك التدخل . وإذا لم تستطع الحكومة العثمانية لسبب ما التدخل ، ففى هذه الحالة ترسل مندوباً من قبلها إلى مصر يبقى فيها ما بقيت الجنود الانجليز . وعلى الحكومتين العثمانية والإنجليزية أن تتبادلا ذكر الأسباب التى دعت كلا منهما إلى التدخل .

٦ – وعند ما توافق الحكومتان الإنجليزية والعثمانية نهائيا على هذه الاتفاقية تدعوان الدول التى أمضت معاهدة برلين والدول الأخرى التى لها علاقات بمصر للموافقة على هذه الاتفاقية .

٧ – وتتبادل الدولتان الموافقة النهائية على هذه الاتفاقية فى مدة شهر من إمضائها [١] .

وضمت إلى هذه الاتفاقية ملحقات أهمها بأنه إذا انتهت مدة ثلاث

(١) الكتاب الأزرق الانجليزى لسنة ١٨٨٧ .

سنوات ، ولم توافق دولة كبرى من دول البحر الأبيض المتوسط على هذه الاتفاقية ، تعتبر الحكومة الإنجليزية ذلك كخطر خارجى ينطبق عليه الشرط الخامس ، فيعاد إذن النظر فى تنفيذ هذه الاتفاقية .ومن هذه الملحقات البروتوكول الخاص بالامتيازات ، فبعد شهر من الموافقة نهائياً على هذه الاتفاقية ، تدعو الدولتان الإنجليزية والعثمانية الدول الأخرى صاحبة الامتيازات للنظر فيها وخاصة ما يتعلق منها بالقضاء ، والملحقان الرابع والخامس خاصان بتحسين إدارة أراضى الدومين والدائرة السنية وتحديد اختصاصات صندوق الدين وتنظيم المالية المصرية وقانون المطبوعات والكارانتين (الحجر الصحى) وعدم تغيير اختصاصات المستشار المالى الإنجليزى[١] .

أمضى هذه الاتفاقية مندوبا السلطان ، ولكن السلطان تراجع إذ عرف موقف فرنسا وروسيا ، بل لقد كانت حكومته بالفعل ترجع إليهما فى كثير من المسائل الهامة الخاصة بالمفاوضات ، ولذا رفض لورد سولسبرى أن تقدم الاتفاقية للدول قبل أن يتم توقيع السلطان نفسه عليها ، لأن إنجلترا من جانبها كانت تتوقع رفض الدولتين الفرنسية والروسية لها ، ولذا بين سير هنرى درمندولف للسلطان بأنه إذا لم يتم توقيع الاتفاقية فى الوقت الموعود المتفق عليه بينهما فإنه لن يكون للاتفاقية أى قيمة فى نظر الحكومة الإنجليزية التى ستحتفظ لنفسها بحرية العمل .

ولكن السلطان عبد الحميد الثانى أراد تأجيل ذلك الموعد المضروب ، لامضاء الاتفاقية ، وحاول من جديد إدخال تعديلات عليها لإرضاء فرنسا وروسيا ، وزادت مماطلته إلى حد أن فهمت الحكومة البريطانية أنه يريد كسب الوقت ، وأنه مصمم على رفض الإتفاقية التى أمضاها وزراؤه .لقد كان السلطان لا يستطيع أن يثق تماماً بإنجلترا أو يعتمد عليها إذا نفذت فرنسا وروسيا تهديداتهما إذا هو أمضى هذه الاتفاقية .

ولقد عملت فرنسا وروسيا على فشل هذه الاتفاقية ، وهددتا السلطان بالويل والدمار ،لأنه فى هذه الاتفاقية لم تعين إنجلترا تاريخا فعلياً قريباً للجلاء عن مصر . لقد أبلغت الدولتان الباب العالى بأنه إذا وقع شروط اتفاقية هنرى

---

(١) نفس المصدر .

درمندولف أصبحتا فى حلّ من احتلال أى جزء من أراضى الدولة العثمانية ، كأن تحتل فرنسا سوريا ، وروسيا أرمينية . وأعلنت روسيا من جانبها أن هذه الاتفاقية لا تتفق والمعاهدات التى أبرمتها تركيا مع الدول الكبرى ، وخاصة معاهدة برلين . وأن ليس للسلطان وحده الحق فى عقدها دون موافقة الدول ، ونشرت وكالة هافاس أنباء تفيد أن الجيوش الروسية قد ركزت على الحدود التركية فى أرمينية . وأضافت الحكومة الروسية القيصرية أن حرصها على مصالح تركيا هو الذى دعاها إلى اتخاذ هذا الموقف ، فلقد وقفت بجانب الباب العالى مع إنجلترا أمام محمد على وضد فرنسا نفسها ، وأنها لم تعترف بالنظام الثنائى ، وأنه ليس لديها مانع من أن يشرف الإنجليز على إرجاع النظام إلى مصر ، على شرط أن يكون ذلك الإشراف تحت رقابة الدول الكبرى ، فيسير مندوبو هذه الدول مع الجيش الإنجليزى فى كل مرتحل فى مصر يراقبون أعماله وحركاته .

وأما فرنسا ، فلقد بينت فى جلاء لا يكتنفه غموض أن موافقة السلطان على حق الإنجليز فى العودة إلى مصر من شأنه أن يقضى على التوازن الدولى فى البحر الأبيض المتوسط ، ولذا فالحكومة الفرنسية مصممة على أن تكون حريتها فى التصرف كاملة ، وذلك لحماية مصالحها التى سيصيبها ضرر كبير ، وهى مصممة كذلك على أن تتخذ من الإجراءات ما تراه ضرورياً ، دون اكتراث لمصالح تركيا . وأما إذا رفض السلطان التوقيع على الاتفاقية ، فالحكومة الفرنسية تتعهد بحماية مصالحه وضمان مركزه ، وأعلنت أن سياسة فرنسا هى دائما المحافظة على تركيا ومنع كل اعتداء يقع عليها .

ومع ذلك فلن تكون لهذه الاتفاقية قيمة من الناحية الدولية والفعلية إذا رفضتها فرنسا ، وبينت الحكومتان الفرنسية والروسية فوق ذلك أن لا قيمة للاتفاقية فيما يختص بالدولة العثمانية ، بل فى الواقع هى محالفة فى صالح إنجلترا وحدها ، ولن تستطيع الدول أن تعتبر الدولة العثمانية دولة محايدة إذا أمضى السلطان هذه الاتفاقية .

---

(١) وثائق الكتاب الأزرق الإنجليزى ، سنة ١٨٨٧ ، رقم ٣٣ ، درمندولف إلى سولسبرى ٣٠ يونيو سنة ١٨٨٧ .

(٢) نفس المصدر السابق مونتبلو سفير فرنسا فى الأستانة إلى السلطان ٧ يونيو ورقم ٣٥ =

رفض السلطان إذن إمضاء هذه الاتفاقية فزعاً من تهديد فرنسا وروسيا ولعدم ثقته فى إنجلترا وخوفاً من انتقاد العلماء والرأى العام العثمانى ، ولشعوره بأنه إذا رفضت الدولتان فرنسا وإنجلترا الموافقة على هذه الاتفاقية أصبح احتلال الإنجليز لمصر تاماً ونهائياً[1] .

ولكنه رجع البصر ، وأراد فتح باب المفاوضات مرة ثانية مع إنجلترا فى المسألة المصرية ، فرفض سولسبرى ذلك معلناً أنه لا يمكنه فتح باب المناقشة فى موضوع الجلاء مرة ثانية ، إذ أنه لما كان السلطان على استعداد لرفض الموافقة على مشروع أقرته حكومته (أى حكومة الباب العالى) متأثراً بآراء بعض الدول الأخرى ، ستنتهى كل اتفاقية أخرى إلى نفس المصير ، وذكر أن إحتلال الإنجليز لمصر سيطول أمده ، وأن تركيا هى المسئولة عن ذلك كله ، فيرسل إلى سفيره فى الأستانة سير وليم هوايت فى ١٧ يوليو يقول :

"Our occupation of Egypt must now be prolonged until we had satisfied ourselves that the Egyptian Government were themselves strong to avert the dangers external and internal"(٢)

وأعلن فى غير مواربة أن إنجلترا ستتبع السياسة التى ترتضيها لنفسها ، ولذا فقد أرسل إلى مندوبه سير هنرى درمندولف فى ١٤ يوليو ١٨٨٧ بترك الأستانة ورفض أى اتفاقية جديدة . وبذا انتهى مشروع هنرى درمندولف وبعثته .

ولقد ضعفت عند الإنجليز فكرة الجلاء بعد سنة ١٨٨٧ ، إذ عمل مر الزمن على زيادة المصالح البريطانية فى مصر ، وأصبحت قناة السويس فى نظر الانجليز « مصلحة إمبراطورية » ، وزادت مصالح إنجلترا التجارية والقطنية . وكان تفكير الانجليز فى استرجاع السودان لمصر من العوامل المهمة التى قوت فكرة البقاء فى مصر .

ويظهر أن السلطان بعد فوات هذه الفرصة وبعد إطالة التفكير ، ندم على عدم توقيعه على هذه الاتفاقية مع حكومة سولسبرى ، ووجد أن المشورة

= هنرى درفندولف الى سولسبرى ٢٧ يونيو ١٨٨٧ ، رقم ٣٩ هنرى درمندولف إلى سولسبرى ٤ يوليو ١٨٨٧ .

(١) نفس المصدر السابق رقم ٥٠ درمندولف إلى سولسبرى ١١ يوليو ١٨٨٧ ؛ وثائق الكتاب الأصفر رقم ٦٨ مونتبلو إلى فلوران Flaurens وزير الخارجية الفرنسية ٧ يونيو ١٨٨٧

(٢) الكتاب الأزرق الإنجليزى ، ١٨٨٧ .

أو على وجه أصح – الإنذار الذى قدمته كل من حكومتى فرنسا وروسيا لم يكن فى صالح تركيا بأى حال من الأحوال ، فتركيا لم تستفد شيئاً من الموقف الجديد ، ولم تحظ بتأييد حقيقى من جانب فرنسا وروسيا ، وخسرت فى نفس الوقت عطف إنجلترا .

وربما أراد السلطان أن يكفر عن ذلك الخطأ بفتح باب المفاوضات مرة أخرى فى هذا الموضوع ، ولذا فى ربيع سنة ١٨٩٠ انتهز الصدر الأعظم فرصة عقد الاتفاقية التجارية بين مصر وإنجلترا ليثير هذا الموضوع ، موضوع الجلاء من جديد ، وليبين للسلطان أن أى تأخير أو تهاون منه فى مسألة مصر قد يؤدى بالخديو إلى الاعتقاد بأن صلاته بالحكومة العثمانية يجب أن تنتهى ، إذ لا فائدة مباشرة منها ، وأنه قد أصبح من الناحية الفعلية تابعاً لإنجلترا [١] .

وبناء على ذلك أمر السلطان بإعداد مشروع لاتفاقية جديدة ، على نسق اتفاقية درمندولف ، وعرضه على الحكومة البريطانية الموجودة حين ذاك . هذا المشروع الجديد مشابه للمشروع القديم ، ويتفق معه حتى فى مسألة حق بريطانيا فى العودة إلى احتلال مصر ، ولا يختلف مع المشروع القديم إلا فيما يختص بدولية قناة السويس وتحديد الجلاء بسنة واحدة بعد توقيع المشروع . وأرسلت الأستانة تعليمات بذلك إلى رستم باشا السفير العثمانى فى لندن [٢] .

ولقد تأخر تقديم المشروع إلى الحكومة البريطانية نظراً لغياب لورد سولسبرى رئيس الوزارة عن لندن . وحين أذيعت أخبار عن هذا المشروع الجديد – ولو أنه كان سريا – فى صحيفة « التيمز » الإنجليزية ، أعلن السفير الروسى فى الآستانة نيليدوف Nelidoff للصدر الأعظم العثمانى بأن اعتراضات روسيا على اتفاقية درمندولف وكل اتفاقية مشابهة لها لا تزال باقية . وأن الحكومة الروسية لا توافق الباب العالى مطلقاً على مثل ذلك

---

(١) الوثائق الألمانية Grosse Politik فنكار Winckler قائم بالأعمال فى الأستانة إلى وزارة الخارجية الألمانية ٢ إبريل سنة ١٨٩٠ .

(٢) نفس المرجع .

المشروع ، فهى لن تقبل أبداً الاعتراف بحق إنجلترا فى العودة إلى مصر واحتلالها[١].

ولكن مونتبلو Montebello السفير الفرنسى فى الأستانة ، لم يقف نفس هذا الموقف من أول الأمر ، فلقد اصطنع خطة الحياد ، بل لوح للباب العالى بأن حكومته لا تعارض بصفة عامة فى وصول الباب العالى إلى اتفاق مع إنجلترا بشأن مسألة جلاء الجنود الإنجليز عن مصر . دعا فرنسا إلى اتخاذ هذا الموقف أن طارت فى الجو شائعات بأن الخديو قد يصل إلى تحالف مع إنجلترا ويعلن استقلاله . ولكن لما عرف السفير الفرنسى بموقف روسيا الذى لم يتغير ولم يتزعزع ، ارتسم لنفسه نفس الخطة الروسية[٢] .

وعند رجوع رئيس الوزارة الإنجليزية إلى لندن ، قدم له السفير العثمانى المشروع الجديد ، فقابله بالصمت أول الأمر وإن كان قد صرح للسفير الألمانى لدى حكومته ، هاتسفلت ، بأن المشروع العثمانى « مشروع صبيانى » . ثم عاد سولسبرى فذكر للسفير العثمانى بأن إنجلترا تنوى ألا تترك مصر إلا إذا وثقت تماماً بأن الاصلاحات التى قامت ستبقى بقاءاً ثابتاً دائماً[٣] ، ثم بعث إلى سفيره فى الأستانة يبين له : أن على الباب العالى أن يتفق أولا مع فرنسا وروسيا بشأن حق إنجلترا فى العودة إلى احتلال مصر ، فإذا اعترفت الدولتان بذلك الحق لإنجلترا اعترافاً لا غموض فيه ولا خداع ، نظرت الحكومة البريطانية فى المشروع العثمانى ودرسته[٤] ، ثم اتصل بالسفير العثمانى فى لندن ، وقال له إنه لا يرى أمامه (أى أمام سولسبرى) سوى طريقين لارضاء تركيا من حيث سحب الجنود الانجليز من مصر :—

الأولى والمعقولة فى نظره هى : أن تنتظر الحكومة العثمانية وتتذرع بالصبر حتى يطمئن الاستقرار ، وحتى تهدأ مصر نهائياً ، وتزول الأخطار الخارجية ، وبذا تنتهى من تلقاء نفسها ضرورة بقاء الجيش الانجليزى فى مصر[٥] .

---

(١) نفس المرجع ورادفيتز السفير الألمانى فى الأستانة إلى كابريفى ٩ إبريل ١٨٩٠

(٢) الوثائق الألمانية ونفس الوثيقة

(٣) نفس المصدر . ولقد علق القيصر الألمانى على ذلك بقوله (حول مائة سنة ، فالوقت متسع أمام سولسبرى)

(٤) نفس المصدر . رادفتز إلى وزارة الخارجية الألمانية ٢ مايو سنة ١٨٩٠ .

(٥) نفس المصدر . علق القيصر الألمانى على هذه العبارة (من ٤٠٠ سنة إلى ٥٠٠ سنة انتظار)

فحينئذ إذا سارت الأمور سيراً طبيعياً حسناً ، لا يكون من صالح إنجلترا الاستمرار فى احتلال مصر ، وبذا تنسحب دون سعى من أحد . بل إن من حق مصر نفسها وقت ذاك أن تطالب الانجليز بالجلاء عن ديارها .

والطريق الثانية : هى تحديد موعد للجلاء باتفاقية خاصة . ولقد سبق أن حاولت الحكومة الانجليزية هذه الطريق فى اتفاقية سير هنرى درمندولف التى رفض السلطان توقيعها بعد أن وافقت عليها حكومة المحافظين السابقة . لقد خبرت إنجلترا هذه الطريقة ، ووجدت أنها لم تكن ناجحة ، فإذا ما عادت الدولة العثمانية وتقدمت إلى حكومة لندن باتفاقية مشابهة لاتفاقية درمندولف ، فإن سولسبرى لن يوافق عليها إلا بشروط محدودة ، وأهم هذه الشروط فى نظره ، هى الاعتراف أولا وقبل كل شىء ، بحق إنجلترا غير المنازع فى العودة إلى احتلال مصر ، فى أى وقت ترى فيه أن الحالة الداخلية فى مصر أو الظروف الخارجية تستلزم ذلك ، وهى لها الحق فى ذلك التدخل وحدها لاشريك لها من الدول الأوربية الأخرى . كما أنه لا بد أن تعترف الدول التى أمضت معاهدة برلين بهذا الحق حتى لا تعرقل دولة فى المستقبل أعمال إنجلترا فى مصر .

ولقد اعتمد سولسبرى فى هذه المطالب الجديدة على أن الظروف الدولية العالمية قد تغيرت لغير صالح إنجلترا ومصر ، فالايطاليون قد وطدوا أقدامهم إلى حد فى الحبشة ، والفرنسيون قد بدأوا يحصنون بنزرت فى تونس ، وهذا مما يزيد بلا شك فى نظره فى الأخطار التى قد تتعرض لها مصر فى المستقبل (١) .

وكان من الطبيعى فى نظر الإنجليز ألا يجلوا عن مصر ، وخاصة بعد أن صمموا على استعادة السودان .

على أن السلطان لم يتراجع ، وظل يؤمل فى أن يأخذ من الانجليز موعداً للجلاء عن مصر ، فلا زال رستم باشا فى مفاوضاته فى لندن دائم الحركة ، ولا ريب فى أن موقف فرنسا كان باعثاً للسلطان على ألا تأخذه هوادة فى مطالبه بشأن الجلاء ، وكانت روسيا تؤيد فرنسا فى ذلك . فلقد أعلنت الحكومة الفرنسية أنها على قدم الاستعداد لأن تعلن فى أى وقت رسمياً بأنها لن ترغب

(١) الوثائق الألمانية ، رادفيتز إلى كابريفى ، ٣١ مايو سنة ١٨٩٠ .

فى احتلال مصر عسكريا متى خرج الانجليز من مصر ، وأن من حق الباب العالى وحده حماية مصر والدفاع عنها ، وعلى هذا فليس من حق إنجلترا الآن البقاء فى مصر لأن خوفها من احتلال فرنسا لمصر لم يعد هناك أى مبرر له[١] .

وعلى أساس ذلك قدم الأتراك مشروعاً ثالثاً ، فرفضه سولسبرى رفضاً باتاً ، لأن فيه شرط بتحديد موعد الجلاء عن مصر ، ولكنه فى نفس الوقت أبان عن أمله بأن يوم جلاء إنجلترا عن مصر آت لا ريب فيه ، ستترك إنجلترا مصر لأهلها وحكومتها . على أن ذلك اليوم لا يمكن تحديد موعده[٢] ، وبهذه انتهت هذه الآمال التركية إذ لم يكن لدى تركيا ثقة بتصريحات فرنسا ، فأمامها ما فعلته فرنسا فى تونس كما لم يكن لديها ما تستطيع به إرغام إنجلترا على الاصغاء لطلباتها[٣] .

وهنا نجد الحكومة التركية تتخذ موقفاً جديداً ، وتعدل من شروطها . ولم يكن لدى الحكومة الإنجليزية مانع من أن تنظر فى المقترحات التركية الجديدة ، وإن كانت الحكومة التركية فى هذه المرة فى شك مريب من ناحية قبول الحكومة الإنجليزية لهذه المقترحات ، فهى لا تريد أن تتقدم إلى إنجلترا بمشروع فتبوء بالخذلان ، شأنها فى المرات السابقة . ومن ناحية ثانية هى لا تزال تخشى احتجاج فرنسا وروسيا ، ومن ناحية ثالثة لم يكن الرأى فى تركيا متفقاً بشأن تقديم المقترحات الجديدة ، والسلطان عبد الحميد لا يثق كثيراً فى إنجلترا ، فكما يقول كياميل باشا الصدر الأعظم لرادفيتز السفير الألمانى فى الأستانة « إن جلالته ، أى السلطان عبد الحميد ، يطلب دائماً النصح من الفرنسيين والروس فى كل ما يفعله خاصاً بمسألة مصر ، ومن هؤلاء يسمع دائماً نفس النصح الذى أدى إلى فشل اتفاقية درمند ولف ، وإن نصح هؤلاء الآن كما كان نصحهم فى الماضى هو : لا يمكن فى أى ظرف من الظروف الاعتراف بوجود الإنجليز فى مصر ، وينبغى ألا يتفاوض السلطان مع الإنجليز إلا إذا أعلنوا سلفاً استعدادهم لترك مصر » ،

(١) نفس المصدر السابق رادفيتز إلى كابريفى ، ١٦ يونيو سنة ١٨٩٠ .
(٢) نفس المصدر السابق رادفيتز إلى كابريفى ، ١٩ يونيو سنة ١٨٩٠ .
(٣) نفس المصدر السابق رادفيتز إلى كابريفى ، ١٦ يونيو سنة ١٨٩٠ .

فإذا رفضوا كان من الأفضل ترك كل شيء كما هو ، والاستمرار فى الاحتجاج على وجودهم والتمسك بالمبدأ والاحتفاظ بكل الحقوق[١] .

ثم إن السلطان بعد ذلك ما فتىء يذكر تهديد فرنسا وروسيا فى سنة ١٨٨٧ ، ويخشى إذا وصل إلى تفاهم مع إنجلترا بشأن مصر تحتل الدولتان أجزاء من أراضى الدولة العثمانية ، وتقف نفس موقف إنجلترا ، تفعل ما فعلته إنجلترا ، وبذا تنحل الدولة العثمانية وتقطع أوصالها . ولقد ذكر الصدر الأعظم أيضاً للسفير الألمانى أنه لم ينجح إلى الآن فى إزالة أوهام السلطان ، وإن كان قد جعل واجبه الأول الاستمرار فى بذل الجهود والعمل على توضيح الموقف أمام السلطان وإظهار خطر التردد ، فالأمر فى نظره خطير بالنسبة لتركيا ، إذ أنه على التفاهم مع إنجلترا يتوقف إلى حد كبير مصير الدولة العثمانية ، فهو يرى أن يثير اهتمام إنجلترا بمسألة بقاء الدولة العثمانية ، لأنه إذا لم تصل الحكومة العثمانية إلى تفاهم مع إنجلترا سيعمل الخديو بلا ريب على إعلان استقلاله بالاتفاق مع إنجلترا ، وتستطيع إنجلترا من جانبها فض مشاكلها مع الدول الأخرى على حساب تركيا ، ويكون فقدان مصر بدأ فقدان لأجزاء الدولة الأخرى ، فبعد مصر ستذهب طرابلس وبلاد العرب ، بينما يتعذر التفاهم مع انجلترا تركيا بلا شك من ذلك الخطر المبين الداهم[٢] .

فإذا كان هناك فى تركيا فريقان : فريق قد فقد كل أمل فى مساعدة إنجلترا للدولة العثمانية وحل المشكلة المصرية ، وفريق آخر يرى ضرورة الوصول إلى تفاهم ما مع إنجلترا بشأن مصر حتى يستطيع إنقاذ بقية أملاك الدولة العثمانية ، ففريق يرى التمسك بمصر ، وفريق يرى التضحية بها[٣] .

ولكن نفوذ ألمانيا العظيم فى ذلك الوقت سيبذل للتوفيق بين الدولتين ، لاضاء إنجلترا من ناحية ، ولوضع حد لأطماع فرنسا وروسيا من ناحية أخرى ، فإنجلترا بأسطولها المتفوق هى الدولة الوحيدة التى تستطيع حماية المضايق :

---

(١) الوثائق الألمانية ، مارشال وزير الخارجية الألمانية إلى رادفيتز ١٧ إبريل . و ٢٥ إبريل ، وكذلك رادوفيتز إلى كابريفى المستشار الألمانى ، ٥ مايو ١٨٩١ .

(٢) نفس المصدر والوثائق .

(٣) نفس المصدر والوثائق .

البوسفور والدردنيل ، وحماية تركيا إذا ما اعتدت روسيا عليها تؤيدها فرنسا ، ولذا فألمانيا تحاول فى أول الأمر بذل وساطتها بطريقة غير رسمية ، مشيرة إلى فائدة ذلك التفاهم ، على شرط أن تسقط تركيا شرط الجلاء أو تعيين موعد للجلاء ، ونظير ذلك تعترف إنجلترا من ناحيتها من جديد بسيادة السلطان على مصر . وحذرت ألمانيا السلطان فى نفس الوقت عن طريق سفيره فى لندن رستم باشا ، حذرته من الانقياد لمشورة فرنسا ، ففرنسا عدوة لألمانيا بينما إنجلترا صديقة لها ، كما حذرته من أن أى تقرب من فرنسا سيثير بلا ريب سخط ألمانيا[١]. وبينت ألمانيا لإنجلترا أن من صالح انجلترا الاتفاق مع تركيا بشأن مسألة مصر ، إلا إذا اضطرت تركيا إلى الارتماء فى أحضان روسيا وفرنسا . وبناء على هذه المشورة ، أعلن سولسبرى رئيس الوزارة الإنجليزية لمارشال وزير الخارجية لألمانية أن إنجلترا من ناحيتها مستعدة للتفاهم مع تركيا على شرط إسقاط مسألة جلاء الجنود الإنجليز عن مصر[٢] .

ويظهر أن هذه الجهود قد أثمرت إلى حد ، بالرغم من عزل كياميل باشا وتعيين حاكم كريت جواد باشا محله . فتحسنت لهجة سولسبرى بعد عودته من دييب فى أكتوبر ، كما أن السلطان الذى كان يخشى تغيير الوزارة الإنجليزية ومجيء الأحرر إلى الحكم ، أعلن للسفير الإنجليزى فى الأستانة أنه مستعد للاتفاق مع إنجلترا على شرط اعترافها بحقوق سيادته على مصر ، وأما المسائل الأخرى فهى تفاصيل يمكن التفاهم عليها[٣] .

ثم سقطت وزارة سولسبرى ، وجاءت وزارة الأحرار فيها لورد روزبرى وزير للخارجية ، وله آراء سولسبرى فى المسألة المصرية ، فثابرت ألمانيا على مواصلة جهودها ، وبينت للسلطان بطريقة شخصية ، أن فرنسا لن تستطيع مساعدته وقت الحاجة وأن من الخير له الاتفاق مع إنجلترا .

على أن السلطان كان فى قلق متزايد ، وخاصة حين علم برغبة إنجلترا فى زيادة جنودها فى مصر ، وكان يود لو أرسلت الحكومة الانجليزية لورد كرومر إلى الأستانة فى بعثة خاصة ، ولكن لورد روزبرى بين للسفير

---

(١) الوثائق الألمانية مارشال إلى هاتسفلت ، ٢٩ يونيو ١٨٩١ .

(٢) نفس المصدر مذكرة مارشال ، ٦ يوليو ١٨٩١ .

(٣) نفس المصدر فون روتنهام von Rothenham فى برلين إلى هاتسفلت ، ١٥ سبتمبر ١٨٩١ .

العثمانى فى لندن بأن الوقت لم يحن بعد للمناقشة فى موضوع مصر ، فمركز الوزارة الانجليزية لم يستقر بعد لتتكلم فى الأمور الكبيرة[١] . كان السلطان يود أيضاً الاحتجاج على الرغبة فى زيادة جنود الاحتلال ، وكانت فرنسا تحثه على اتخاذ مثل هذه الخطوة ، وتبين له أن الضعف فى مثل هذه المواقف كبير الخطر على مستقبل الدولة ، فلقد وضح له كامبون Cambon السفير الفرنسى أن من واجبه إزاء رعاياه المسلمين الاحتجاج على الأقل ، ولكن النصائح الفرنسية باءت بالفشل لمساعى ألمانيا ، فلقد ذكرت للسلطان حين استشارها ، بأنه إذا كان الفرنسيون يهتمون حقيقة لصالح الدولة ، فيجب أن يضعوا تحت تصرفها القوات الكافية لحمايتها وألا يقتصروا على مجرد الكلام ، وأن من الخير للفرنسيين ألا ينتقدوا أعمال الإنجليز فى مصر ، بل يجب أن ينظروا إلى ما يقومون هم به فى سوريا . وكان لنصيحة ممثل ألمانيا برنس رادولين Radolin أثر فى الأستانة ، إذ انضم إلى صوته صوت حكومات النمسا والمجر وإيطاليا[٢] .

وكان روزبرى يفكر فى تقوية مركز إنجلترا فى مصر ، ولقد خطر فى ذهنه أول الأمر أن يعرض مسألة مصر على الدول ، ولم يكن يرى خطراً فى ذلك ، لاعتقاده أن دول التحالف الثلاثى على الأقل ستناصر القضية الإنجليزية ، ولكن ألمانيا أقنعته بأن هذا غاية ما تتمناه فرنسا ، فعدل عن هذا الرأى ، ولكنه كان مصمماً على ألا يدع مركز الإنجليز يتزعزع فى مصر لأى سبب ، سواء أكان ذلك من ناحية الخديو أو من ناحية فرنسا ، ولذا فهو راغب فى زيادة قوات الاحتلال ، وهو يصرح للسفير العثمانى فى لندن ، بأن الحكومة الإنجليزية ليس لديها مانع من الاتفاق مباشرة مع تركيا على ألا يذكر موضوع الجلاء ، وأن يعطى السلطان لإنجلترا انتداباً : حق النيابة عنه أثناء احتلالها لمصر[٣] . ونظير ذلك تعترف له إنجلترا بحقوق السيادة ، وبذا تضمن إنجلترا موقفها فى مصر وشرعيته أمام الدول الأوربية . على أن السلطان كان يخشى فى أول الأمر على مركزه أمام الرأى العام الإسلامى لو وافق على إعطاء الانجليز هذا الحق .

---

(١) نفس المصدر ، هاتسفلت إلى كابريفى ، ٥ فبراير ١٨٩٣ .

(٢) الوثائق الألمانية ، رادولين إلى كابريفى ٢٠ يناير ١٨٩٣ .

(٣) نفس المصدر ، هاتسفلت إلى وزارة الخارجية الألمانية ، ٤ فبراير ١٨٩٣ .

ولم يكن روزبرى فى مفاوضاته مع الأتراك يرى الرجوع إلى اتفاقية سير هنرى درمندولف ، لأنه كما ذكر للسفير العثمانى قد تغيرت الظروف تماماً ، ولكنه مع ذلك راغب فى استرضاء تركيا، وذلك بوضع شرط فى مشروع الاتفاقية الجديدة وهو : أن يتناقش الفريقان المتعاقدان فى موضوع الجلاء بعد مضى مدة معينة : خمس سنوات مثلا . وبين للسفير العثمانى أن ذلك فى صالح تركيا نفسها ، لأنه لو فرض وسحبت الجنود الإنجليزية من مصر لن تنتهى مسألة مصر بأى حال ، ولن يزول الخطر عنها ، فسيحل محل الجنود الإنجليز جنود دولة من الدول الأوربية الأخرى التى لن تحترم حقوق السلطان ،فى حين أنه لو اتفق السلطان مع إنجلترا فستعترف بحقوقه فى معاهدة رسمية[١] .

على أنه فى خلال شهر واحد تغير الموقف بسرعة كبيرة ، فالرأى العام الإنجليزى قد تحمس للاحتلال ولبقائه ، وازداد فى عدائه لتركيا ، وخاصة حين ثارت مسألة أرمينية ، وأعلنت إنجلترا استياءها من سياسة الباب العالى فيها . ولذا لم يعد الجو صالحاً للاستمرار فى المناقشات بين تركيا وإنجلترا ، فقد غضب السلطان لمهاجمة الصحافة الإنجليزية له ، ويظهر أن روزبرى لم يجد التأييد الكافى من زملائه فى الوزارة الذين كانوا ميالين إلى كسب صداقة فرنسا ، ولو أدى ذلك إلى إغضاب الباب العالى .

ولكن هذا لم يمنع لسلطان بعد أن هدأ روعه قليلا من تقديم مشروع يرضاه هو ، تعترف فيه إنجلترا بسيادة السلطان على مصر ، وتتعهد بأن تطلب من السلطان موافقته قبل زيادة قواتها فى مصر ، ويحل محل ذلك المشروع بعد سنتين اتفاقية تنص على تعيين موعد للجلاء عن مصر . ولكن روزبرى رفض المقترحات العثمانية بشدة جعلت السلطان يفكر فى عرض مسألة مصر من جديد على الدول ، وشجعه على التفكير فى ذلك الخديو الذى كان يزور الأستانة فى ذلك الوقت ، ولكن مساعى ألمانيا صرفت السلطان عن هذا التفكير كلية ، وشكر روزبرى الحكومة الألمانية .

وكان مجىء وزارة روزبرى فى سنة ١٨٩٤ (فى هذه المرة كان روزبرى رئيساً للوزارة) عاملا على تفكير السلطان مرة أخرى فى الوصول إلى تفاهم

---

(١) نفس المصدر . هاتسفلت إلى كاپريفى ، ٥ إبريل ١٨٩٣ .

مع إنجلترا ، غير أن روزبرى لم يكن مستعداً لقبول اقتراح السلطان ، وإن كان قد رد رداً جميلا ، ولكنه بين فى نفس الوقت أهمية مصر لانجلترا ، وأن التفكير فى مسألة الجلاء أصبح أمراً مستحيلا ، فهو لا يرى أن إنجلترا فى البحر الأبيض المتوسط قادرة على مواجهة أسطول دولتين كبيرتين إذا عزمت واحدة منهما على الاعتداء على مصر ، وهو يشك فى مقدرة إيطاليا على مساعدة إنجلترا فى مثل هذه الظروف ، لا سيما وأن حالة إيطاليا الداخلية ربما استدعت ميل إيطاليا نحو فرنسا ، ولذا فإنجلترا لن تستطيع الاعتماد على تعاون الأسطول الايطالى معها ، فى حالة وقوع اعتداء من ناحية فرنسا وروسيا على مصر . ومن ناحية ثالثة هو يخشى الرأى العام المصرى الذى قد يرى فى قبول إنجلترا الدخول فى مفاوضات مع الباب العالى دليلا على ضعف إنجلترا . ولذا فهو يقرر أن من حق إنجلترا أن تكون لها الحرية المطلقة فيما يختص بموضوع الجلاء [١]. على أن السلطان سرعان ما شغل عن إنجلترا بإيطاليا ، فأصبح فى قلق دائم من أطماع الايطاليين فى انتزاع أجزاء من السودان ، كما ساءه احتلالهم لكسلا ، ولذا طلب من إنجلترا ألا تتنزل عن زيلع إليهم [٢] .

وسئمت إنجلترا فى آخر الأمر كثرة احتجاجات السلطان وملت كثرة مطالبه بشأن مصر ، ورأت أنه لو اتفقت تركيا مع دول الوفاق الثنائى فرنسا وروسيا كان فى ذلك البلاء ، وتزعزع مركز الإنجليز فى الشرق ، فعاد سولسبرى إلى نغمته القديمة إزاء الدولة العثمانية ، وبين أنها :

"A gangarene in the extremity of Europe...the danger exists and will continue. There is a centre of rottenness, from which disease and decay may spread to the althiet portions of the European community." [٣]

وباء وفساد قد يعم خطره الأجزاء المتصلة بها فى أوربا . ودعا إلى تقسيم ممتلكاتها بين الدول العظمى لأن انهيارها قد قرب ميعاده ، وأنه ليس لديه مانع من أن يسيطر الروس على ممتلكاتها البلقانية بل وعلى القسطنطينية ذاتها ،

---

(١) الوثائق الألمانية هاتسفلت إلى كابريفى ٢٤ أغسطس ١٨٩٤ .

(٢) نفس المصدر ، فون مترنخ von Metternich قائم بالأعمال الألمانية فى لندن إلى كابريفى ، ٨ أكتوبر سنة ١٨٩٤.

(٣) خطبة له فى دوفر فى ١٥ أغسطس سنة ١٨٩٤ .

نظير تمتع الانجليز بمركز غير منازع فى مصر . وتستطيع إيطاليا أن تذهب إلى طرابلس أو مراكش ، وفرنسا إلى سوريا . وكان الهدف الذى يرمى إليه سولسبرى شَغْل فرنسا وروسيا وتركيا عن مسألة مركز الإنجليز فى مصر ، بإثارة مسألة بقاء الدولة العثمانية ، فكما يبعث روتنهام إلى المستشار الألمانى الجديد پرنس هوهبلوه « إن إنجلترا ترى نفسها مهددة فى مصر ، تهددها روسيا وفرنسا .... ولذا فهى تبذل جهدها لتحويل الانتباه إلى البلقان وآسيا الصغرى بإثارة مسألة الاصلاحات فى أرمينية وبقية أجزاء الدولة العثمانية »[١] .

على أن آمال سولسبرى فى القضاء على الدولة العثمانية والانفراد بمصر لم تتحقق ، لأن ألمانيا وروسيا كانتا تفهمان أغراض إنجلترا ، ووجدتا أن من مصلحتهما المحافظة على الدولة العثمانية ، فكان كل من پرنس هوهنلوه المستشار الألمانى وپرنس لوبانوف المستشار القيصرى الروسى يريان أن أغراض إنجلترا أنانية صرفة وأن ليس من مصلحة السلام الأوربى تنفيذ مشروع سولسبرى .

على أن إخفاق سولسبرى فى مشروعه لم يقوّ فكرة الجلاء ، فهذه فكرة استبعدها سولسبرى نهائيًّا ، واستبعدتها الوزارات التى خلفته . فتصميم الحكومة الانجليزية على استرجاع السودان ، وعودة السودان إلى مصر ، وإعلان الحكم الثنائى فيه ، هذه كلن من شأنها تمسك الانجليز بالبقاء فى مصر ، وخاصة بعدأن تمت الاتفاقية مع فرنسا فى سنة ١٩٠٤ ، فزالت معارضة فرنسا للاحتلال ، وبعد ذلك بثلاث سنوات زالت نهائيًّا معارضة روسيا . وبذلك انتهت مطالبة أوربا بجلاء الانجليز عن مصر .

محمد مصطفى صفوت

---

(١) ١٣ أغسطس ١٨٩٥ .

الإشادة بالنصر عند الفراعنة

كان من أهم ما يعنى به ملوك مصر القديمة، بعد قيامهم بحروبهم التى سجلوا بها فى التاريخ أروع الانتصارات، أن يبادروا حال عودتهم إلى مصر ظافرين، بأن يذيعوا على الشعب المصرى بمختلف الطرق أخبار تلك الحروب، وما دار خلالها من المعارك، وما أحرزوه فى تلك المعارك من انتصارات .

فمن المعروف أن قوة الفراعنة إنما كانوا فى الغالب يستمدونها من قوة جيوشهم ، ولا سيما أن الروح الحربية كانت قد تأصلت فى الشعب المصرى فى عصر الوحدة الثالثة[1] ، بعد ذلك الكفاح المرير الذى تحمله بشجاعة وصبر تحت لواء محرره ومليكه الشاب أحمس الأول ، بطل أول حرب استقلال وكفاح من أجل حرية مصر[2] .

ولما كان أزهى العصور الحربية فى مصر القديمة على الإطلاق هو عصر الوحدة الثالثة « من سنة ١٥٨٠ — ١٠٨٥ قبل الميلاد، « لما كان شائعاً فيه من ولع الملوك بالفتح والغزو وخوض غمار الحروب ، ولما شاع كذلك من نضج عسكرى بين أفراد الشعب ، فقد رأينا أن نقصر بحثنا فى الإشادة بالنصر عند الفراعنه على أهم حروب هذا العصر ، موقنين أنه يعتبر مرآة صادقة لما وصلت إليه مصر من مكانة اجتماعية تساعد على الاهتمام بنشر أخبار الحروب والنصر فيها .

وكان الملوك يتوخون من وراء نشر بلاغاتهم رفع الروح المعنوية للشعب، وبث روح الجندية فيه وتشجيعه على المساهمة فى الحروب المستقبلة بما يزيد

(١) اقرأ فى هذا نظريتنا التى نقول بها ، مخالفين سائر علماء التاريخ والآثار من تقسيم تاريخ مصر القديم حسب ما طرأ على مصر فى عصورها السالفة من وحدة أو تفكك ، وهى النظرية التى سجلناها أول مرة فى مجلة القانون والاقتصاد ، بتاريخ يناير سنة ١٩٤٢ ، ثم أوردناها فى كتابنا « لمحات من الدراسات المصرية القديمة ». (صفحة ٧ ، وما بعدها) .

(٢) Pahor Labib.Die Herrschaft der Hyksos in Aegypten and ihr Starz, S: 35 ff.

من قوة الدولة ويعلى من شأنها ، فضلا عما كان يجده الملوك فى ذلك من فخار بما حازوه من انتصارات تخلد ذكرهم وذكر جيوشهم فى التاريخ . وكانوا يقصدون كذلك بنشر أخبار نصرهم على جدران المعابد الاعتراف بآلهتهم بما لها من الفضل فى انتصاراتهم لأنهم كانوا ينسبون إلى هؤلاء الآلهة ما نالوه من نصر فى حروبهم .

أما الوسائل التى اتبعها الفراعنة فى الاشادة بانتصاراتهم فقد اختلفت باختلاف الملوك وتطورت مع تطور وسائل الكتابة والتعبير . فقد بدأوا يدونون أخبار نصرهم بالكتابة ثم أصبحوا يعززون الكتابة بالرسم ثم أصبحوا يقيمون التماثيل أو يشيدون الأبنية المختلفة الأشكال لتخليد ذكرى نصرهم ، وذلك فضلا عما اعتنوا به من إقامة الأعياد والاحتفالات التى ينعمون فيها على قادة الجيش بالألقاب والنياشين . وسوف نتكلم عن كل وسيلة من هذه الوسائل فى شىء من التفصيل .

أولا — الكتابة

فقد بدأ الفراعنة يدونون أخبار نصرهم بالكتابة بأساليب متنوعة وبوسائل مختلفة ، فكانوا يجعلونها أحياناً فى صيغة شعرية ، كما ورد على لوح حجرى من الجرانيت الأسود وجد بمعبد الكرنك[١] ، وقد نقشت عليه قصيدة من الشعر تخليداً لانتصارات الملك تحتمس الثالث[٢] .

وكما ورد فى بردية سالييه الثالثة[٣] التى دونت فيها قصيدة تشيد بانتصار الملك رمسيس الثانى فى معركة قادش ، وهى القصيدة التى ينسبها أغلب العلماء إلى بنتاؤور ، فى حين أننا نعتقد أنها من وضع شاعر مجهول ، وليس بنتاؤور إلا الناسخ لها ، وقد نقشت هذه القصيدة كذلك على معابد مختلفة .

وكانوا يجعلون أخبار نصرهم أحياناً أخرى بصيغة نثرية توخوا فى مبدأ الأمر أن تكون صيغة فصحى أيام أن كانت اللغة الفصحى هى لغة الكتابة

---

(١) دليل المتحف المصرى رقم ٤٢٠ .

(٢) P. Lacau: Stèles du Nouvel Empire.

(٣) S. Hassan: Le Poème dit de Pentaour.

الرسمية ، كما ورد في الإشادة بالنصر في موقعة مجدو في عهد الملك تحتمس الثالث[١].

ثم لما أصبحت لغة التخاطب العامية هي اللغة الرسمية للكتابة في العصر التالي لذلك العصر ، أصبحوا بالتالي يدونون بها أخبار نصرهم ، كما ورد في أخبار موقعة قادش على عهد الملك رمسيس الثاني[٢] .

ومما يلاحظ مع ذلك أن المصريين القدماء استعملوا الاستعارات الشعرية ، مستعينين بالكناية والتشبيه ، فكان الملك رمسيس الثالث يسمى أسطوله باللهب العظيم ، ويسمى جيشه بالجدار الفولاذي[٣] .

أما الوسائل الكتابية التي كانوا يتبعونها فقد كانت مختلفة متعددة نذكر منها :

ا) أوراق البردي : فقد اعتاد الملوك على العموم أن يدونوا أخبار نصرهم يوماً بيوم على أوراق البردي ، ويحفظونها في مجلدات خاصة تشبه أقلام الحفظ في وقتنا الحاضر ، باعتبارها المستندات الرسمية لما ينقش من هذه الأخبار على جدران المعابد وغيرها ولما يذاع على الشعب بمختلف الأساليب . ونجد مثالا لذلك بردية ساليبه الثالثة الخاصة بمعركة رمسيس الثاني في قادش السابق الإشارة إليها ، والتي كتبت في الأصل بالخط الهيراطيقي[٤] ، والتي نجد ما ورد بها منقوشاً بنصه بالخط الهيروغليفي على جدران المعابد .

وقد ألف المصريون القدماء القصص للإشادة بنصر ملوكهم ، فعلى سبيل المثال في عهد الملك تحتمس الثالث ألف المصريون قصة نسبوا إليه فيها مقدرته على هزيمة الأعداء حتى وإن لم يبرح الملك مكانه إلى ساحة القتال ، كما ورد في بردية ساليبه الأولى ، وهي قصة استيلاء قائد الملك تحتمس الثالث المدعو تحوتي على يافا[٥] .

وقد ورد في بردية هاريس رقم واحد إشادة بنصر الملك رمسيس الثالث على أعدائه وذلك في الجزء التاريخي من هذه البردية[٦] .

---

(١) K. Sethe: Urkandan der 18. Dynastie, IV, 625-778.

(٢) Ch. Kuentz: La Bataille de Qadech.

(٣) H. Grapow: Die Bildlichen Ausdruecke des Aegyptischen, S. 164.

(٤) G. Moeller: Hieratische Lesestuecke, zweites Heft.

(٥) Pap. Sallier 1-3, in the British Museum.

(٦) W. Erichsen: Papyrus Harris I, Tafel 76-77.

ب) جدران المعابد : وقد درج الملوك على الاهتمام بنقش أخبار انتصاراتهم على الخصوص على جدران المعابد ، ومن أشهر الأمثلة لذلك ما دونه الملك تحتمس الثالث على جدران معبد الكرنك فى وصف انتصاره فى حروبه ، وخاصة فى معركة مجدو .

وكذلك ما دونه الملك سيتى الأول على جدران معبد الكرنك من الانتصارات فى حروبه ضد السوريين وأهل فلسطين وأهل ليبيا[١] .

وكذلك ما دونه الملك رمسيس الثانى من أخبار حروبه وانتصاراته، وخاصة فى معركة قادش، على أغلب المعابد فى مصر والنوبة، مثل معبد العرابة المدفونة ومعبد الكرنك ومعبد الأقصر ومعبد الرمسيوم ، كما دون أخبار هذه المعركة فى بلاد النوبة على جدران معبد أبى سنبل .

وكان الملوك يتوخون من وراء نشر أخبار حروبهم والإشادة بالنصر فيها على جدران المعابد أن تقع تحت أبصار أكبر جانب ممكن من الشعب الذى يؤم هذه المعابد ، فكانت والأمر كذلك بمثابة الصحف السيارة فى هذه الأيام .

ج) جوانب المسلات : وقد عثرنا على مسلات أقيمت خاصة لتخليد انتصارات بعض الفراعنة على أعدائهم ، وقد نقشت على جوانبها ألقابهم الدالة على هذه الانتصارات ، كقولهم عن الملك رمسيس الثانى « قاهر الحيثيين » . ومن تلك المسلات مسلة رمسيس الثانى المكتوب عليها هذه العبارة والموجودة فى معبد الكرنك .

د) قواعد التماثيل : وكانوا أحياناً يدونون أخبار نصرهم على قواعد ما يقيمونه من تماثيلهم ، كما نرى على قاعدة تمثالى الملك رمسيس الثانى الموجودين بمعبد الأقصر .

هـ) فى وثائق المعاهدات : كما أنهم كانوا يكتبون أخبار نصرهم فى المعاهدات التى يبرمونها ، سواء أكانت معاهدات صلح أو معاهدات عدم اعتداء ، والتى وجدنا بعضها تشير إليه نصوص على معبد الكرنك تدل على أنها كانت مدونة فى الأصل على لوحات فضية ، إحداها باللغة المصرية القديمة

---

(١) Lepsius: Denkmaeler, Abt: III, Bl. 127-129.

« الخط الهيروغليفى » (١)، والأخرى باللغة الحيثية (الخط المسمارى) (٢)، مما يدل على أنهم كانوا يجعلون العقود والاتفاق على صورتين لكل متعاقد صورة، كما هو حاصل فى العصر الحديث .

ثانياً — الرسم

كان من أهم وسائل الإشادة بالنصر فضلا عن الكتابة هو الرسم ، فقد كانوا يقربون إلى أذهان الشعب أخبار انتصاراتهم برسم صور المعارك ، وما دار فيها وما انتهت إليه من نصر يفخرون به . وقد تطورت استعانة الفراعنة بالرسم لهذا الغرض، فبدأوا برسم الملك يتقبل من الإله أمون سيف النصر ، ومعه حبال أوثقت فيها أسرى البلاد المختلفة(٣) ، ويدل كل أسير منهم على أن الملك قد فتح بلاده وانتصر عليها، مع رسم دائرة فوق كل أسير كتب فيها اسم البلد التى جاء منها وانتصر الملك عليها . ونجد مثالا لذلك قوائم بأسماء البلاد والقبائل التى غزاها تحتمس الثالث مرسومة على شكل أسرى موثقين بالحبال على جدران معبد الكرنك، كما نجد مثل هذه القوائم على قاعدة تمثالى الملك رمسيس الثانى بمعبد الأقصر .

ثم بدأوا يصورون بشىء من التوسع بعض مناظر من انتصارات الملك ، كما نجد على صدر عربة الملك تحتمس الرابع وعلى صندوق الملك توت عنخ أمون .

ثم منذ عهد الملك سيتى الأول تطور الأمر تطوراً مفاجئاً ، إذ نجدهم منذ ذلك العهد يصورون الخطوات المميزة لسير القتال من البداية حتى النهاية ، أى ما يشبه الشريط السينمائى لكل حوادث الحملة حتى تنتهى بالنصر النهائى ، بحيث يفهم الناظر إلى هذه الصور كل ما يتعلق بالحملة ونتيجتها دون الاستعانة بالنصوص . وإن كانوا قد اعتادوا أن يعززوا الصور بشرح لها يؤرخ الحملة ويسهب فى وصفها وكتابة أسماء الأمكنة والمدن وغير ذلك من عدد الأسرى وأنواع الغنائم وأسماء المواقع التى تم فيها النصر ..

ونجد مثالا لذلك على جدران معبد الكرنك حيث نجد شرحاً لمعارك

---

(١) K. Sethe: Nene Forschungen zu den Beziehungen ewischen Aegypten und dem Chattireiche.

(٢) S. Langdon and Gardiner, in J. Eg. Arch. VI, 1926.

(٣) Lepsius: Denkmaler Abt. III Bl. 179.

الملك سيتى الأول فى حروبه مع السوريين وأهل فلسطين ، وحروبه مع الليبيين ورجوعه إلى مصر ظافراً بالغنائم الحربية والأسرى ، واستقباله من كبار الكهنة وعظماء الأمة وأفراد الشعب ، وهم يشيدون بانتصاراته ويثنون عليه ، ثم تقدم الملك بالأسرى إلى إله طيبه اعترافاً بجميله[١] .

ثم تطور الأمر بعد ذلك ، فأصبح الملك لا يكتفى بتدوين أخبار نصره وتصويرها على جدران معبد واحد ، وإنما كان يتوخى أن ينشرها على جدران أغلب المعابد فى وادى النيل كله ، كما فعل ذلك الملك رمسيس الثانى ، إذ دون بالكتابة والرسوم أخبار انتصاراته فى معركة قادش على أغلب المعابد فى مصر والنوبة ، مثل معبد العرابة المدفونة ومعبد الكرنك ومعبد الأقصر ومعبد الرمسيوم ، كما دون أخبار هذه المعركة وانتصاراته فيها فى النوبة على جدران معبد أبى سنبل .

ثالثاً — إقامة التماثيل

رأينا أن أسلوب الاشادة بالنصر قد تطور من الكتابة إلى التصوير ، ثم انتقل إلى خطوة أخرى فأصبح الملوك يستعينون بالتماثيل .

ومن أهم الأمثلة التى عثرنا عليها حتى الآن تمثال قصد منه الإشادة بالنصر ، وهو تمثال رقم ٧٤٣ بالمتحف المصرى . وإنه وإن كان علماء الآثار وكذلك المسئولون بالمتحف المصرى يعتبرون هذا التمثال خاصاً بالملك رمسيس السادس[٢] ، معتمدين فى ذلك على ما هو وارد على ظهر التمثال من نصوص ، إلا أننا نعتقد أن هذا التمثال يخص رمسيس الثالث ، وإنما اغتصبه الملك رمسيس السادس لنفسه ، وذلك بالأدلة الآتية : أولا — الكشط الظاهر فى خرطوشة تتويج الملك . ثانياً — الأسير الذى يمسكه الملك بيده وهو أسير ليبى ، فى حين أن المعروف أن الملك رمسيس السادس لم يحارب الليبيين ،

(١) Lepsius, Denkmaeler Abt III Bl. 127 ff.

(٢) وهو تمثال للملك مسلح بفاس الحرب وقابض على أسير ليبى ، يسير منحنياً خلفه ، ويتبع الملك أسد أليف .

راجع دليل المتحف المصرى الطبعة الأخيرة بالانجليزية لسنة ١٩٤٦ حيث يقول .

"Curious Statue of King Ramses VI, armed with battle axe and dragging by the hair a Libyan, who walks bent beside him. A tame lion accompanies the King."

وإنما الذى حاربهم أكثر من مرة هو رمسيس الثالث . ثالثاً — وجود الأسد بين قدمى الملك هو أحد المميزات المعروفة عن الملك رمسيس الثالث[١] مقلداً فى ذلك سلفه الملك رمسيس الثانى ، كما نجد ذلك فى مدينة هابو ، وليس ذلك من المميزات المعروفة عن الملك رمسيس السادس .

رابعاً — إقامة المبانى

وقد جرت عادة الملوك الأقوياء على إقامة المعابد أو إضافة أجزاء إلى المعابد المقامة ، اعترافاً بجميل الآلهة على ما نالوه من نصر فى حروبهم ، إذ نجد أن رمسيس الثالث بنى معبد مدينة هابو ودوّن على جدرانه النصوص والصور الرمزية الدالة على انتصاره على الليبيين وعلى أعدائه من قبائل البحر الأبيض المتوسط الذين هددوا حدود مصر الشمالية أيام حكمه . ومن طريف الصور المدونة على جدران هذا المعبد صورة رمزية تمثل الملك رمسيس الثالث وهو يهشم رؤوس أعدائه من أهالى البحر الأبيض المتوسط فى حضرة الإله هوراختى ، وصورة أخرى تمثل الملك وهو يقتل أعداءه ويساعده فى ذلك أسده الأليف ، ثم صورته وهو يقدم الأسرى إلى الإله أمون ، وصورة ثالثة تمثل انهزام الليبيين أمام الملك رمسيس الثالث وجنوده وعودة الجيش المصرى بقيادة الملك ظافراً من حروبه ، ثم منظر الملك يقود ثلاثة صفوف من الأسرى إلى الإله أمون ، مما يدل على أن الملوك كانوا يعتبرون النصر آتياً إليهم من الإله .

كما أن بعض الملوك أقام تخليداً لذكرى نصره مدينة بأسرها تحمل اسمه ، كما فعل رمسيس الثانى عند ما أسس فى السنة الرابعة من حكمه على نهر الكلب بسوريا مدينة رمسيس .

وكان ملوك آخرون يقيمون لتخليد انتصاراتهم نصباً تذكارية على صورة لوحات حجرية يضعونها فى المعابد المختلفة أو فى المكان الذى تم فيه النصر ، كاللوحة رقم ١٢٠ بالمتحف المصرى التى أقامها تحتمس الثالث فى معبد الكرنك إشادة بنصره على أعدائه ، وكاللوحة التى وجدها رايزنر[٢] فى معبد أمون بجبل بركال بالقرب من الشلال الرابع ، وهى التى كان قد أقامها فى هذا

---

(١) Lepsins: Denkmaeler, Abt. III Bl. 179.

(٢) Reisner: A.Z.; 69, S. 24, 1933.

المكان تحتمس الثالث إشادة بانتصاره وذاكراً فيها طرفاً آخر من انتصاراته فى آسيا .

خامساً ــ حفلات النصر والأعياد

وكان من أول ما يهتم به الملوك بعد عودتهم من حروبهم وانتصارهم فيها إقامة حفلات النصر التى تعتبر خير إشادة بذلك النصر الذى أحرزوه ، بل لقد كانوا يقيمون لذلك الأعياد التى يقدمون فيها القرابين للآلهة ، شكراً على ما أولوه لهم من قوة انتصروا بها على أعدائهم. ونجد أظهر مثال لذلك الأعياد الثلاثة التى أقامها تحتمس الثالث ابتهاجاً بانتصاراته فى حروبه ، تلك الأعياد التى أصبحت فيما بعد فى حكم العادة السنوية التى تقام عاماً بعد عام ، وكان المصريون القدماء يستقبلون هذه الأعياد بأعظم مظاهر البهجة والسرور ، وأشهرها ثلاثة أعياد ، كان يقام أحدها باسم الإله أمون ، وكانت هذه الأعياد تسمى بأعياد النصر .

وكان يصاحب هذه الاحتفالات والأعياد بطبيعة الحال مظاهر مختلفة لتكريم الجيش وقواده وتكريم العلم الذى اتخذه الملك رمزاً لنصره . ومثال ذلك أن العلم الذى كان يتقدم جيش رمسيس الثالث يحمل فى أعلاه صورة رأس كبش أمون رع يعلوه قرص الشمس ، وهى بذلك صورة رمزية لأعظم الآلهة الذى كانوا يعتبرون أنه يصحب بشخصه ابنه الملك فى غزواته كما يفهم ذلك من العبارات المنقوشة على معبد مدينة هابو إذ جاء فيها أن الإله أمون يخاطب الملك قائلا له : « أى بنى الملك رمسيس الثالث ها أنا أمامك وإنى أطرح الأعداء أمام خيولك . . . » .

سادساً ــ الأنعام على القادة بالرتب والنياشين

وكان من مظاهر الإشادة بالنصر كذلك إنعام الملك على قواده الذين اشتركوا معه فى حروبه وقاموا بأعمال مجيدة بالرتب والنياشين التى كانوا يسمونها « ذهب البطولة » وهى عبارة عن أوسمة شرف خاصة مثل ما كانوا يسمونه « بالذبابة » رمزاً إلى المحارب الذى يتبع عدوه ويلاحقه كما تلاحق الذبابة

فريستها[١] ، وهى ما يسمونه اليوم اسماً قريباً من هذا الاسم وهو « الدبورة » .

كما كان الملك يهدى ضباطه أسلحة ثمينة ، ومثال ذلك نقرأ فى بعض النصوص أن الملك أمنحتب الثانى ابن الملك تحتمس الثالث كان يوزع على قواده الأكفاء بعض الأسلحة لمناسبة عيد العام الجديد الذى كان يحتفل به تمجيداً للانتصارات .

سابعاً – استحضار أمراء البلاد المهزومة

وكان من مظاهر الفخار بالنصر ليس فقط إحضار أسرى الحرب إلى العاصمة المصرية ، بل إن الملك تحتمس الثالث بعد انتصاره فى معركة مجدو التى خاضها ضد فلسطين وحلفائها أحضر معه أولاد الأمراء وإخوتهم كرمز للنصر ، وإن كان قد عمد بعد ذلك إلى تعليمهم فى مدرسة الكرنك ، حتى إذا تشربوا حب مصر وملوكها وأمنوا برسالة حضارتها العظيمة وثقافتها العالية أعادهم إلى حكم بلادهم خاضعين لفرعون مصر[٢] .

ولعل أشهر المعارك على الإطلاق التى اهتم فيها فرعون مصر بالإشادة بنصره فيها هى « معركة قادش » التى انتصر فيها الملك رمسيس الثانى هذا ، وإن كان الملك تحتمس الثالث من قبله قد احتفل احتفالا عظيما بانتصاره فى موقعة مجدو ، وأقام عيداً قدم فيه القرابين إلى الإله أمون الذى اعتبره سبباً مباشراً للنصر .

أما معركة قادش فهى التى خاض غمارها الملك رمسيس الثانى ، بعد أن أعد حملته لإخضاع الحيثيين وحلفائهم ، وقد هددوا ملكه بما عقدوه من تحالف ضده. ومما يهمنا فى موضوعنا هنا أن الملك رمسيس الثانى كتب تفصيلات هذه المعركة بالكتابة المعززة بالصور على أكثر معابد وادى النيل ، مما يدعونا إلى إيراد بعض تفصيلاتها كمثل لما كان يتبعه الملوك من التوسع فى الإشادة بانتصاراتهم .

---

(١) Erman-Ranke: Aegypten S. 631

(٢) وإلى جانب تلك الوسائل التى ذكرناها عن إشادة ملوك المصريين القدماء بما يحرزونه من النصر فى حروبهم نجد وسيلة استعملوها لذلك ، وهى جعل العصا التى يمسكها الملك على شكل أسير من أسرى الأعداء ، وكذلك نقش صور الأعداء عند مواطئ أقدامه .

فقد بدأ رمسيس الثانى فى هذا السبيل بإخضاع الشاطىء البحرى لفينيقيا كى يتخذ منه قاعدة حربية لحركاته المقبلة [١]. فلما تم له السيطرة على هذا الشاطىء ، أقام لوحاً تذكارياً من الحجر على نهر الكلب بالقرب من بيروت فى السنة الرابعة من حكمه ، سجل عليه انتصاراته حتى تلك السنة على ضفة هذا النهر وكانت هذه الحملة إنذاراً كافياً لملك الحيثيين المدعو ميتالا . فأخذ يجمع قواته ويؤلب الولايات المحيطة به كى تتحالف معه فى حربه ضد مصر .

وقد بادر رمسيس الثانى إلى حشد قواته فى نفس القاعدة الحربية التى استعملها تحتمس الثالث فى تمهيده لموقعة مجدو ، وهى حصن ثارو ، الواقع على الحدود الشمالية الشرقية من مصر بالقرب من مدينة القنطرة الحالية ، فى المنفذ المؤدى إلى شبه جزيرة سينا ومنها إلى القارة الأسيوية .

وعمد رمسيس فى هذا السبيل كذلك إلى الاستعانة ببعض الجنود المرتزقة من بعض البلاد الأجنبية ومنهم الشردونيين .

وقد قسم الملك رمسيس قوات المشاه تعززها الفرق الراكبة إلى أربعة فيالق وأطلق على كل فيلق منها اسماً من أسماء الآلهة وهم أمون ، ورع ، وبتاح ، وسونتخ . وكان قوام كل فيلق نحو خمسة آلاف مقاتل . أما رمسيس ففضلا عن قيادته العامة للجيش بما تستلزمه من حرس خاص يحيط به فإنه تولى قيادة فيلق المقدمة وهو المسمى بفيلق آمون [٢] .

ولم يأل رمسيس فى هذه الأثناء جهداً فى تدريب جيشه وتسليحه وتعزيزه بأحدث المعدات المعروفة فى عصره ، كما جمع له المؤن اللازمة من كافة أنحاء البلاد .

وفى حوالى يوم ١٧ ابريل سنة ١٢٩٦ قبل الميلاد تحرك الجيش المصرى من ثارو متجها نحو آسيا ، واستمر تقدم رمسيس شمالا على امتداد الطريق الساحلى حتى وصل إلى لبنان ، حيث توقف بالقرب من بلدة رمسيس التى كان قد أنشأها فى السنة السابقة لقيام هذه الحملة عند مصب نهر الكلب تخليداً لنصره السابق ، وحتى يجعل منها قاعدة أمامية بعد ثارو التى كانوا قد

(١) Ed. Meyer: Geschichte II, I.

(٢) Ch. Kuentz: La Bataille de Qadech.

ابتعدوا عنها كثيراً فى حين توخى الملك ألا يطيلوا خطوط مواصلاته .

فلما أتم رمسيس تأمين قاعدته الحربية الثانية وكان قد مضى عليه تسعة وعشرون يوماً منذ أن غادر ثارو قام على رأس جيشه ويمم شرقاً مخترقاً وادى الأورنت فى الشمال من سوريا دون أن يلتقى فى ذلك أى صعوبة ودون أن يلتقى بالحيثيين حتى أشرف فى نهاية الوادى على آخر قمة التلال الواقعة عن شماله وتسمى « تلال قادش » فعسكرت القوات المصرية هنالك وكانت ترى على مرمى البصر مواقع العدو مرابطاً حول مدينة قادش التى لم تكن تبعد عنهم سوى مسيرة يوم واحد ويفصلها عن تل قادش الذى عسكر فيه المصريون مجرى نهر الأورنت[1] .

وفى الصباح المبكر من اليوم التالى استأنف الجيش المصرى سيره إلى الشمال حتى وصل إلى مدينة « ربلة » جنوبى مدينة شابتونا ، وعبر عندها النهر مرابطا فى الجهة المقابلة لها ، حتى يضمن لنفسه سلامة العبور قبل الاشتباك بالعدو .

وقام رمسيس بناء على معلومات مدسوسة عليه من بعض جواسيس الأعداء بالتقدم على رأس حرسه نحو الشمال يتبعه فيلق آمون أما باقى قواته فقد تركها تتبعه ببطء يتيح لها بعد ذلك أن تدخل المعركة موفورة النشاط .

وكان ميتالا ملك الحيثيين قد جمع فى هذا الوقت كل قواته فى الشمال الشرقى من مدينة قادش مختبئاً من قوات المصريين ، وجاعلا من المدينة فاصلا بينهم وبينه . وفى هذه الأثناء وقع فى يد المصريين جاسوسان أدليا بعد ضربهما بحقيقة مواقع الأعداء ، مما دعا رمسيس إلى الإسراع فى طلب فيلق بتاح ، وأمر وزيره بأن يسرع فى استدعاء الجنود المصريين الذين كانوا ما يزالون معسكرين فى جنوب شبتونا ، وأن يقودهم لينضموا إلى فيلق آمون وفيلق رع اللذين كانا قد اقتربا من منطقة القتال . أما فيلق سوتخ فلم يأمر الملك باستدعائه لينتفع به بعد حين .

إلا أنه حدث أن ملك الحيثيين — وهو أحد الأعداء — أسرع بعبور نهر الأورنت جنوب قادش ، وأمكنه مفاجأة فيلق رع الذى ما يزال فى طريقه

---

(١) J.H. Breasted: The Battle of Kadesch and Ancient Records of Egypt, III.

إلى مواقع فيلق أمون وعلى الرغم من أنه أفلح فى اختراقه وشطره إلى شطرين وتطويقه ، كما أوهن من عزيمة الجنود المصريين إلا أن الأخبار سرعان ما بلغت الملك رمسيس الثانى ، غير أن ذلك الملك الذى كان فى ريعان شبابه أظهر فى تلك اللحظة للملأ وأمام التاريخ عظمته الحقيقية ، إذ لم يظهر عليه أى اضطراب رغم دقة الموقف ورغم ما حاق بقواته بل تمالك نفسه واحتفظ بكل اتزانه وشجاعته وانتهز فرصة جشع جنود العدو فى السلب والنهب وقبض على ناصية الموقف من جديد ممسكا بدرعه ومعتليا عربته وأسرع قابضاً على ناصية فرسيه مخترقاً جيش الحيثيين وخلفائه وهجم وحده دون أن يصاحبه فى عربته من يمسك الدرع كالعادة المعمول بها فى ذلك الحين وشق طريقه بين صفوف أعدائه ومحاصريه بشجاعة خارقة للعادة وبأس يبلغ حد الإعجاز وبقوة وعنف لا عهد بمثلهما لقوات المتحاربين حتى ألقى بأعدائه مدحورين فى مياه الأورنت على مرأى من ملكهم بعد أن تبعه جيشه الذى سرعان ما اخترق الصفوف خلفه وأثخن صدور جنود الأعداء بوابل من السهام بعد أن أدركه المدد المصرى .

وبهذا النصر العظيم الذى أحرزه ملك مصر وجيشه الباسل على قوات العدو التى كانت تفوقه فى العدد ، أتيح للمصريين إبادة جيوش الحيثيين وحلفائهم . وأما ملك الحيثيين فقد هرب إلى داخل أسوار مدينة قادش ، حيث أرسل من هناك فى طلب الصلح مع الملك رمسيس الثانى الذى فرض عليه معاهدة اعتبر بها قاهراً للحيثيين .

وبعد عودة الملك رمسيس الثانى إلى مصر قام بتدوين أخبار انتصاره على المعابد فى كل مكان من مصر ، وفى أحد معابد النوبة كما ذكرنا فى هذا البحث ، وإن كان قد نسب النصر إلى الإله أمون . وكانت هذه هى الطريقة التى يتبعها الفراعنة فى نسبة النصر إلى الآلهة ، فكانوا بهذا يغدقون على المعابد وكهنتها الهدايا والعطايا وأسرى الحروب ، ويوقفون باسمها الأراضى مما زاد فى نفوذ كهنة المعابد المختلفة وفى ثرائهم مما أدى إلى ما يشبه النظام الإقطاعى ، كما ورد فى بحثنا الذى سبق نشره بمجلة مصلحة الآثار المصرية (١) .

وإنا وإن كنا قد اقتصرنا فى هذا البحث على إيراد هذا المثل بالتفصيل

---

(١) Pahor Labib : Feudalismus.

عن أخبار الانتصارات عند قدماء المصريين والإشادة بنصرهم وذلك لأن الملك رمسيس الثانى كان يتبع خطة ثابتة فى إذاعة انتصاراته فكان لا يعود من حرب من حروبه إلا بادر إلى تدوين أخبارها معززة بالصور على أكثر ما يمكن من معابد وادى النيل ، مما يدل على أن الملك أراد نشر أخبار النصر على أكبر عدد من شعب وادى النيل ، إلا أن مثيلاتها كثير فى تاريخ مصر القديم إذ أن الفراعنة سجلوا كما ذكرنا فى هذا البحث[١] من أعمال البسالة فى ميدان المجد والشرف المثل الأعلى فى الإقدام والشجاعة تلك التى بعثت من جديد فى حرب فلسطين الأخيرة على يد حفيد محمد على الكبير حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الأول — القائد الأعلى للجيش — أعزه الله وأيد ملكه .

باهور لبيب

(١) أوردنا بعضها بالتفصيل فى كتابنا « الملك رأس السلطات » ، صفحة ٨٠ وما بعدها .

الحمام الزاجل فى العصور الوسطى

المتواتر فى كتب المؤرخين المسلمين أن السلطان نور الدين أول من اعتنى بالحمام الزاجل فى الدولة الإسلاميه واستخدمه فى نقل المكاتبات بين مصر والبلاد الشامية ، وأنه نقل إلى تلك البلاد سنة ٥٦٥ هـ (١١٨٩ م) حماماً من مدينة الموصل ، وشيد له — ولا سيما فى مصر بعد أن مد نفوذه عليها بفضل رجاله من بنى أيوب — أبراجاً أقام بها الحراس يرقبون وصول الحمام ليل نهار[١] . على أن الباحث فى تاريخ الشرق الإسلامى فى العصور الوسطى يلمس بين طيات الكتب شذرات تشير إلى أن المعرفة بالحمام الزاجل ، واستخدامه فى نقل المكاتبات ، ترجع إلى ما قبل عهد نور الدين بكثير فى الدولة الإسلامية ، بل إن اهتمام بعض الدول القديمة بالحمام الزاجل ينقض القول بسبق المسلمين على غيرهم من الدول فى استخدام الحمام لأغراض البريد .

الواقع أن الشرق القديم عرف استخدام الحمام وغيره من الطير لأغراض البريد منذ أقدم العصور ، إذ تشير قصة نوح التى ورد ذكرها فى التوراة إلى أن حمامة كانت دليل نوح ومرشده أثناء جريان فلكه فى مياه الطوفان[٢] . وإذا كانت الاكتشافات لم تهتد بعد إلى مكان سفينة نوح ، فإن الآراء التى تثيرها تلك المحاولات تدل على أن السفينة ألقت مرساها بإحدى جهات الشرق . كذلك يقص القرآن نبأ استخدام الهدهد فى نقل الأخبار ، إذ حمل إلى سليمان خبر مملكة سبأ ، ونقل إلى بلقيس رسالة من سليمان يدعوها

---

(١) شهاب الدين بن العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١٩٦ .
، ميخائيل بن نقولا الصباغ : مسابقة البرق والغمام فى سعادة الحمام (ترجمه من العربية سلفستر دى ساسى باريس ١٨٠٥) ص ٣٧.

(٢) العهد القديم ، سفر التكوين ، الإصحاح الثامن ٧ ، ٨ .

فيها إلى الإسلام[١] . وحوالى القرن السادس قبل الميلاد أخذ اليونان عن فارس القديمة[٢] استخدام الحمام الزاجل فى نقل الأخبار ، فأطلقوا الحمام أثناء عقد الدورات الأولمبية ، لإذاعة أخبار المباريات بين البلاد اليونانية[٣] . ويبدو أن الرومان نهجوا تلك السبيل ، إذ بلغ من اهتمامهم بأخبار سباق العجلات فى روما أنهم حملوا معهم حماما زاجلا، يذيعون به أخبار السباق إلى سائر المدن الرومانية[٤] .

أما أول إشارة تاريخية لاستخدام الحمام الزاجل فى الحروب فهى سنة ٤٤ ق . م ، حين حاصر أنطونيوس الشهير مدينة مودينا بإيطاليا الحالية . إذ تبادل القنصل بروتس حاكم مودينا الرسائل مع زميله هيرتيوس خارج المدينة بالحمام الزاجل[٥] . ويبدو أن استخدام الحمام أثناء الحروب شاع فى أوربا الرومانية — بما فى ذلك بلاد اليونان طبعا — إلى درجة جعلت المؤرخ الكبير پلنى يسأل لماذا تقام الأسوار والحراس وتنصب الشباك فى الأنهار ،وللأخبار سبل فى الهواء[٦]؟ ومن المرجح أن أوربا الرومانية التى تلقنت من الشرق طريقة استخدام الحمام الزاجل أثرت بدورها على نظم الحمام الزاجل فى الشرق فى العصور الوسطى ، إذ اكتسب الحمام فى تلك البلاد لقباً آخر هو حمام البطاق . ويبدو أن ذلك تعريب الكلمة اليونانية II IT'AKIOV

(١) سورة النمل، آية ١٩ إلى ٣٠ .

(٢) لعل قصص كليلة ودمنة المترجمة عن البهلوية — وهى اللغة الفارسية القديمة — توضح ما كان للحمام من مركز ملحوظ فى فارس القديمة ، إذ وردت فى ذلك الكتاب قصة بأكملها عن الحمامة المطوقة وسربها الذى استطاع بتعاونه أن يفلت من شبكة الصياد .

(٣) Daremberg et Saglio : Dictionnaire des Antiques (Art. Columbarium).

(٤) Pauly-Wessowa : Real-Encyc. (Art. Brief-Taube).

(٥) يقول المؤرخ بلنى عن استخدام الحمام فى الحروب (Pliny: Naturalis Historia vol. 10, 110.) ما نصه :

quin et inter-nuntiae in magnis rebus fuere, epistolas adnexas earum pedibus obsidione Mutinensi in castra consulum Decumo Bruto mittente:

(٦) يتسائل : بلينى هذا السؤال فى اللاتينية (Ibid: vol 10, 110.)

quid Vallum et Vigil obsidio atque etiam retia in amne praetenta profuere Antionio per Caelum eunte nuntio ?

وأحب هنا أن أشكر الأستاذ درو والدكتور زيادة بكلية الآداب — جامعة فؤاد — على ما قدمه كل منهما إلى من معلومات هامة فى بناء هذا المقال .

أى ورقة أو رسالة صغيرة[١] .

على أن أول إشارة للحمام فى التاريخ الإسلامى هى قصة الحمامتين اللتين باضتا فوق غار ثور ، إبان هجرة الرسول ؛ ثم إنه من المعروف أن النبى أزال من الكعبة حينما حطم أصنامها بعد فتح مكة تمثالا لحمامة مصنوعاً من خشب النخل[٢] . وفى هاتين الإشارتين ما يدل على ما للحمام من شأن فى بلاد العرب الإسلامية ، وهى البلاد التى اشتهرت بكثرة الحمام فى وديانها منذ القديم .

واستخدم المسلمون الحمام في أغراض اللهو على عهد الخليفة عثمان بن عفان ، فكان الفتيان والماجنون يطلقون الحمام فى مباريات للسباق ، وكثيراً ما كان ذلك مجالا للمراهنة والمقامرة . واستخدم الفتيان الحمام كذلك وسيلة لإيقاع الأذى بالناس والجيران ، إذ كان الحمام يرسل لفقء عين عدو أو تهشيم أنفه ، حتى ضج الناس من ذلك لأن المصاب لا يستطيع أن يقف على صاحب الحمام ويذهب الجرم دون « قَوَد ولا أرش[٣] » ، على قول الجاحظ . ولذلك أمر عثمان بمنع اللعب بالحمام ، وذبح أية حمامة تقع فى يد إنسان يعلم أنها أطلقت ابتغاء اللهو أو الإيذاء[٤] . على أن أول شاهد تاريخى على استخدام الحمام فى الدولة الإسلامية لنقل الأخبار فى العصور الوسطى يقع سنة ٢١٢ هـ (٨٣٧ م) ، إبان عهد المعتصم العباسى ، حين نقل الحمام إلى الخليفة نبأ القبض على الثائر بابك الخرمى[٥] . وحوالى ذلك الوقت أى خلال القرن الثالث الهجرى استخدمت إحدى الفرق السياسية فى الدولة الإسلامية الحمام الزاجل لأغراض الدعاية ، إذ نظم رئيس فرقة القرامطة بالعراق الحمام الزاجل ، واستخدمه على نطاق واسع لنقل الأخبار من جميع النواحى بالعراق قبل إذاعتها بين الناس ؛ وهكذا استعان هذا الرئيس القرمطى بالشعوذة وإيهام الناس بعلم الغيب وتقدير المقادير[٦] . وتفيض كتب الأدب المعاصرة

(١) ميخائيل بن الصباغ : مسابقة البرق والغمام ، ص ٨٨ ، حاشية ١ .

(٢) Joseph Hell: Die Kultur der Araber (Leipzig 1919), 28.

(٣) الجاحظ : الحيوان ، ج ٣ ، ص ١٩٠ ، ١٩١ : أى دون قصاص أو دية عن الجراحات .

(٤) نفس المرجع ، ص ١٩٢ .

(٥) المسعودى : مروج الذهب (مصر) ج ٤ ، ص ١١ .

(٦) آدم متز : الحضارة الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٣٥٨ (ترجمة أبو ريدة) .

لتلك الفترة بذكر الحمام الزاجل وأوصافه وتدريبه ، مما يحمل على الاعتقاد أن نقل الأخبار بالحمام فى القرن الثالث الهجرى سبقته دلالات عديدة على استخدامه فى الدولة الإسلامية الأولى ، ولعل البحث الحديث يكشف عنها الستار .

ومما يحمل على ترجيح ذلك الظن أن الجاحظ أحد العلماء المعاصرين للمعتصم وضع كتاباً عن الحيوان ، أسهب فيه الحديث عن الحمام وتدريبه ، وبيّن مبلغ اهتمام الناس فى العراق به وما وصل إليه فن تدريبه من رقى . وتفصيل ذلك أن الجاحظ قسم أنواع الحمام إلى حمام عادى وحمام رسائلى ، وذكر أن الحمام الرسائلى — وهو الزاجل — كان يختار حسب أسس وأوصاف معروفة ، ويراعى فى تدريبه أساليب مقررة . فكان يشترط فى ذلك النوع من الحمام اعتدال العنق واستدارة الرأس ، من غير عظم ولا صغر ، ولحوق بعض الخوافى بعضها ببعض ، وقصر الساق والذنب . كذلك كان يراعى فى الحمام الزاجل صفاء البصر وثبات النظر ، وشدة الحذر وحسن التلفت ، وخفة النهوض فى الطيران والعلو فى الجو ، مع مد العنق وقلة الاضطراب ، وحسن القصد فى غير دوران ؛ وأتقن معرفة ذلك كله أناس فى العراق لانتقاء أجود أنواع الحمام الزاجل وأحسنها أصولا وأنساباً (١) .

أما تدريب الحمام فكان يبدأ بعد اختياره وانتقائه صغيراً ، فتحمل الفراخ جائعة إلى سطح إحدى الدور فى منتصف النهار ، وينثر الحبّ على السطح حول صارٍ فوقه علم . واشترط مدرب الحمام أن يكون العلم واضح اللون — فلا يكون أسود مثلاً — حتى يمكن الاهتداء إليه . وفى أغلب الأحيان كان إطلاق الفراخ بعد مدة من قص ريشها ، على أن تطلق مثنى أى زوجين زوجين ، بحيث تكون إحداهما أحدث قصا لريشها من صاحبتها . ثم يطلق المدرب الحمامة التى نما ريشها ، فلا تلبث أن تعود حنيناً إلى صاحبتها

---

(١) الجاحظ : الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٦٩ ، ٢٧٢ .
وكان الرومانيون كذلك يهتمون بمعرفة أنساب الحمام والمحافظة على أصوله ، وبرع منهم رجال فى حفظ أنساب الحمام . فيقول فى ذلك بلينى : ج ١٠ ، الفصل ١١٠ .

"super tecta exaedificant turris his, nobilitatemque singuarum et origines narrant."

قارن ذلك بما جاء فى الجاحظ : الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

وبذا يضمن المدرب تأليف الحمام وعودته إلى أمكنة تدريبه وهى المزاجل. ولم يقتصر الأمر على المزاجل فوق الدور، بل استخدمت السفن أحياناً لذلك الغرض تدريباً للحمام على الطيران عبر البحار. وكان من أهم أركان التدريب للحمام أن تصبح الحمامة وحدها قادرة على الرجوع إلى مصدرها، وهو الذى اصطلح الجاحظ على تسميته « الغاية »[١].

وكان التدريب يقوم فى ذلك الوقت على أساس أن الحمام يهتدى إلى « الغايه » بجودة الاستدلال، والوعى وحب الرجوع إلى أربابه. ولو كان الوقت ليلا. ومن أسس التدريب كذلك أن يلزم الحمام بطون الأودية التى يمر بها مهتدياً بانحدار الماء، وإذا أعيته بطون الأودية ولم يدر أمصعد هو أم منحدر كان يستدل بالريح ومواضع الشمس فى السماء[٢] نهاراً والنجوم ليلا، كما يقول الجاحظ.

على أن تربية الحمام الزاجل لم تقتصر على العراق فحسب، بل اشتهر الإقليم الشمالى من الشام كذلك بتربيته واستخدامه فى نقل الرسائل، فى القرن الثالث الهجرى. وتوضح هذه الإشارة أن العناية بالحمام الزاجل بشمال الشام أقدم كثيراً من زمن نور الدين والقرن السادس الهجرى، فكان حصن الحجر الذى يقع فى جبل اللكام قرب أنطاكية وإقليم الثغور الشآمية حيث تقع المصيصة وطرسوس وأذنه، تحفل برجال مهروا فى تدريب الحمام وتكلفوا فى سبيل ذلك التكاليف الكثيرة أيام الزجل، أى تدريب الحمام فى الانتقال من مكان إلى آخر. وكانوا يدربون الحمام جماعات أو فرادى حسب الحاجة، ويجتهدون فى المحافظة على أنسابها خشية أن يصيبها الضوى- وهو الهزال والضعف- إذا تقاربت أنسابها أو دخل على أعراقها سلالات خارجية أثناء تدريبها. وكانوا يعهدون فى فترة زجل الحمام إلى أشخاص موضع ثقة وأمانة وبعد عن الكذب والرشوة لمراقبة أعلام الغاية[٣]، وتسجيل خطوات التدريب.

والخلاصة أن العناية بالحمام كانت ظاهرة منتشرة فى أرجاء العراق

---

(١) الجاحظ: الحيوان، ج ٣، ص ٢٧٢.
(٢) الجاحظ: الحيوان، ج ٣، ص ٢١٦.
(٣) نفس المرجع، ص ٢١٣.

والشام من القرن الثالث الهجرى ، وأن الخلفاء العباسيين وكبار رجال دولتهم ورؤساء الناس ولا سيما بالبصرة البعيدة عن مركز الخلافة ببغداد اقتنوا الحمام الزاجل لأغراضهم . وسرعان ما شاع استخدام الحمام الزاجل فى تلك البلاد بصورة ملحوظة ، منذ أوائل القرن الرابع الهجرى . ومن أمثلة ذلك أن الوزير حامد بن العباس أرسل سنة ٣٠٤ هـ (٩١٦ م) إلى الخليفة فى بغداد كتباً بواسطة الحمام تخبر بخروجه وتوجهه إلى العاصمة[١] ؛ وأشاع القرامطة هذا الخبر فى البصرة قبل وصول النبأ رسمياً إلى تلك المدينة بأربعة أيام ، ويعزى ذلك إلى أن القرامطة بتلك المدينة وصلهم الخبر فى رسالة جاءتهم على جناح طائر[٢] . كذلك أعدّ الوزير على بن عيسى سنة ٣١٣ هـ (٩٢٨ م) رجالا يحملون حماما إلى الكوفة ، لإمداد الخليفة المقتدر بأخبار القرامطة وأحوال الحرب ضدهم[٣] بجنوب العراق ؛ وعلم الخليفة بزوال خطر القرامطة عن الكوفة ، بفضل رسالة بعثها إليه أحد الكوفيين على جناح حمامة قبل أن يتمكن الحراس والمراقبون الموكلون من قبل الوزير على بن عيسى من نقل الخبر بواسطة الحمام الذى كان فى عهدتهم[٤] . وكانت الرسائل تصل إذ ذاك فى نظام وسرعة حتى إن الرسالة كانت تصل من الرّقة والموصل وواسط والبصرة والكوفة إلى بغداد فى يوم وليلة[٥] .

ويرجع استخدام الحمام فى مصر كذلك إلى ما قبل نور الدين ، إذ يقول ابن الأثير إن استخدام الحمام فى نقل المراسلات بلغ درجة كبيرة من التقدم والرقى فى عهد الفاطميين الذين استخدموا الحمام فى نقل الأخبار من سفن الاستطلاع[٦] التى كان يوكل إليها مراقبة حركات الأساطيل النورمانية التى دأبت على الإغارة على شواطىء إفريقية فى أواخر العهد الفاطمى . ففى سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) وقعت إحدى هذه السفن الفاطمية

---

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٣٥٨ .

(٢) عريب بن سعد القرطبى : صلة تاريخ الطبرى (ليدن ١٨٩٧) ، ص ١١٠ ، ١١١ .

(٣) ابن مسكويه : تجارب الأمم (مصر)، ج ٥، ص ١٧٩ .

(٤) آدم متز : الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٣٥٨ .

(٥) نفس المرجع ، ص ٣٥٨ .

(٦) كان الفينيقيون القدماء يستخدمون الحمام لربط سفنهم بقواعدهم الثغرية فى حوض البحر الأبيض الشرقى . انظر (Brief-Teube) : Paule-Wessowa

التابعة لأسطول المهدية فى يد المدعو جرجى أمير البحر على الأسطول النورمانى الصقلى عند جزيرة قوصرة (تسمى الآن بانتلاريا ، وتقع بين المهدية وصقلية). وباستجواب بحارة هذه السفينة وجد جرجى فى حوزة أحدهم قفصاً به حمام. وبعد أن تأكد أمير البحر النورمانى من بحارة المهدية أنهم لم يطلقوا أية حمامة من القفص ، أمر البحار صاحب القفص أن يكتب رسالة يخبر فيها حاكم المهدية أنه لقى عند جزيرة قوصرة بعض مراكب للنورمان ، وأنه سأل عن حركات أسطولهم ، فعلم أنه فى طريقه إلى القسطنطينية. ثم أطلق امير البحر حمامة بتلك الرسالة إلى المهدية ، وأراد من وراء ذلك القيام بهجوم مفاجىء على العاصمة التونسية وقت السحر. ونجحت تلك الحيلة إذ اطمأن حاكم المهدية ، ولم يتخذ أية احتياطات لدرء الهجوم النورمانى ، لكن رياحاً مضادة أفسدت تدبير أمير الأسطول النورمانى الذى وصل إلى مياه المهدية فى وضح النهار(١).

وإذا كانت الرواية السابقة تكشف عن مبلغ ما وصلت إليه البحرية الفاطمية من تقدم فى استخدام الحمام ، لربط الأسطول بقواعده البرية ، والحصول على معلومات من أجل الدفاع واتخاذ الاحتياطات ، فإن تلك الحقيقة تبين أن استخدام الحمام فى الحركات البحرية ليست إلا نتيجة تطور فى أساليب تدريب الحمام فى نقل المراسلات البحرية ، وما يتطلبه ذلك من محاولات ترجع منطقياً إلى فترة سابقة لآخر عهد الفاطميين. ولقد اتضح من إشارة سابقة أن أهالى العراق كانوا يدربون الحمام براً وبحراً على نقل المراسلات ، قبل زمن الفاطميين بكثير.

وتوجد إشارات دالة على استخدام الفاطميين للحمام فى نقل الأخبار بين أجزاء إمبراطوريتهم ، ففى القلقشندى أن اليازورى وزير الخليفة المستنصر الفاطمى أرسل حماماً من تونس إلى مصر(٢). كذلك كان يوجد خط بريد يربط الشام بمصر بواسطة الحمام ، ويدل على ذلك أن الخليفة العزيز الفاطمى ذكر لوزيره ابن كلس أنه لم ير القراصية البعلبكية منذ أمد طويل ، فأرسل الوزير حمام دمشق الذى كان إذ ذاك موجوداً بالقاهرة إلى حاكم العاصمة

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٥١ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٠ .

الشامية يأمره أن يطلق فى حمام القاهرة الموجود بمدينةدمشق حبات قراصية ؛ وقبل أفول شمس ذلك اليوم كان الحمام القاهرى قد وصل حاملا القراصية[١] .

والحاصل أن استخدام الحمام فى مصر والعراق والشام ظاهرة تسبق عهد نور الدين والدول الإسلامية، وربما تكشف الأبحاث التاريخية أن أباطرة الدول الرومانية كانوا يستخدمون الحمام فى مراسلاتهم إلى عمالهم فى مصر وغيرها من الأقاليم ، على نسق ما تقدمت الإشارة إليه بصدد أنطونيوس الرومانى ، وربما كشفت الأبحاث التاريخية كذلك أن الدول الجرمانية فى غرب أوربا ورثت ذلك النظام فى نقل الرسائل عن الدولة الرومانية .

إبراهيم أحمد العدوى

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٤ ص ٣٩١ .

تقرير عن سفر الاسطول المصرى إلى المورة

محفظة رقم ١٠ بحر برا .
ترجمة التقرير التركى رقم ٤٣.
بتاريخ من : ٥ ربيع الأول إلى ٣ ربيع الثانى سنة ١٢٤١هـ.

من : محرم بك   إلى : الجناب العالى

هذا التقرير عبارة عن وثيقة فى شكل كراسة مكتوب على ظاهرها « جرنال سفرية الدونما المصرية فى حرب مورة سنة ١٢٤١هـ (أواخر ١٨٢٥م) محضر من حضرة محرم بك »

مسطور فيما يلى بيان ما حدث من الوقائع منذ قيامنا من ميناء الإسكندرية بالأسطول السلطانى والأسطول المصرى وبسفن المسلمين وتجار الفرنجة فى يوم الآثنين الخامس من شهر ربيع الأول من هذه السنة الواحدة والأربعين بعد المأتين والألف حتى وصولنا إلى ميناء آوارين (، ؟) ...

« يوم الإثنين ٥ ربيع الأول سنة ١٢٤١ »

فى الساعة الثانية (أى صبحاً) من هذا اليوم أصدرت الفرقاطة « ثروة سان»(١) وهى السفينة التى تقل حضرة صاحب الدولة الباشا القبودان (أمير البحار) إشارة تقول فيها « هيا أقلعوا فى هذه الساعة » فما لبثت وحدات العمارة السلطانية أن شرعت فى القيام ، وما وافت الساعة الثالثة حتى كان مولانا صاحب الدولة محرم بك قائد العمارة المصرية العام قد شرف سفينتنا بانتقاله إليها وحتى ... أخذت السفينة فى رفع مراسيها وحينئذ وجهنا إلى وحدات

(١) هذا الاسم غير واضح فى المتن ، والمعروف من فرقات محمد على التى وصلت لنا أسماؤها، هى جهادية وثرياً وإحسانية وقد دمرت الثلاث فى معركة نفارين فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧م؛ ثم منوف ودمياط ورشيد الجعفرية وشيرجهاد والبحيرة وكفر الشيخ ومستاجهاد ومفتاح جهاد .

الأسطول المصرى إشارة : أن « قوموا الساعة وراعوا عند قيامكم الحيطة والتبصر فلا يعطب بعضكم بعضاً » ، فانبرت السفن الحربية وسفن التجار جميعاً للقيام فما هى إلا الساعة الرابعة حتى سحبت (سفينتنا) مرساتها ونشرت شراع ثانى مربع قدام (غابيه) منطلقة هى الأخرى من ميناء الإسكندرية وفى منتصف الساعة الخامسة خرجت الفلك من البوغاز (المضيق) الكبير فأطلقت (سفينتنا) تسعة عشر مدفعاً تحية « لرأس التين » ورد إليها السلام من رأس التين باطلاق تسعة عشر مدفعاً مثلها . وعلى أثر ذلك أرخت المركب قلوعها الدنيا (ترنكت مايستره) (مربع قدام بصارى جراندى) واستدارت يسرة (ـ أورسه[1] آلاينده) حيث وقفت تنتظر السفن التى تعذر عليها القيام فلما مرت الساعة السادسة جاء البك .. البطرونة (فيس أميرال) إلى سفينتنا فقرر أن زنجيا ممن بسفينة القائد ... العام الجزائرى قد أصابه مس فى عقله فشهر سكيناً طعن به ثلاثة عشر جندياً من الجهادية وثلاثة رجال من الملاحين ثم ألقى بنفسه فى اليم فغرق وكان من المطعونين ثلاثة جروحهم بليغة وجروح الآخرين خفيفة قليلة الخطر ، ثم مضى حضرته فى سبيله راكباً زورقه . وصلت الساعة الثامنة فصدرت من سفينة حضرة الباشا القبودان إشارة تأمر : « تيره موله اورسه آلابنده » فسرنا حسب الإشارة . وفى هـذه الساعة اصطدمت مقدمة الفرقاطة « ثريا » بمقـدمة السفينة البريك التى يقودها « إبراهيم تفهمنى » القبودان السابق وهى من سفائن التجار فهشم من سفينته البريك المربعات الأمامية (غابية وترتكت) وانكسرت عصا قنطرتها (باستون : السارية الأفقية الموجودة فى مقدمة السفينة) كما انكسرت عصا قنطرة (باستون) الفرقاطة المذكورة وعلى ذلك أصدر البك ... البطرونه (فيس أميرال) إشارة ندب لها « حسين قبودان » البوذجة اطه لى ربان قرويت الجناح لاصلاح عصا الفرقاطة ثم صدرت إشارة من حضرة الباشا .. القبودان إلى البك البطرونه أن « أبذل همتك فى إصلاح سفينة البريك التى مسها العطب » فأرسل البك البطرونه إلى حضرة الباشا القبودان إشارة .. بالحروف قال فيها « إن سفينة البريك المعطوبة محتاجة إلى الإصلاح فى الميناء فأجابه حضرة الباشا القبودان : أن : « لا بأس

(١) الاستدارة مرة واحدة إلى اليسار .

من ذهابها إلى المرفأ » وبعد ذلك محمد حسين قبودان البوذجه أطه لى ربان قرويت الجناح إلى سفينة البريك المعطوبة فشدها إلى مؤخرة سفينته شارعاً فى رأب صدعها . على أن سفن التجار الإفرنج وجانباً من سفن التجار المسلمين لم تكن قد غادرت الميناء بعد، فانتظاراً لهذه السفن وقفت العمارة فى نظام « أورسه آلابنده » ثم طويت الأعلام عند غروب الشمس فما أمسى المساء إلا والفلك واقفة فى عرض البحر على مسافة خمسة عشر ميلا من « الإسكندرية » فى انتظار ورود السفن المذكورة .

« ليلة الثلاثاء »

فى الساعة الثانية عشر (الغروب) من هذه الليلة أذن للمغرب فأقيمت الصلاة وأدى الدعاء والثناء . ولما مرت الساعة الأولى جاءت إلينا سفينة التجار طالبة زورقاً صغيراً فأرسلنا الزورق الصغير إليها وإذا بكل من الأغا الجوقدار وبارزكان باشى (وكيل تجارة) مولانا صاحب الدولة إبراهيم باشا قد جاءت من هذه السفينة وبقينا واقفين فى نظام أورسه آلابنده ننتظر سفن التجار التى لم تخرج من الميناء وقد نشرت براجيه فى نصف الليل وجرى تبديل الحرس وكان الربابنة الملازمون والضباط وجنود الأسطول الدائمون وأنظار البحرية يشتغلون جميعاً بتنظيم مناوباتهم وإذا بإشارة من سفينة حضرة الباشا القبودان أن : « لنقف فى وضع أورسه آلابنده ! » فوقفنا فى الحال على هذا النظام ثم أرسل حضرة الباشا القبودان إشارة يقول فيها : « لتعلق كل سفينة ... المصباح الخاص باسمها لكى تعلم السفن المتخلفة » فرفعت السفن كلها بما فيها سفينتنا المصابيح الخاصة بأسمائها . وفى الساعة الثامنة (السحر) صدرت إشارة من سفينة حضرة الباشا القبودان أن : ياسفن البريك ويا سفن الفولت تعالوا من الخلف ! » ... ومن هذه الساعة حتى الصباح لم يقع حادث يذكر فلما أسفر الصبح كنا على نحو ثلاثين ميلا من الإسكندرية .

يوم الثلاثاء فى ٦ ربيع الأول سنة ١٢٤١ :

رفعنا الأعلام عند طلوع الشمس فى هذا اليوم . وكان الهواء هادئاً

والبحر ساكناً فنشر شراع رابع مربع قدام (بابافنفو) وظهر سطح سفينتنا ومنبر مدافعها . وفى الساعة الثانية جاء إلى سفينتنا من سفينة الباشا القبودان ، كل من البك... القبودانه والبك البطرونه ولم يلبثا أن ذهبا بعد نصف ساعة . وفى منتصف الساعة الثالثة أشرنا إلى سفينة التجار أن « اقتربى منا » فدنت مناحتى تفضل مولانا البك صاحب الدولة فركب فيها وانتقل إلى سفينة حضرة الباشا القبودن وبعد مرور نصف ساعة شرف البك المومإ إليه سفينتنا بعودته إليها وحينئذ أذيعت إشارة بطلب ربابنة جميع الأسطول المصرى فقدم منهم من كانت سفنهم قريبة ثم انصرفوا بعد ما ألقى عليهم أمر : « أن نبهوا المختصين (فى الأصل خوجه) إلى وجوب شدة اليقظة للإشارات والتزموا أتم جانب الدقة والاهتمام بكل شىء ! » وإلى حلول الساعة الثامنة هدأنا مرتين المسير فى نظام « أورسه آلابنده نيره مولا » حتى إذا كانت منتصف الساعة التاسعة شاهدنا سفن التجار الخارجة من « الإسكندرية » . وفى الساعة التاسعة وقفنا فى وضع « أورسه آلابنده » وجاء إلى سفينتنا « بلال أغا » اتخذنا وضع براجيه صبوره (صوبره معناها أصلب) وفى الساعة العاشرة اجتمعت كل سفن التجار الإفرنج القادمة من الإسكندرية فى مكان واحد . ثم ذهب بلال أغا ثم سارت السفن ميممة نحو جزيرة « المورة » التى هى وجهتنا المقصودة . ، وغربت الشمس فطويت الأعلام وكنا قيد أربعين ميلا من الإسكندرية وفى اتجاه غرب شمال غرب (باطى قره يل) منها .

« ليلة الأربعاء »

فى الساعة الثانية عشرة من الليلة المذكورة أذن للمغرب ، فأقيمت الصلاة ، وأدى واجب الدعاء والثناء . وتقدمت سفائن التجار الإفرنج إلى الأمام ثم اتخذنا وضع براجيه فوره (حل البراجيه) وكانت الريح آتية من جهة شمال شرق (بيلديز بويراز) فسرنا فى اثنى عشر شراعاً نحو الشمال الغربى (قره يل) تماماً . وانتصفت الساعة الأولى فأنيرت مصابيح مؤخرات السفن وبعد العشاء سلمت النوبة بحسب قواعد القيادة البحرية إلى الربان « حسن ... قبودان » مع « إبراهيم الجيرنى قبودان » « والحاج مسعود قبودان » . « وإبراهيم قبودان الكريدى » « وحسن قبودان الكريدى » وبينما كان هؤلاء ينظمون

نوبات من فى إمرتهم من الضباط والجنود الدائمين إذا بإشارة تصدر من سفينة حضرة الباشا القبودان أن : « لا بد من اجتماعنا كلنا فى مكان واحد فلا يتفرقن منا احد ! » فرفعت سفينتنا الفانوس الذى معناه : « فهمت » ، ولم تلبث السفائن التى كانت وراء أن فتحت شراع أخرى ومرت مسرعة إلى الأمام واتخذت سفينتنا وضع « ترنكت ماتستره آموره » . وفى الساعة الخامسة كان الهواء يهب من الشمال (بويراز) بشرق فجعلت الصوارى الأفقية فى وضع براجيه بويه وسرنا نحو الشمال الغربى تماماً (صافى قره يل) وما زالت هذه حا لنا إلى أن انتصف الليل وحينئذ اتخذت تدابير تبديل ... الحراسة فاستبدل بالرجال المسائيين الذين أدوا خدمتهم رجال صباحيون وبينما كان كل امرىء ينتظم فى خدمته كما تقدم ذكره سلمت النوبة إلى الربابنة « محمد طوزأوغلى قبودان » و « محمد قبودان » أغا المركب السابق ، و « محمد قبودان اليده دى » و « حسن قبودان البوذجه أطه لى » و « حسن قبودان الاستانكويلى » . ثم أصدر حضرة الباشا القبودان إشارة تقول : « ليعلق كل منكم مصباحه الخاص باسمه لتفهم السفن المتخلفة ! » . فعلقت كل سفينة المصباح الخاص باسمها وكذلك علقت سفينتنا المصابيح المبينة لاسمها وبتنا حتى الصباح دون أن يقع أى حادث وقد اجتمعت السفن بأجمعها فى مكان واحد ولما أسفر الصبح لم يعد فى الإمكان رؤية البر من أية ناحية .

يوم الأربعاء ٧ ربيع الأول سنة ١٢٤١ :

ما كادت الشمس تطلع فى صباح هذا اليوم حتى رفعت الأعلام . وكان الهواء قبلياً جنوبياً وكان فى استطاعتنا السير نحو الشمال الغربى (قره يل) والغرب . وتقدم المتخلف من السفن ، ونشرت سفينتنا أشرعة (قنطرة بابافنفو) كما نصبنا المضخة لكسح الماء المتراكم فى قعر السفينة وإلقائه إلى الخارج ثم طهر وجه السطح وعنبر المدافع وفى الساعة الثانية صدرت من سفينة الباشا القبودان إشارة أن : ابذلوا غيرتكم وأنشروا شراعكم لئلا تتخلفوا ! » وصدرت إشارة أخرى فى الساعة نفسها أن : « يا أيتها السفن التى تحت الريح انشروا القلوع وشمروا عن سواعد الغيرة لكى تلحقوا السرعسكر (لعله يقصد سفينة القيادة أو الرائد) وفى منتصف الساعة الثالثة وجهت إشارة إلى

« عبد الرحمن قبودان » ربان القولت : أن : « ادن منى » فلما جاء الموما إليه إلى جانبنا طلب صاحب الدولة مولانا البك أن يحضر إليه الأغا الجوقدار فأرسل زورقاً صغيراً إلى القولت المذكورة حيث أقل الأغا الجوقدار وجاء به إلينا ثم اشتد هبوب الريح من ناحية جنوب غرب (قبله لدوس) فتأخرت سفن التجار وعمدت سفينتنا إلى قلوع (باباففو القنطرة) فربطتها.

وفى الساعة ٣ شرع الجنود فى تمرين إطلاق المدافع بدون نار، وكذلك العساكر الجهاديون باشروا تعليم البندقية. وفى الساعة الثامنة وجه حضرة الباشا القبودان من سفينته إشارة خاطب بها جميع الربابنة قائلا : « ليجمع كل منكم جماعته ومن فى إمرته فلا يتفرقوا! » فلم يلبث البك البطرونه أن وجه إشارة يقول : « هلم إلى أيتها السفن المؤلفة لجماعتى » وفى الساعة التاسعة تحول الهواء فصار (بيلديزه قره يل : شمال شمال غرب) وأخذت المربعات وضع (براجيه بونطه) وتوجهت السفن نحو الشمال الشرقى (صافى بويراز) تماماً. وعندئذ غشى الجو شيء من الغيم فضوعفت رباط ... النابيات (؟) وفى الساعة نفسها أشير إلى سفينة التجار أن « اقتربى منى » ! فلما اقتربت سئلت أين كنت الليلة السابقة ؟ فأجابت : « لقد عطب مرجلى فى الليلة السابقة فتخلفت على أنى رممت عطبى » فأمرنا : « أن سيرى ليلا ونهاراً فوق ريحنا وقريبة منا بمقدار مرمى المدفع وإياك أن تنفصلى عنا ! » فكان جوابها أن : « سمعاً وطاعة وعلى الرأس ! » وفى الساعة العاشرة كانت السفن مبعثرة فوجه حضرة الباشا القبودان إشارة أن : « أطلق مدفعاً إيذاناً لكل سفينة من السفن التى فوق الريح .. لتتأخر وتتبعوا جميعاً ماء سكانى (أى فى أثرى) ثم وجه بعدها إشارة أخرى تقول : « يا سفن التجار التى مع الريح تأخرى وأنت إلى جانب الأسطول ، ويا سفن التجار التى تحت الريح هيا اقدمى وانشرى الشراع واخرجى إلى ماء سكانى » ! وما لبث البك البطرونه أن وجه بدوره إشارة قال فيها : « يا أيتها السفن المؤلفة لجماعتى تعالوا إلى ماء سكانى واندمجوا فى السرب (فيلو) (فرفعت سفينتنا علامة « فهمت ») وفى منتصف الساعة الحادية عشرة أذيعت إشارة من سفينة حضرة الباشا القبودان : أن : « لا بد لنا الليلة من الاجتماع كلنا فى مكان واحد فلا يتفرقن منا أحد » ! فنشرت سفينتنا الراية التى معناها « فهمت »

ثم عملت على تقوية غابياتها) . وإذا بإشارة ثانية من سفينة المشار إليه تقول :
« ليتبين » كل منكم الموضع الذى هو معين له ومرتب فيه فلا يتخلف منكم
أحد فى أثناء الليل » ! وكان الهواء مخالفاً فطوينا مربعات القنطرة بصارى
بابافنفو وربطنا الصوارى الأفقية بالسارية إقتداء بسفينة حضرة الباشا
القبودان وفى الساعة الحادية عشرة كانت طائفة من سفن التجار قد بقيت
ضد الريح، فتفاديا لاعتزالهم اتجهنا نحوهم بوضع (مزه ناوه) حتى تكون
فى مستوى واحد معهم وكذلك تأخرت السفن الموجودة فوق الريح فاجتمع
شملنا جميعاً فى مكان واحد . وبغروب الشمس أنزلت الأعلام . على أن
قائد الجزائر العام و « محمد قبودان الغلط لى » و « مصطفى حطب قبودان »
ما زالوا فوق الريح فوجه البك البطرونه إشارة أن تأخروا والتحقوا بالسرب
(فيلو) . وعلى هذه الحال أمسى المساء .

ليلة الخميس :

فى الساعة الثانية عشرة من هذه الليلة (المغرب) أذن للمغرب ، فأقيمت
الصلاة ، وأدى واجب الدعاء والثناء . وكان طريقنا إلى شمال شرق بريح
شمالية غربية محضة وقد نشرنا ثلاث قطع من قلوع غابية وثلاث من (بابافنفو)
وثلاث قطع من قلوع (إيفورى باربالى) . ولما انتصفت الساعة الأولى
أوقدت مصابيح المؤخرة وبعد العشاء سلمت النوبة بحسب القواعد البحرية
إلى « محمد قبودان طوبوزاوغلى » و « محمد قبودان » أغا المركب السابق
و « محمد بدوى قبودان » و « حسن قبودان البرزجه اطه لى » و « حسن
قبودان الاستانكويلى ») . فبينا ينظمون النوبة لمن فى إمرتهم من الضباط
والبحارة إذا بفريق من مراكبهم يتخلف وراء ولذلك صدرت إشارة من سفينة
الباشا القبودان أن : يا أيتها السفن المتخلفة انشروا ... شراعكم وابذلوا
غيرتكم محاولين اللحاق بالسفن الأمامية ! » وما زلنا سائرين على هذا المنوال
حتى انتصف الليل وعند تبديل الحراسة استبدل بالذين أدوا الخدمة فى
المساء آخرون صباحيون وأخذ فى تنظيم كل منهم وإقامته فى موضعه
على الوجه المتقدم ذكره فى حين كانت النوبة أيضا تسلم إلى الربان حسن
قبودان » و « الحاج مسعود قبودان » و « إبراهيم قبودان الجيرى » و « إبراهيم

قبودان الكريدى » و « حسن قبودان الكريدى » وحينئذ صدرت إشارة من سفينة حضرة الباشا القبودان أن أوصلوا الإشارة الآتية : إلى الفلك المتخلف : ابذلوا جهدكم وانشروا قلوعكم لكيلا تتأخروا ! » فعلقت سفينتنا المصباح الذى معناه « فهمت» . ولما اقترب الصبح كان الريح قد هدأ فكنا قد سرنا هذه الليلة نحو أربعين ميلا فى إتجاه شمال شمال شرق . ولم يقع لنا أى حادث .

يوم الخميس ٨ ربيع الأول سنة ١٢٤١ :

كان البحر فى صباح هذا اليوم هادئاً فوجهت إلى سفينة التجار إشارة بطلب دنوها منا كما وجهت إشارة إلى « عبد الرحمن قبودان » قائد الفولت أن : « اقترب منى » فلما دنا الموما إليه منا طلبنا زورقه لنرسل فيه الأغا الجوقدار فأرسل الزورق وذهب الجوقدار . وبعد ذلك صدرت إشارة من سفينة حضرة الباشا القبودان إلى سفينة البك البطرونه يسأله : « ما عدد سفن الأسطول ؟ » فأجابه بإشارة ضمنها : « أن السفن تسع وعشرون ومائة » . ثم أصدر حضرة الباشا القبودان إشارة : « لا تنفقوا الماء العذب فى الوضوء وسائر المحلات التى يستعمل فيها الماء العذب بل استعملوا ماء البحر ! » وفى الساعة الثالثة أخذوا فى سفينتنا يتمرنون على رماية المدافع بدون نار كما قامت العساكر الجهادية هى الأخرى بتمرينات البنادق . وعند الساعة الخامسة كان الهواء ساكناً والبحر هادئاً فإذا بإحدى مراكب التجار مركب « عمر قان» دنت من مؤخرة سفينتنا ، على أنها اتقاء للعطب ولكى تنأى عن سفينتنا قد بادرت إلى طى قلوع « ميزاته وغابيه وبراجيه » وبذلك بقيت وراء ولم يحدث أى ضرر . وفى الساعة الثامنة أصدر حضرة الباشا القبودان إشارة يقول « أطالبكم بحسن المعاملة للضيوف النازلين فى سفنكم » . وفى الساعة نفسها تفضل صاحب الدولة مولانا البك فركب زورقاً صغيراً أقله إلى سفينة التجار وعلى متن هذه السفينة انتقل دولته إلى سفينة حضرة الباشا القبودان وما هى إلا ساعة بعد ذلك حتى تفضل مولانا المشار إليه فعاد مشرفاً سفينتنا وقد حضر جميع ربابنة الأسطول المصرى بناء على إشارة وجهت إليهم ثم ... انصرفوا بعد ذلك . ثم أصدر حضرة الباشا القبودان إشارة للبك .. البطرونة أن : « خصصوا سفينة أو سفينتين لجمع ما هو تحت الريح من السفن

التى فى إمرتكم » فوجه البك البطرونه بدوره إشارة إلى ربان الغولت « عبد الرحمن قبودان » وربان الغولت « سليمان غلمدار » بطلب اقترابهما منه لكى يندبهما للسفن التى تحت الريح ، غير أن سكون الهواء والماء قدعاق سفينتى الربانين المذكورين فلم تستطيعا الدنو من سفينة البك البطرونه وقد استمر هدوء الريح إلى المساء لذلك قد داومنا المسير فى اتجاه شمال شمال شرق على أربعة أميال ولم يظهر يومئذ شىء آخر من الوقائع .

« ليلة الجمعة » :

فى الساعة الثانية عشرة من هذه الليلة قرئ الآذان المحمدى، فأقيمت صلاة المغرب ،وأدى واجب الدعاء والثناء . وكانت الريح هادئة فاستدارت مقدمة سفينتنا فى اتجاه شمال شمال غرب ، وإذ بدأت الريح تهب شيئاً فشيئاً حولنا ... اتجاهنا إلى اتجاه شمال شمال شرق ناشرين ثلاث قطع من قلوع غابيه وثلاثاً من قلوع بابافينفو باربانى . وفى منتصف الساعة الأولى أوقدنا فانوس المؤخرة . وبعد وقت العشاء سلمت النوبة بمقتضى القواعد البحرية إلى القائد حسن قبودان والحاج مسعود قبودان وابراهيم قبودان وإبراهيم قبودان الكريدى وحسن قبودان الكريدى . فأخذوا ينظمون النوبة لمن فى إمرتهم من الضباط والبحارة . وعين أغوات صاحب الدولة مولانا البك لنوباتهم فأقيم حاملو البنادق من عساكر الجهادية على جوانب سفينتنا الأربعة وقد كان الريح ساكناً فلم يحدث شىء حتى منتصف الليل حيث اتخذت تدابير المناوبة وحل الحراس الصباحيون محل زملائهم المسائيين وسلمت النوبة إلى محمد قبودان الطوبوز أوغلو ومحمد قبودان أغا المركب السابق ومحمد بدوى قبودان ومحمد قبودان الاستانكويلى وحسن قبودان البوزجه أطه لى) . وفى الساعة السابعة اقترب منا ربان البريك على الزلبان قبودان بسبب كونه فوق ريحنا لكنه تفادياً للاصطدام أخذ يطوى قلوع مركبه حيث مر مقدمة سفينتنا وأخذ يتراجع بمؤخرته إلى أن اقترب من ميسرتنا . فخشية من العطب أعدت عروق القلوع فى سفينتنا للاستعانة بها على إبعاد سفينة البريك ، وبينما نحن ننتظر من هذا البريك أن يكون فى وضع «فلوكة ماينة» إذا به يطوى قلوع الغابية مما جعل البريك تتخلف إلى الوراء .

وكذلك القبودان محمد الغلطه لى جاء به التيار فى الساعة الثامنة إلى الناحية اليمنى من سفينتنا لأن الريح كان هادئاً فأهبنا به أن : « لا تقرب ، ولنتق العطب » ، فلم يلبث أن اتخذ وضع «فلوكة ماينة» وابتعدنا عنا . وبعد ذلك لم يحدث شيء من الوقائع . ولما أصبح الصباح كان الذى مشيناه ثمانية أميال فى اتجاه شمال شمال شرق .

يوم الجمعة فى ٩ ربيع الأول سنة ١٢٤١ .

فى هذا اليوم كان الهواء ساكنا يهب شرق جنوب شرق وكان اتجاهنا نحو شمال شمال شرق ناشرين اثنا عشر شراعاً . ولما وافت الساعة الواحدة هدأ الريح وفى منتصف الساعة الثانية جاء « بلال أغا » وسيد على قبودان إلى سفينتنا حيث قضيا نصف ساعة من الوقت مضيا بعده إلى حال سبيلهما . ثم مارس رجال سفينتنا التدريب مرتين على تمرين رماية المدافع — ولكن بدون إطلاق نار — وكذلك مارس عساكر الجهادية تعلم البنادق . وفى منتصف الساعة الثالثة تفضل صاحب الدولة مولانا البك فذهب إلى سفينته حضرة الباشا القبودان . ثم عاد مشرفا سفينتنا بقدومه بعد نصف ساعة . وكان الريح هادئاً كأنه شرقى فنشرت قلوع (ترنكت مايستره) ووردت إشارة من سفينة البك البطرونة : أن « اقترب منى » فانعطفنا بسفينتنا مولين وجهنا شطر سفينته على وضع (مزه ناده) حتى إذا اندمجنا فى سربه وجه إلينا إشارة يسألنا : « هل رصدتم الارتفاع ؟ » فأجبناه من سفينتنا أن : « أجل ثم رفعنا راية الإشارة الدالة على العدد ٣٢ ، ٢٥ . وفى الساعة الثامنة ورد إلى سفينتنا عمر قبودان قائد طرابلس العام فنبه عليه أن : « اجمع جماعتك ، ووجه الإشارة إليهم وأطلق المدفع إيذاناً لهم ليجتمعوا كلهم فى مكان واحد ، ثم أشرنا إلى مصطفى قبودان الكريدى ربان القرويت أن : « اجمع جماعتك ، لا يتفرقوا ! فلم يفهم مصطفى قبودان معنى الإشارة فأشرنا إلى سفينة التجار أن احضرى فلما أقبلت علينا وجهنا إليها إشارة ثانية أن : « اذهبى إلى مصطفى قبودان الكريدى وقولى له يجمع سفن التجار ويحشرها كلها فى بقعة واحدة وليذع فيهم الإشارة وليطلق المدافع حضاً لهم على بذل الغيرة » فما كادت سفينة التجار تنتدب لهذه المهمة حتى توجهت قاصدة إلى

مصطفى قبودان الكريدى ربان القروت (مزه قرصان) ولما كان اتجاه الريح شمال شرق فقد نشرت القلوع الخلفية (براجيه بومه) مرفوعة إلى الناحية اليمنى وأخذت جميع السفن الحربية وسفن التجار طريقها فى اتجاه شمال غرب نحو الغرب ، وكان المسير من الصباح إلى المساء فى اتجاه الشمال الغربى والغرب بالغا ثمانية عشر ميلا وبحلول المساء جمعت السفن كلها فى مكان واحد .

ليلة السبت :

فى الساعة الثانية عشر من هذه الليلة أذن الآذان المحمدى فأقيمت صلاة المغرب وأدى واجب الدعاء والثناء) وكان الهواء شرقياً تماماً فاتخذنا سبيلنا فى اتجاه شمال غرب بغرب ناشرين ثلاث قطع من قلوع .. « غابية وثلاثاً مثلها » من قلوع (بابا فنفو) وأربعاً من قلوع « إيفورى باربانى » وتخلف قليل من السفن فاتخذنه وضع (قنطرة ميزاته براجيه صوبره) فأقتربت السفن المتخلفة وإنطلقنا فى وضع (براجيه قورا) . وفى منتصف الساعة الأولى أوقد مصباح المؤخرة . وبعد العشاء سلمت النوبة على مقتضى القواعد البحرية إلى محمد قبودان الطبوز أوغلو ومحمد قبودان أغا المركب السابق ومحمد قبودان البدوى وحسن قبودان الاستانكوبلى وحسن قبودان البوزجه أطه لى فأخذوا ينظمون أعمال النوبة لمن فى إمرتهم من الضباط والبحارة كما عين أغوات صاحب الدولة مولانا البك لنوباتهم وأقيم حملة البنادق من العساكر الجهاديين على جوانب سفينتنا الأربعة ، وفى الساعة الرابعة صدرت إشارة من سفينة حضرة الباشا القبودان يأمر فيها بإبلاغ المراكب المتخلفة إشارة : أن « انشروا شراعكم وابذلوا جهدكم حتى لاتتخلفوا ! واستمرت الحال على هذا المنوال حتى نصف الليل إذ اتخذت تدابير تغيير الحراسة فصرف الجنود المسائيون وأقيم بدلا منهم جنوداً صباحيون . وفى أثناء هذا التنظيم سلمت النوبة إلى الربان حسين قبودان والحاج مسعود قبودان إبراهيم قبوادان الجربى وابراهيم قبودان الكريدى وحسن قبودان الكريدى) . ولم يحدث حادث حتى الصباح إذ سرنا هذه المدة مرخين الحبال فى اتجاه شمال غرب بغرب حتى إذا أصبحنا كان ما قطعناه ثلاثة وخمسين ميلا قد تأخرت بعض السفن قليلا .

يوم السبت ١٠ ربيع الأول سنة ١٢٤١ .

كان هذا اليوم ذا ريح شرقي جميل فظللنا فى طريقنا فى اتجاه الشمال الغربى بغرب فأرخينا قلوع (ترنكتماتستره) لتتمكن السفن المتخلفة من اللحاق . على أن البريك « تغران » (؟) قدظلت وراءنا فأشرنا إلى السفينة التجارية : أن ائت إلينا فلما جاءت كلفناها أن تذهب إلى « مصطفى قبودان » ربان « تغران » لكى تقول له : « انظر فى إصلاح أمر سفينتك بحيث لا تتخلف عن الأسطول ! » فذهبت على الفور ميممة نحو السفينة « تغران » . ثم أصدر حضرة الباشا القبودان إشارة مضمونها : « أيتها المراكب المتخلفة سارعوا إلى اللحاق بالمراكب المتقدمة . ومن يعص أمرى ويسلك سبيل آخر فلا شك فى تأديبه » . ثم تخلفت الفرقاطه « ثريا » فوجهت إليها الإشارة من سفينتنا : أن « انظرى فى تدبير أمرك وإصلاح سيرك » وبعد ذلك وجهت إشارة إلى البريك « ابيرو »(؟) أن لا تذهبى فوق الريح بل اقبلى وادخلى فى سرباك . وكانت سفينة من سفن التجار الفرنسيين مقبلة علينا بوجهها وهى تتهادى (بالطه باش اولطه) فأرسلنا عليها عبد الرحمن قبودان بغولته فى حين أرسل حضرة الباشا القبودان سفينة غولت أخرى . وسرعان ما استقصى عبد الرحمن قبودان أنباءها وجاءنا يقول : أنها سفينة فرنسية للتجار قادمة من « مارسليا » التى غادرتها منذ ثمانية وعشرين يوماً وأنها رأت بالقرب من « مالطة » فرقاطتين هولانديتين وإنها قاصدة إلى « الإسكندرية » أما الغولت الأخرى فقد اقتادت السفينة التجارية المذكورة إلى حضرة الباشا القبودان الذى أخذ أنباءها وصرفها . ثم أصدر حضرة الباشا القبودان إشارة أن : « يا أيتها السفن المتخلفة ، انشروا قلوع (بابافنفو) بالقنطرة فأذعنا من سفينتنا إشارة تقول : « دوروا مع الريح (اورسه آلابنده) ولا تراعوا حركة القائد العام (السرعسكر) بل سيروا إلى الأمام ويا أيتها المراكب المتخلفة . انشروا الشراع وابذلوا الغيرة حتى تدركوا القائد العام ! » فأرخيت قلوع غابية إلى جانب نهاية الصارى وراحت سفينتنا هى الأخرى تضع صارى ميزاته قنطرة فى وضع (براجيه صوبره) فلم يمر إلا نصف ساعة حتى لحقت السفينة المتخلفة وأخذنا وضع (براجيه قوره)

وكذلك انطلق حضرة الباشا القبودان بنفس الوضع . وحينئذ وجهت من سفينتنا إشارة إلى ربان الفرقاطه « ثريا » : أن « اجتهد حتى تستعيد موازنة السفينة ! » وفى الساعه السابعة أشار الباشا القبودان طالباً إلى السفن أن تقف دائرة مع الريح (اورسه آلابنده) وأن يوافيه جميع ربابنتها القبودانات ومعهم خوجاتها (موظفو التعيينات والإدارة) وموصيا ربان السفينة « ثريا » التى تأخرت وراء : أن « اسع حتى تصلح شأن سفينتك . » ولتباشر الآن المهمة التى أمرت بها » . وفى منتصف الساعة الثامنة وجه حضرة الباشا القبودان إشارة إلى سفينة البك القبودانه (ريس أميرال) والبك البطرونه سائلا : « كم من الأميال قطعنا منذ خروجنا من الإسكندرية » فأشار البك القبودانه مجيباً بأنها : « مائتا ميل وميلان » وكانت إشارة البك البطرونة أنها « مائة وواحد وتسعون ميلا » . وبعد ذلك أذاعت سفينتنا فى جميع السفن إشارة أن : « التفتوا إلى تنظيم شئون سفائنكم واهتدوا إلى طرقكم » . ثم سكن الريح بعض الشىء وإلى أن أمسى المساء كنا قد قطعنا سبعة وخمسين ميلا فى اتجاه شمال غرب بغرب .

ليلة الأحد :

فى الساعة الثانية عشرة من هذه الليلة أذن الآذان المحمدى فأقيمت صلاة المغرب وأدى واجب الدعاء والثناء . وكان الهواء ساكناً شرقياً فواصلنا المسير نحو شمال غرب بغرب ناشرين ثلاث قطع من قلوع (غابية) وثلاثا مثلها من قلوع (بابافنفو) وأربعا من قلوع (ايفورى باربانى) وفى منتصف الساعة الأولى أوقد مصباح المؤخرة . ولم تلبث السفن المتأخرة أن مرت إلى الأمام ونشرت قلوع (بابافنفو) . وبعد العشاء طبقت القواعد البحرية فسلمت النوبة إلى محمد أغا طبوز أوغلو ومحمد قبودان أغا المركب السابق فأخذا فى تنظيم أعمال التناوب لمن فى إمرتها من الضباط والنوتية . كما عين أغوات صاحب الدولة مولانا البك فى نوباتهم وأقيمت الجنود الجهاديون من حملة البنادق فى جوانب سفينتنا الأربعة ثم أن سفينة التجار اقتربت منا فأمرناها قائلين : « لا تنأى عنا » . وفى الساعة الثالثة صدرت إشارة من سفينة الباشا القبودان تقول : « وجهوا الإشارة الى السفن المتخلفة

أن انشرى الشراع وابذلى الغيرة لتتفادى التأخر ! » ولم يحدث حادث ما إلى نصف الليل إذ اتخذت التدابير لتغيير الحراسة فبدلت الجنود المسائيون ونظمت الجنود الصباحيون كل فى المحل المخصص له على الوجه المسطور بعاليه، أما الربانية فإن نوبتهم سلمت إلى « حسن قبودان » والحاج « مسعود قبودان » والقبودان « إبراهيم الجيربى » والقبودان « إبراهيم الكريدلى » وحسن قبودان الكريدلى » وفى الساعة الثامنة كانت الريح فى اتجاه جنوب غرب فأخذت الساريات الأفقية وضع (براجيه بونطه) إلا أن ما وافقت الساعة التاسعة حتى عادت الريح شرقية تماما . وبعد ذلك وضعت الساريات الأفقية فى وضع (براجيه بويه) واتخذ طريق شمال غرب بغرب . وفى الساعة العاشرة صدرت إشارة من سفينة حضرة الباشا القبودان أن : « يامن تخلف من السفن انشروا القلوع وهبوا باذلين غيرتكم لتلحقوا بالقائد العام (السر عسكر) فتلقت سفينتنا المصباح الذى يعنى « فهمنا » ، . وكانت بعض سفن التجار متقدماً وبعضها متأخراً فربطت قلوع قنطرة بابافنفو لتجمع فى بقعة واحدة . واستمر الهواء على حاله فسرنا فى اتجاه شمال غرب بغرب قاطعين ثمانية عشر ميلا حتى الصباح .

يوم الأحد فى ١١ ربيع الأول سنة ١٢٤١

كان الهواء فى صبح اليوم المذكور ساكنا وشرقياً فظللنا متخذين طريقنا فى اتجاه شمال غرب بغرب فى اثنى عشر شراعاً . ونظرنا إلى ركود الريح خفضنا شراع (ترنكت مايستره) وأمرنا سفينتنا فظهر أعلى سطحها ومربض مدافعها ومسحت مسحا نظيفا . وكان محمد قبودان الطبوزاوغلو يشكو خرّاجاً فى رجله فأرسل زورقاً إلى الفرقاطة ثريا ليأتيه بالطبيب ، فما أن عاده الطبيب حتى استرد الزورق وعاد إلى محله القديم . ثم وردت إشارة من السفن التى وراءنا وأطلقت مدفعاً إلا أن الإشارة لم تفهم ؛ فوجهنا نحن إشارة نخاطب بها السفن القريبة من تلك الإشارة قائلين لهم : « تناقلوا إشارة المراكب المتخلفة وتداولوها حتى تبلغوها إلى القائد العام (السر عسكر) ولكن الإشارة لم تفهم ولا أمكن السفن أن تتداول ذلك الكلام وتنقله . وكان الريح فى الساعة الثالثة راكداً فجاء سر عسكر الجزاير والبك البطرونه

إلى سفينتنا وما كادا يصلان حتى اتخذنا وضع (اورسه آلابنده) ووجهنا إشارة إلى جميع الربانية من قبودانات الأسطول المصرى أن يوافونا ويأتوا إلينا فجاء منهم الربانية القريبة سفنهم فألقيت عليهم الأوامر أن : « نظموا سفائنكم أصلحوا شأنها وإياكم والإهمال ، » فما لبثوا أن مضى كل منهم إلى سبيله وغادرنا كذلك سر عسكر « الجزاير » والبك البطرونه ونظرا إلى لين الريح رفعت اسقوطات بابافنفو وأوصلت إلى الأعلى ، ثم أذاع الباشا القبودان من سفينته إشارة قال فيها : « يا أيتها السفن المتخلفة انشروا الشراع ابذلوا الغيرة لعلكم تدركون السر عسكر لنجتمع كلنا فى مكان واحد ولا نكن فرادى متفرقين » أمسى علينا المساء نحن فى وضع (اوسه آلابنده) المذكور.

ليلة الاثنين :

فى الساعة الثانية عشرة من هذه الليلة أذن الآذان المحمدى فأقيمت صلاة المغرب وأدى واجب الدعاء والثناء بقينا فى وضع (اورسه آلابنده) انتظاراً للمراكب المتخلفة كانت الريح تهب من اتجاه شمال شمال غرب طويت قلوع البابافنفو إلى النورجيه (لما انتصفت الساعة الأولى أوقد مصباح المؤخرة . وبعد أذان العشاء اتبعت القواعد البحرية فسلمت النوبة إلى محمد قبودان الطبوز اوغلو » و « محمد قبودان » أغا المركب السابق السـابق و « محمد قبودان البدرى » و « حسن قبودان الاستانكويلى » و « حسن قبودان البرزجة أطه لى » . وحينما كان الضباط وجنود البحر الدائمون ينظمون هم أيضاً مناوباتهم كان أغوات صاحب الدولة مولانا البك يعينون لنوباتهم . وكان الجنود الجهاديون الحاملو البنادق يقومون على الجوانب الأربعة من سفينتنا ولما اتخذت القلوع وضع (براجيه قوره) فى الساعة الثالثة كان الريح فى اتجاه شمال شمال غرب فسرنا فى اثنى عشر شراعاً نحو الغرب تماماً ولهذا نشرنا قلوع (بابا فنفو) وفى الساعة الرابعة نشرنا قلوع القنطرة كذلك وما زلنا سائرين على هذه الصورة حتى كان نصف الليل ، فاتخذت التدابير لتغيير الحراسة وبدلت الجنود المسائيون ونظمت الجنود الصباحيون كل فى المحل المخصص له على الوجه المسطور بعاليه فى حين نظمت نوبة الربابنة بحيث تصيب الربان حسن قبودان والحاج مسعود قبودان والقبودان

إبراهيم الجربى وابراهيم قبودان الكريدى وحسن قبودان الكريدى وسكن الريح الآتى من شمال شمال غرب فسرنا حتى الصباح ثمانية عشر ميلا نحو الغرب تماماً ولم يحدث شىء غير ذلك .

يوم الإثنين فى ١٢ ربيع الأول سنة ١٢٤١

كان الريح فى هذا اليوم من اتجاه شمال شمال غرب فسرنا فى طريقنا نحو الغرب فى أربعة عشر شراعاً ووجد أن سفن التجار نصفها متقدم ونصفها متأخر فربطت قلوع (بابافنفو) لكى تقبل المتأخرات وأصدر حضرة الباشا القبودان إشارة إلى البك البطرونة يسأله : « من كم سفينة يتألف الأسطول كله ؟ فجاوب البك البطرونة بإشارة تقول : « الأسطول كله تسع وعشرون ومائة سفينة . » وقدم البك القبودان (ويس أميرال) هو الآخر إشارة فحواها : « إن الأسطول ثلاثون ومائة سفينة . وذهب البك البطرونة إلى سفينة حضرة الباشا القبودان ثم لم يلبث أن جاء مع مهردار حضرة الباشا القبودان إلى سفينتنا حيث لبثا نصف ساعة وانصرفا . وفى الساعة الخامسة قامت سفينتنا بتعليم إطلاق المدافع بدون نيران كما أخذ الجنود الجهاديون يمارسون تعليم استعمال البنادق . وفى الساعة السادسة كانت ثلاث سفن من سفن التجار متأخرة فدنا منا محمد قبودان الاستانكويلى قائلا : « اسألوا مولانا هل يأمر بأن أذهب أنا « والغلطة لى » معا فى المراكب المتخلفة فنشدها فنأتى بها ؟ » فلما بلغ مولانا استفساره تفضل فقال : « لننظر فإذا لم تلتحق سفن التجار المذكورة إلى قبيل الغروب أمرنا بشدها حتى لا تعود إلى الانفصال عنا ! » وعلى ذلك صدر الأمر من سفينتنا إلى محمد قبودان الاستانكويلى : أن سر الآن على حالتك التى أنت فيها فلا تنأ عنا ! » فجعل محمد قبودان صارى ميزاته القنطرة (قنطرة ميزاته) فى حالة (براجيه صوبره) وتأخر وحلت الساعة الثامنة ولما تأت سفن التجار فصدرت الإشارة قائلة : « لتذهب يا محمد قبودان الاستانكويلى ومعك قبودان الغلطة لى إلى المراكب المتخلفة فتشدها . » فدار القبودانان مع الريح (بوجا) على الفور وما لبثا أن ربطا مراكب التجار إلى مؤخرتيهما وقطراها . وكان الريح غرب شمال غرب فاتخذنا وضع « أورسه آلابنده تيرامولا » ومتوجهين

نحو الشمال تماماً . ثم أذاع البك البطرونة من سفينته إشارة قال فيها « أيتها السفن التى فى إمرتى ، عليكم جميعاً أن تندمجوا فى السرب (الفياو) باقتفاء أثرى والسير فى مياه سكانى . فلتنشروا الشراع ولتبذلوا الغيرة ! » فعلقت سفينتنا الراية التى معناها « فهمت » ثم أتخذنا وضع (ترنكت مايستره آموره) خشية أن نتخلف عن السرب . وفى الساعه العاشرة ركدت الريح ؛ على أنها فى الساعة الحادية عشرة صا ت شمالية غربية تماماً فيممنا شطر الشمال شمال شرق (بيلديز بويراز) وإلى أن أمسى المساء كنا قد قطعنا عشرين ميلا فى اتجاه الشمال التام وسبعة أميال أخرى فى اتجاه الشمال شمال شرق (بيلديز بويراز) ولم يحدث حادث يستحق الذكر .

ليلة الثلاثاء :

فى الساعة الثانية عشرة من هذه الليلة أذن الآذان المحمدى فأقيمت صلاة المغرب وأدى واجب الدعاء والثناء . وكان الريح شمالياً غربياً تماماً فاستمررنا فى طريقنا متجهين نحو الشمال شمال شرق فى ثمانية قلوع ، وفى منتصف الساعة الأولى أوقد مصباح المؤخرة . وعند العشاء روعيت القواعد البحرية فسلمت النوبة إلى الربان حسن قبودان والحاج مسعود قبودان وإبراهيم الجيربى قبودان والقبودان إبراهيم الكريدى والقبودان حسن الكريدى فى حين نظمت نوبة الضباط وجنود البحر الدائمين . كما حددت مواقيت النوبة . لأغوات مولانا البك صاحب الدولة وأقيمت عساكر جهادية تحمل البنادق على جوانب السفينة الأربعة . وقد انتصف الليل دون أن يحدث حادث فاتخذت تدابير تغيير الحراسة وبدل الرجال المسائيون كما سلمت نوبة الربانية إلى محمد قبودان الطبوزاوغلو ومحمد قبودان أغا السفينة السابق ومحمد قبودان البدوى وحسن قبودان الاستانكويلى وحسن قبودان البوزجه أطه لى . وفى الساعة العاشرة سكنت الريح . وإلى أن أصبح الصباح كان ما سرناه سبعة أميال قطعناها متجهين نحو الشمال شمال شرق .

يوم الثلاثاء من ١٣ ربيع الأول سنة ١٢٤١

كان الريح يومئذ راكداً فأتخذنا وضع (ترنكت مايستره قنديلجه)

وقامت سفينتنا بتطهير أعلى سطوحها ومربض مدافعها . وفى الساعة الثالثة ورد الأغا الجوقدار إلى سفينتنا . ونظراً لأن الريح كانت ساكنة قامت الزوارق بجر السفن واتخذنا وضع (اورسه آلابنده تيراموله) ثم أخذ الريح يهب بلطف من شمال شمال شرق فاتخذنا سبيلنا نحو الشمال تماماً ووجه البك البطرونة إشارة يقول : « يا أيتها السفن التى معى : تعالوا إلى مياه سكان سفينتى وادخلوا فى السرب (الفيلو) » ، فرفعت سفينتنا الراية التى معناها « فهمت » . وفى الساعة الخامسة أرسل البك البطرونة إشارة يطلب سفينة التجار ولكن السفينة المذكورة كانت بعيدة فلم تفهم الإشارة ولذلك وجهت سفينتنا إلى سفينة التجار إشارة : « أن ادنى منى » . فلما دنت وجهت إليها سفينتنا إشارة أخرى مؤداها أن البك البطرونة قد سبقت له إشارة بطلبها . وبينما كانت سفينة التجار فى طريقها إلى سفينة البك البطرونة خاطبها البك البطرونة بإشارة قال فيها : « يا سفينة التجار إن حضرة الباشا القبودان يدعوك إليه » فأنطلقت سفينة التجار متوجهة إلى حضرة الباشا القبودان الذى ركبها وطاف بالأسطول ماراً بجوانبه الأربعة ولكن المفهوم أنه تفضل على سفائن الأسطول السلطانى فزودها بتنبيهاته . وقد علمنا بركوب حضرة الباشا القبودان فى سفينة التجار من الحرس القائم فوق سارية سفينتنا وحدثت مشادة من أجل ماء الشرب بين أحد ملازمى العساكر الجهاديين فى شخطور وبين قبودان الشخطور فاقترب الشخطور المذكور من ناحية مؤخرة سفينتنا وأهاب القبودان قائلا : « إن الملازم يريد ضربى من أجل الماء ! » فأرسل على الفورزورق جاء بكل من القبودان وملازم العساكر الجهادية إلى سفينتنا . فلما رقيا إلى حيث مثلا بين يدى مولانا البك قص كل منهما إثم خصمه فما كان من مولانا المشار إليه إلا أن أنبهما بعض التأنيب ثم قال لهما لقد عفوت عن هذا الإثم الذى اقترفتماه . فإياكما أن تعودا إلى شيء مثل هذا ! » فركبا الزورق عائدين . وفى الساعة العاشرة وجه البك البطرونة إشارة أن يا أيتها السفن التى معى : انشروا القلوع وابذلوا الغيرة وتعالوا إلى مياه سكانى حيث تندمجن فى السرب (الفيلو) ! » فرفعت سفينتنا الراية الدالة على : « فهمت » ونظرا إلى هدوء الريح فإننا سرنا حتى المساء خمسة عشر ميلا قطعناها متجهين نحو الشمال الغربى تماماً .

ليلة الأربعاء :

في الساعة الثانية عشرة من هذه الليلة أذن الآذان المحمدى فأقيمت صلاة المغرب وأدى واجب الدعاء والثناء . وكانت الريح راكدة فاتخذنا وضع « اوسه آلابنده » بسبع عشرة قطعة من القلوع . وفى منتصف الساعة الأولى أضيء مصباح المؤخرة وبعد العشاء سلمت النوبة بحسب القواعد البحرية إلى « محمد قبودان الطبوزأوغلو » ومحمد قبودان أغا السفينة السابق ومحمد قبودان البدوى وحسن قبودان الاستانكويلى وحسن قبودان البوزجه أطه لى . ونظمت كذلك نوبة الضباط والنوتية كما حددت مواقيت النوبة لأغوات مولانا البك صاحب الدولة وأقيمت عساكر جهادية يحملون البنادق على جوانب السفينة الأربعة . ولهدوء الريح لم يظهر شيء حتى نصف الليل إذ اتخذت تدابير تبديل الحراسة فأنزل الفريق المسائى وانتظم كل حارس من الصباحيين فى المكان المخصص له على ما سبق ذكره . أما نوبة الربابنة فسلمت إلى حسن قبودان السوارى ومعه إبراهيم قبودان الجيربى والحاج مسعود قبودان وإبراهيم قبودان الكريدى وحسن قبودان) ونظراً إلى ركود الريح فإن سفينتنا قد أنزلت أمامها الزوارق تجرها بالحبال فبلغ ما قطعناه من المسافة حتى الصباح سبعة أميال وردت بعد ذلك الزوارق إلى مرابطها .

يوم الأربعاء فى ١٤ ربيع الأول سنة ١٢٤١

رفعت الأعلام بطلوع شمس هذا اليوم . وكانت الريح هادئه فاتخذنا وضع (ترنكت مايستره قنديلجه) ، وطهرت سفينتنا أعلى سطوحها ومأوى مدافعها . وعند الساعة الثالثة تنفس الريح بهدوء من شمال شرق (پوبراز) فوجهت إشارة من سفينة حضرة الباشا القبودان : « أن يا أيتها السفن المتخلفة انشروا الشراع على كل حال وابذلوا قصاراكم لتلتحقوا بالسفن التى أمامكم ! » فرفعت سفينتنا الراية التى معناها « فهمت » ثم أن بلال أغا قدم إلى سفينتنا كما قدم من ربابنتنا إبراهيم قبودان الكريدى ومن ربابنة استانبول ولى مصطفى قبودان . وبعد مرور ساعة انصرفوا . وفى الساعة السادسة أرسلت سفينتنا إشارة إلى سفينة التجار : تقول لها : « اقتربى منى » فلما أقبلت

علينا أرسل إليها أحد الزوارق لأجل قضاء مصلحة من المصالح ولم يلبث أن كر عائداً فربط إلى مكانه القديم . وفى الساعة الثامنة قامت سفينتنا بتمرين إطلاق المدافع بدون نار كما تمرنت العساكر الجهادية هى الأخرى على البندقية . وفى الساعة العاشرة كانت الريح تهب فى سكون من الجنوب الشرقى فاتخذنا طريقنا نحو الشمال الغربى بغرب فى وضع (براجيه بويه) وبعد ذلك صدرت من سفينة حضرة الباشا القبودان إشارة تقول : « ابذلوا الغيرة وانشروا الشراع لئلا تتخلفوا ! توجهت من سفينتنا إشارة مثل هذه الإشارة . ونظراً إلى سكون الريح فاننا حتى المساء قطعنا خمسة عشر ميلا فى اتجاه الشمال الغربى بغرب . ولم يظهر شىء غير ذلك .

ليلة الخميس :

فى الساعة الثانية عشرة من هذه الليلة أذن آذان المغرب فأقيمت الصلاة وأدى واجب الدعاء والثناء . وكان الريح ساكنا على مجيئه من الجنوب الشرقى فواصلنا طريقنا فى ثمانية عشر شراعاً متجهين نحو الشمال الغربى بغرب فى وضع (براجيه بويه) ، وفى منتصف الساعة الأولى أضىء مصباح المؤخرة . وبعد العشاء سلمت النوبة طبقا لقواعد البحر إلى القبودان قائد السفينة ومعه الحاج مسعود قبودان وإبراهيم قبودان الجيربى وإبراهيم قبودان الكريدى وحسين قبودان الكريدى ، كما نظمت النوبة لمن فى إمرتهم من الضباط البحارة وعين أغوات مولانا صاحب الدولة فى نوباتهم وأقيم الجنود الجهاديون المسلحون بالبنادق من حوادث السفينة الأربعة وما زلنا سائرين من منتصف الساعة الثانية حتى نصف الليل على وضع (قورنليجه لرأرمه) من اليمين واليسار إذا اتخذت تدابير تغيير الحراسة فانزل المنوبون المسائيون وانتظم كل واحد من الصباحيون فى مكان النوبة الخاص به حسبما ذكر بعاليه ولم يقع حادث حتى أصبح الصباح على وضع براجيه بويا وأمامنا إلى جزيرة كريد نحو ثلاثين ميلا .

يوم الخميس فى ١٥ ربيع الأول سنة ١٢٤١

فى صباح هذا اليوم كانت الريح فى اتجاه جنوب شرق تماماً فسرنا

على الوضع السابق وصدرت الإشارة من سفينة حضرة الباشا القبودان أن : « يا أيتها السفن المتخلفة انشروا الشراع وابذلوا الغيرة حتى تدركوا السفن التى تقدمت » فرفعت سفينتنا الراية الدالة على أنها فهمت الإشارة . وفى الساعة الخامسة اشتغلت سفينتنا بتعليم استعمال المدافع ولكن بدون إطلاق النار كما اشتغل العساكر الجهاديون بممارسة تمرينات البنادق وعند الساعة الثامنة وردت إشارة من سفينة حضرة صاحب الدولة أمير البحار أن : تحولوا نحو الغرب ، فما لبثت سفينتنا أن تحولت نحو الغرب . وعند الساعة التاسعة تبدلت وجهة الريح فصار غرب شمال غرب ولذلك تحولنا إلى اتجاه شمال غرب . ولما أمسى المساء كنا قيد عشرين ميلا من جزيرة « غوروس » التابعة لجزيرة « كريد » .

ليلة الجمعة

فى الساعة الثانية عشرة ابتدأت هذه الليلة بترتيل الآذان المحمدى فأقيمت الصلاة وأدى واجب الدعاء والثناء . ونظراً إلى كون الريح غرب شمال غرب تابعنا مسيرنا نحو الشمال تماماً فى اثنى عشرة قطعة من القلاع وفى وقت العشاء سلمت النوبة بحسب القواعد البحرية إلى « محمد قبودان الطيوز أوغلو » ومعه محمد قبودان أغا السفينة السابق ومحمد قبودان البدوى وحسن قبودان الاستانكويلى وحسن قبودان البوزجة أطه لى وكذلك نظمت للضباط وجنود البحر الدائمين مناوباتهم كما عين أغوات مولانا صاحب الدولة من نوباتهم وأقيمت جنود جهاديون مسلحون بالبنادق فى جوانب السفينة الأربعة . وعند الساعة الثالثة انبعثت من سفينة البلك البطرونة إشارة أن : اتخذوا وضع اورسه آلابنده تيره موله » ، فشرعنا لها مصباح « فهمت » ، ونفذنا مضمون الإشارة . وسرنا فى اتجاه جنوب غرب لأن الريح كانت غرب شمال غرب وفى الساعة الرابعة بدأت الريح فى الاشتداد فربطنا القناطر . وصرنا على هذه الحالة حتى انتصف الليل (فاتخذت تدابير تغيير الحراسة إذ انزلت الجنود المسائيون ونظمت لكل جندى من الجنود الصباحيين نوبته على الوجه الذى سبق ذكره كما انتقلت النوبة إلى القبودان ربان السفينة ومعه الحاج مسعود قبودان والقبودان إبراهيم الجيربى وإبراهيم

قبودان الكريدى وحسن قبودان الكريدى) ونظرا إلى شدة مخالفة الريح فقد ربطت قلوع السارية الوسطى (غابية جراندى) على ثلاث لفات وأحكم ربط قلوع الأقسام . الأمامية (غابية برودة) هى وقلوع قنطرة ميزانة على لفة واحدة . ثم تحول الريح بعد ذلك شماليا غربيا تماماً فاتخذنا طريقنا نحو غرب جنوب غرب . وكانت مخالفة الرياح على هذه الصورة سبباً فى أن يبقى حضرة الباشا القبودان مع نصف الأسطول إلى الصباح فى جهة كريد لأن السفن لم تستطع اتخاذ وضع تيراموله أما البك البطرونة وسفينتنا فقد أدركنا الصباح فى مياه جزيرة غوروس ومعنا واحدة وستون سفينة تحت الريح .

يوم الجمعة فى ١٦ ربيع الأول سنة ١٢٤١

فى صباح هذا اليوم كان الهواء ساكنا وغربياً مع شمال فأمرنا بنشر قلوع (بابافنفو) وقلوع قنطرة بابافنفو وكان نصف الأسطول مع صاحب الدولة الباشا القبودان فى وضع (تيره موله) من شاطىء جزيرة كريد فأخبر الحارس الراصد بأعلى السارية أنه آت فى حالة وواطة بحر . ثم صدرت إشارة البك البطرونة تقول : « لندور مع الريح نحوهم فى وضع تيرامولة ! ففعلنا ما أمرنا وسرنا فى اتجاه جزيرة « كريد » وسكن بعد ذلك الريح فنشرنا القلاع . وفى الساعة السادسة تلاقينا والباشا القبودان ولم تلبث السفن التى مع دولته أن جاءت واتخذت وضع « دكر ولطه سنة تير مولا » إلا أن سفينة التجار كانت غائبة عن الأنظار فوجهنا فى الساعة العاشرة إشارة إلى الأسطول قائلين : « هل رأيتم السفينة التجارية ؟ » فرد البك البطرونة بالإشارة يقول : « إنها فوق الريح» كما أصدر دولة الباشا القبودان إلى الأميرال الثانى (رياله بك) إشارة يسأله : « هل رأيت سفينة التجار ؟ » فرد عليه بإشارة يقول : « لم أرها ولا علم لى بمكانها » على أن الباشا القبودان قد بعث بعد ذلك إشارة يقول فيها كنت رأيتها اليوم صبحاً فى جزيرة « غوروس » . فرفعت سفينتنا الراية معناها « فهمت » ثم جاءت إشارة أخرى من دولة المشار إليه أن : « أرسل من سربك سفينة تفتقدها فى جزيرة « غوروس »، فوجهنا إشارة إلى محمد قبودان الاستانكويلى ربان البريك نأمره : « أن اذهب

لترى سفينة التجار عند جزيرة « غوروس » وكانت عدة سفن من سفن القرصان (السفن الحربية السريعة) وعدة سفن من سفن التجار قد بقيت تحت الريح وظلت وراءنا فاتخذنا وضع (اورسه آلابنده) بقصد جمعها إلا أن البلك البطرونة لما لاحظ هذا الوضع أرسل إشارة قال فيها : « ما الذى منعك عن المسير؟ » فأشارت سفينتنا قائلة : « لتضطجعوا يسرة (أورسه آلابنده) لتجمع سفن التجار وسفن القرصان بأسرها قريباً منا » فلم يلبث حضرة الباشا القبودان أن أصدر إشارته قائلا : « لا يراع أحد منكم حركة القائد (السر عسكر) ، ولتسر سفن البريك إلى الأمام » ، وأمسى علينا المساء ونحن فى هذه الحال على قيد أربعين ميلا من « غوروس » .

ليلة السبت :

فى الساعة الثانية عشرة من هذه الليلة أذن للمغرب فأقيمت الصلاة وأدى واجب الدعاء والثناء ووجه البلك البطرونة إشارة أن : « هلم فلنسرع ! وأنت يا أيتها السفن المؤلفة لسربى (فياو) ابذلى الهمة وانشرى الشراع وتعالى فى أثر ماء سكانى حتى تلتحقى بالسرب ! » فاتخذنا وضع « براجيه قوره » وسرنا بثلاث قلوع غابية وقاين (ايفورى باربانى) ولما كانت الريح غربياً بشمال غربى فقد اتخذنا طريقنا نحو الجنوب الغربى تماماً حتى كانت الساعة الخامسة إذ سكتت الريح وانتصف الليل ولم يظهر شىء جديد فاتخذت التدابير لتغيير النوبة وأخذ كل مناوبة على وجه الانتظام وبتنا فى هذا الحال إلى أن أصبح علينا الصباح ونحن على قيد ثلاثين ميلا من « غوروس » .

يوم السبت فى ١٧ ربيع الأول سنة ١٢٤١

كان الهواء فى هذا اليوم ساكنا يهب من الغرب تماماً ؛ فنشرنا قلوع القناطر وكان طريقنا نحو جنوب غرب . وقد جمع فريق من المراكب التى كانت تحت الريح والتى كانت متخلفة وبقى فريق آخر تحت الريح فتريثنا فى المسير (مزه ناوه) للاجتماع بهذه الباقيات . وبما أن سفينة التجار قد ظهرت فى جهة « غوروس » فقد بعث إلينا كل من البلك القبودان

والبلك البطرونة بإشارة قال فيها : « إن سفينة التجار فوق الريح وأنها لقادمة » فرددنا على إشارتهما هذا برفع الراية التى معناها « فهمت » وفى الساعة الرابعة طهر سطح سفينتنا الأعلى وأعملت المضخة فى الماء المتراكم فى قاعها حتى تم كسحه والتخلص منه . وصدرت من سفينة حضرة الباشا القبودان إشارة أن : « يا أيتها السفن المتخلفة انشرى الشراع واقبلى حتى تدركى القائد العام » كما أذاع البلك البطرونة إشارة بهذا المعنى . ثم أصدر الباشا المشار إليه إشارة أخرى إلى سفن التجار جاء فيها أن : « ابذلوا الغيرة واسرعوا حتى .. تصيروا فوق الريح ! » وعند الساعة السادسة هبت من جهة غرب شمال غرب عاصفة مخالفة مصحوبة بالمطر فربطت قلوع القناطر والقلوع (بابافنفو) الكبيرة) ولم نلبث أن تلقينا من حضرة الباشا القبودان إشارة تقول : « اتخذوا وضع أورسه آلابنده تيرامولا » ففعلنا ذلك وفى الساعة السابعة جاءت سفينة التجار إلى جانبنا فقلنا لها : « قد فقدناك » وسألناها : « أين كنت ؟ » فأجابت : « كنت تحت جزيرة « كريد » حيث أصلحت بعض شأنى » ثم قالت : « لقد عرضت لى حاجة تقتضى ساعة فشدونى إلى مؤخرتكم لكى أقضيها ! » فلئن تريثنا فى وضع (قنطرة ميزانه براجيه صوبره) فإن سفينة التجار تأخرت وعجزت عن إدراكنا ولذلك انبرى لها حسين قبودان البوزجه أطه لى ربان القرويت فقطرها إلى قرويته . وفى منتصف الساعة الحادية عشرة صدرت إشارة من حضرة الباشا القبودان أن : « اتخذوا وضع أورسة آلابنده تيرامولا » فرفعت سفينتنا الراية التى معناها « فهمت » ونفذنا الإشارة واتخذنا طريقنا فى اتجاه جنوب غرب بريح غربى بشمال غربى . وبعد ذلك نظر حضرة الباشا القبودان إلى مخالفة ريح فأصدر إشارة يقول : « لتهجروا أيها الربابنة النوم فى هذه الليلة، ولتكتحلوا السهر قائمين على حراسة سفنكم فى دقة وبصيرة، وليراع بعضكم بعضاً لكيلا يتخلف منكم أحد » . وتبعه البلك البطرونه فأذاع إشارة قبل إشارته ، وعلى أثر هاتين الإشارتين رفعت سفينتنا الراية التى معناها « فهمت » ، ثم أمسى علينا المساء وقد أمست جزيرة « كريد » فى اتجاه مؤخرة سفينتنا .

ليلة الأحد

في الساعة الثانية عشرة من هذه الليلة أذن الآذان المحمدى فأقيمت الصلاة وأدى واجب الدعاء والثناء وكانت الريح تهب من الشمال تماما والمطر يهطل فاتخذنا طريقنا غرباً بشمال غربى ناشرين ثمانية قلوع . وفى منتصف الساعة الأولى أضأنا مصباح المؤخرة ونظراً إلى اشتداد الرياح فإننا قد قمنا بتقوية الغابيات . ، وبعد العشاء سلمت النوبة .. بحسب القواعد البحرية إلى الربان حسن قبودان وإبراهيم قبودان الجيربى وحسن قبودان الكريدى وإبراهيم قبودان الكريدى . كما نظمت النوبة للضباط والبحارين الدائمين ورتبت كذلك نوبة أغوات صاحب الدولة مولانا البك وأقيمت جنود جهاديون مسلحون بالبنادق على جوانب سفينتنا الأربعة . وفى منتصف الساعة الخامسة سكنت الريح فلما كان منتصف الساعة السادسة اتخذنا وضع بوجيه آلابنده تيره مولا وسرنا على هذا النظام دون أن يحدث حادث إذا كان نصف الليل اتخذت التدابير لتغيير النوبة والحراسة ، فأنزل الحراس المسائيون وأقيم الصباحيون كل فى مكان نوبته على الوجه السابق ذكره . ونظمت نوبة الربابنة نعهد بها إلى حسن قبودان ومحمد قبودان الطبوز أوغلو ومحمد قبودان أغا السفينة السابق وحسن قبودان الاستانكويلى ومحمد قبودان البدوى . وكانت الريح تهب من اتجاه غرب شمال غرب والقلوع منشورة فى وضع « براجيه بونطه » فاتخذنا طريقنا بواطه بحرية نحو جنوب غرب تماماً وناشرين قلوع (بابا فنفو) وما زلنا على هذه الحال حتى أصبح علينا الصباح ونحن على قيد ثلاثين ميلا من جزيرة كريد والسماء تمطر .

يوم الأحد فى ١٨ ربيع الأول سنة ١٢٤١

كانت الريح فى هذا اليوم شمالية تماماً فأخذنا طريقنا غرباً بشمال غربى بثلاث قطع من قلوع (غابيه) وفى منتصف الساعة الثالثة اشتدت الريح المصحوبة بالمطر فأحكمنا رباط الغابيات . وكان بعض السفن متفرقاً فأصدر حضرة الباشا القبودان إشارة إلى سفن الأميرالات يسألها : « كم عدد

سفن الأسطول اليوم ؟ فرد البك القبودان بإشارة قال فيها : « إنها مائة سفينة » وأشار البك البطرونة قائلا : « لم يمكن تحقيقها فلا أدرى لها عدداً . » ثم أصدر حضرة الباشا القبودان إشارة يقول : « يا أيتها السفن التى تحت الريح ، انشرى القلوع واقبلى حتى تخرجى إلى المياه سكانى ! » وفى هذه الأثناء وصلت سفينة التجار إلى مؤخرة سفينة « حسين قبودان البوزجه أطه لى » . وعند الساعة الثالثة انقطع المطر وطلعت الشمس . وبعد قليل اشتد هبوب الريح الشمالية الغربية فوردت من سفينة البك البطرونة إشارة أن : « يا أيتها السفن التى لم يمكنها الاندماج فى سربنا (فياو) ابذلى الآن قصاراك واندمجى فيه ! » وفى الساعة الرابعة أصدر حضرة الباشا القبودان إشارته إلى كل من البك القبودان والبك البطرونة يسألها : « هل مشية الوواطة هذه مناسبة ؟ » فأشار كلاهما يقول : « إنها مناسبة » وصارت الريح فى الساعة الخامسة شمالية صرفة فمشينا على وضع (تيره موله) وفى الساعة التاسعة أمطرت السماء وعصف الريح فربطنا صوارى بابافنفو على الأثر ولم تلبث السماء أن صفت حوالى الساعة العاشرة فوردت من سفينة حضرة الباشا القبودان إشارة أن : يا أيتها السفن المتخلفة انشرى الشراع وابذلى الغيرة واقبلى حتى تدركى ما تقدمك من السفن ! وأنتم ياسفائن التجار عليك كذلك بالهمة حتى تخرجى وتصيرى فوق الريح ! » وفى الساعة العاشرة عاد حضرة الباشا المشار إليه فأصدر إشارة أخرى إلى سفن التجار والقرصان (البوارج السريعة) أن : « انشرى الشراع وابذلى الغيرة لأنه لا بد من .. اجتماعنا كلنا فى مكان واحد فإيانا والتفرق» ، وتبعه البك البطرونة أيضا فوجه إشارة مثل إشارته . ولم تحل الساعة الحادية عشرة حتى أصدر حضرة الباشا إشارة ثالثة أن : « أضيئوا المصابيح ليلا فى مؤخرة سفنكم وراعوا بعضكم بعضاً عند معالجة الريح لئلا يصاب أحدكم بعطب ويا أيتها السفن التى تحت الريح شمرى عن سواعد الجد والغيرة وأنتم ياسفن التجار أقبلى كذلك ولا تتخلفى متأخرات ! » وأعقبه البك البطرونة مذيعاً إشارة مثل إشارته . وما زلنا سائرين على هذا النحو أى بواطة بحرية حتى أمسى المساء وكانت جزيرة كريد قد اختفت على الأنظار .

ليلة الإثنين :

في الساعة الثانية عشرة من هذه الليلة قرئ الآذان المحمدى ، فأقيمت الصلاة ، وأدى واجب الدعاء والثناء . وكانت الريح شمالية بغرب شمالى فاتخذنا طريقنا غرباً تماماً فى ثمانية قلوع . وفى منتصف الساعة الأولى أضأنا مصباح المؤخرة وبعد العشاء سلمت النوبة وفقاً للقواعد البحرية إلى « محمد قبودان الطبوز أوغلو » و « محمد قبودان » أغا السفينة السابق و « محمد قبودان البدوى » و « حسن قبودان الاستانكويلى » و « حسن قبودان البوزجة أطه لى » كما نظمت النوبة للضباط والملاحين الدائمين ولأغوات صاحب الدولة مولانا وأقيم الجنود الجهاديون ذوو البنادق على جوانب السفينة الأربعة) . وفى منتصف الساعة الثالثة سكنت الريح ففكت الحبال التى ربطت بالغابيات ونشرت قلوعها وأذيعت إشارة من سفينة حضرة الباشا القبودان أن : « احذروا أن تقتربوا من بعضكم كثيراً لئلا تتصادموا فيمسكم العطب ! » ولم يحدث حادث ما حتى انتصف الليل فاتخذت تدابير تغيير الحراسة وأنزل المنوبون المسائيون من محال خدمتهم وأقيم المنوبون الصباحيون كل فى المكان المخصص له على الوجه السابق ذكره فسلمت النوبة من الربابنة إلى : « السوارى حسن قبودان » و « إبراهيم قبودان الجيربى » و « الحاج مسعود قبودان » و « إبراهيم قبودان الكريدى » و « حسن قبودان الكريدى » . وفى الساعة العاشرة صدرت من سفينة حضرة الباشا القبودان إشارة تقول : « وجهوا إلى المراكب المتخلفة إشارة أن : « ابذلوا الغيرة وانشروا الشراع حتى لا تبقوا متأخرين وحتى تلحقوا المراكب التى تقدمتكم ! » . وما زلنا سائرين على هذه الصورة إلى أن « أصبح الصباح وقد اختفت شواطىء غوروس التابعة لكريد عن الأنظار بحيث لم يعد يرى شىء من أرضها .

يوم الإثنين فى ١٩ ربيع الأول سنة ١٢٤١

في صباح هذا اليوم كانت الريح شمالياً مع شمال غربى فسرنا فى اثنى عشر شراعاً نحو الغرب تماماً على سير وولطه بحرية حتى كانت الساعة

الثانية وقد سكنت الريح وإذا بسفينة (بريك) ترفع العلم النمسوى على سارية مقدمتها . فأشرنا إلى سليمان علمدار ربان سفينة الغولت أن : « اقترب منا » ثم ندبناه للذهاب إلى البريك النمسوية المذكورة فاتجه نحوها فى وضع (براجيه بويه) حتى إذا التقى بها وسألها لم يلبث أن اتخذ وضع (أورسه آلابنده) وأخبر بالإشارة قائلا : « إنها سفينة من سفن النمسا حمولتها الدقيق والارز والبقسماط وقد تسرب الماء إليها ! » وكانت الريح شديدة فوجه البلك البطرونة إشارة إلى محمد قبودان الاستانكويلى نادباً إياه لهذه المهمة فأعار محمد قبودان هذه السفينة التجارية ستة من البحارة لكسح مائها . وبعد ذلك انزلت السفينة العلم النمسوى من ساريتها الكبيرة . ثم إن سفينة حضرة الباشا القبودان أصدرت إشارة تقول : « لا بد لنا جميعاً من الاجتماع فى مكان واحد فحذار حذار من التفرق ! ويا أيتها السفن المتخلفة لا بد لك على كل حال من نشر الشراع وبذل الهمة والغيرة ! » ثم إننا اقتربنا من سفينة البلك البطرونة فسأل البلك البطرونة القبودان الربان : « لماذا ربطت سفينة التجار وشدت إلى مؤخرة قرويت « حسين قبودان البوزجه أطه لى » ؟ أهى مصابة بعطب ؟ » فرد عليه القبودان الربان قائلا : «لا شئ فيها ، وإنما عرضت لها حاجة استوجبت ربطها ريثما تقضيها . » وبعد ذلك دنت منا سفينة بريك من سفن النيران فقالت وهى تمر من جانبنا : « لم يبق لدى شىء من البقسماط ولا الماء ، » فأمرتها سفينتنا أن شمرى عن ساق الغيرة وسيرى حتى تصلى إلى « مطوش قبودان » يعطلك البقسماط والماء ، » إلا أن هذه السفينة لم تستطع اللحاق بمطوش قبودان » بل التحقت « بسليمان علمدار » ربان الغولت فقدم إليها ما هى طالبة . وفى الساعة السادسة صدرت من سفينة حضرة الباشا القبودان إشارة إلى كل من البلك الريالة (الأميرال الثانى) والبلك البطرونة يسألها : « أمناسب أن نسير على وضع أورسه آلابندد تيره مولا ؟ » ثم صدرت من سفينة حضرة الباشا القبودان إشارة أن : « كونوا فى وضع أورسه آلابنده تيرا مولا ! » ففعلنا ذلك وكان طريقنا فى اتجاه جزيرة « كريد » فلما بلغت الساعة التاسعة وجه البلك البطرونة إشارة يقول : « لنحافظ على حالتنا هذه حتى نصف الايل ثم نتخذ وضع أورسه آلابنده تيره مولا ! » اقترب منا « سليمان العلمدار »

ربان الغولت فقال : « لقد ذهبت إلى سفينة البريك النمسوية التى ندبتمونى لإسعافها . فعلمت أن الماء يتسرب إليها بمعدل ثمانية بورغاطه فى الساعة . وحمولة السفينة المذكورة هى الدقيق والبقسماط والجلد . وأن « محمد قبودان الاستانكويلى » قد ترك لها ستة رجال . وبعد ذلك أصدر حضرة الباشا القبودان إلى سفينة البك البطرونة إشارة يقول : « لا ينفصل أحد منا عن الآخر ! » وما زلنا على هذه الحال حتى أمسى المساء وكنا متجهين نحو الشمال شمال شرق فى وولطة بحرية لجزيرة كريد ولم نكن نرى لابر والشاطىء أثراً .

ليلة الثلاثاء :

فى الساعة الثانية عشرة من هذه الليلة أذن الأذان المحمدى فأقيمت الصلاة وأدى واجب الدعاء والثناء . وكانت الريح من اتجاه شمال غرب فاتخذنا طريقنا فى اتجاه شمال شمال شرق فى عشرة قلوع . وفى منتصف الساعة الأولى أضأنا مصابيح المؤخرة . وعند الساعة الأولى صدرت من سفينة حضرة الباشا القبودان إشارة أن : « ابذلو الغيرة وانشروا الشراع لئلا تتخلفوا ! » وتبعه البك البطرونة فأذاع إشارة مثل إشارته . وبعد العشاء سلمت نوبة الربابنة وفقا للقواعد البحرية إلى الربان « حسن قبودان » و « الحاج مسعود قبودان » و « إبراهيم قبودان الجيربى » و « حسن قبودان الكريدى » و « إبراهيم قبودان الكريدى » فى حين انتظم الضباط وجنود البحر الدائمون فى نوباتهم وعينت النوبة لأغوات صاحب الدولة مولانا البك وأقيم جنود جهاديون من ذوى البنادق على جوانب سفينتنا الأربعة . وفى الساعة الخامسة اتخذنا وضع (ترنكت مايستره قنديلجه) لكى يتسنى للسفن المتخلفة أن تدركنا وما زلنا على هذه الحال حتى نصف الليل إذ اتخذت تدابير تغيير الحراسة ، فبدل فريق المنوبين المسائيين الذين أدوا خدمتهم وقام مقامهم فريق الصباحيين كل فى مكان المخصص له على الوجه السابق ذكره كما سلمت نوبة الربابنة إلى « محمد قبودان الطبوزأوغلو » و « محمد قبودان » أغا السفينة السابق و « محمد قبودان البدوى » و « حسن قبودان الاستانكويلى » و « حسن قبودان البوزجه أطه لى ») ثم صدرت الإشارة

من سفينة حضرة الباشا القبودان أن : « كونوا فى وضع اورسه الابنده تيره مولا » ، فرددتها سفينة البك البطرونة ورفعت سفينتنا المصباح الذى معناه « فهمت » ولما كانت الريح شمالياً غربياً فقد سرنا فى تهادى البحر نحو غرب جنوب غرب فى وولطه بحرية حتى إذا سكنت الريح نشرنا قلوع (بابافنفو) ثم أصبح علينا الصباح ونحن على مسافة من جزيرة « كريد »

يوم الثلاثاء ٢٠ ربيع الأول سنة ١٢٤١

فى هذا اليوم كانت الريح شمالية غربية صرفاً فبينا نسير نحو غرب جنوب غرب إذ هبت عاصفة مصحوبة بمطر فأنزلنا على أثرها الغابيات وربطناها وأحكمنا رباطها . على أن هذه العاصفة لم تلبث إلا نصف ساعة حتى هدأت ثائرتها فاتخذنا وضع (ترنكت مايستره آموره) وأصدرت سفينة حضرة الباشا القبودان إشارة أن : « ابذلوا الغيرة وانشروا الشراع لئلا تتأخروا ! » وتبعه البك البطرونة فعمل على إذاعة هذه الإشارة على الجميع ووجدنا فى الساعة السادسة أن عدة سفن قد بقيت تحت الريح فوجهت سفينتنا إلى حضرة الباشا القبودان إشارة تسأله : « هل ترون من المناسب أن نبعث إلى السفن المتخلفة سفناً تشدها ؟ » فرد علينا الباشا المشار إليه بإشارة يقول : « نعم هذا مناسب » . فما كدنا نتلقى جوابه حتى أخذنا وضع (أورسه آلابنده) وجهنا الإشارة إلى ربان قرويت جناح بحرى وإلى « الغلطة لى » ربان البريك ، وإلى « محمد قبودان الاستانكويلى » و « أحمد قبودان البوزجه أطه لى » و « عبد الرحمن قبودان » ربان الفولت وإلى « حافظ قبودان البودرملى » ربان البريك وإلى ... « القبودان محمود بدر » وإلى « تفران » ربان البريك وإلى « مطوش قبودان طالبين إليهم أن يمروا كلهم من جانبنا بحيث يسمعون حديثنا فلما علموا ذلك قلنا لهم « ما نحسب السفن المختلفة إلا من سفن تجار الإفرنج فابذلوا غيرتكم حتى تصلوا إليها فتربطوها وتشدوها إلى مؤخرتكم ! » فقال مطوش قبودان ؛ لقد عطبت المواعين فى قصعة (جناقلق) صارى جراندى بسفينتى » فقالا له : « لا تكن أنت من الذاهبين » . وراح الآخرون فى وضع (براجيه بويه) حتى ربطوا .. سفائن التجار وشدوها ، وانتظاراً لوصول هذه السفن وقفت سفينة حضرة الباشا

القبودان فى وضع أورسه آلابنده وفعل مثلها سائر السفن . وفى الساعة الثامنة مرت من جانب الغرب عاصفة ممطرة لم تلبث أن زالت على الأثر . وحينئذ رفعت إحدى سفن الإفرنج راية على ساريتها الرئيسية وأشارت إشارة تنبئ عن إصابتها بالعطب فوجهنا إشارة إلى حافظ قبودان «» ربان البريك أن : « ادن منا » فلما جاء أمرناه قائلين : « هناك سفينة بريك نمسوية بقيت تحت الريح وقد رفعت رايتها على ساريتها الرئيسية فاذهب إليها واسألها هل أصيبت بعطب أم هى محتاجة إلى شىء ؟ فإن طلبت شيئاً .. فقدمه إليها ثم أرجع إلينا بنبأها ، بادر إلى شراعك وعجل فان المساء قد أزف ! » فما كاد يتلقى الأمر حتى نشر قلوع (بابافنفو) وانطلق إليها . وبعد ذلك جاءتنا سفينة التجار منبئة بأن حضرة الباشا القبودان يسلم على مولانا الباك ويقول له : لنستأنف المسير رويداً ناشراً كل منا ثلاثة قلوع من (غابيه) فإن السفن المتخلفة لا تلبث أن تدركنا » . فما كدنا نتخذ وضع (براجيه بويه) ونسير كما أمرنا حتى نادت سفينة التجار قائلة أن : « شدونى إلى المؤخرة لأقضى حاجة عرضت لى ! » فوقفنا أورسه آلابنده حتى تسنى ربط السفينة التجارية إلى المؤخرة . وحينئذ اقتربت سفن التجار منا بعض الشىء فأقلعنا (براجيه فوده) ثانية . وأردنا أن نأخذ الريح فوقنا فبعثنا إشارة إلى حضرة الباشا القبودان نسأله : « هل من المناسب أن نسير فى وضع برجا آلابنده تير مولا لنأخذ سفن التجار تحتنا ؟ » فرد الباشا بإشارة يقول « اقصدوا الشراع وقللوه ولنسر حتى الصباح هكذا بشراع قليل » ! وكذلك سرنا على هذا الحال حتى أمسى علينا المساء ونحن تحت الريح بالنسبة إلى « غرانبوس » .

ليلة الأربعاء :

فى هذه الليلة أذن الأذان المحمدى فى الساعة الثانية عشرة فأقيمت الصلاة وأدى واجب الدعاء والثناء وانتصفت الساعة الأولى ونحن فى وضع أورسة آلابنده فأضأنا مصباح المؤخرة وفى منتصف الساعة الثانية صارت الريح شمالية صرفت فدنت المراكب المتخلفة بعض الشىء . وعند العشاء أقلعنا .. (براجيه فوره) صوب جزيرء « المورة » متخذين طريقنا فى

إتجاه الشمال الغربي تماماً وناشرين قلوع (بابافنفو) ، (وقد سلمت نوبة الربابنة إلى « محمد قبودان الطبوزأوغلو » و « محمد قبودان » أغا السفينة السابق و « محمد قبودان البدوى » و « حسن قبودان الاستانكويلى » و « حسن قبودان البوزجه أطه لى » كما نظمت نوبة الضباط وجنود البحر الدائمين وعين أغوات صاحب الدولة مولانا البك فى نوباتهم وأقيم الجنود الجهاديون المسلحون بالبنادق على جوانب سفينتنا الأربعة) . ثم صارت الريح غرب جنوب غرب وكانت المربعات فى وضع (براجيه بونطه) تسوقها ريح من شمال غرب فتحولنا إلى وضع أورسه ومشينا على هذه الحال حتى نصف الليل وعندئذ اتخذت التدابير لتغيير الحراسة فأنزل الحراس المسائيون وأقيم فى مكانهم الحراس الصباحيون بحيث انتظم كل منهم فى المحل المخصص له على الوجه السابق وكذلك سلمت نوبة الربابنة إلى السوارى « حسن قبودان » و « الحاج مسعود قبودان » و « إبراهيم قبودان الجيربى » و « حسن قبودان الكريدى » و « إبراهيم قبودان » ؛ وبعد ذلك اتخذنا وضع (أورسه آلابنده) حتى الصباح . ونظراً إلى اقتراب بعض السفن التى كانت تحت لريح فإننا قد اتخذنا وضع (براجيه فوره) حتى أصبح علينا الصباح ونحن على قيد ... ثلاثين ميلا من رأس « غرانبوس » .

يوم الأربعاء ٢١ ربيع الأول سنة ١٢٤١

كانت الريح فى هذا اليوم شمالية غربية صرفة فاتخذنا طريقنا غرباً بجنوب غرب . وكانت سفن التجار قد نقصت ستا وعشرين سفينة ؛ فأصدر ... حضرة الباشا القبودان إشارة إلى البك القبودان يسأله : « كم أحصيتم من السفن اليوم ؟ » فرد البك القبودان الإشارة قائلا : « فى السفن نقص مقداره ست وعشرون سفينة » . فلما كانت الساعة الثالثة وقفنا فى وضع (أورسه آلابنده) فى انتظار السفن الست والعشرون المذكورة ، وكانت الشقة بينها وبيننا بعيدة فلبثنا فى وقفتنا هذه حتى إذا حلت الساعة السادسة أصدر حضرة الباشا القبودان إشارة إلى البك البطرونه يسأله : « أمناسب أن نكون فى وضع أورسه آلابنده تيرا مولا ؟ » فرد البك البطرونة بإشارة يقول له : « أجل مناسب » . وحينئذ أذاع حضرة الباشا القبودان إشارة أن :

« اتخذوا وضع أورسه آلابنده تيرامولا ! » ورفعت سفينتنا الراية التى معناها « فهمت » ونفذت الأمر . ونظراً إلى هبوب الريح .. من الشمال الغربى قد اتخذنا طريقنا فى اتجاه شمال شمال شرق بوواطه كريد . على أننا ما لبثنا أن بعثنا إشارة إلى حضرة الباشا القبودان نسأله : « ما هو التدبير المناسب الذى ينبغى علينا اتخاذه لأجل السفن التى بقيت تحت الريح ؟ » فلم يكن من الباشا المشار إليه إلا أن اتخذ وضع أورسه آلابنده فى حين جاء البك البطرونة إلى سفينتنا وجاءت على أثره إشارة من حضرة الباشا القبودان تدعوه للذهاب إليه ؛ فوجهنا إشارة بطلب سفينة التجار فلما أتت إلينا انتقل البك البطرونة من سفينتنا مستقلا سفينة التجار ، وقاصداً إلى حضرة الباشا القبودان . وفى الساعة الثامنة أذاع حضرة ... الباشا القبودان إشارة قال : لتقصر السفن المتقدمة شراعها وتقلله : ويا أيتها السفن المتخلفة انشرى القلوع وانطلقى فى طريقك غير مقيدة بحركة .. القائد العام « — السر عسكر ، الرائد) » وعند الساعة العاشرة أصدر إشارة يقول : « السفن المتقدمة أيضاً لا ينبغى لها أن تتفرق ! » ثم أصدر إشارة أخرى أن : يا أيتها السفن المتقدمة قفى فى وضع أورسه آلابنده وانتظرى ! » وبينا نحن على هذا الحال إذ رأينا سفن التجار التى كانت تحت الريح تزدلف إلينا بعض الشىء . وقد أمسى علينا المساء ونحن فى عرض البحر على مسافة من « غرانبوس » .

ليلة الخميس :

فى الساعة الثانية عشرة من هذه الليلة أذن آذان المغرب فأقيمت الصلاة وأدى واجب الدعاء والثناء . وكانت الريح شمالية غربية صرفة وكنا على وضع (براجيه فوره) سائرين فى اتجاه شمال شمال شرق . ووجه البك البطرونة إشارة إلى السفن التى معه قائلا لها : « تعالى إلى ماء سكانى وادخلى فى السرب » . وفى منتصف الساعة الأولى أضأنا مصباح المؤخرة ؛ وبعد العشاء سلمت النوبة بمقتضى القواعد البحرية إلى « محمد قبودان الطبوز أوغلو » ، و« محمد قبودان » أغا السفينة السابق و « محمد قبودان البدوى » و « حسن قبودان ... الاستانكويلى » و « خليل قبودان الأدركونلى »

كما نظمت نوبة الضباط وجنود البحر الدائمين وعين أغوات مولانا البك صاحب الدولة فى نوباتهم وأقيم الجنود الجهاديون ذوو البنادق على جوانب سفينتنا الأربعة . ولما انتصف الليل اتخذت تدابير تغيير الحراسة فأنزل المنوبون المسائيون واستبدل بهم منوبون صباحيون انتظم كل منهم فى المحل المخصص له على الوجه السابق الذكر وسلمت النوبة الربابنة السوارى « حسن قبودان » و « الحاج مسعود قبودان » و « إبراهيم قبودان الجيربى » و « إبراهيم قبودان الكريدى » و « حسن قبودان الكريدى » وفى هذه الساعة هبت من الغرب عاصفة فجائية وبينما كنا نتحول إلى وضع ... (ترنكت مايستره قنديلجه) انعقد طرف حبل المايستره فقطعناه على الفور ... بالسكين . وانقضت العاصفة بعد ما لبثت نصف ساعة . وحينئذ أصدر حضرة الباشا القبودان إشارة أن : « يا أيتها السفن المتخلفة ، انشرى الشراع ولا تتأخرى » . وعادت العاصفة فى الساعة العاشرة مصحوبة بمطر إلا أنها لم تكد تهب حتى مرت وفاتت . وفى منتصف الساعه الحادية عشر أصدر حضرة الباشا القبودان إشارة يقول : « لا بد أن نجتمع كلنا فى بقعة واحدة فإياكم أن تتفرقوا » ، ولم أصبح الصباح كنا بين جزيرة « جوقه الكبرى » وجزيرة « جوقه الصغرى » .

يوم الخميس ٢٢ ربيع الأول سنة ١٢٤١

كانت الريح فى هذا اليوم غربية ومعاكسة،فاتخذنا طريقنا فى اتجاه شمال شمال غرب. وكانت الباقية تحت الريح قد طلع فريق منها فوق الريح ، وظل الفريق الآخر متخلفاً تحت الريح . فأصدر حضرة الباشا القبودان إشارة أن : « يا أيتها السفن التى تحت الريح ! انشرى الشراع وشمرى عن سواعد الغيرة واطلعى فوق الريح ! » وعند الساعة الثالثة تراءى فى الأفق « رأس مانية » فى جزيرة « المورة » ؛ فتريثنا فى المسير بعض الشيء (مزه ناوه) حتى صرنا على مقربة من السفن التى كانت تحت الريح . ورأينا عدة سفن من سفن القرصان تقطر سفن التجار فوجهت سفينتنا إليهم إشارة أن : « ابذلوا الغيرة وانشروا الشراع واطلعوا متقدمين إلى مياه الأسطول ! » فى حين ... استدرنا أورسة متخذين طريقنا نحو « مانية » ، وفى هذا الوقت

هبت علينا من الغرب عاصفة مخالفة مصحوبة بالمطر إلا أنها لم تكد تغشانا حتى مرت وذهبت على الأثر . وعند ذلك أصدر حضرة الباشا القبودان إشارة قال : لا بد لنا أن نجتمع كلنا فى مكان واحد فلا تتفرقوا وعليكم بالدقة والاهتمام » ! وما وافت الساعة السادسة حتى صحا الجو ففككنا أربطة الغابيات . ولكن لم نلبث أن غشيتنا عاصفة ممطرة أخرى استمرت ربع ساعة ثم انقشعت وزالت فنشرنا قلوع (بابافنفو) . وبعد ذلك جاءت قرويت جناح بحرى وكان ... مشدوداً إلى مؤخرتها سفينة من سفن التجار هى سفينة البريك التى يقودها القبودان « حسن جرجر » . فلما أقتربت قرويت جناح بحرى منا أشارت قائلة : « إن السفينة البريك التى أقطرها مصابة بعطب » . فرددنا عليها بالإشارة من سفينتنا سائلين ، « وما هو العطب » ؟ فأشارات مجيبة : « لقد عطبت قمة ساريتها (جبواديرة) وعود بروه بابافنفونها » . فزودناها بإشارة فحواها : « ابذلى غيرتك » وفى الساعة الثامنة اتخذنا وضع أورسه آلابندة تيرامولا . وكان الحبل الغليظ الذى يجر سفينة التجار المعطوبة بنا ضعيفاً فأمرنا بحبل غليظ غيره فأدلى به إليها وبذلك وثقت رباطها بسفينتنا وبعد ذلك رأينا فوق الريح سفينتى بريك من سفن التجار النمسويين فى وضع وولطه — فبينا تسير يميناً ويساراً (وولطه بحرية) إذ تفقدهما البك الريالة ثم وجه إشارة قال فيها : إنهما سفينتان ركاب من سفن التجار الإفرنج » ولم يحدث بعد ذلك شيء يذكر حتى أمسى المساء ونحن فوق جزيرة « جوقه الكبرى » .

ليلة الجمعة :

فى الساعة الثانية عشرة من هذه الليلة أذن الآذان المحمدى فأقيمت الصلاة وأدى واجب الدعاء والثناء . وكانت الريح غربية صرفة فاتخذنا طريقنا فى وضع وولطة نحو جنوب غرب فى ثلاث قطع غابية وثلاث من بابافنفو وثلاث ايفورى باربانى . وفى منتصف الساعة الأولى أضأنا مصباح المؤخرة . وعند الساعة الأولى أذيعت من سفينة البك البطرونة إشارة تقول : « يا أيتها السفن المتخلفة ، انشرى الشراع وابذلى الغيرة وأدركى السفن التى تقدمتك ! » . ولم يحدث شيء حتى نصف الليل فاتخذت تدابير تبديل

الحراسة فسلمت النوبة إلى « محمد قبودان الطبوز أوغلو » و « محمد قبودان » أغا السفينة السابق » و « محمد قبودان البدوى » . وفى منتصف الساعة التاسعة أصدر حضرة الباشا القبودان إشارة يقول : « لنكن فى وضع أورسه آلابنده تيرا مولا ! » على أن سفينتنا قد اتخذت شكل بوجا آلابنده تيرا مولا مراعاة لسفينة التجار التى خشيت عليها العطب وهى مشدودة إلى مؤخرتها . وعادت سفينة حضرة الباشا فأصدرت إشارة أخرى أن : « يا أيتها السفن المتخلفة ، انشرى الشراع وشمرى عن ساق الغيرة حتى تدركى القائد العام ! » وبعد ذلك نشرنا قلوع (بابافنفو) وأصبح علينا الصباح فى عرض البحر على قيد أربعين ميلا من جزيرة « جوقه » .

يوم الجمعة ٢٣ ربيع الأول سنة ١٢٤١

فى صباح هذا اليوم كانت طائفة من السفن وراءنا وكانت طائفة أخرى تحت الريح فصدرت من حضرة الباشا القبودان إشارة معناها : « يا أيتها السفن المتخلفة والسفن التى تحت الريح ، انشرى شراعك وابذلى غيرتك والتحقى بالقائد العام » . ولما سكنت الريح بعد ذلك صدرت إشارة أخرى من حضرته أن : « ليعتمد كل منكم إلى حل ثلاثة أربطة من الغابيات ولتنشروا بابافنفو القنطرة ، ويا سفائن التجار انشرى الشراع وابذلى الغيرة حتى تدركى القائد العام » . وبعد ذلك طلب صاحب الدولة مولانا البك « عبد الرحمن قبودان » ربان الغولت . ولكن هذه الغولت كانت تقطر إحدى سفن التجار فظلت بعيدة متخلفة ، ولذلك وجهت إليها إشارة : « دعى سفينة التجار المشدودة إلى مؤخرتك وأقبلى إلى جانب القائد العام ، إلا أنها لبعدها لم تفهم الإشارة . فخاطبت الغولت التى تديرها « سليمان علمدار » بإشارة نادباً إياه لهذه المهمة وقائلا له : « نادى » عبد الرحمن قبودان » بالإشارة ! » فانطلق فى وضع براجيه فوره الفولت التى ندبت لتبليغها . وبعد ذلك وقف حضرة الباشا القبودان فى وضع أورسه آلابنده وأعطى إشارة قائلا : « يا أيتها السفن المتخلفة انشرى انشراع وابذلى الغيرة ، والحقى بالقائد العام ! » . ففعلنا ذلك تبعا لسفينة الباشا الذى لم يلبث أن أصدر إشارة أخرى قائلا : يا سفن القرصان ويا أيتها السفن المتخلفة انشرى الشراع وابذلى الغيرة وجدى

السير لتلحق بالسفن الأمامية ! » ، و « يا أيتها السفن المؤلفة لجماعتى والتابعة لسربى تعالى إلى ماء سكانى ، وانتظمى فى السرب » ! ورددت سفينتنا ذلك بإشارة منها تقول : « يا أيتها السفن المؤلفة لجماعتى والتابعة لسربى تعالى إلى ماء سكانى وادخلى فى السرب ! » ثم وردت إلينا من سفينة البك البطرونة إشارة تقول : « تنحى أنت إلى اليمين قليلا وتعالى إلى ماء سكانى لتدخلى فى السرب ! » فرفعت سفينتنا الراية التى معناها « فهمت » وفى الوقت نفسه انعطفت قليلا إلى اليمين والتحقت وجاءت والتحقت بسربه ، وبعد ذلك دنت منا السفن المتخلفة قليلا وكنا فى وضع براجيه فوره ... فانطلقنا حتى صرنا على مقربة من سفينة حضرة الباشا القبودان وعندئذ ربطنا قلوع بابافنفو فى القنطرة . وكانت الريح غرب جنوب غرب فاتخذنا طريقنا نحو الشمال غرب شمال . وإذا كانت الريح قد سكنت فى الساعة الثامنة فان هذا السكون قد تلاه مطر مصحوب بريح عاصف من الغرب ولكن لم نلبث إلا قليلا حتى صحا الجو . وفى الساعة التاسعة أصدر الباشا القبودان إشارة أن : « يا سفن التجار ويا سفن القرصان !ابذلى الغيرة وانشرى الشراع لتلحقى بقائدك ! » فنشرنا قلوع بابافنفو للقنطرة ثم أصدر الباشا أمير البحار إشارة أخرى يقول :« يا أيتها المراكب التابعة لسربى ! تعالى إلى ماء سكانى وادخلى فى السرب ! » وتلاه البك البطرونة فردد إشارته بإذاعة إشارة مثلها . وهكذا نظم كل ذى سرب سربه وواصلنا المسير نحو شمال الغربى ميممين شطر جزيرة « المورة » . وبعد ذلك أصدر حضرة الباشا القبودان إشارة يقول : « ابذلوا الغيرة وانشروا الشراع لكيلا تتأخروا . وليراع كل منكم أخاه حين تتفادون الرياح فى غسق الليل . وإياكم أن تتخلفوا . واحذروا ... أن يعطب بعضكم بعضاً . ولا يفوتكم أن تضيئوا مصابيح المؤخرة ليلا ! » وبعد ذلك أعملت سفينتنا المضخة فى الماء الذى تراكم فى جوفها حتى أخرجته ونبذته . وأمسى علينا المساء وقد بقى خمسون ميلا على جزيرة « المورة » .

ليلة السبت :

فى الساعة الثانية عشرة من هذه الليلة أذن الآذان المحمدى فأقيمت الصلاة وأدى واجب الدعاء والثناء . وكانت الريح من اتجاه جنوب غرب

فاستأنفنا طريقنا نحو غرب شمال غرب . وفى منتصف الساعة الأولى أضأنا مصباح... المؤخرة . ورأينا الريح مواتية فى الساعة الأولى ، فنشرنا القلاع كلها . وبعد ... العشاء سلمت النوبة بحسب القواعد البحرية إلى السوارى « حسن القبودان » و « الحاج مسعود قبودان » و « إبراهيم قبودان الجيربى » و « حسن قبودان الكريدى » و « إبراهيم قبودان الكريدى » فى حين نظم للضباط والبحارين الدائمين ما عهد به إليهم من الخدمات وعينت لأغوات مولانا صاحب الدولة نوبات ... حراستهم وأقيم على جوانب سفينتنا الأربعة عساكر جهاديون يحملون البنادق . وصار الظلام دامساً فأصدر حضرة الباشا القبودان فى الساعة الرابعة إشارة قال فيها : « ليشرع كل منكم المصباح الخاص لينبئ باسمه ويبين عن نفسه ! ويا أيتها السفن التى تحت الريح من أنتم ؟ سارعوا إلى تعليق المصابيح الخاصة باسمكم إعلاماً بأمركم ! » فرفعت سفينتنا المصابيح الخاصة باسمها . وكانت طائفة من السفن وراءنا بمسافة بعيدة فأصدر إليها حضرة الباشا القبودان إشارة أن : « يا أيتها السفن المتخلفة ! انشرى الشراع وابذلى الغيرة حتى تلحقى بالقائد العام ! وأنت يا أيتها السفن التى تحت الريح انشرى القلاع ، أو اطلعى إلى مياه الأسطول ! » وسرنا على هذه الحال حتى نصف الليل إذ اتخذت تدابير تبديل الحراسة فنحى المنوبون المسائيون ونظمت للصباحيين نوباتهم بحيث شغل كل منهم المحل المخصص له على الوجه المذكور بعاليه ، كما عهد بنوبة الربابنة إلى « محمد قبودان الطوبوز أوغلو » وأغا السفينة السابقة و « محمد قبودان البدوى » و « خليل قبودان الأركونلى » وفى الساعة السابعة كانت جزيرة المورة أمامنا على قيد خمسة وعشرين ميلا فاتخذنا وضع ... (ترنكت مايستره قندياجه) وعند منتصف الساعة الثامنة أصدر حضرة الباشا القبودان إشارة قال : ليشرع كل منكم المصباح الخاص باسم سفينته فعلقت جميع السفن وفى جملتها سفينتنا المصابيح الخاصة بأسمائها . وكانت الريح شديدة فاتخذنا وضع قنطرة ميزاته براجيه فاجه لئلا نجاوز ميناء ... « أوارين » ووقف حضرة الباشا القبودان فى وضع أورسة آلابندة حيث كان أمامنا فوق الريح وكذلك التحق من السفن كل ما كان متأخراً . وأصبح علينا الصباح وقد بقى لنا على جزر « موطون » عشرة أميال » .

يوم السبت ٢٤ ربيع الأول سنة ١٢٤١

فى صباح اليوم المذكور أقلع حضرة الباشا القبودان أمامنا فى وضع براجيه فورة ، واتخذنا جميعاً طريقنا نحو ميناء « أوارين » فلما دنونا من الميناء شرعنا الأعلام ونشرنا قلوع (باباففو) وأقمنا التجهيزات بعناية فى الجانب الأيمن من السفينة . ثم أصدر حضرة الباشا القبودان إشارة يقول : « تأهبوا لإلقاء المراسى فسنرسو فى ميناء « أوارين » ! ولترونى هممكم ، وليكن رسوكم مقروناً بالاتزان وليراع كل منكم مصلحة أخيه عند إلقاء مراسيه تفادياً للعطب واتقاء للتصدع ، ولا يتقحم بعضكم بعضاً لئلا تصدموا ! » . وفى منتصف الساعة ... السادسة دخلنا من ميناء « أوارين » فاطلقت كل سفينة مدفعاً واحداً تحية رسمية لحضرة « دلكى بابا » (لعله ضريح ولى أو شهيد : المترجم) . وكان حضرة صاحب الدولة مولانا إبراهيم باشا بقلعة « آوارين » فجاء إلى سفينتنا « حسن قبودان البوزجه أطه لى « رئيس الميناء مبشراً صاحب الدولة مولانا البك بذلك . وفى الساعة السادسة ربطت جميع القلوع ورسونا من الميناء المذكور فى بقعة عمقها ست وعشرون قامة ، وقد رفعنا علم جبوا ديره .(؟) وخرجت الزوارق الكبرى من جوف السفن فوضعت فيها أوعية الماء وأرسلت للإتيان به . ثم أن صاحب الدولة مولانا البك ركب الزورق الصغير وذهب إلى حضرة أمير البحار وما هو إلا نصف ساعة حتى شرف حضرته سفينتنا بعودته ؛ وطلب « بلال أغا » فبعثنا زورقا إلى الفرقاطة « ثريا » ليأتى به . وعند الساعة السابعة ركب صاحب الدولة مولانا البك الزورق الصغير قاصداً إلى قلعة « أوارين » حيث تلاقى وصاحب الدولة مولانا إبراهيم باشا . ثم توارد على سفينتنا ... ربابنة السفن المصرية أجمعون فعلمنا منهم أن سفينة من سفن البريك النمسوية التابعة للتجار الإفرنج قد وجد بداخلها ماء . وكانت حمولتها دقيقا فخشينا أن يتلف الماء الدقيق ولذلك أبقينا ربانها فيها وأمددناه بثمانية أنفار برين ليكسحوا له الماء . وبعد ذلك ولجت السفن كلها فى الميناء حيث التقت مراسيها واستقرت . فتبين لنا أن سفينة من سفن التجار الإفرنج وسفينة من سفن التجار المسلمين وبارجة مزة قرصان وهى سفينة البريك التى يقودها القبودان « الحاج على معروف » ومركبا من قاذفات النيران هى

الشخطور الذى يقوده أخو « محمد قبودان الطوبوز أوغلو » وتبين لنا أن هذه الفلك لم تصل إلى الميناء ولذلك سألنا الأسطول بأسره : « أين هى » ؟ فرد بعضهم قائلين : « رأينا الشخطور قاذف النيران تحت جزيرة جوقه » وقال بعضهم : « بل ذهبت إلى صوره ؛ وقد رأينا « الحاج معروف » على سفينة البريك الأفرنجية قبل يومين لكننا لا ندرى اليوم أين هو ؟ » . ثم عمدنا إلى الماء المتراكم فى قعر سفينتنا فأعملنا فيه المضخة حتى لفظناه خارجا . وفى الساعة العاشرة ... أصدر حضرة الباشا القبودان إشارة يقول : « على كل فرقاطة أن تركب فى أحد زوارقها رباناً توفده إلينا . ولما غربت الشمس انزلت الأعلام . وكنا حتى الغروب قد جاءتنا الزوارق بحمولتين من الماء العذب فنقلنا أوعية الماء إلى جوف السفينة ولم يقع يومئذ حادث غير ما تقدم ذكره .

ليلة الأحد :

فى الساعة الثانية عشرة من الليلة المذكورة أذن الآذان المحمدى فأقيمت الصلاة وأدى واجب الدعاء والثناء . ثم أرسل الزورق الكبير يقل جنوداً مسلحين إلى مدخل البوغاز ليتولى الحراسة . وبعد العشاء نظمت النوبة للربابنة الملازمين وللضباط والبحارين الدائمين ؛ كما أقيم على جوانب سفينتنا الأربعة جنود بحريون وجنود جهاديون يتناوبون الحراسة ساعة ساعة وهم مسلحون بالبنادق فمنهم من وضع فى الناحية اليمنى من السفينة ومنهم من وضع فى الناحية اليسرى ومنهم من وضع فى المقدمة والمؤخرة . ومضى نصف الليل الأول ولم يحدث حادث فاتخذت تدابير تغيير المناوبة وأنزل المنوبون القائمون منذ المساء واستبدل بهم غيرهم فأخذ كل منهم كذلك المحل المخصص له حتى أصبح الصباح ولم يحدث حادث يستحق الذكر .

يوم الأحد ٢٥ ربيع الأول سنة ١٢٤١

فى مطلع شمس هذا اليوم شرعت الأعلام وشحنت الزوارق الكبرى بأوعية الماء ثم أنفذت لتأتى به . وغدا ربابنا « حسن قبودان » قاصداً إلى عتبات مولانا صاحب الدولة إبراهيم باشا . وعند الساعة السادسة دعا حسن

قبودان قائد « كريد » العام حضرة الباشا القبودان للخروج فخرج الباشا المشار إليه ، ... والتقى بصاحب الدولة مولانا إبراهيم باشا ؛ ثم عاد فى المساء الساعة الثامنة فجاء إلى سفينته . ولم يحدث حتى المساء حادث يستحق الذكر سوى أن الزوارق السالفة الذكر قد جاءتنا بأربعة حمولات من الماء العذب فأخذت أوعية الماء واختزنت فى جوف السفينة .

ليلة الأثنين :

فى الساعة الثانية عشرة من الليلة المذكورة أذن الآذان المحمدى وأدى واجب الدعاء والثناء فأنفذ الزورق الكبير موسوقاً بالجنود المسلحين إلى مدخل ... المضيق ليتولى الحراسة . وبعد العشاء قلدت النوبة رسمياً لثلاثة ربابنة من الملازمين البحريين ونظمت مناوبات الضباط وجنود البحر الدائمين وأقيم على جوانب سفينتنا الأربعة جنود بحريون وجهاديون يتولون النوبة ساعة ساعة . وانقضى النصف الأول من الليل ولما يحدث شىء ؛ فاتخذت تدابير تغيير الحراسة وأنزل الأنفار المرتبون من المساء بعد ما أدوا الخدمات المعهود بها إليهم وأقيم بدلا منهم أنفار صباحيون احتل كل منهم المكان الخاص به وأصبح الصباح دون أن يحدث حادث يستحق الذكر .

يوم الإثنين ٢٦ ربيع الأول سنة ١٢٤١

بادرنا عند طلوع الشمس هذا اليوم إلى الأعلام فنشرناها وإلى الزورق الكبير فشحناه بأوعية الماء العذب وأرسلناه ، وإلى سفينتنا فأعملنا فيها المضخة حتى نظفنا كل جانب من جوانبها الأربعة وطهرنا عالى سطوحها ومربض مدافعها . وفى الساعة الرابعة تفضل مولانا صاحب الدولة إبراهيم باشا ومعه صاحب الدولة مولانا البك و « حيسين بك » قائد « كريد » العام وباشا « موطون » فشرف بزيارته حضرة الباشا القبودان ثم تفضل حضرة الباشا المشار إليه فى الساعة الثامنة فشرف سفينتنا ومعه مولانا البك وباشا « موطون » و « حسين بك » قائد « كريد » العام وما لبث البك القبودان أن جاء هو الآخر إلى سفينتنا . وعند الساعة التاسعة أنفذ حضرة الباشا القبودان سفينة من طراز الغولت لتقوم بالحراسة فوجهت سفينتنا إشارة إلى سليمان علمدار

معنية الغولت التى يديرها لمهمة الحراسة . وعند الساعة العاشرة تفضل حضرة الباشا المشار إليه فركب زورقاً وانطلق به من سفينتنا فى حين بقى فيها مولانا البك صاحب الدولة . وبعد ذلك أصدر حضرة الباشا القبودان إشارة قال فيها : « ليرسل كل منكم زورقه الكبير الليلة للحراسة مشحوناً بالعساكر المسلحة ! » ، وقد أرسل إلينا مولانا صاحب الدولة إبراهيم باشا يطلب كشفاً بأسماء القبودانات الذين كانوا ربابنة وملازمين عند فتح « أناوارين » فى السنة الماضية ؛ إذا أنعم حضرة صاحب الشوكة والقدرة سلطان العالم على الأسطول بمائة ألف قرش . فحررنا الكشف المطلوب وأرسلناه ليوزع على القبودانات المذكورين ما أنعم عليهم به . وغربت الشمس فأنزلت الأعلام المنشورة . وكان الزورق السالف الذكر قد جاءنا بأربعة حمولات من الماء العذب أخذت كلها إلى حيث خزنت فى جوف سفينتنا ولم يحدث يومئذ شيء غير ما ذكر .

ليلة الثلاثاء :

فى الساعة الثانية عشرة من هذه الليلة أذن الآذان المحمدى فأقيمت الصلاة وأدى واجب الدعاء والثناء وأخرج الزورق الكبير بالعساكر ... المسلحة ليقوم على الحراسة . وبعد العشاء طبقت القاعدة فتولى النوبة من ملازمى القبودانات « الحاج مسعود قبودان » مع « إبراهيم قبودان الجيربى » كما نظمت للضباط والبحارة الدائمين نوباتهم وأقيم على جوانب سفينتنا الأربعة جنود جهاديون مسلحون بالبنادق وجنود بحريون يتناوبون الحراسة بالساعة . وإلى نصف الليل لم يقع أى حادث فاتخذت تدابير تغيير الحراسة وذلك بأن عمد إلى الرجال الذين قاموا فى الخدمة منذ المساء فاستبدل بهم رجال آخرون حلوا محلهم . وأصبح الصباح دون أن يحدث شيء ما .

يوم الثلاثاء ٢٧ ربيع الأول سنة ١٢٤١

عند طلوع شمس هذا اليوم شرعت الأعلام وأخرجت الزوارق الكبيرة بعد شحنها بأوعية الماء . وجاءت إشارة من سفينة البك القبودان طالبة جميع الأفندية مأمورى التعيينات ليكتبوا إشارة صادرة إلى الأسطول . وفى الساعة

الثالثة ذهب ربابنا القبودان ليعاين مدفعين طويلين فى الجزيرة فلم توافِ الساعة الثامنة حتى كان قد أرسل المدفعين المذكورين إلى سفينتنا التى أخذتهما إلى جوفها. وفى الساعة الثامنة جاء ... سليمان علمدار ربان الفولت من نوبة الحراسة فلما وردت إشارته مشعرة ... بذلك وجهنا الإشارة إلى « حافظ قبودان الطره بزونى » معينين إياه للحراسة . وأقبل المساء ولم يكن قد وقع فانزلت الأعلام وكانت الزوارق ... المخرجة لأجل الماء قد جاءت منه بخمس حمولات وأخذت الأوعية إلى حيث اختزنت فى جوف السفينة . وصدرت ساعتئذ إشارة حضرة الباشا القبودان أن : « أرسلوا زوارقكم الكبيرة بالعساكر المسلحين إلى محل الحراسة » فرفعت سفينتنا الراية التى معناها « فهمت » . ثم حل المساء .

ليلة الأربعاء :

فى الساعة الثانية عشرة من هذه الليلة أذن الآذن المحمدى فأقيمت ... الصلاة وأدى واجب الدعاء والثناء . ثم أنفذ الزورق الكبير حاملا العساكر والمسلحين إلى حيث يقوم على الحراسة فى فم البوغاز . وبعد العشاء سامت النوبة على مقتضى الأصول الرسمية البحرية إلى « محمد قبودان » أغا السفينة السابق ومعه « محمد قبودان اليده وى » كما نظمت النوبات ... للضباط والبحارين الدائمين نوباتهم ولأغوات مولانا البك صاحب الدولة وأقيم الجنود الجهاديون المسلحون والجنود البحريون المنوبون بالساعة على جوانب سفينتنا منهم من وضع فى جانب السفينة الأيسر ومنهم من وضع فى المقدمة والمؤخرة . وإلى أن انتصف الليل لم يحدث شىء يذكر فاتخذت تدابير تغيير الحراسة وانصرف الجنود ... الموكلون بالنوبة منذ المساء وحل محلهم جنود غيرهم قاموا على الحراسة حتى أصبح الصباح . ولم يقع أى حادث يذكر .

يوم الأربعاء ٢٨ ربيع الأول

بكرنا فى هذا اليوم إلى رفع الأعلام ، فلم نلبث أن تلقينا إشارة حضرة الباشا القبودان التى تقول : « استرجعوا ما لكم فى الخارج من عساكر وأدخلوهم ! » ؛ فعلقت سفينتنا الراية التى معناها « فهمت » . ثم عمدت سفينتنا إلى أعلى سطحها وعنبر مدافعها وجوانبها الخارجية فطهرتها جميعاً وإلى

الماء المتراكم فى جوفها فأعملت فيه المضخة حتى كسحته ولفظته . وعند الساعة العاشرة شرف صاحب الدولة مولانا إبراهيم باشا . « أوارين » بالعودة إليها ...من « موطون » وحينئذ تفضل صاحب الدولة مولانا البك بمبارحة سفينتنا . وفى الساعة الحادية عشرة صدرت إشارة من حضرة الباشا القبودان أن : « أرسلوا زوارقكم الكبيرة بالعساكر المسلحين إلى حيث تتولى الحراسة فى فم البوغاز ! » فرفعت سفينتنا الراية التى معناها « فهمت » . ثم غربت الشمس فأنزلت الأعلام ؛ وكانت الزوارق قد أتت بثلاث حمولات من المياه فأخذت إلى حيث اختزنت فى جوف السفينة . ولم يحدث يومئذ شىء غير ما تقدم ذكره .

ليلة الخميس :

فى الساعة الثانية عشرة من الليلة المذكورة أذن الآذان المحمدى فأقيمت الصلاة وأدى واجب الدعاء والثناء ثم شحن الزورق الكبير بالعساكر المسلحين وأرسل إلى حيث يتولى الحراسة فى فم البوغاز . وبعد العشاء سلمت النوبة على مقتضى القاعدة البحرية إلى القبودانات الثلاثة الملازمين ونظمت للضباط والبحارة الدائمين نوباتهم وأقيم على جوانب سفينتنا الأربعة جنود جهاديون مسلحون بالبنادق وجنود بحريون يتناوبون الحراسة ساعة ساعة ؛ وكذلك ... عين أغوات مولانا البك صاحب الدولة فى نوباتهم . وانقضى النصف الأول من الليل ولم يحدث شىء يستحق الذكر ؛ فاتخذت تدابير تبديل الحراسة واستبدل بالأنفار الذين وكلت إليهم الخدمة من المساء أنفار غيرهم انتظم كل منهم فى المحل المخصص له على الوجه الذى ذكر بعاليه . ولم يقع حادث حتى الصباح .

يوم الخميس ٢٩ ربيع الأول سنة ١٢٤١

نشرت الأعلام عند طلوع شمس هذا اليوم ثم شحنت الزوارق الكبيرة بأوعية الماء العذب وأرسلت للإتيان به . وبعد ذلك وجهت الفرقاطة « ثريا » إشارة طلبت بها جميع الزوارق الكبيرة فلم ترسل سفينتنا سوى الزورق الصغير . وفى الساعة الثالثة نشب جدال فى الفرقاطة التى يستقلها « خالد بك » « الرياله » السابق إذ قال جنودها البحريون لمن فيها من الجنود الجهاديون : « ويحكم

لم تطبخوا لنا حساء ! » . وكان رؤساء الجنود الجهاديون غائبين عن السفينة فاستغرق الخلاف بين الفريقين حتى نفر الجهاديون إلى سلاحهم . لولا أن سارع « بلال أغا » على متن زورق فتدارك الأمر فى حينه وأجلس كل قائم فى مكانه وبذلك انتهى العراك . وفى الساعة الرابعة نشرت سفينتنا قلوعها فى الشمس لتجففها . وعند الساعة الحادية عشرة صدرت من سفينة حضرة الباشا القبودان إشارة قال فيها : « أرسلوا زوارقكم الكبيرة بالعساكر المسلحين إلى فم البوغاز واحرسوه فرفعت سفينتنا الراية التى معناها « فهمت » . وبعد ذلك غربت الشمس فأنزلت الأعلام وكانت الزوارق المرسلة لأجل الماء قد جاءت منه بحمولتين فأخذتا وادخرتا فى جوف السفينة . وهكذا أمسى المساء .

ليلة الجمعة :

فى الساعة الثانية عشرة من هذه الليلة أذن آذان المغرب فأقيمت الصلاة وأدى واجب الدعاء والثناء . وأرسل الزورق الكبير إلى حيث يقوم بالحراسة بعد ما نقلت إليه العساكر المسلحة . وبعد العشاء سلمت النوبة رسماً بحسب القاعدة إلى القبودانات الملازمين الثلاثة كما نظمت للضباط والبحارة الدائمين وأقيم على جوانب السفينة الأربعة جنود بحريون يتناوبون الحراسة بالساعة ، وعينت لأغوات مولانا البك صاحب الدولة نوبات حراستهم ووضع جنود جهاديون من حملة البنادق على مقدمة السفينة ومؤخرتها وعلى جانبيها الأيمن والأيسر . وانتصف الليل ولم يحدث أى حادث فاتخذت تدابير تغيير الحراسة وأنزل الذين تولوها من المساء وجىء بدلا منهم بالصباحيين فأقيم كل منهم فى المحل المخصص له حسبما هو مذكور بعاليه . وإلى أن أصبح الصباح لم يحدث أمر ذو بال .

يوم الجمعة سلخ ربيع الأول سنة ١٢٤١

فى هذا اليوم نشرت الأعلام وشحنت الزوارق الكبرى بأوعية الماء العذب ثم أخرجت لتأتى به . وبما أن حضرة صاحب الشوكة والقدرة والمهابة سلطان العالم قد أنعم بمائة ألف قرش على القبودانات الذين ساهموا السنة

الماضية فى فتح « أوارين » فقد وجهت فى الساعة الأولى إشارة إلى جميع قبودانات الأسطول المصرى فجاؤوا إلى سفينتنا ثم خرجوا منها قاصدين إلى صاحب الدولة مولانا إبراهيم باشا ليوزع عليهم أنصبتهم ؛ وكذلك خرج قبودانات الأسطول السلطانى فمنحت جماعة الأسطول المصرى خمسة وأربعين ألف قرش وأصاب جماعة الأسطول السلطانى خمسة وخمسين ألف قرش. ثم رجع القبودانات من حيث ذهبوا. وبعد ذلك أصدر ... صاحب الدولة مولانا إبراهيم باشا إشارة دعا بها جميع مأمورى التعيينات فى السفن ليعطوا لحم غنم لأجل الأسطول كله ؛ فلبى المأمورون المذكورون خارجين. وفى الساعة السابعة أراد أحد الغواصين فى سفينتنا أن يفرغ غدارته فأطلقها فأصابت الرصاصة يد جندى بحرى من الفرقاطة « ثريا » وكانت هذه الفرقاطة على مقربة منا ؛ ولذلك قدم « بلال أغا » إلى سفينتنا وانتهى نبأ هذه الحادثة إلى صاحب الدولة مولانا البك فأمر مولانا بإعمال العصا فى الغواص المذكور ليعتبر ويصلح نفسه فضرب ثلثمائة عصا سويا. وفى الساعة الحادية عشرة بارحنا القبودان « عمر جاويش » قاصداً إلى المخفر الذى ذهبت إليه سفينة غولت من قبل الباشا القبودان أيضا. وبعد ذلك خرج من البوغاز « لا لا قبودان » ربان الغولت ومعه « محمد قبودان قره باش » ، ... و «مصطفى حطب » ربان الفولت بقصد الذهاب إلى « موطون » ثم أصدر حضرة الباشا القبودان إشارة يقول : « أرسلوا زوارقكم الكبيرة إلى المخفر ! ... ويضع كل منكم فى الزورق الذى يرسله عساكر مسلحين وأحد القبودانات ! ». فرفعت سفينتنا الراية التى معناها « فهمت ». ولم يلبث أن أمسى المساء.

ليلة السبت :

فى الساعة الثانية عشرة من هذه الليلة أقيمت الصلاة ، وأدى واجب الدعاء والثناء ؛ وشحن الزورق الكبير بالعساكر المسلحة ثم أرسل إلى المخفر وعند العشاء اتبعت المراسم البحرية فقلدت النوبة للملازمين من القبودانات ونظمت للضباط وجنود البحر الدائمين وأقيم على جوانب سفينتنا الأربعة جنود ... جهاديون مسلحون بالبنادق وعساكر بريون يتناوبون بالساعة ؛ وكذلك نظمت مناوبات الحراسة لأغوات مولانا البك صاحب الدولة

وانتصف الليل دون أن يقع أى حادث فاتخذت تدابير تغيير الحراسة وصرف المنوبون المسائيون ، وانتظم فى أمكنتهم من حل محلهم . ولما أصبح الصباح لم يكن قد حدث أى شىء .

يوم السبت غرة ربيع الآخر سنة ١٢٤١

بعد ما رفعنا الأعلام فى هذا اليوم آذنتنا إحدى السفن القاذفة للنيران أن الماء تسرب فوجهنا إشارة بدعوة جميع رؤساء المقلفطين فى الأسطول المصرى فجاؤوا الى سفينتنا حيث تقرر التدبير الذى يكفل ترميم قاذفة النيران المذكورة وصيانتها . وبعد ذلك توجه صاحب الدولة مولانا البك إلى سفينة حضرة الباشا القبودان حيث لبث نصف ساعة ثم تفضل فشرف سفينتنا بعودته إليها . وفى الساعة العاشرة دخل الميناء غولت « مصطفى حطب » مع غولت « الجزائر » قادمين من « موطون » . وكان أحد الجنود البحريين قد أهمل الوقوف فى نوبة حراسته فضربه القبودان الربان فوق سطح السفينة ووضعه فى الحديد تعذيباً له وتأديباً . ومن هذا الوقت إلى أن أمسى المساء لم يقع حادث يستحق الذكر . فقد جاءت الزوارق بثلاث حمولات من الماء ... العذب فأخذ ذلك منها واختزن فى جوف السفينة . ثم أنزلت الأعلام .

ليلة الأحد :

فى الساعة الثانية عشرة من الليلة المذكورة أذن الآذان المحمدى فأقيمت الصلاة وأدى واجب الدعاء والثناء . وأرسل الزورق الكبير إلى المخفر مشحوناً بالعساكر المسلحة . وبعد العشاء نظمت لكل ذى نوبة نوبته . وكانت إحدى السفن الرابضة فى المخفر قد رأت فى الساعة الثانية عشرة سفينة فى عرض البحر فأطلقت مدفعين لتردها وتطردها . وعند منتصف الليل اتخذت التدابير تغيير الحراسة فانصرف المنوبون المسائيون ونظمت للصباحيين نوباتهم فحلوا محلهم . وإلى أن أصبح الصباح لم يقع أى حادث .

يوم الأحد ٢ ربيع الآخر سنة ١٢٤١

ما كدنا ننشر لأعلام فى هذا اليوم حتى أرسلنا الزورق الكبير للإتيان

بالماء العذب . وبعد ذلك أصدر حضرة الباشا القبودان إشارة يقول : « تأهبوا للرحيل غداً واسترجعوا عساكركم الخارجة عن سفنكم » . فصدعنا بالأمر وأخرجنا الزوارق حتى جمعنا من كان فى الخارج من الجنود . وفى الساعة العاشرة دخلت من سفن التجار الإفرنج سفينة بريك طوسقانيه إلى الميناء فأطلقت خمسة مدافع . فأصدر حضرة الباشا القبودان إشارة إلى إحدى سفن الغولت أمراً إياها أن ترد عليها بإطلاق ثلاثة مدافع . فنفذت الغولت أمره ، وأطلقت المدافع الثلاثة . ثم أرسلنا زورقاً سأل البريك الطوسقانية : « من أين أنت قادمة ؟ وما سبب إطلاقك المدافع ؟ « فأجاب ربانها قائلا : « إنى قادم من « صورة » وقد غادرتها من إحدى عشر يوما . وكان حضرة الباشا القبودان يعاملنى ويشترى منى فأنا ممن سبقت خدمته للأسطول ولذلك أطلقت المدافع . أما سبب قدومى إلى هذا المكان فهو أن الباشا القبودان كان قد حمل سفينتى حنطة فبقيت لى أجرة الشحن فأنا آت لقبضها . وبعد ذلك عاد إلى الميناء من السفن المرابطة فى المخفر ... « حافظ قبودان » والغولت « لا لا قبودان » . وإلى أن أمسى المساء لم يقع حادث يستحق الذكر .

ليلة الإثنين :

فى الليلة المذكورة أرسل الزورق الكبير إلى المخفر . وكانت سفينة « حافظ قبودان » من السفن التى فى المخفر فلما عاد وألقى مراسيه وفد على سفينتنا قائلا : « إنى رأيت فوق الريح تسعاً من الفلك » . وبعد ذلك بعث إلينا حضرة صاحب الدولة إبراهيم باشا خبراً من الخارج يقول : أن إحدى وأربعين سفينة قد رؤيت ؛ كما أننا تلقينا خبراً آخر فحواه : إن حضرة الباشا القبودان قد علم من « تورن » (لعلها « فورنت » أو « فورل ») . أن إحدى وسبعين مركباً للعدو قد شوهدت » . وعند ذلك أصدر حضرة الباشا القبودان إشارة إلى « بلال أغا » « وأمراء السناجق » (اللواءات) و « خليل بك » و « خالد بك » طالباً منهم أن يوافوه . واستقل صاحب الدولة مولانا البك زورقاً نقله إلى سفينة الباشا القبودان ولم يلبث أن تفضل فشرف سفينتنا بعودته فى الساعة الخامسة . ثم اتخذت تدابير تغيير الحراسة وانتظم كل ذى نوبة فى محله . وإلى أن أصبح الصباح لم يقع أى حادث .

يوم الإثنين ٣ ربيع الآخر سنة ١٢٤١

فى هذا اليوم نشرت الأعلام وأرسل الزورق الكبير إلى الخارج للإتيان بالماء العذب . وفى منتصف الساعة الرابعة توجه بريك « محمود قبودان » إلى القره قول (المخفر) . وكان القبودان « عمر جاويش » فى المخفر فبقيت مؤنه فى الخارج ولذلك صدرت إليه إشارة أن : « تعالى فألق مراسيك ! » وفى هذه ... الأثناء جاء إلى سفينتنا كل من « خليل بك » والبك الريالة فلبثا فيها ساعة من الزمان ثم غادراها . وعند الساعة الخامسة تراءى أمام « موطون » أربعون سفينة من فلك العدو فبادر « محمود قبودان » الذى كان فى المخفر قادماً إلى « فم البوغاز » ومن ثم أرسل إشارة أخبر بها : « أن سفن العدو قد شوهدت ؛ وأنها الآن مقبلة » . فعلقت سفينتنا الراية التى معناها « فهمت » وراح حضرة الباشا القبودان ميمما الجزيرة المواجهة « لآوارين » فى حين صدرت إشارة من سفينة حضرته إلى جميع الفرقاطات أن : « اشحنوا زوارقكم الكبيرة بالعساكر المسلحين ثم سوقوها إلى مولانا بالجزيرة التى على فم البوغاز » . فصدعنا بما أمرنا واضعين العساكر المسلحة فى زورقنا الكبير ، وباعثين به إلى حضرة الباشا القبودان فى فم البوغاز . وفى الساعة السادسة شرف صاحب الدولة مولانا إبراهيم باشا سفينتنا بمقدمه وكان معه حسين بك قائد « كريد » العام . وصدرت فى الساعة السابعة إشارة من سفينة حضرة الباشا القبودان أن : « أعدوا زوارقكم الكبرى محملة بالعساكر المسلحين فقد تمس الحاجة إليها » . وعقب ذلك جاء إلى فم الميناء إحدى وعشرون سفينة من سفن العدو أربع منها قاذفات نيران والآخر من طراز القرصان . (بوارج خفيفة) وكانت قاذفات النيران فى المقدمة وسفن القرصان من ورائها فلما دنت من فم البوغاز وردت الإشارة أولا إلى غولت « عبد الرحمن قبودان » ثم إلى البريكات أن : « هلم قاموا الساعة ! » فشرعت البريكات فى التميام . وأخذت تتهادى وتتلوى (وولطه) فى سيرها لهبوب الريح من خارج الميناء . وفى هذه الأثناء ركب صاحب الدولة مولانا إبراهيم باشا وصاحب الدولة مولانا البك زورقاً أقلهما إلى حضرة الباشا القبودان بالجزيرة التى على فم البوغاز . وبينما كانت سفينة القره قول (المخفر) تمشى وولطه

عند فم البوغاز إذا بسفينة من سفن العدو تقترب منها وترميها بقنابل المدافع وإذا كانت هذه القنابل قد أخطأت مرماها فإن ما أطلقته الجزيرة ، والقلعة من المدافع لم يصب شيئاً . وعند الساعة العاشرة أخذت سفينة العدو المذكورة تمشى فى شكل ولطه ووضع تيرا مولا كما أخذت سائر سفن العدو تعمل مثلها حتى شرعت البريكات تزج من البوغاز . وبعد ذلك عاد حضرة الباشا القبودان وصاحب الدولة مولانا إبراهيم باشا وصاحب الدولة مولانا البك وحسين بك قائد « كريد » العام من الجزيرة قادمين على زورق ؛ فما كادوا يصلون حتى صدر الأمر إلى فرقاطة « خالد بك » وفرقاطة قائد الجزائر العام وفرقاطة «عمر قبودان البورسه لى » وفرقاطة « زكريا قبودان » وإلى خمس سفن من سفن القروت أن : « هيا قوموا الآن » ! ثم كر حضرات المشار إليهم راجعين إلى الجزيرة التى على فم البوغاز . وبعد قليل أمس المساء . ولما كان صاحب الدولة مولانا إبراهيم باشا وصاحب الدولة مولانا البك كلاهما فى الجزيرة فإن الفرقاطة « ثريا » قد تنحت وجاء « بلال أغا » إلى سفينتنا . وبعد هذا لم يقع حتى المساء حادث .

ليلة الثلاثاء :

فى هذه الليلة نظمت لكل نوبة نوبته . وفى ختام الساعة الأولى وجه البك الريالة إشارة من البوغاز إلى الخارج قال : « يا أيتها السفن المؤلفة لجماعتى تعالوا إلى مياه سكانى والتحقوا بالسرب ! » ووجه « خالد بك » إشارة كذلك يقول : « يا أيتها السفن المرابطة فى الأمام تحولى إلى وضع أورسه آلابنده تيرا موله » . وفرت سفن العدو فأطلقت إحدى المراكب مدفعاً لتؤذننا بهذا الفرار . ثم تفضل صاحب الدولة مولانا « إبراهيم باشا » ومولانا « محرم بك » فشرفا سفينتنا فى منتصف الساعة السادسة وبعد ذلك لم يقع حادث حتى الصباح . ولم يبق الآن فى الميناء سوى سفن الباشا القبودان والبك القبودان والبك البطرونة وسفينتنا وسفن التجار . فأما سائر السفن فكانت فى الخارج ؛ وأما سفن العدو فقد فرت ؛ وتفضل حضرة صاحب الدولة ولى النعم « إبراهيم باشا » فتوجه إلى البر .

تقرير بحرى من الأسطول المصرى المكلف بحرب المورة اعتباراً من ٥ ربيع الآخر سنة ٤١ إلى ١٤ منه — وهو متمم للتقرير البحرى السابق وروده بنمرة ٤٣ من هذه المحفظة

محفظة ١٠ بحر برا

ترجمة الوثيقة التركية رقم ٧٠ بتاريخ ١٤ ربيع الثانى سنة ١٢٤١ .

يوم الأربعاء فى ٥ ربيع الثانى سنة ١٢٤١ .

فى اليوم المذكور بعد رفع الأعلام عند طلوع الشمس صدر أمر من حضرة القبودان باشا للسفن الجزائرية والطرابلسية بالقيام حالا ، فبادرت إلى القيام ، وحيث أن الريح كانت هادئة ، فخرجت فى الساعة السادسة من مضيق ميناء أوارين بواسطة جرها بالقوارب . وفى الساعة السادسة صدرت إشارة من المشار إليه إلى جميع السفائن للقيام حالا وبينما كان يجرى رفع القارب الكبير لسفينتنا انقطع الحبل الرافع وسقط القارب فى البحر وأصيب ببعض الضرر وفى الساعة السادسة والنصف شرع فى رفع الهلب ولما كان الهلب المذكور قد ابتلعه الطين فقد كانت الهمة مصروفة فى رفعه من أعلى ومن أدنى إلا أن الآلة الرافعة انكسرت ثم رفع الهلب بواسطة الونش الرئيسى وأمكننا أن نقوم فى الساعة السابعة من ميناء أوارين ناشرين ست قلوع منها ثلاث غابيات وثلاث أيفورى باربانى . وفى أثناء الخروج من المضيق أطلقنا طلقـــة مدفع تحية لمقام ولكلى بابا بصفة رسمية وانتدبت الغولت التى يقودها « سليمان علمدار » للإشراف على قيـــام سفن البحار الأفرنجية البالغة اثنى عشر سفينة المشتراه ثم صدرت إشارة من سفينة البطرونة بطلب العناية وبذل الهمة ونشر حيثيـــة التأخر واللحاق بالسفن المتقدمة ولما كانت السفن المكلفة بالحراسة فوق الريح شاهدت السفن الخارجة من الميناء اتخذت وضع براجيه بويه . وبينما كانت قادمة نحونا صدرت

إشارة من القبودان باشا بالحروف أن « هل استحضرتم بلال أغا من البر وهل هو موجود فى السفينة . فرددنا عليه بالإشارة أنه موجود فى السفينة وفى الساعة العاشرة صدرت إشارة من سفينة البطرونة للسفن التابعة له بأن تقترب منه فرفعنا الراية الدالة على « فهمت » ثم أرسلنا بواسطة سفينة التجار إلى حضرة القبودان باشا نخبره بنبأ كسر الونش ثم صدر بالإشارة تنبه من حضرة القبودان باشا إلى السفن أن « أوقدوا مصابيح المؤخرة ليلا وراعوا بعضكم بعضا ولا تتأخروا » .

ليلة الخميس .

قرىء الآذان المحمدى فى الساعة الثانية عشرة من هذه الليلة فقضيت الصلاة ورفعت الدعوات وقد كانت الريح ساكنة . وفى خلال مرور سفينة التجار من جانبنا قلنا لها « أن أبلغى مصطفى قبودان سر عسكر سفن التجار أن يتقدم إلى الأمام مع السفن التابعة له ثم احكم رباط الغابيات وبعد العشاء سلمت النوبة إلى القبودانات حسن الكريدى والحاج مسعود وإبرهيم جبر « المجبر بى » وإبرهيم قبودان الكريدى وحسن قبودان الكريدى ونظمت نوبة الضباط والكدكلية وعين أغوات أفندينا صاحب الدولة البك فى نوباتهم ووضع عساكر جهادية من حملة البنادق فى الجهات الأربعة من السفينة المذكورة وفى أثناء ذلك صدر أمر بالإشارة من حملة حضرة القبودان باشا لنجتمع كلنا حتما فى نقطة واحدة ولا نتغرب فرفعنا الفانوس الدال على كلمة « فهمت » . وفى الساعة الثالثة كانت الريح تهب من جهة الجنوب وكان سيرنا فى اتجاه غرب بجنوب غرب فى وضع « مزه ناوه » لنتمكن من الاجتماع فى نقطة واحدة مع السفن التى تحت الريح ولما شاهدت حضرة القبودان باشا سفنا للأسطول فوق الريح أصدر إشارة يسألها « من أنتم » ارفعوا الإشارة الدالة على أسمائكم أو أطلق المدافع عليكم فرفعت السفن المذكورة التى كانت فوق الريح حالا الفوانيس الدالة على أسمائها . وفى الساعة الخامسة وصل القارب الكبير من جهة موطون وربط خلف سفينتنا ولم يظهر شىء لغاية نصف الليل فنظمت النوبات كما أسلفنا وفى الساعة السادسة هبت ريح مخالفة مصحوبة بالمطر وكنا متجهين غرب شمال غرب ثم رفعنا الفوانيس

الخاصة باسم مصطفى قبودان سر عسكر سفن التجار لمعرفة ما إذا كانت السفن التجارية قد غادرت الميناء فعلمنا أنها لم تخرج ثم رفعنا الفوانيس الخاصة باسم الغولت قيادة « سليمان علمدار » والفرقاطة « ثريا » ولكنهما لم يرفعا مرة أخرى الفوانيس الخاصة باسم مصطفى قبودان سر عسكر الأسطول التجارى وباسم الغولت قيادة « سليمان علمدار » وفى الساعة السابعة والنصف صدرت إشارة من حضرة القبودان باشا إلى البطرونة وإلى سفينتنا يطلب الدنو منه ولكننا لم نتمكن من الدنو من دولتة بسبب المطر وشدة الظلام بل أصدرنا إشارة إلى سفينة التجار « أن اقتربى منا » فلما حضرت نبهنا عليها بأن تقترب منا ولا تفارقنا ثم أصدر حضرة الباشا القبودان أمير البحار » إشارة قائلا : لا بد لنا من الاجتماع كانا فى مكان واحد ولا نفترق وكونوا على بصيرة واقترب حضرة القبودان باشا منا فاتخذنا وضع « غابية جراندى براجيه فاحة » منعاً للاصطدام . والاحتكاك وفى الساعة العاشرة اتخذنا وضع براجيه فوره ثم هبت ريح مخالفة مصحوبة بالمطر وتحركت السفن ثانية واتخذنا وضع أورسة الابندة وأصبح الصباح ونحن تحت جزيرة أناوارين .

يوم الخميس ٦ ربيع الثانى سنة ١٢٤١ .

فى هذا اليوم كانت السماء ممطرة والريح من اتجاه غرب شمال غرب وكان مسيرنا نحو الشمال تماما بثلاث مربعات من الغابية وفى هذه الأثناء مرت من فوق ريحنا الغولت « طومبازين » من سفن الأعداء متوجهة نحو أوارين فأصدر القبودان باشا إشارة قائلا يا أيتها السفن المتأخرة انشرى أشرعتك وابذلى ما فى وسعك والحقى بالسر عسكر فوقفنا فى وضع أورسه الابندة لتتمكن السفن من اللحاق بنا ثم شرعنا إشارة للباشا القبودان هل ننتظر سفن التجار فرد علينا قائلا بأن أرفعوا إشارة لسفن التجار واطلبوا منها ألا تتأخر فرفعنا الإشارة ووقفنا فى وضع أورسه الابنده ثم صدرت إشارة منا إلى مصطفى قبودان سر عسكر أسطول التجار . أن تقدم مع سربك وكن فى الأمام » ثم صدرنا إشارة إلى سفن التجار بأن لا تبتعد عن سر عسكرها ولا تفارقه وصدرت إشارة بعد ذلك من حضرة القبودان باشا إلى سفن القرصان » « أن ابذلى غيرتك وانشرى أشرعتك » . ولا تتأخرى ثم أرسل المشار إليه

إلينا ونشا بواسطة القارب الكبير ولكن الونش كان صغير الحجم فطلبنا بالإشارة من السفينة التجارية أن تقترب منا فلما دنت طلبنا منها أن تذهب إلى حضرة القبودان باشا وتبلغه عنا فوجدنا أن الونش صغير وهل ننتظر سفن التجار المتأخرة وطلبنا منها أن تعود على جناح السرعة بما يأمر به وفى هذه الأثناء تقدمت بعض سفن التجار إلى الأمام ووقفنا فى وضع أورسه الابندة منتظرين الباقية منها — وبعد ساعة عادت السفينة البخارية برد حضرة القبودان وهو : سنصلح الونش فى بادره ولنسر الآن بثلاث غابيات ولنتخذ وضع أورسه الابنده أمام زانطة ولترسل سفن التجار إلى بادره حيث من المحتمل أن تكون جملة من سفن الأعداء موجودة فى الأمام فسرنا كذلك وكانت فلوكة الفرقاطة « ثريا » القادمة من موطون مقصورة خلف سفينة حاجى بهلوان فأسلمتها إلى السفينة البخارية حيث أتت بها إلى قرب الفرقاطة وربطتها فى مؤخرتها . وفى الساعة الخامسة هبت عاصفة من اتجاه غرب شمال غرب مصحوبة بالأمطار فأنزلنا الغابيات حالا . وربطنا إلى جذوع الساريات وبعد ربع ساعة هدأت العاصفة وأعدنا القلوع إلى أمكنتها وما لبثنا أن هبت عاصفة شديدة أخرى مصحوبة بالمطر فتعذرت الرؤية بالنسبة للسفن فاتخذنا وضع براجيه بويه إلى انتهاء العاصفة ولما هدأت العاصفة أدرنا وجهتنا نحو جهة الشمال تماما فى وضع أورسه وواصلنا السير وبعد برهة انكشفت السماء وصحا الجو وطلعت الشمس وظهرت (زانطة) فأصدر حضرة القبودان باشا اشارة إلى قائلا « يا أيتها السفن المتأخرة انشرى قلوعك وابذلى قصاراك حتى تستطيعين اللحاق بالسفن المتقدمة وفى هذه الأثناء رفعنا إشارة إلى الغولت قيادة « سليمان علمدار » لتقترب منا ولما كانت الغولت مطلقة بالإشراف على قيام سفن التجار المتأخرة فإنها لما دنت منا سألناها هل بقيت سفن فى الميناء لم تستطع القيام وهل توجد سفينة لا تستطيع السير فأجابت قائلة لقد غادرت كل السفن الميناء ثم غادرتها أنا حتى أن ربان سفينة إنجليزية من طراز بريك كان سكرانا فأرغمته على القيام قهراً ولا توجد سفن متأخرة . ثم صدرت الإشارة الآتية من حضرة القبودان باشا « لنجتمع فى نقطة واحدة ولا نفترق » وفى الساعة الثامنة عند اقترابنا من جزيرة « زانطة » صدرت إشارة من الباشا آمرة : جهزوا سفنكم

وأعدوها للحرب وكونوا دائماً على بصيرة . وفى الساعة الثامنة والنصف أصدر حضرته إشارة أخرى قائلا . أن كونوا اليوم أبطالا فى الحرب كما كنتم أمس أبطالا فى السلم ولا تتهاونوا فى المحاربة ولا تقصروا فى أداء الواجب وسننزل العقاب بالمقصرين بدون انتظار وفى الساعة العاشرة أصدر إشارة أيضاً قائلا « أن إحراز المجد والفخار وخدمة الدين والدولة تتيح فى مثل هذه الظروف فأرونى همتكم أن هذا اليوم سيكون بعون الله تعالى يوم الانتقام فعلينا جميعا بذل كل ما فى استطاعتنا من السعى والهمة وبعد ذلك صدرت إشارة من سفينتنا إلى سفن التجار بطلب نشر جميع القلوع والتقدم إلى الأمام ثم أردفنا ذلك بإشارة إلى الباشا فى معرض الاستئذان هل توافقون على ذهاب سفر القرصان فى وضع أورسه الابنده أمام زانط ولنرسل سفن التجار إلى الداخل وقد واصلنا السير على هذا النمط حتى الغروب حيث كنا تحت زانطة .

ليلة الجمعة

فى الليلة المذكورة قرىء الأذان فى الساعة الثانية عشرة فأقيمت الصلاة وقرئت الأدعية وحيث أن الريح كانت فى اتجاه غرب شمال غرب وراكدة كان سيرنا نحو جزيرة كفالونيا فى ثلاث قلوع غابيا فى وضع « لاشعة يورنيه » وفى منتصف الساعة الواحدة أشعلنا فوانيس المؤخرة وبعد وقت العشاء سلمت نوبة تبعا للقواعد البحرية إلى القبودانات محمد طوبوزاوغلى « ومحمد قبودان أغا السفينة السابق وبدورى محمد قبودان وخليل قبودان الأركويلى ونظمنا دوريات الضباط والكدكايه وعينا أغوات أفندينا صاحب الدولة البك فى نوباتهم وأقمنا عساكر الجهادية حملة البنادق فى الجهات الأربعة من السفينة المذكورة وفى الساعة الثالثة صدرت الإشارة الآتية من حضرة القبودان باشا ابذلوا الهمة وانشروا القلوع لكيلا تتأخروا وأرسلوا هذه الإشارة بطريقة باسم باروله إلى السفن المتأخرة وفى الساعة الرابعة بناء على أمر بلال أغا رفعنا الإشارة الخاصة باسم الفرقاطة « ثريا » وطلبنا منها الدنو منا وكانت الريح فى الساعة المذكورة معاكسة وممطرة ثم أبدلت النوبة وسلمت إلى القبودانات السوارى حسن والحاج مسعود وإبرهيم جيرنى وإبرهيم الكريدى وحسن الكريدى واستبدل المنوبون المسائيون بغيرهم

من الصباحيين وأقيم كل منوب فى نوبته وفى هذه الأثناء صدرت إشارة من حضرة القبودان باشا نتخذ كلنا وضع أورسه الابنده فأجبنا برفع الفانوس الخاص بكلمة فهمت الإشارة واتخذنا الوضع المطلوب وفى الساعة الثامنة هبت عاصفة مخالفة من جهة غرب شمال غرب مصحوبة بالأمطار والبرد فطوينا الغاربيات وأنزلناها وربطناها بجذوع الصوارى واجتمعت جميع السفن الحربية وسفن التجار فى نقطة واحدة فى وضع اورسه الابنده ثم اشتدت العاصفة بالتدريج فاتخذنا وضع قنطرة ميزانية براجيه صويره ثم ربطت وفى الساعة الثامنة والنصف هدأت العاصفة وانقطعت الأمطار وسكنت الريح وأصدر حضرة القبودان باشا أمرا بالإشارة سيروا نحو الشمال حيث الماء قليل الغور فاتخذنا وضع أورسه إلى الاسكلة شمال وواصلنا السير على المنوال حتى الصبح وكانت السفن مجتمعة فى نقطة واحدة تحت جزيرة كفالورنا .

يوم الجمعة فى ٧ ربيع الثانى سنة ١٢٤١

فى صباح اليوم اتخذنا وضع براجيه فوره وسرنا أورسه لتتمكن السفن الأربعة التى تأخرت من اللحاق بنا وفى هذه الأثناء صدرت إشارة من حضرة القبودان باشا يقول فيهـــا اتخذوا وضع براجيه فوره وسيروا أجمعين فى أثر سفينة السر عسكر ففعلنـــا ذلك وعند طلوع الشمس رفعت الأعلام وأصدر حضرة القبودان باشا إشارة أن كونوا سربا وليصطف كل منكم بحسب سيره وسيروا على هذا الشكل وصدرت إشارة من البطرونة إلى السفن التابعة له أن يا أيتها السفن التابعة لسربى اقتفوا أثر ماء سكانى واندمجوا فى السرب ثم نشرت قلوعها بابا فنفو قنطرة بابافنفو إلى الفرقاطة « ثريا » لتقترب منا فاقتربت وكان قاربها مقطورا خلفها فركبه الأغا المشار إليه وصعد إلى الفرقاطة « ثريا » وبعد ذلك كنا نسير فى وضع قنطرة ميزانية براجيه صويرة وحيث أن أربعة من المراكب كانت متأخرة طلبنا من الغولت قيادة سليمان علمدار أن تقترب منا فلما دنت كلفناها بأن تذهب إلى السفن المتأخرة وتحضها على التقدم فإذا وجدتها من سفن التجار فلا تعود قبل أن تأتى بها فانطلقت حالا ناحية السفن المتأخرة ونحن تابعنا السير فى وضع براجيه فوره وفى الساعة

الخامسة صدرت الإشارة الآتية من حضرة القبودان باشا شوهدث ثلاث سفن فى الأفق إلى الأمام وهذه السفن هى من سفن الأعداء فكلفنا كلا من غولت عبـــد الرحمن قبودان وغولت مصطفى قبودان بالإشارة : وهى تحقق من نوع السفن المذكورة فانطلقت غولت « مصطفى قبودان إلى الأمام ناشرة قلوعها ولم تستطع غولت عبد الرحمن قبودان من نشر أشرعتها بل ظلت سائرة مع ريحها وعندئذ حضر مولانا البك إلى رأس السلم وسأل عن سبب عدم تقدم عبد الرحمن قبودان إلى الأمام فخاطبناه ثانية بالإشارة وطلبنا منه أن ينشر جميع قلوعه ويتقدم إلى الأمام أسوة بمصطفى قبودان ولكنه لم يذعن إلى تلبية الأمر ولم ينشر قلوعه فخاطبناه تكرارا قائلين إنك لا تعمل وفق أوامرى ، انشر قلوعك وتقدم إلى الأمام وتحقق السفن المذكورة . وبعد ذلك أرسل حضرة القبودان باشا سفينة من سفن الغولت نحو السفن المشاهدة ولما كانت تلك السفن سائرة بالقرب من ساحل مسولك لعلها سولنك فتوجهت الغولت نحوهم ووقفت أورسه الابنده ولحقت بهم أمام زانطة وأطلقت مدفعا للتنبيه وفى هذه الأثناء أطلقت سواحل مسولك عدة طلقات على سفينة الغولت التى كانت تسير قريبا من تلك السواحل فلم تصبها بضرر وبعد ذلك حضرت غولت سليمان علمدار التى كانت مع السفن المتأخرة وأخبرت بأن السفن المشاهدة هى ثلاث سفن من سفن الأسطول الهمايونى . اثنين منها من طراز قرويت والثالثة من طراز بريق وقد كلفت غولت « سليمان علمدار » المذكور بأن تسير فى طايعة السفن ثم صدرت إشارة من حضرة القبودان باشا إلى السفن بأن تحافظ كل منهما على ترتيبها فى الفرقة التابعة وكذا صدرت إشارة من البك البطرونة الأميرال بهذا المعنى . وفى الساعة السادسة شاهدنا معسكر والى الروم ايلى الواقع فى الساحل المقابل لساحل مسولك وقد عين حضرة القبودان باشا الرياله مأمورا للقرقول للحراسة فأخذ السفن التابعة له وعاد لأداء وظيفة الحراسة ثم أن الباشا أمرنا بأن نفرز خمسة عشر سفينة من السفن التابعة لنا لتقوم بوظيفة القرقول مشتركة مع سفن البك الأميرال الثانى رياله فرفعنا إشارة إلى خمس عشرة سفينة بريق من سفننا وأمرناها بأن تشترك مع سفن الرياله فى أداء وظيفة القرقول وتكون على بصيرة تامة ولا تبتعد عنها فإذعانا لإشارتنا تحركت السفن المذكورة فى أثر سفن الرياله وفى الساعة

العاشرة والنصف أصدر حضرة القبودان باشا أمرا بقول فيه تأهبوا لإلقاء المراس وكونوا على حذر حتى لا تحدث خسائر وأن تلقى كل سفينة مخطافها بغاية الدقة والنظام وبعد ذلك تقدمت سفينة المشار إليه داخل القلعة قستل والقت مرساتها وعند حاول المغرب أنزلت الأعلام واجتازت السفن مضيق قستل إلى داخلها وبينما كانت تتأهب لإلقاء مرساها أمسى المساء .

ليلة السبت

فى الساعة الثانية عشرة من هذه الليلة ربطناباب فنقو واقتربنا من قبودان باشا بثلاث غابيات ورفعنا الفوانيس على ثلاث ساريات واقتربنا وربطنا الأشرعة والقينا المخطافات فى ماء عمقه ٣٥ قامه فى داخل قستل المورة وقد حضر الميرالاى حسين بك وبلال أغا إلى سفينتنا. وأما الفرقاطة فورنصرت والسفينة النارية قيادة محمد يازيجى قبودان لم تحضرا كما أن سفينة طوسقانية من طراز بريق من سفن التجار الأفرنج وكانت محملة شعيرا وبقسماطا بقيت فى موطون ولم تحضر ولما بارح بلال أغا والميرالاى حسين بك سفينتنا أقمنا جنودا منوبين كل ساعة وعساكر الجهادية ببنادقهم فى أطراف السفينة وفى الساعة الرابعة حضرت الفولت يشيل قذ التى كانت فى القرة قول وقد ضبطت سبعة قوارب زانطية ودخلت من المضيق رافعة الفوانيس الخاصة باسمها وقدمت القوارب المذكورة إلى القبودان باشا وكان وقت تبديل النوبة حان فأجرينا تبديل الأنفار النوبتجية حسب النظام ولم يحصل شيء جديد لغاية الصبح .

يوم السبت

فى هذا اليوم بعد ما رفعت الأعلام أصدر حضرة القبودان إشارة إلى كافة السفن بأن ترسل القوارب الصغيرة فأرسلنا قاربا صغيرا ثم ركب أفندينا صاحب الدولة البك قاربا صغيرا وذهبت إلى جانب حضرة القبودان باشا وبعد ساعة عاد إلى السفينة المذكورة وفى الساعة الخامسة حضر الرياله مع السفن التى فى معيته وطلب من حضرة القبودان باشا إذنا لإلقاء المراسى أمام المضيق فرد عليه حضرة المشار إليه بالموافقة . وقد أرسل حضرة القبودان باشا

إلينا النجارين ومعهم الخشب اللازم لتعمير وتصليح الونش فباشروا العمل حالا ثم رفعت إشارة إلى السفن الموجودة فى القرقول بطلب حضور قوادها وفى الساعة الحادية عشر ذهب صاحب الدولة أفندينا البك إلى قلعة قستل موره لمقابلة حضرة يوسف باشا وقد حضر جميع قادة الأسطول المصرى إلى السفينة بناء على الطلب السابق فأعطيت إليهم تعليمات بأن يخرجوا العساكر الموجودة فى سفنهم إلى البر مع أشيائهم فى هذا الليل وأن يتأهبوا للذهاب إلى القرقول غدا صباحا وعند قرب المساء نزلت الأعلام وأمسى المساء .

ليلة الأحد

فى الليلة المذكورة بعد وقت العشاء نظمت النوبات وقد عاد صاحب الدولة أفندينا البك من الخارج إلى السفينة حوالى الساعة الثانية ولم يحصل شىء جديد لغاية الصباح .

يوم الأحد

فى اليوم المذكور بعد رفع الأعلام صدرت إشارة من سفينة حضرة القبودان باشا إلى السفن بأن تهتم فى إخراج العساكر البرية الموجودين فيها إلى البر فعملت السفن جميعا على إخراج العساكر إلى ساحل قلعة موره ونحن أيضا أرسلنا العساكر الموجودين فى السفينة إلى الخارج ثم شرع النجارون فى تصليح الونش وفى الساعة الثانية حضر حاجب حضرة يوسف باشا والأفندى كاتبه إلى سفينتنا ومكثا برهة قليلة ثم ذهبا وفى الساعة الثالثة قامت سفن الغولت الجزائرية لأداء خدمة القرقول وقد جاءت إشارة من صاحب الدولة القبودان باشا إلى أفندينا البك بالحضور إلى طرفه فذهبت لمقابلته وفى هذه الأثناء كان حضرة القبودان باشا خرج إلى البر فمكث أفندينا البك مدة فى انتظار ثم خرج إلى البر لمقابلته هناك وفى الساعة الثالثة والنصف دعا حضرة القبودان باشا جميع رؤساء المدفعية للتنبيه عليهم بخصوص المهمات التى ستنقل إلى البر : وفى الساعة السادسة عاد صاحب الدولة أفندينا البك من البر إلى السفينة وقد رفعنا إشارة بطلب قادة سفن البريق الخمسة عشر المعينة للقرة قول فحضروا ونبهنا عليهم بأن يكونوا على بصيرة وعناية بالغة فى

أداء وظيفتهم وقد خاطب البك الريالة السفن التابعة له بالإشارة منبها عليها بأخذ المياه اللازمة وبالتأهب للقيام صباحا وفى الساعة الثامنة حضر يوسف باشا من البر إلى سفينتنا ومكث مدة مع أفندينا البك ثم ركب زورق أفندينا الخاص وعاد إلى مقره وقد أنزلت الأعلام فى وقت الغروب وتم تصليح الونش ووضع فى محله ونفح أفندينا صاحب الدولة النجارين مائة (برغوث) !

ليلة الإثنين

بعد وقت العشـــاء من الليلة المذكورة نظمت الدوريات حسب المعتاد وفى الساعة الثامنة كان البحر هادئا اقتربت منا إحدى سفن البريق بتأثير التيار البحرى وجرت مخطافهـــا وقد اقتربت من جانب سفينتنا بمقدمتها وأدخلت عصا القنطرة فى الصليب وعند الاستعداد بالعمد لدرء الصدام عمدت إلى فتح قلوعها وارتدت إلى الخلف بدون أن يحصل ضرر وفيما عدا ذلك لم يحصل شىء لغاية وقت الصبح .

يوم الإثنين فى ١٠ ربيع الثانى سنة ١٢٤١

فى اليوم المذكور بعد إجراء مراسيم رفع الأعلام طلب الريالة من السفن المرتبة للاشتراك معه فى أداء وظيفة القرقول بواسطة الإشارة بأن تقلع حالا فبادرت السفن المذكورة إلى القيام وهى أربع فرقاطات وتسع سفن من طراز قروت وثمانى سفن بريق من الأسطول الهمايونى وسفينتان غولت وثلاث عشر بريق من الأسطول المصرى وسفينتان بريق وسفينة قرويت من السفن الطرابلسية وفرقاطتان وسفينة قروت من السفن الجزائرية وحيث أن الريح كانت شديدة فى هذه الأثناء فقد أصدر حضرة القبودان باشا إشارة إلى السفن بأن تكون على حذر خشية الاصطدام وتفاديا من حدوث الضرر ولكن لما كانت الريح تهب معاكسة من داخل الخليج إذا السفينة البريق التى تحت قيادة إنجلير إسماعيل قبودان أخذت تجر مخطافها بينما كانت تسحبه من البحر وكادت تصطدم بسفينة البطرونة التى أخذت فى أرخاء سلسلة مرساتها لتجتنب المصادمة وتخلصت بهذه الطريقة كما أن البريق التى تحت قيادة إبرهيم

قبودان الكريدلى حدث أثناء قيامها أن وقعت على السفينة المذكورة وبينما كانت الهمة مبذولة فى تخليصها إذا بالسفينة التى تحت قيادة محمد قبودان الاستانكويلى قامت هى الأخرى من جوارهما ولما كانت مياه هذه النقطة قليلة الغور إذ غرس مخطاف سفينة الاستانكويلى لأنها لم ترفع مخطافها إلى أعلا ثم طوى قلوع الغابيه وعمل على تخليص المخطاف وفى أثناء ذلك سحبت السفينة النارية التى تحت قيادة حسين قبودان أيلجى أوغلى مخطافها ووقعت على سفينة الاستانكويلى وكسرت جزءا من القارب المعلق فى مؤخرة سفينة محمد قبودان المذكورة وسقط فى البحر ثم أخذت السفينة فردت إلى مزه قرصان التى تحت قيادة مصطفى قبودان الكريدى تجرب مخطافها ولكنها لم تستطع القيام بمناسبة قربها من الساحل فأرسل إليها بلال أغا المخطاف التونسى من الفرقاطة ثريا كما أن صاحب الدولة البك أفندينا أرسل أمين المفاتيح مع بعض القوارب من سفينتنا لإسعافها وبينما كانت تستعمل الهلب التونسى تحركت السفينة القروت صمورقاش من سفن الأسطول السلطانى ولكنها لم تكن رافعة للمخطاف تماما فانغرس المخطاف فى القعر بالقرب من المضيق واشتبك بمخطاف القروت مزه قورصان فألقت حبالها على السفينة البطرونه كما أن القروت مزه قورصان أيضا رفعت مرساها وابتعدت من الساحل وبعد ذلك أقلعت السفن المأمورة للقرقول واحدة بعد واحدة وابتدأت سفينتنا ترفع مرساتها فرفعناها حالا وفتحنا قلوع الغابية وفى الساعة الخامسة قمنا فى طريقنا إلى ابنه بختى وأرسلنا إشارة إلى الفرقاطة ثريا لتقوم معنا فى هذه الساعة فقامت وفى الساعة التاسعة وصلنا أمام ابنة بختى وألقينا المراسى على عمق ثمانى وعشرين قامة وكان الجو ممطرا فأنزلنا الأعلام وبعدئذ أمسى المساء .

ليلة الثلاثاء

فى هذه الليلة نظم كل منا نوبته ، ولم يحدث شىء حتى الصبح .

يوم الثلاثاء فى ١١ ربيع الثانى سنة ١٢٤١

فى هذا اليوم عند طلوع الشمس رفعنا الأعلام ثم أرسلنا القارب الكبير

إلى قلعة ابنة بختى لجلب المياه وبعد برهة حضر بلال أغا إلى سفينتنا ومكث مدة ثم خرج صاحب الدولة أفندينا البك إلى ساحل موره وشرف المعسكر وكان الجو ممطرا والريح معاكسة فقد أرسلنا سفينة البخار وقت المساء إلى الساحل لتأتى بأفندينا البك فعادت وأخبرت بأن المشار إليه سيمكث فى الخارج إلى أن يحضر أفندينا ابرهيم باشا وقد أقيمت خيمة خاصة للاستراحة ولم يحصل شيء جديد لغاية المغرب خلاف ذلك .

ليلة الأربعاء

فى الليلة المذكورة عين الضباط والكدكلية فى دورياتهم منذ الغروب ولم يحدث شيء حتى منتصف الليل ثم استبدلت الدوريات وحل الصبح بدون أن يحدث شيء .

يوم الأربعاء

فى اليوم المذكور كان الجو ممطرا فلم نرفع الأعلام وأرسلنا أنفار المدفعية إلى قلعة ابنة بختى لغسل ملابسهم وفى الساعة الرابعة وردت تذكره من البطرونة محررة بأمر من أفندينا البك فيها قوموا الآن مع الفرقاطة ثريا وتعالوا عندنا ناحية المورة وعندئذ عملنا على إعادة العساكر الذين فى الخارج وفى الساعة التاسعة قمنا من أمام ابنة بختى قاصدين موره وفى الساعة الحادية عشرة وصلنا إلى مورة وألقينا مراسينا فى عمق خمس وثلاثين قامة فوق ريح الأسطول منذ هذا اليوم إلى يوم الجمعة لم تقع حوادث جديدة وفى يوم الجمعة وصلت إلى هنا الفرقاطة (فوز نصرت) التى كانت غائبة .
فى ١٤ ربيع الثانى سنة ١٢٤١

ملاحق الوثيقة

١ ـ البحرية المصرية فى عهد محمد على الكبير

فطن محمد على باشا إلى أهمية سيادة البحر منذ أن استتب له الأمر فى الولاية المصرية ، فعمل على إنشاء أسطول مصرى إلى جانب الجيش الوطنى . ويمكن تقسيم تاريخ الأسطول المصرى فى أيام محمد على إلى قسمين :

أولهما : منذ شرع محمد على يشيد سفائنه الصغيرة، لنقل العتاد والذخيرة، حين شرع فى نجدة الدولة العلية فى محاربتها الوهابيين سنة ١٨١٠–١١م. وتمتد هذه الحقبة إلى وقت تدمير أسطوله فى معركة نوارين سنة ١٨٢٧ على يد الأوربيين .

ثانيهما : تجديد الأسطول المصرى عقب نوارين إلى وفاته عام ١٨٤٩م، وهذه الفترة تعتبر العصر الذهبى للبحرية المصرية فى القرن التاسع عشر .

وتشهد الفترة الأولى (١٨١٠ — ١٨٢٨م) ومدتها ١٨ سنة، بقوة عزيمة هذا العاهل الكبير ، فقد خلق شيئاً لم يكن له فى أرض مصر وجود منذ أيام سلاطين المماليك ، وأنشأ الدور لصناعة السفن فى السويس وإسكندرية .

وبعد حرب الوهابيين ازداد تقدير محمد على للأسطول ، فاهتم بإيجاد أسطول يشترى قطعه من الخارج ، علاوة على ما كانت تنشئه دور الصنعة المصرية . فاستورد الفرقاطات والقرويتات ،وعين لها القادة البحريين من سفن التجار الأتراك والسكندريين ، كما أحضر المعلمين الأوربيين لتعليمهم ، وبذا حمى سواحل مصر من أعمال القراصنة الإغريق . وساعد محمد على فى تنفيذ مشروعه البحرى مهندسون وأسطوات من المصريين، نذكر منهم شاكر أفندى الإسكندرانى ، والحاج عمر المصرى الخبير بعمارة السفن ، ومحرم بك ، وإسماعيل جبل طارق ، وفرنسيين أحدهما مسيو بيسون ، والآخر مسيو سيريزى . ولمن أراد التوسع فى تاريخ البحرية المصرية أيام المغفور له محمد على باشا ، فعليه مراجعة كتب المغفور له الأمير عمر طوسون ، وأمير البحر دوران فيل، وجميل خانكى ، والفريق إسماعيل سرهنك ، وأمين سامى باشا ، ودوان .

وساماركو ، وروكفورت سكوت ، وغيرهم (١) .

٢ — أمير البحر محرم بك

ولد محرم بك بمدينة قوله عام ١٧٩٥م ، وهاجر إلى مصر ، وتقرب إلى محمد على باشا الذى آنس فيه الكفاءة والإخلاص ، فزوجه من كريمته تفيدة هانم ، وكان محرم بك حاكما للجيزة سنة ١٨١٠م .

وفى سنة ١٨٢٠م أسند إليه الوالى محافظة الإسكندرية ، ثم طلب إليه الاشتراك مع أمير البحر إسماعيل جبل طارق فى قيادة السفن المصرية فى حملة المورة . ولما توفى جبل طارق تقلد محرم بك قيادة الأسطول فى حملة المورة ، بناء على أمر الباشا ، فى ٢٥ يونيو عام ١٨٢١م (٢٤ رمضان سنة ١٢٣٦ هـ) .

وفى يوم ١٢ أكتوبر سنة ١٨٢٥م (٢٩ صفر سنة ١٢٤١ هـ) عين محرم بك أميراً للأسطول المصرى ، تحت إمرة إبرهيم باشا .

وفى يوم ١٧ أكتوبر سنة ١٨٢٥ أبحر من الإسكندرية الأسطول المصرى والأسطول التركى — البالغ مجموع قطعهما ١٢٩ وحدة ، منها ٦٥ سفينة حربية ، وعلى ظهرها أحد عشر ألف جندى . فمر بكريت ، ومنها تابع سيره إلى ميناء نوارين ، حيث استقبله القائد إبراهيم باشا عند وصوله فى الخامس من نوفمبر ١٨٢٥م .

وقد اشترك فى عدة مناوشات بحرية حتى سقطت ميسولونجى فى قبضة الجنود المصريين فى ٢٢ مرس سنة ١٨٢٦م ، ثم أبحر عائدا إلى إسكندرية فى ٢٦ مايو ١٨٢٦م .

وفى ٢٢ نوفمبر ١٨٢٦م قاد محرم بك قوة بحرية مؤلفة من فرقاطتين وخمس قراويت وثمانية عشر إبريقا وثمانى غولت ، وخرج بها من ميناء إسكندرية ، وانضمت إليه قوة بحرية عثمانية وعدة سفن تجارية . وكانت مهمة هذه السفن نقل العتاد والذخيرة إلى المورة ، فوصلها محرم بك بنجاح ، ثم عاد ثانية إلى إسكندرية ، فوصلها فى ٢٨ يناير ١٨٢٧م .

---

1 - Durand - Viel : Les Campagnes navales de Mohamed Aly et Ibrahim.
Sammarco (Angelo) : La Marina Egiziana sotto Mohammed Ali.
Scott (Rochfort) : Rambles in Egypt and Candia.
Douin (Georges) : Les premières frégates de Mohammed Ali.

وظل محرم بك مضطلعا بأعمال بحرية غاية فى المشقة خلال حرب المورة ، حتى اشترك فى معركة نوارين المشئومة التى قضى فيها على الأسطول المصرى . ثم وصل أمير البحر الإنجليزى كدرنجتون على رأس سفنه ، وهدد بتخريب ميناء إسكندرية إذا لم يذعن الباشا لمطالب أوربا واستدعى قواته البرية والبحرية من المورة . فاضطر محمد على إلى الإذعان ، وعقد مع الحلفاء اتفاقا أبرم فى أول أغسطس سنة ١٨٢٨م ، تعهد فيه بإخلاء المورة .

وتنفيذا للاتفاق عاد محرم بك بسفنه وجنوده إلى إسكندرية التى وصلها فى الثامن من أكتوبر سنة ١٨٢٧م ، وفى العام التالى تقلد محرم بك ولاية الحجاز والحرمين الشريفين مكافأة له ، ثم تقلد ثانية محافظة إسكندرية ، وظل فى منصبه إلى أن توفاه الله فى ٢٠ ديسمبر عام ١٨٤٧م ، ودفن بمقابر الأسرة المالكة فى ضريح النبى دانيال (١) .

٣ ــ أنواع السفن الحربية الوارد ذكرها فى الوثيقة

مرت بالوثيقة مسميات عدة للسفن الحربية ، ولما كانت هذه المسميات تبدو غريبة عن آذاننا نظرا لقدم العهد ، رأينا أن نصف كل نوع منها .

القباق أو الغليون أكبر أنواع السفن الحربية القديمة حجماً ، ويحمل من المدافع إلى مائة وستة وثلاثين مدفعاً كبيرا وصغيراً ، ومن الجنود حوالى الألف ، وقد حلت البارجة محله اليوم .

الفرقاطة أو الفرقطون تلى القباق ، وحل محلها اليوم الطرادة ، وتحمل حوالى من المدافع ٦٤ مدفعا كبيرا وصغيرا ، ومن الجنود حوالى الخمسمائة .

القرويت مركب حربى أصغر من الفرقاطة وأكبر من الأبريق ، ويحمل من ٢٢ مدفعاً إلى خمسة وأربعين مدفعاً صغيراً وكبيراً ، ومن الجنود حوالى مائتين .

الغولت مركب حربى ذو صاريين مربعين ، ويحمل ١٨ أو ١٦ مدفعاً صغيراً ، ومن الجنود حوالى مائة .

الكوتر زورق كبير سريع ومسلح ، يحمل من المدافع إلى ١٢ مدفعاً صغيراً ، ومن الجنود من ٣٠ إلى ٥٠ .

القائمقام عبد الرحمن زكى

---

(١) الأمير عمر طوسون : صفحة من تاريخ مصر فى عصر محمد على هامش ص ٦٩ .
جميل خانكى : تاريخ البحرية المصرية ، ص ٢٥٣ — ٢٥٤ .

مؤلف أركل عن الخرطوم

Arkell (J) : Early Khartoum Oxford University Press, 1949.

كثيراً ما كتب المؤرخون وعلماء الآثار عن أصل حضارة قدماء المصريين، وهل هى حضارة أصيلة محلية نشأت فى شمال وادى النيل ، أم جاءت مع قوم من جنوب الوادى ، أو أتت مع قوم آخرين وصلوا إلى شاطىء النيل، سواء من شرقيه أو من غربيه . ومهما اختلف رجال الآثار فى التفاصيل، فإنهم متفقون على أن هناك حضارة أصلية نشأت على ضفاف النيل ، ولكنها تأثرت بمن اتصلوا بقدماء المصريين من شعوب أخرى ، فى عهد ما قبل الأسرات، وفى فجر التاريخ المصرى. ويتجه الأثريون أحيانا إلى الغرب وسكان ليبيا القدماء، وأحيانا أخرى إلى الشرق وأممه العريقة فى المدنية؛ ولكن يطول اتجاههم إلى الجنوب ، ويقارنون بين مظاهر الحضارة فى بعض بلاد جنوب السودان فى عصرنا الحاضر ومشابهتها لما نعرفه من مظاهر حضارة قدماء المصريين فى بدء مدنيتهم .

ومن الثابت لدينا أن الحضارة التى عمت مصر فى عصر ما قبل الأسرات كانت تعم أيضاً بلاد النوبة الشمالية بين أسوان ووادى حلفا ودنقلة . ولكن قلة الأبحاث الأثرية فى السودان—وخاصة ما اتصل منها بأقدم العصور—جعلتنا نقف حائرين متسائلين عما إذا كانت هذه الحضارة نفسها منتشرة فى تلك الأيام بين السكان الذين كانوا وراء الشلال الرابع . وإذا كان الرد بالإيجاب، فما هو مدى انتشارها ، وما مدى أثر سكان أواسط أفريقيا الزنوج على هذه الحضارة ، وبعبارة أعم ما هى وجوه الشبه أو وجوه الاختلاف بين ما نعرفه من حضارة شمال الوادى أى مصر وحضارة جنوبى الوادى فى السودان .

لهذا رحب علماء الآثار المصرية ترحيباً قلبيًّا بما أذاعه المستر أركل مأمور الآثار السابق بالسودان فى عام ١٩٤٥ ، بأنه وفق إلى اكتشاف منطقة أثرية قديمة فى الخرطوم ترجع حضارتها إلى عصر ما قبل الأسرات ، أى قبل

عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد . وأنه وجد فيما عثر عليه من آثار ما يثبت الصلة الوثيقة بين من عاشوا فى مصر إذ ذاك وبين من عاشوا فى المنطقة التى تحتلها مدينة الخرطوم الآن .

وها هو كتاب الأستاذ أركل يصل إلينا بعد طبعه ، وفيه نتائج حفائره . ولكن قبل أن نلخص ما وصل إليه من نتائج علمية، يجدر بنا أن نقف قليلا . لنذكر شيئاً عن مكان الحفائر والظروف التى ساعدت على هذا الكشف .

حفائر الخرطوم القديمة : تأسست مدينة الخرطوم الحالية بين عامى ١٨٢٢ ، ١٨٣٠م ، بأمر المغفور له محمد على باشا. ولم يكن فى هذه الجهة إلا قرية صغيرة ، ولكن سرعان ما نمت المدينة الجديدة ، وأصبحت عاصمة للسودان . وبالرغم مما أصابها أيام ثورة المهدى ، فإنها ما زالت آخذة فى النمو ، وكان اكتشاف المنطقة الأثرية الجديدة أحد نتائج اتساع رقعة مبانى المدينة . ويقص علينا الأستاذ أركل قصة عثوره على هذه المنطقة ، فيقول بأنه كان مكلفا أوائل الحرب العالمية الأخيرة بالعمل مع إحدى جماعات الدفاع الجوى التى كانت تعسكر فوق أحد التلال ، داخل حدود مدينة الخرطوم بجوار المستشفى المدنى وكان عليه أن يظل ساعات طويلة من كل يوم رابضاً فى خندق منتظراً إغارة الطائرت الإيطالية ، وكان وجوده فى هذا الخندق هو السبب فى ملاحظته أن هذا التل ليس تلا عاديا مثل غيره ، وإنما كان يختلط بما على سطحه من قطع من طوب أو أحجار قطع مزخرفة من فخار ذات طابع خاص ، كما كان هناك أيضاً قطع من حجر الكوارتز وأحجار الطحن وغيرها .

وبالرغم من علم الأستاذ أركل بأن سطح هذا التل كان مستعملا جبانة إلى عهد قريب ، فقد أدرك أن هذا الفخار وهذه الأحجار أقدم عهداً ، وانتقى من بينها بعض العينات عرضها على أحد العلماء المختصين عام ١٩٤١ ، فأوضح له أهمية المنطقة ، وطلب منه عند عودته من كينيا إلى الخرطوم أن يعاود البحث لعله يجد آلات من الظران . فلما عاد أركل إلى الخرطوم وجد كثيراً من هذه الأدوات ، وقدم بذلك تقريراً إلى لجنة الآثار والمتاحف فى الخرطوم .

وفى شهر سبتمبر ١٩٤٣ رأى الحاكم العام ضرورة توسيع المستشفى المدنى وإدخال جزء من التل فى المبنى الجديد ، ولهذا وافق على رأى لجنة الآثار ، وهو ضرورة بحث هذا التل بحثا علميا قبل إزالته . وبدأت الحفائر فى أكتوبر ١٩٤٤ ،وكانت تحت إشراف الأستاذ أركل يعاونه المسيو ديبوزو . أما العمال فكانوا من المساجين،ما عدا أربعة من العمال المصريين المدربين الذين استحضروهم من مصر . وبدأت الحفائر بشق خندقين طويلين فى أعلى التل بعد تقسيمه إلى مربعات على خريطة ، فتحققوا من وجود مقابر قديمة وآثار مساكن يرجع تاريخها إلى أبعد العصور ، كما أثبتت الحفائر فيما بعد أن هذا المكان بالذات كان مستعملا فى العصرين المروى والنباتى .

لم تستمر الحفائر إلا أسابيع قليلة ، ولم يتم حفر التل بأكمله بل تم حفر الجزء المطلوب ضمه إلى مبنى المستشفى ولكن بالرغم من ذلك، وبالرغم من أن الحفارين وجدوا المقابر قد سرق أكثرها، وأن وجود الجبانة الحديثة فوق الجبانة القديمة كان له أسوأ النتائج ، فإن القليل الذى عثر عليه مؤلف هذا الكتاب كان كافيا لنشر مؤلف هام جاءت أبحاثه ثمرة لمجهود مؤلفه ودقته، وصورة لما يمكن أن يثمر عنه التعاون بين الإخصائيين المختلفين ، إذ ساعده فى إعداده الكثيرون من العلماء، وكتب بعضهم فصولا كاملة منه أمثال الدكتور د . إ . درى D.E. Derry الذى فحص جميع العظام الإنسانية وجزءاً من عظام الحيوانات، والآنسة د . م . ا . بيت D.M.A. Bate التى قامت بفحص ونشر بقايا الحفريات من عظام الحيوانات والزواحف ، وكان لتقريرها فضل كبير فى إماطة اللثام عن الصلة بين ثقافة سكان الخرطوم القديمة وغيرهم من سكان مناطق جنوب وغرب السودان ، بل سكان أفريقيا الشمالية والصحارى أيضاً . وتقريرها فى الحقيقة بحث علمى نفيس لا غنى عنه لأى مشتغل بآثار فجر التاريخ فى أفريقيا ، أو لأى باحث يهتم بما طرأ على أفريقيا من تغييرات جوية فى الخمسة آلاف عام الأخيرة .

فصول الكتاب :

يبدأ الكتاب بوصف الموقع وذكر تاريخ الحفائر والطريقة التى اتبعها الحفارون، وهى تقسيم الموقع إلى مربعات يحفرون منها واحدا بعد الآخر . وترى

(١٤)

فى الفصل التالى وصفا جيولوجيا كاملا للمنطقة وخاصة هذا التل ، ويناقش المؤلف فيه عمر هذا الموقع ، ويرسم قطاعات مختلفة له ، ويوضح ما طرأ عليه من تغيرات على ممر العصور الحديثة . ويلى هذا الفصل فصل آخر هو تقرير الأستاذ « درى » عن الحيوانات التى وجد الحفارون بعض بقاياها ، وأهمها التمساح والقنفذ وفرس البحر والجاموس ، ثم بعض أنواع الأسماك والأغنام والآرام ، ثم الزواحف والحيوانات المفترسة . وأهم شىء جديد عنى الأستاذ درى بدراسته والتعليق عليه هو ما عرف فيه بقايا فأر القصب ، وهو نوع من فصيلة لم تكن معروفة للعلماء من قبل ، وكان الفضل للآنسة « بيت » فى معرفته ، وأصبح اسمه العلمى الآن : Thryonomys arkelli Bate-Arkell's Reed Rat ، وهى فصيلة من نوع انقرض الآن من شمال السودان ، ولا يعيش إلا فى مناطق تنزل فيها أمطار كثيرة وتكون أشبه بالمستنقعات .

وفى فصل آخر يستمر الأستاذ « درى » فى تقاريره العلمية عن العظام ، وأهم ما فى هذا الفصل مناقشته لجمجمة لإنسان عثر عليها فى الحفائر وقارنها بالجماجم التى عثرت عليها بعثة السير هنرى ولكم فى جبل مويا بسنار أى على بعد ٣٢٠ كيلو مترا جنوبى الخرطوم وخرج درى من بحثه العلمى بأن سكان الخرطوم القدماء كانوا من النيليين Nilotics ، ومن المحتمل جداً أنهم كانوا يعيشون على صيد الحيوانات والأسماك ، وأنهم من جنس متزنج Negroid ضخم الجسم ، وكان من عادتهم خلع القواطع السفلى من أسنانهم .

ووجد الحفارون فى المقابر بعض الألوان وخاصة من أوكسيدات الحديد والخرز المصنوع من الحجر الجيرى أو من بيض النعام ، كما ثبت أيضاً أن بعض العقود لم تكن إلا من عظام السلسلة الفقرية لثعبان البيتون ، وكانوا يلبسونها حول الذراع أو الساق . وما زال بعض أهالى الدنكا والنوير فى جنوبى السودان يلبسون إلى الآن حول وسطهم أحزمة من فقرات البيتون ، ويعتقدون أنها تحمى لابسها من أثر السحر ، كما تحمى ماشيته وتزيد من عددها .

وكشفت الحفائر عن عدد كبير من آلات الظران المختلفة ، وهى مصنوعة من الكوارتز ، وأكثرها صغير الحجم . وأثبتت دراستها أنها ترجع فى تاريخها إلى عصر « الباليولوتى الأعلى » ، وهى مجموعة تكاد تكون كاملة لمختلف الأدوات ،

نشرها الأستاذ أركل نشراً وافيا بصورها الفوتوغرافية مع رسم بالريشة بالحجم الطبيعى . ويلى آلات الظران فى الكثرة والأهمية قطع الفخار ، وبالرغم من أن جميع المقابر وجدت مسروقة وجميع الأوانى مكسورة ، فإن بقاياها كانت كافية لعمل تقرير واف عن صناعتها ، ومقارنتها بالأوانى الفخارية الأخرى المعروفة لنا من عصر ما قبل الأسرات فى مصر . وخاصة التى ظهرت من حفائر نقادة وكانوا يصنعون سطح الفخار مزخرفاً ، إما بواسطة أمشاط من عظام الأسماك المختلفة أو بواسطة جسم صلب .

وعثر الأستاذ أركل أيضاً على كثير من الفخار يرجع إلى عصر فجر التاريخ ، ويشابه نظائره فى مصر ، وخاصة ما جاء من حفائر « المس كيتون تومسون » فى الفيوم . ونشر المؤلف فى هذا الفصل بعض الأوانى السليمة التى عثر عليها من قبل فى أم درمان وهذه تشبه إلى أبعد الحدود الفخار الذى عثر عليه فى مصر قبيل ظهور الأسرات .

ومما وجد فى هذا الموقع بعض أشياء مصنوعة من العظام . مثل رءوس الحراب وخطافات الصيد ذات الشعب والسهام (؟) ، كما وجدت أيضاً عشرة مخارز لثقب الجلد . وكانت بعض قطع العظام مزخرفة بخطوط متقاطعة ، وربما كان بعضها قطعا من أجزاء من قلائد تعلق فى العنق أو حول الذراع .

ويمكن تلخيص نتائج حفائر الخرطوم فى النقط الآتية :

أولا — أن السكان الأقدمين لهذه المنطقة كانوا يعيشون جزءاً من السنة على مرتفع من الرمل على شاطىء النيل الأزرق ، وهم فى ذلك يشبهون الدنكا فى منطقة بور الذين يعيشون جانبا من السنة فى أماكن على النيل تغمرها بعد ذلك مياه الفيضان .

ثانيا — يختلف سكان الخرطوم القدماء عن الدنكا الحاليين فى مظهر أجسامهم ، وأنهم كانوا يخلعون القواطع السفلى من أسنانهم ، بينما يخلع الدنكا القواطع العليا ، وبينما يعتمد الدنكا فى حياتهم كثيراً على صيد الحيوانات وصيد الأسماك ، فإنهم يعنون عناية كبرى بتربية الماشية ، أما سكان الخرطوم القدماء فإنهم كانوا يعتمدون على الصيد فقط .

ثالثا — يمكننا أن نقول إنهم كانوا يصطادون السمك بالسنارة وبالشباك ، كما كانوا يصطادونه أيضاً بالحربة وبالسهام . ومن المرجح أنهم كانوا

يصطادون الحيوانات الكبيرة ، كالفيل والجاموس وفرس البحر ووحيد القرن، بواسطة نصب الفخاخ وليس بالخطاف الذى كان يقتصر على صيد السمك .

رابعاً – كانوا يستخدمون فى صيد الحيوانات أو الدفاع عن أنفسهم عصيا قصيرة ثبتت فى أطرافها أحجار مثقوبة ، وهى بلاشك أصل الدبوس الذى عرف فيما بعد .

خامساً – يرجح الأستاذ أركل أن أهل هذه المنطقة كانوا ينامون على حصير مصنوع بشكل يماثل ما يقوم بصنعه الآن الطوارق فى منطقة « أير » ، وكذلك سكان أم جلول فى شمال دارفور الذين يؤكدون نسبتهم إلى العرب ، ولكنهم على الأرجح من سكان ليبيا الذين وفدوا من شمال أفريقيا .

سادسا – كان سكان الخرطوم القدماء يستعملون الطاحون لطحن الحبوب ،ولسنا نستطيع فى الوقت الحاضر التكهن بنوع هذه الحبوب، ولكنه يمكننا أن نشير إلى أنه جرت العادة عندما يقل محصول الحبوب المنزرعة فى بلاد الزغاوة فى دارفور الشمالية وفى بلاد الطوارق ، وهى المنطقة الواقعة بين الخرطوم والصحراء الكبرى ، أن يعمد الأهالى إلى الحصول على بعض حبوب الحشائش التى تنمو فى تلك البلاد ويطحنونها ويأكلونها . ولكن المؤلف لا يجزم باستعمال الطاحون لأجل الحبوب، بل يقول أنها ربما كانت لطحن المغرة الصفراء والخضراء التى كانوا يستعملونها لتلوين الطين لعمل الفخار .

سابعا – أثبت وجود بقايا بعض الحيوانات أن معدل نزول الأمطار فى العصر القديم لا بد أنه كان أعلى بكثير من الوقت الحالى ، فقد لوحظ وجود بعض فصائل الحلزونات snails التى لا يمكن أن تعيش فى بقعة تقل أمطارها عن ٤٠٠ مليمترا فى السنة وفى جو رطب مستمر ، بينما لا يزيد متوسط نزول الأمطار فى الخرطوم الآن عن ١٦٤ مليمترا ، ويسقط فى المدة ما بين مايو ، وأكتوبر وأكثرها فى شهرى يوليه وأغسطس .

ومما يرجح كثرة الأمطار فى العصر القديم أن بقايا الآرام تدل على وفرتها إذ كانت طعاما محبوبا من السكان ، وهذا النوع من الغزلان لا يعيش إلا حيث يتوفر المرعى والكلأ . أما فى الوقت الحاضر فنظراً لقلة الأمطار، فإن هذا النوع قد انقرض من المنطقة ، وأصبح لا يوجد إلا فى مناطق أخرى متباعدة . وهناك دليل قوى آخر على وفرة الأمطار فى العصر القديم ، وهو

وجود فأر القصب الذى أشرنا إليه ، فإنه لا يوجد الآن إلا فى أقصى الجنوب والغرب فى السودان ، حيث يكثر المطر وتسود المستنقعات .

ثامنا — إن مقارنة قطع فخار هذا الموقع ، مع ما سبق أن وصل إلى يد العلماء من الفخار القديم الذى وجدوه فى هذا الجزء من السودان ، يجعلنا نعتقد أن أقدم ما وصل إلينا من هذا المكان يرجع تاريخه إلى العصر الميسوليتى ، ويطلق عليه المؤلف اسم ثقافة الخطوط المتموجة Wavy Line Culture ، ويليه بعد ذلك ما أطلق عليه اسم Gouge Culture ، إشارة إلى إحدى الآلات الظرانية التى كانت تستعمل فى هذا العصر ، وكانت تمتاز بانحناء سطحها ، ثم ثقافة جسر أم درمان ، وهما موقعان جاءت منهما آثار من العصور القديمة جداً . ويرى المؤلف أنه إلى أن يتم حفر المناطق كلها حفراً علمياً كاملا يمكننا أن نرجع ثقافة جسر أم درمان مؤقتا إلى عصر قبيل الأسرات Protodynastic (حوالى ٣٠٠٠ ق . م) وحضارة الأزميل المنحنى ، إلى عصر ما قبل الأسرات Predynastic . وهو يميل إلى اعتبار ثقافة الخطوط المنحنية ، وهى التى يعود إليها تاريخ منطقة الخرطوم القديمة إلى العصر الميسوليتى ، وهو السابق لما قبل الأسرات ، ويتساءل عما إذا كان من المتيسر مقارنته بالثقافة الناتوفية Natufian فى فلسطين وفى بعض ما بدأ يظهر فى السنين الأخيرة فى جنوبى أوربا من ثقافات من هذا العصر الذى أخذ فيه استعمال الفخار فى الظهور .

تاسعا — وإذا قارنا مجموعة آلات الظران بمثيلاتها ، فإننا نرى أن بعضها يمكن وصفه بأنه يرجع إلى عصر الپاليولوتى الأعلى ، ويشبه فى بعض مظاهره أمثاله من الآلات الظرانية التى عثر عليها فى شمال أفريقيا من النوع المسمى كپسى Capsian ، وما عثر عليه فى مصر من السبيلى الأعلى Upper Sebilian ، وما وصل إلينا من ولتون فى جنوب أفريقيا . وهذه المقارنة ترجح كثيراً أن ثقافة هذا الموقع من الحقبة الميسوليتية يؤيد ذلك نوع الخطاف الذى كان يستعمله أهلها ، والذى يرى مؤلف الكتاب أنه أقدم مما عثر عليه فى الفيوم ويرجع تاريخه إلى الحقبة النيوليتية .

عاشراً — لا شك فى أن هناك تشابها فى بعض مظاهر ثقافة شمال السودان مع ما عثر عليه الباحثون فى غرب السودان ، وفى الصحارى ، وفى شمال أفريقيا ،

مما يدل على وجود صلات بين سكان هذه المناطق كلها فى العصور القديمة .

حادى عشر - أن نتائج حفائر الخرطوم تفتح من جديد موضوع أصل قدماء المصريين وأصل حضارتهم ، وما إذا كانت جاءت من الجنوب أو أتت مع قوم سمر اللون وفدوا من آسيا . وبالرغم من أن مؤلف الكتاب تحاشى أن يسرف فى مناقشة هذه النقطة ، فإنه يظهر من ثنايا كتابته أنه يميل إلى الأخذ بأن حضارة قدماء المصريين جاءت من الجنوب ، ويستدل بما ذكره الكاتب الرومانى ديودور من أن المصريين أنفسهم يقولون ذلك .

هذه هى أهم النتائج التى أسفرت عنها حفائر الخرطوم والتى نشرها الأستاذ أركل فى مؤلفه الهام ، وهى نتائج يرحب بها كل الترحيب جميع المشتغلين بالآثار ، وخاصة من يعنيهم أمر منشأ الحضارة فى وادى النيل .

والكتاب فى حد ذاته تقرير عن موسم للحفائر، ومثل لدقة العمل وتسجيل لكل ما ظهر فى الحفائر مهما قلت قيمته ، وهو أيضاً مظهر جميل لما يمكن أن يأتى من تعاون الإخصائيين المختلفين للوصول إلى النتائج العلمية .

وقد أحسن المؤلف بنشره هذا العدد الكبير من الصور الفوتوغرافية التى سجل فيها جميع مراحل العمل ،وكل ما وصل إلى يده من بقايا أثرية مهما قلت قيمتها ، حتى يمكن لأى باحث فى المستقبل أن يصل إلى ما يريد .

وقد كنا نرجو أن يتناول الأستاذ أركل فى مؤلفه الصلة بين شمال الوادى وجنوبه بشىء من التفصيل ، والمقارنة كما فعل مع ما جاء من آثار من الصحارى ، ومن غرب السودان، أو من سنار . ولكن ربما كان له العذر فى ذلك ، لأن كتابه ليس إلا تقريراً عن حفائر لم تتم ، وموضوع المقارنة مع ما ظهر من ثقافات فى أقدم عصور التاريخ المصرى موضوع متشعب شائك . ولكن مهما كان الأمر ، فإننا نرى جليا من نتائج حفائر الخرطوم أن وادى النيل شماله وجنوبه كان متأثراً بحضارة واحدة وهى الحضارة النيلة التى نشأت محليا على ضفاف النيل ، واستمدت أصولها من طبيعة البلاد وجوها ، ولكن نظراً لصلة شمال الوادى بالشعوب الأخرى، ووصول هجرات متتالية إليه من الجنوب ،ومن الغرب ،ومن بعض بلاد آسيا ،وخاصة من بلاد ما بين النهرين ، ومن البلاد التى كان يطلق عليها قدماء المصريين اسم بلاد پونت (وهى بلاد تشمل الصومال وجنوب الجزيرة العربية وليس

الصومال فقط كما ذكر الأستاذ أركل) ، فإن حضارة شمال الوادى أخذت تتأثر بعوامل أخرى غريبة ، بينما ظل جنوب الوادى بعيداً عنها فى تلك العصور . ولكن شمال الوادى وجنوبه كانا ذا صلة وثيقة بما كان فى غرب النيل من سكان وحضارات .

واتجاه العلماء فى السنين الأخيرة اتجاه صريح فى اعتبار أصل قدماء المصريين من الجنوب ، وأن حضارة الوادى كانت حضارة واحدة وثقافة متصلة ، ونرى ذلك واضحا فى آخر كتاب صدر عن هذا الموضوع وهو كتاب الدكتورة باوم جرتل (Elise J. Baumgartel; The Culture of Prehistoric Egypt. Exford., 1947). إذ تعتقد مؤلفته أن سكان مصر فى عصر ما قبل الأسرات جاءوها من الجنوب ، وقد جاءت حفائر الخرطوم مؤيدة لذلك . ونحن نرجو أن تلقى الحفائر فى منطقة الخرطوم وأم درمان شيئاً من الضوء على أثر الثقافتين اللتين جاءتا بعد ثقافة هذا الموقع ، لأن ثقافة سكان الخرطوم القديمة هى أقدم الثقافات المكتشفة ، وكانت لجنس فيه الكثير من الدم الزنجى ، ولكن الحضارتين الثانيتين أحدث منها ومعاصرة لعصر ما قبل الأسرات فى مصر . وربما كان هناك أثر فى هذه البقعة من وادى النيل للجنس الأسمر الحامى الذى ظهر فى ذلك الوقت فى الشمال ، وربما كشفت الحفائر فى السودان عن أصله ، وعما إذا كان قد وفد إلى وادى النيل من الشرق أو من الغرب ، وأين كان موطنه الأصلى .

وأرى من واجبى قبل أن أختتم هذا التعريف أن أهنىء الأستاذ أركل على مجهوده العظيم ، وإسراعه فى نشر مؤلفه فى مثل هذا الإتقان ، إذ أننا فى أشد الحاجة إلى أمثاله لجمع المعلومات اللازمة لدراسة تاريخ وادى النيل وأصل المصريين القدماء وحضاراتهم .

أحمد فخرى

مؤلف أديسون عن جبل مويا بالسودان

(Frank Addison: Jebel Moya. The Wellcome Excavations in the Sudan. Oxford Universtiy Press, 1949, 2 Vols).

فى عام ١٩١٠ بدأ السير هنرى ولكم Sir Henry Wellcome حفائره فى منطقة جبل مويا، على مقربة من سنار فى السودان ، واستمرت هذه الحفائر أربعة مواسم حتى توقفت فى عام ١٩١٤ ؛ وكان من عادة رئيس البعثة أن ينقل كل ما يخرج من الأرض إلى إنجلترا حتى بلغ ذلك أطنانا عديدة . وبالرغم من أن السير هنرى عاش حتى عام ١٩٣٦ ، فإنه لم ينشر نتائج حفائره فى حياته ، بل طلب فى وصيته أن يقوم المشرفون على إدارة ثروته الطائلة التى خلفها من بعده لتقدم الأبحاث العلمية بإتمام حفائره ونشرها نشراً علميا كاملا . وذكر فى وصيته أن يقوم الدكتور ريزنر بنشر الجزء الأثرى ، وأن يقوم الدكتور آرثر كيث بنشر التقرير اللازم عن العظام . ولكن كلا العالمين الكبيرين لم يتيسر لهما قبول هذا العرض ، وقام غيرهما بتنفيذ ذلك .

وإذا رجعنا إلى تاريخ هذه الحفائر، وما اعترض طريقها من صعوبات منذ البدء فيها ، لا تمسنا العذر للمؤلف ومعاونيه، فإن السير هنرى ولكم كان يغير أكثر مساعديه فى كل موسم ، ومات بعضهم فى الحرب العالمية الأولى ومضت فترة طويلة مات فيها آخرون . ولم يكد العمل يبدأ بعد عام ١٩٣٦ فى حصر المعلومات ، وترتيب عشرات الأطنان من قطع الفخار والعظام والأشياء الأخرى ، حتى قامت الحرب العالمية الثانية، فحالت بين بعضهم وبين إتمام العمل . ولكن هذا كله لم يفل من عزيمة منفذى الوصية، وها هى ثمرة مجهود الذين قاموا بنشر الجانب الأثرى بين أيدينا . أما رغبة السير هنرى فى إتمام حفائره فقد صرف النظر عنها .

والكتاب الذى بين أيدينا ليس إلا ثمرة لمجهود عشرات ممن عملوا أثناء الحفائر ، ومجهود المؤلف ومن عاونوه ، وخاصة المستر كيرون الذى كان يحفر فى بلاد النوبة مع بعثة الحكومة المصرية قبل تعلية خزان أسوان الأخيرة،

والأستاذ لاكاى الذى يعمل فى متحف ولكم Wellcome التاريخى الطبى، وبعض المساعدين الآخرين .

يقع جبل مويا فى الجزء الجنوبى من أرض الجزيرة، بين النيلين الأبيض والأزرق، على مسافة ثلاثين كيلومترا جنوبى سنار القديمة، على مقربة من محطة السكة الحديدية المعروفة بهذا الاسم على الخط الموصل بين سنار وكوستى . وقد ظل العمل فى هذا الموقع طيلة المواسم الأربعة، ولكن فى الوقت ذاته امتد نشاط بعثة الخمر إلى موقعين آخرين فى المنطقة، وهما « سجدى » و « دار الملك » ، ولكن المؤلف الحالى اقتصر على نتائج حفائر جبل مويا فقط . والجزء الأول من الكتاب يحتوى على وصف الآثار والنتائج االعلمية، أما الجزء الثانى فقد اقتصر على الصور الفوتوغرافية والرسوم .

فصول الكتاب :

والجزء الأول مقسم إلى تسعة فصول، يليها سجل عام لمحتويات المقابر والمتاحف التى أهديت إليها ، ففى الفصل الأول نرى وصفاً للموقع نفسه ، وسير العمل ، فيه وتوضيح الطرق التى استعملها القائمون بالعمل لتسجيل الآثار ، ووصف المقابر ، مع مناقشة طبيعة الأرض من الناحية الجيولوجية . ويتناول الفصل الثانى وصفا عاما للمقابر المكتشفة التى يبلغ عددها ٢٧٩٢ ، بعضها للرجال وبعضها للنساء والقليل منها للأطفال . وأقدم المقابر التى عثر عليها الحمارون هى ما كان فيها جسم الميت على هيئة الجنين، ومدفونا فى مقابر بيضاوية الشكل ، ولكن فى العصور التالية أخذ السكان يدفنون موتاهم فى الوضع الطبيعى ودون أن يراعوا اتجاها خاصا للرأس .

ومما هو جدير بالذكر أن قدماء سكان جبل مويا كانوا يدفنون موتاهم دون لفائف أو توابيت، وكانت العادة أن يخلعوا القواطع من الفك الأسفل . وعادة خلع القواطع من الفك الأسفل أثناء الحياة مازالت مستعملة إلى الآن بين النساء والرجال على السواء فى بعض بلاد السودان الجنوبية ، مثل جبل تالودى وبين الأنواك والبارى والكوكو والنوير والدنكا والشلوك وغيرهم ، كما ثبت أيضاً أن بعض المدفونين كانوا يمارسون عادة نشر بعض الأسنان . ولم تخل مقابر جبل مويا من مدافن الحيوانات التى كانوا يقتلونها ويدفنونها

مع أصحابها أو على حدة وهذه . الحيوانات تنحصر فى البقرة والكلب فقط .

ومحتويات المقابر بسيطة وكانت توضع حول الجثة ، وأهمها جميعا بقايا الأوانى ، وأحجار الظران، والخرز الذى كان فى العقود ، أو الأساور المصنوعة من الفخار والأحجار . ولكن أهمها وأعمها هى الحليات المصنوعة من الحجر أو الفخار أو العظم وأحيانا من الكوارتز أو العاج، وكانت توضع فى ثقب فى الشفة . وقد أحضر السير « ولكم » من هذه الحليات الغريبة نحو ٢٨٠٠٠ قطعة تختلف أحجامها ، وبعضها بلغ طوله نحو ١٣٫٥ سم . ولكن لم تخل هذه المقابر من بعض الآثار الأخرى الصغيرة التى ربما جاءت إلى جبل مويا من مروى ، أو من نباتا ، وفيها أثر الفن المصرى ، مثل التمائم والجعارين وغيرها .

وفى الفصل الثالث من الكتاب وصف لبقايا المساكن التى عثروا عليها هناك، وأهم ما فيها هى الأفران . أما الفصل الرابع فقد خصصه المؤلف للخرز والتمائم والجعلان والتعاليق . وبعض الخرز مصنوع من قشر بيض النعام ، والبعض الآخر مصنوع من أحجار أخرى ، وقد ظهر من فحص هذه الجعلان والتمائم المكتوبة أنها ربما جاءت من نباتا ، وأن تاريخها يرجع إلى هذا العصر أى بعد عام ٩٠٠ ق . م

أما الفصل الخامس ، فقد خصصه المؤلف للحليات والأسلحة والأدوات والتماثيل الصغيرة ، وفيه يتحدث عن حليات الشفاه والتى وجد أكثرها على سطح الأرض وفى الرديم . أما ما وجد فى المقابر ، فلا يزيد عن ١٠٥٨ فقط . وقد ناقش المؤلف طويلا هذه العادة وسببها وانتشارها الآن فى السودان . أما الحليات الأخرى فكانت من النوع نفسه للأذن ، وربما للأنف أيضاً ، كما ظهر من الحفائر أنهم كانوا يتحلون بأساور أكثرها من العاج أو العظم ، والقليل منها من الحجر أو الفخار أو النحاس أو الحديد . وكان استعمالها عاما بين الرجال والنساء .

وفى هذا الفصل أيضاً ذكر للتماثيل الصغيرة المصنوعة من الطين المحروق للحيوانات المختلفة والأشكال الإنسانية ، وناقش المؤلف وجه المفاضلة بين الرأى القائل بأنها من صنع الأطفال كدمى يلعبون بها ، وبين الرأى القائل بأنها كانت قرابين يقدمها القدماء لآلهتهم ، طلبا لرضاها أو اتقاء لما يجلبه غضبها من أذى .

وفى الفصل السادس وصف للأدوات المصنوعة من الأحجار ، وأكثرها فؤوس أو مطارق أو أزاميل ورؤوس دبابيس للقتال ، أو قوالب لعمل الخرز ، أو حلقات للبسها فى الأذرع . ويرجح المؤلف أن هذه الأساور الحجرية — وبعضها مصنوع من أنواع صلبة لا يسهل كسرها — قد كسرت عمدا بواسطة أجسام ثقيلة أخرى ، عندما يتقرر عدم استعمالها لغرض من الأغراض. أما الفصل السابع فمن وضع الأستاذ لاكاى ، وقد تحدث فيه عن الآلات الظرانية ، ومال فيه إلى القول بأن ثقافة سكان المنطقة الأولين تشبه غيرها من ثقافات العصر النيوليتى فى البلاد الأفريقية الأخرى ، ومال إلى مقارنتها مع مثيلاتها التى عثر عليها فى مصر وفى شمال أفريقيا .

أما الفصل الثامن فقد خصصه للفخار ، وقارن بين الفخار الذى ما زال يصنع فى بعض جهات السودان النائية إلى اليوم وبعض الفخار القديم الذى سبق للأثريين العثور عليه من عصور مروى ونباتا وفى بلدة كرمه . ويخرج المؤلف من بحثه الطويل بأن كل ما يستطيع قوله هو أن أقدم الأوانى يرجع تاريخها إلى ما قبل عام ٦٠٠ ق.م ، والمتأخر منها يمكن نسبته إلى القرن الأول ، أو ربما القرن الثانى بعد الميلاد . ولكنه يستدرك فيقول إن هذا البحث ما هو إلا بحث تمهيدى ، وإنه لا يمكن وضع تاريخ ثابت للفخار أو للمنطقة بوجه عام إلا بعد أبحاث طويلة فى جبل مويا وفى غيرها من المناطق ، وإنه يرى تاريخ هذا الفخار مشكلة ما زالت تنتظر الحل ، ويختم الفصل بقوله : « إن أفريقيا ما زالت القارة الغامضة » .

أما آخر فصل فى الكتاب ، وهو الفصل التاسع ، فهو عن تاريخ المنطقة والنتائج التى جاءت بها الحفائر ، وهى لا تخرج عما أورده فى الفصول المختلفة .

والآن وقد انتهينا من عرض مواضيع هذا الكتاب ونتيجة هذه الحفائر ، فإنه من الواجب عرض بعض الملاحظات :

(ا) ردد المؤلف النظرية القديمة القائلة بأن ملوك أثيوبيا الذين أسسوا مملكة مروى وحكموا بعد ذلك مصر ، وهم ملوك الأسرة الخامسة والعشرين ، جاءوا إلى السودان من الصحراء الغربية حوالى ٩٠٠ ق.م ، واستقروا فيها فاتحين (ص — ٢٤٩). ويستدل على ذلك بما سبق أن قاله مرة الأستاذ ريزنر منذ أكثر من ثلاثين عاما ، مع أن الرأى العلمى السائد بين جميع العلماء أن

هذه الأسرة أسسها كهنة آمون الذين هاجروا إلى السودان عندما أراد ششنق الأول (الأسرة ٢٢) الحد من سلطانهم، ولهذا فإن مملكة نباتا ليست إلا فرعا من الدوحة الأصلية ، كما أن بعنخى وطهراقا وغيرهما من الملوك فى الجنوب لم يلقبوا أنفسهم إلا بألقاب الفراعنة ، وكانوا يعتبرون الملوك الذين فى الشمال مغتصبين لعرشهم الذى استرجعوه فيما بعد (الأسرة ٢٥) .

(ب) أنكر مؤلف الكتاب بقوة فى أكثر من موضع أن أقدم آثار جبل مويا يمكن نسبتها إلى عصر فجر التاريخ ، ويقول إن أقدم التمائم والجعلان والخرز لا يمكن نسبته إلا إلى عصر بين ٧٥٠ — ٥٥٠ ق.م . ولكن صناعة بعض أدوات الظران ، ومقارنة بعض الفخار بما وجده الأستاذ أركل فى جبانة الخرطوم وجبانة أم درمان فى الشمال، تجعلنا لا نقبل هذا القول إلا بتحفظ ، بل مع الشك الكثير .

(ج) إن نتائج حفائر جبل مويا وخاصة الأوانى الفخارية ، عززت إلى حد كبير النظرية التى تقدم بها العالم النمساوى « ارنست تسيلهارتز » فى عام ١٩٢٨ عن أصل اللغة النوبية وهجرة المتكلمين بها، وملخصها أن موطن هذه اللغة هو بلاد كردفان وليس على ضفاف النيل ، وأن الجنس النوبى كان ينقسم إلى قسمين يتكلم كل منهما لهجة خاصة . وقد هاجر أحد الفرعين إلى الغرب ووصل إلى النيل ، أما الفرع الثانى فبقى فى بلاده مدة طويلة ، ثم هاجر بعد ذلك إلى أرض الجزيرة فى السودان ، وكذلك فى جزيرة مروى ، ولكنه لم يصطدم حربيا مع أهلها . ويرى تسيلهارتز أن انتشار اللغة العربية لم يؤثر على الفرع الأول كثير ، ولكنه أثر على الفرع الثانى ، فأخذ المتكلمون باللغة الأصلية يقلون ثم أخذوا يتراجعون إلى الجنوب حتى انحصروا الآن فى جبال النوبة فى جنوب السودان ، بينما استمر أبناء عمهم فى الشمال ومنهم سكان بلاد النوبة جنوبى أسوان وحول وادى حلفا يتكلمون لغتهم إلى الآن .

ومن المحتمل جداً أن يكون سكان جبل مويا القدماء ممن ينتمون إلى الفرع الثانى ، وهذا يفسر لنا وجه الشبه بين فخارهم وفخار المزويين ، وكذلك الفخار الذى عثر عليه فى الخرطوم فخار النوبة الشمالية . وإذا رجعنا إلى بعض العادات التى كانت سائدة بين قدماء سكان جبل مويا ، مثل خلع القواطع السفلية ، ولبس الحليات الكبيرة فى الشفاه ، وتتبعنا استعمالها الحالى بين قبائل

السودان الجنوبية ، لأمكننا القول بأن هؤلاء الآخرين لا بد أنهم منحدرون من سلالة الأولين .

(د) ولكن كل هذه المناقشات لم تحل المعضلة الأصلية ، وهى من أين جاءت حضارة سكان جبل مويا القدماء ؟ . هل جاءتهم من الغرب ، أم جاءتهم من الشمال ؟ ومؤلف الكتاب يميل إلى القول بأنها جاءت من الغرب ، ويريد أن يصل إلى هذه النتيجة من القول بمشابهة أدوات الظران النيوليتية التى عثر عليها السير هنرى ولكم بما نعرفه من أمثالها التى جاءت من غرب أفريقيا ، أو من كردفان ، أو من الصحراء الكبرى . ولكنه يعود فى مكان آخر (ص ٢٥٩) ويقول بأن هذه النتيجة ليست مبنية على دليل حقيقى ، بل يزيد على ذلك فيقول بأنه لا يظن أن هناك دليلا أثريا يسلم من الشك يؤيد ما ذهب إليه . ونحن من جانبنا نوافقه على النتيجة الأخيرة التى وجد نفسه مضطراً إليها . ففى الواقع إذا كان هناك دليل على صلة ثقافية بين سكان جبل مويا القدماء وغيرهم ، فإنه يجب أن ننظر إلى الشمال ، وأن ندرس آثار سكان جبل مويا وعاداتهم فى ضوء صلة شمال وادى النيل بجنوبه وأثر حضارة الجنوب على الشمال ، فإن هذا أجدى بكثير ، وخصوصاً بعد أن بدأت الحفائر فى منطقة الخرطوم وأم درمان ، وثبتت صلة ما جاء منها من آثار بما سبق العثور عليه فى مراكز الحضارتين النباتية والمروية وفى دنقلة وفى بلاد النوبة .

(هـ) وهناك ملاحظة أخيرة — إن التصريح بحفائر السير هنرى ولكم أعطى له فى عام ١٩١٠ من مصلحة الآثار المصرية بالقاهرة ، وانتهت الحفائر عام ١٩١٤ وكان المفروض أن تتم قسمة الآثار فى نهاية موسم الحفائر . ولكن مصلحة الآثار جاملت القائمين بأمر هذه الحفائر ، فلم تطبق القانون فيما يختص بالقسمة ، وسمحت بشحن الآثار كلها إلى إنجلترا للدراسة ، وليس من شك فى أن نصف هذه الآثار كان يجب أن يؤول إلى الحكومة المصرية ، لأن هذه الحفائر قد انتهت قبل أن تنشأ إدارة الآثار السودانية بعد عام ١٩٢٤ .

وكنا نود أن يتذكر ذلك القائمون بأمر هذه الآثار ، فيرسلون إلى المتحف المصرى بعضا منها ، فإننا لو فهمنا تفضيلهم لمتحف الخرطوم أو المتحف البريطانى أو معهد الآثار بلندن أو الأشموليان بأكسفورد أو متحف بيت ريفرز فى المدينة نفسها أو متحف جامعة كمبردج ، فإنه يصعب علينا فهم

السبب فى تذكرهم متحف الإنسان بباريس ، أو متحف بيبودى فى ولاية ماساتشوتس بأمريكا أو متحف أونتاريو بكندا ، أو متحف كورنيدون بنيروبى فى كينيا ، ونسيانهم المتحف المصرى بالقاهرة .

وقبل أن أختم هذا التعريف أود أن أذكر أنه مهما كان رأى العلماء فى بعض ما جاء على صفحات هذا الكتاب من آراء ، فإننا نحمد للقائمين بأمر تركة السير هنرى ولكم نشر نتيجة الحفائر ، كما أننا نقدر كل التقدير المجهود الذى بذله المستر فرانك أديسون ومعاونوه فى نشر نتائج حفائر لم يقم بها واحد منهم ، وكانت تنقصهم فى أكثر الأحيان المعلومات الضرورية عن الآثار التى عثر عليها لتحديد صلة بعضها ببعض .

ويكفينا أن يكون ما جاء فى هذا الكتاب من معلومات ومن صور فوتوغرافية ورسوم بين أيدينا ، ليساعدنا فى تفهم حضارة الجزيرة فى السودان فى هذا العصر البعيد ، والمقارنة بين ثقافة سكان جبل مويا القدماء والثقافات الأخرى فى السودان ، ثم الصلة بينها وبين الثقافات الأخرى التى كانت فى مصر فى ذلك العهد .

أحمد فخرى

مؤلف الطرسوسى فى التاريخ الحربى على عهد الأيوبيين

Un Traité D'Armurerie Composé pour Saladin. (Claude Cahen: Extrait du Bulletin d'Etudes Orientales, Tome XII-1947-1948).

التاريخ الحربى ميدان جديد للقوامين على الدراسات التاريخية فى مصر ، على أنه قديم قدم التاريخ والإنسان معا فى مصر وغيرها من البلاد ، فى الشرق والغرب . وإذا خطوط هذا الميدان الجديد رُسمت بتأسيس المتحف الحربى الملكى ، وإذا نواة العمل فى ذلك المتحف الكبير وُضعت بما اجتمع فيه من معالم الجهود الحربية المصرية فى مختلف العصور ، لم يبق على الجيل الحاضر من المؤرخين إلا أن يرقب ما تجود به مكتبات الشرق والغرب من متون تاريخية فى فن الحرب والصناعات الحربية ، وأن يعتصر ما فيها من حقائق لمعرفة الطاقة المادية لهذا البلد أثناء تلك العصور الماضية ، ليستجلى منها ما استطاع أن يقوم به أهله من أعمال فى مضمار الحروب، وما تستلزمه الحروب من تجييش الجيوش وإعداد العدد .

ومن هذه المتون ما نشر كلود كاهن ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة ستراسبورج ، من مقتبسات هامة من مخطوطة عربية فى فن الحرب والصناعات الحربية المصرية على عصر الأيوبيين ، واسمها " تبصرة الألباب فى كيفية النجاة فى الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام فى العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء " ، واسم مؤلفها مرضى بن على بن مرضى الطرسوسى الذى عاش زمن صلاح الدين الأيوبى ، وكتب كتابه من باب الإعجاب بأعماله الحربية ضد الصليبيين بالشام، أو بناء على طلبه . وعاشر الطرسوسى من رجال الدولة الأيوبية رجلا عارفا بآلات الحرب وأنواعها ومصادرها ، محترفا صناعتها وأسرار تراكيبها ، وهو الشيخ أبو الحسن الأبرقى الإسكندرانى ، وكان هذا الرجل قبلا فى خدمة الوزير ضرغام أواخر أيام الدولة الفاطمية .

والكتاب على جانب من الأهمية ، لأنه — بادى القول — أقدم مخطوطة بين المخطوطات المعروفة حتى الآن فى فن الحرب والصناعات الحربية فى

مصر العصور الوسطى ، وما عداه من المخطوطات المقطوع بوجودها لا حق لها ، وهذه كثيرة ولكنها مبعثرة فى أشتات المكتبات بالشرق والغرب ، ومنها ما هو بالمكتبة الملكية بالقاهرة .

والكتاب — على أهميته هذه من الناحية العلمية البحتة — ظل مدفونا يعبر عليه السابقون للأستاذ كاهن ، دون أن يعيروه اهتماما . وأشباهه من المخطوطات العربية الصغيرة غير قليل لم يمسسه انتباه العاملين على التاريخ المصرى من المعاصرين ، لانصرافهم مضطرين حتى العصر الحاضر إلى الأمهات الكبرى والحوليات العامة ، أو لقلة المعرفة لديهم بأمثال مؤلف هذا الكتاب ، أو لغموض التعريف بالكتاب نفسه ومحتوياته ، كما هى الحال فعلا فى فهرس المخطوطات العربية بجامعة أكسفورد ، وهو الفهرس الذى عثر فيه الأستاذ كاهن على هذا الكتاب (Bodl. Hunt. 264) .

وأهمية ثانية لهذا الكتاب أنه يصف جميع أنواع الأسلحة المعروفة فى مصر على عهد الأيوبيين ، كما يصف وسائل صناعتها ، فضلا عن قطعة بديعة فى فن الحرب ، وذلك على حين أن الكتب الأخرى فى فن الحرب والصناعات الحربية تكاد تقتصر على ذكر النشابين والفرسان .

ولهاتين الأهميتين — وهما ليستا كل ما لهذا الكتاب من أهميات — تمنيت لو أن الأستاذ كاهن نشر هذا الكتاب بنصه وفصه ، ولم يقتصر على مقتبسات مجتزأة منه فحسب ، وذلك برغم ما أدلى به من أسباب علمية داعية للقنوع بالاقتباس والاجتزاء ، لأن حاجتنا فى مصر إلى مثل وأمثال من هذا الكتاب لا تقنع بما فيه من مادة فنية أو علمية خالصة ، بل تتعداها إلى حاجتنا إلى إحياء تراثنا القومى كاملا غير منقوص ، حبا فى إظهاره بحاله الأصلية ، وأملا فى التعرف منه على ما قد لا يهم الباحثين من المستشرقين الأوربيين ، ورغبة فى الاعتراف بالجميل للسابقين اعترافا لا يشوبه اختصار .

ومع هذا للأستاذ كاهن الشكر الموفور على ما أنجزه من نشر مقتبساته بلغتها ، ثم ترجمتها إلى العربية وتحشيتها بحواش أوضحت المتن كل الإيضاح . وأحب أن أنبه القارىء إلى هذه الحواشى الدقيقة ، لأنها من الناحية العلمية معين دافق للمتوفرين على التاريخ الحربى ، ومن الناحية الفنية نموذج للراغبين فى نشر المخطوطات العربية وإجلائها للباحثين .

أما الأهميات الأخرى لهذا الكتاب – وهى مما يزيد فى تقدير عمل الأستاذ كاهن – فهى أولا أن المتن يفيض بألفاظ اصطلاحية فنية فى صناعة آلات الحرب ، فضلا عن أسماء المواد التى احتاجت إليها تلك الصناعة ، مثل الحديد النرماهن والشبرقان والتنكار (ص ٤) ، والتوز ودهن الفراغ (ص ٦) ، وخشب التخشن وخشب الزبوج (ص ٨) ، وحديد الأسطام والسمار (١٣) ، وغيرها مما عنى الأستاذ كاهن بإيراد مرادفه فى الفرنسية الحديثة ، وشرحه فى الحواشى من المراجع التى استقامت له أثناء عمله . والمتن يفيض كذلك بأسماء جرت مجرى المصطلح المتواتر عند الإخصائيين فى فن الحرب والصناعات الحربية، مثل قوس الجراد الذى سمى بذلك لأن صنْعة مجراها تجعل سهامها مرصوصة على هيئة خاصة " فإذا دفعها الوتر خرجت كالجراد المنتشر دفعة واحدة (ص ٩)" ومثل الرسالة ، وهى مدفع السهم (ص١٠) ، والضفدعة ، وهى " قطعة من خشب الأبنوس تجعل فى تجويف الرمح وهى التى تدفع السهم " (ص ١٢) ، وهكذا مما يدرك أهميته الباحثون وراء ألفاظ الصناعات الحربية والتصنيع والترشيد والميكنة .

محمد مصطفى زيادة

مؤلفان فى أحوال مصر الاقتصادية والاجتماعية

1. Warriner (Doreen) : Land and Poverty in the Middle East.
2. A. El Geritly : The Structure of Modern Industry in Egypt.

الكتاب الأول بحث تولته سيدة بريطانية اسمها دورين وارينر (Doreen Warriner) تحت إشراف المعهد البريطانى لدراســة الشئون الدولية ، ونشرته فى الأسابيع القريبة الماضية ، تحت عنوان « الأرض والفقر فى الشرق الأوسط » . والكتاب الثانى بحث قام به عالم مصرى شاب من خيرة خريجى المعاهد المصرية والبريطانية ، وهو الدكتور الجريتلى ، للحصول على درجة الدكتوراه فى جامعة لندرة ، وعنوانه « قوام الصناعة الحديثة فى مصر » . وقد نشرت البحث برمته جمعية فؤاد الأول للاقتصاد والتشريع فى عدد نوفمبر — ديسمبر ١٩٤٧ من مجلتها .

ويتصل كتاب « الأرض والفقر فى الشرق الأوسط » من حيث الظروف بأمرين ، يتصل أولا بفترة الحرب العالمية الثانية ، عندما خضعت أقاليم الشرق الأوسط وأهلوها لسيطرة الدول العظمى المحاربة لألمانيا وإيطاليا ، وحُوِّل توجيه شئون تلك الأقاليم الاقتصادية نحو ما يضمن حسن استغلالها فى سبيل نيل النصر . وكان من أثر ذلك أن جُمعت تلك الأقاليم فى نظرة اقتصادية واحدة ، فألفت لوضع سياسة تدبيرية واحدة لها هيئة واحدة ، هى « مركز تموين الشرق الأوسط » . وكان مما قامت به هذه الهيئة أن استعانت من جهة بالإخصائيين من أهل تلك الأقاليم فى وضع سلاسل من البحوث والدراسات المتصلة بموارد الغذاء فى الشرق الأوسط ، من حيث عوامل إنتاجها ، ومن حيث ما تتعرض له من الآفات والنكبات ، كما إنها استقدمت — من جهة أخرى — طائفة من العلماء الأوربيين والأمريكيين للمشاركة فى هذه البحوث والدراسات . وكتاب « الأرض والفقر فى الشرق الأوسط » يتصل اتصالا وثيقا — فيما أرى — من حيث تنظيم المادة ، وتنسيق الفصول ، بل

اتجاه التفكير والمنهج ، بتلك البحوث والدراسات المشار إليها .

وينبغى ألا يفوتنى — قبل أن أنتقل لبيان الأمر الآخر الذى يتصل به الكتاب — أن أشير إلى أن الحكومات العربية لم تحاول بعد إنتهاء الحرب — وهذا فيما أعلم — أن تحول لمنفعة العرب تلك الأدوات والهيئات التى خلفها الحلفاء أثناء الحرب ، وذلك على الرغم من أن خلق جامعة الدول العربية بأماناتها العامة ولجانها المختلفة كان يسمح — بل كان يقتضى — ذلك التحويل . وربما يرجع ذلك إلى أننا كرهنا تلك الحرب ، وكرهنا كل ما أنزلته بنا ، من تحكم فى المصير ، ومن تصرف الأجنبى فيما نريد وفيما نملك ؛ فكرهنا سياسة التدبير الموحدة ، وأدوات تلك السياسة . وهذه حالة تزول ، وسنعود لها — نحن العرب بعد حين .

قلت إن كتاب الأرض والفقر يتصل بعهد الحرب ، وهو يتصل أيضاً بأمر خارجى آخر ، يتصل بما يعلنه بعض الساسة المسئولين فى أوربا وأمريكا من وقت لآخر عما يضمرونه من حب أكيد ورغبة صادقة فى معاونة أهل الشرق الأوسط على مكافحة الفقر المدقع الذى هم عليه ، والنهوض بهم إلى مستوى المعيشة اللائق به . وليس من شأنى أن أدعو الناس إلى تصديق ذلك أو عدم تصديقه ، ولكن علىّ أن أقرر أن ثمّ هيئات دولية ، كالمجلس الاقتصادى والاجتماعى ، وهيئة الصحة العالمية ، وهيئة التغذية والزراعة ، وهيئة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم — وإننا جميعا من عرب وغير عرب نسهم فى تلك الهيئات — أن نطاقها يتسع لكل ضروب التعاون ، لننتقل إليها ، ولنترك كل ما يؤدى إلى عودة مناطق النفوذ والامتياز ، فقد صممنا على ألا تعود .

حملنى على أن أقرن كتاب « الأرض والفقر » بدعاوى الساسة ما ورد فى الكتاب — على الرغم من سمته العلمية — من بعض العبارات والادعاءات ، منها العبارة الافتتاحية : « الجوع البالغ حد المجاعة ، الوباء ، نسب الوفيات العالية ، محو التربة ، الاستغلال الاقتصادى — من هذه العناصر تتكون الحياة لسواد الفلاحين فى الشرق الأوسط . » — وقولها إن مستوى الحياة لا يمكن أن ينزل عما هو عليه ، فما دونه إلا الموت . » ، وهكذا — ثم إن تعميم نسبة الاستغلال للملاك الزراعيين جميعا ، وتجنب الإشارة للجهود

التى تبذل فى أنحاء الشرق الأوسط لخدمة الفلاحين ، تنقص كثيراً من قيمة الكتاب العلمية ، وتبعث القارىء على ألا يعطيه ما يستحقه من عناية .

وإنى أعتقد أن المؤلفة كانت تسدى إلى كتابها خيراً لو أنها اتبعت طريقة أخرى فى عرض مادتها : طريقة التحليل الاجتماعى التاريخى للطبقات المتصلة بالإنتاج الزراعى : المالك والمستأجر والأجير — ممن تتكون ؟ ، وكيف تكونت ؟ ، وكيف تتطور ؟ وما المؤثرات والعوامل فى كل حالة ؟ ، وهكذا . إن ذلك أجدى ، وإن ذلك خير ، لأن الوظائف الاجتماعية للطوائف والطبقات لها دائماً أسباب ، ولها دائماً مقتضيات ، ولا ترجع فى وجودها لغرائز الشراهة والسيطرة والأنانية والتطفل فقط . فإذا فهمنا العلل مع حقيقتها أمكن للمجتمع — متى تنبه فيه الوعى — أن يتخذ الوسائل التى تنمى الخير وتقتل الشر .

هذا ما أحببت أن أتناول به البحث بصفة عامة ، ولأتناوله بشىء من التحليل . خصصت المؤلفة الفصل الأول للكلام على العوامل المهمة فى الإنتاج الزراعى : الأرض والناس ، الأرض من حيث اتساعها وطبيعتها ومناخها ومائها ، وتكلمت على مقدار الإنتاج الزراعى ، ووصفته بأنه منخفض — وذلك فيما عدا مصر . أما الفصل الثانى فتكلمت فيه عن أنواع حيازة الأرض الزراعية ، وأهم ما فيه تطوره فى مصر من أيام محمد على ، وفى الأقاليم العثمانية من أيام قانون الأراضى العثمانى نحو تثبيت الملكية الفردية ، ثم بينت ما كان عليه الحال من اختلال — فيما عدا مصر أيضاً — عند ما أقيم نظام الانتداب فى العراق وسوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن ، وما بذلته دول الانتداب نحو تنظيمه ؛ وهو فصل كان يمكن أن يكون عظيم القيمة لو توسعت فيه المؤلفة نحو التحليل الاجتماعى التاريخى لتكوين الطبقات الذى اشرت إليه . ومن النقط الهامة التى قررتها المؤلفة قولها إن التشريع العثمانى حارب ملكية الجماعات (كالقبيلة مثلا) ، لغرض تحديد المسئولية الفردية عن الضرائب ؛ والفكرة مهمة وصحيحة وتقتضى التوسع والشرح . ومن النقط الهامة كذلك — فيما عدا مصر أيضاً — أن حقوق الارتفاق فى الماء لم تستقر بعد على أوضاع ثابتة .

بعد هذين الفصلين العامين تناولت المؤلفة دراسة الأقاليم إقليما إقليما ، فتحدثت عن فلسطين — وظاهر أنها لا تذهب إلى ما يذهب إليه دعاة الصهيونية

عن استعداد فلسطين هجرة غير محدودة ، وعن شرقى الأردن وسوريا ، ولبنان والعراق ، ومصر .

أما عن مصر فقد تكلمت عن الأرض والفلاحين وعن نظام الأرض ، وعن مستوى المعيشة ، وعن وسائل النهوض به . والفصل يمثل المزايا والعيوب التى قررتها عن الكتاب برمته ، ففيه الإحصاءات والمعلومات مرتبة ترتيبا حسنا ، ولكن ينقص كما قلت التحليل الاجتماعى العلمى العادل الذى يعطى كل ذى حق ما له وما عليه . ومما يسترعى النظر اتساع المجال فى مصر نحو اتباع سياسة التوجيه الاقتصادى ، وهذا حق ، ولكن هذا يستتبع الحذر والدقة فى معالجة شئون الاقتصاد والاجتماع .

وكان مما بحثته المؤلفة فى الفصل الخاص بمصر مشكلة ضيق الأرض الزراعية بالفلاحين ، ورددت فى هذا كلاما يخوض فيه الناس عن جهل وضيق أفق . إنى أستنكر القول بأن أهل مصر أصبحوا عبئا ينبغى الخلاص منه ، لأن ثروة مصر الحقيقية فى أهل مصر ، وإنهم جميعا لازمون لها ، لازمون لمعيشتها ، لقوتها ، لرفاهيتها .

ثم رددت المؤلفة القول بأن أهل الزراعة يزيدون عن حاجة الزراعة كما هى ، وبحثت فى وسائل « امتصاص الزيادة » كما يقولون ، وكان من ذلك أن تعرضت لمستقبل « الاتساع الصناعى » فى مصر — وقررت أن ذلك الاتساع يقيده عاملان : قلة اليد العاملة الماهرة ، وقصور السوق المصرى عن استهلاك إنتاج صناعى ضخم .

أما وقد وصلنا لهذه النقطة فلننتقل لكتابنا الآخر : لكتاب الدكتور الجريتلى فى قوام الصناعة الحديثة فى مصر ، وهو بحث علمى من الطراز الأول يشرّف العلماء المصريين بحق ، وأرجو أن ينقله مؤلفه الفاضل للغة العربية سريعا ، ليزيد نفعه وتعم الناس فائدته .

بدأ المؤلف بعرض تاريخى سريع ، معتمد على مصدر أو مصدرين ثانويين ، وهو ناقص فيما ذكره عن الصناعات القديمة ، وناقص فيما ذكره عن مشروعات محمد على وإسماعيل الصناعية . ولست أذكر النقص لأنى كنت أود ألا يحيد المؤلف عن غرضه ، وهو شرح الموقف الحالى ، بل لأنى أرى أن مشروعات محمد على — على الرغم من إخفاقها الظاهرى —

أثرت فعلا بوسائل تنفيذها ونتائجها فى الاتجاهات التى أحاطت فعلا بالمشروعات الحالية ؛ ولا يتسع المقام لبيان هذا تفصيلا .

بعد هذا خصص المؤلف خمسة فصول لموضوع « تمويل الصناعة المصرية » ، وهى أقوى وأهم ما فى البحث كله . ويحس القارىء بأنه الموضوع المحبب لنفس المؤلف ، إذ استوفاه استيفاء كاملا من جميع النواحى ، وكان قويا صريحا حيث تجب القوة والصراحة فى مسائل قريبة جداً منا . ثم تحدث بعد تلك الفصول عن « توزيع الصناعات » ، وينقص الفصل الخاص بهذا الموضوع أن المؤلف لم يربطه ربطا كافيا بالاتجاهات الحاضرة فى بحث العلاقات بين الريف والحضر ، وما ينبغى أن يراعى فى تخطيط « الحاضر » . ثم تأتى بعد ذلك فصول ممتعة فى بيان الصناعات ، وبحث موضوع « الاحتكار » فى الصناعة ومسألة العمل ، ومسألة علاقة الحكومة بالصناعة . ويختم المؤلف كلامه بقوله إن تنفيذ خطة تنمية الصناعة (على الوجه الذى شرح) يقتضى فى القائمين بالأمر سعة الخيال والإقدام ، وإن تنفيذ الخطة أو عدم تنفيذها هى ما يبرر أو لا يبرر بقاء الطبقات الحاكمة فى موقفها الحالى الممتاز . هذه فرصة أمامهم ، فهل ينتهزونها ؟

وهذا قول صريح ، ولكنى أعترض على قوله « الطبقات الحاكمة » : إن كل مصرى ينتمى للطبقات الحاكمة ، إن كل مصرى حاكم ومحكوم ، ومن يقول غير ذلك لا يقبل منه ، فهو إنكار للواقع وهروب من المسئولية .

محمد شفيق غربال

كتب أوربية موضوعها تاريخ الهضبة الحبشية والسهول المتصلة بها والبحر الذى تطل عليه الهضبة والسهول .

1. A. H. M. Jones and Elizabeth Monroe.
"Abyssinia."

2. David Mathew
Ethiopia.

3. Kamèrèr
La Mer Rouge, Premier Partie XVI Siécle.
(Société Royole de Géographie.)

4. Longrigg.
Eritrea.

أول هذه الكتب كتاب نشر من عدة سنوات عند ما أغارت إيطاليا على الحبشة، وأحبّ الناس أن يكون بين أيديهم كتاب يسرد للقارئ تاريخ تلك المملكة القديمة منذ أقدم عصوره حتى زماننا . فقام بذلك الأستاذ چونز (A. H. M. Jones) والسيدة إنيزابث مونرو (E. Monoroe) بجامعة لندرة . والكثيرون من خريجى كلية الآداب يذكرون الأستاذ چونز مدرساً ممتازاً للتاريخ اليونانى الرومانى بالكلية . وأما السيدة مونرو فهى من أعضاء المعهد البريطانى الملكى لدراسة العلاقات الدولية . وقد انصرفت لشئون البحر المتوسط ، تراسل فيها بعض الصحف البريطانية المهمة ، ولها فى تلك الشئون كتاب من النوع الذى يجمع بين الجغرافيا والتاريخ .

وكتاب چونز ومونرو فى تاريخ الحبشة خلاصة طيبة لبحوث الباحثين المدققين فى مبادىء تلك المملكة ، كيف تألفت ، كيف تنصرت ، كيف اكتسبت تماسكها التاريخى على الرغم من كل العوامل المؤدية إلى التفرق والتصدع ، وما أفاد أهلوها من حضارات الدول القديمة : المصرية والبطليموسية والرومانية والبيزنطية والإسلامية . والكتاب فيما أرى خير ما يبدأ به كل من يريد دراسة موضوعات التاريخ الحبشى ، وإن كانت

فصوله ليست على قدر واحد من الإصابة والجودة ، والمتعلقة منها بالأزمنة الحديثة أقل وفاء بغرض الكتاب من الفصول المخصصة للأزمنة القديمة . والكتاب أيضاً أقرب لتسجيل حقائق التحقيق العلمى منه لتفسير أو لتحليل مشكلات التاريخ الحبشى ، فهو لا يعرض — مثلا — لتصوير المجتمع الحبشى على ما كان عليه نهائيا بعد أن تكوّن ، وهو إذ يدلنا على عناصره اليهودية والنصرانية والعربية قبل الإسلام وبعده ، وكذا عناصره القبلية الوثنية والكاثوليكية الحديثة — فإنه لا يدلنا على ما آل إليه أمر المزيج ، هل انتهى أمره إلى التحجر ؟ وما السرّ فى عجز هذا الملك الحبشى (بعد فترة الفتح فى الجزيرة العربية قبل الإسلام) عن الامتداد ؟ وما السرّ أيضا فى احتفاظه باستقلاله وتماسكه ؟

هذه المسائل وأمثالها مما نجد شيئا عنه فى الكتب الثلاثة الأخرى . ففى الكتاب الذى نشره منذ عام المطران الكاثوليكى الإنجليزى دافيد ماثيو (David Mathew) تحت عنوان « إثيوبيا » تأكيد مستفيض للعامل الذى اعتبره المؤلف أقوى العوامل فى التطور التاريخى الحبشى — وهو بناء الملك على نسبة العرش والتاج لملك سليمان الحكيم . فتلك النسبة هى التى رفعت بيت الملك فوق ما عداها من بيوتات الإمارة ، مهما بلغت هذه أحيانا من اتساع الرقعة وكثرة الأتباع والمال ، وأكسبت ملك الملوك أو رأس الرؤوس حرمة وقداسة ، وجمعت حوله فى أيام الفتن والغزو قلوبا وسواعد مكنت الحبشة من التغلب على عوامل التفرقة ومطامع الفاتحين .

وقد يبدو فى هذا شىء من الغلو — وقد يخطر لنا أن المؤلف لم يعط عاملا آخر حقه من الإيضاح ، ذلك العامل نلخصه فى قولنا أن الملك الحبشى كما عرفه التاريخ نتيجة قهر وسلطان أحرزه عنصر من عناصر الحبشة على أخلاط من الناس ، وإن ذلك العنصر القاهر بقى عنصراً قاهراً ، ولم يعرف كيف يتحول من خطة القهر إلى خطة تكوين أمة متعددة العناصر ، حية بحياة كل عنصر ، غنية بالتعدد ، تدين للسماحة ، وتتعصب للحرية .

هذا ما آخذه على كتاب المطران ماتيو — ولكنه نجح نجاحا باهراً فى أمر آخر . ذلك أنه رسم صوراً بديعة غريبة لمجتمع غريب فى بابه : ففيه صور الأشخاص : الأباطرة والرؤوس وزوارهم من المبشرين وطالبى

الرزق والرحالين والمغامرين الهاربين من يد العدالة أو من أثقال الحضارة ، وصور القصور والكنائس والأديرة ، وصور أولئك الرؤساء الدينين من أقباط مصر وما جرى منهم ، وما جرى عليهم ، وصورة ذلك الجبل الذى آوى إليه ذرارى الملوك فلا يكون لصاحب الملك منافس ، وهكذا ، مما أبدع المؤلف فى تنميقه . من ذلك الفصل الذى عقده المؤلف للنجاشى ثيودور ، الذى انتهى أمره بالانتحار عقب نجاح حملة تأديبية بريطانية فى اقتحام بلاده — ولا يسهل علينا أن نتصوره من أهل منتصف القرن التاسع عشر . ومن ذلك أيضاً صورة « أبونا » سلامة ، وهو ممن أوفدتهم الكنيسة القبطية لرياسة الكنيسة الحبشية ، وكان رجلا « عجيبا » فى حياته الخاصة وفى نصيبه من الحوادث السياسية والدينية .

وقد درس المطران ماثيو أيضاً علاقة الأحباش بالعالم أو العوالم الخارجية دراسة غير منتظمة ومتفاوتة ، فعنى — وذلك ما ننتظره من مطران كاثوليكى — عناية خاصة بعلاقات الأحباش بالكاثوليكية ممثلة — بوجه خاص — فى البعثات الدينية التى أوفدها ملوك البرتغال أو البابا أو الجمعية اليسوعية . وكانت دراسته لها عادلة غير متحيزة ، ولم يحمله ما حدث لبعض المرسلين من التعذيب أو الاضطهاد أو القتل على الخروج عن جادة الإنصاف ، وأدرك أن تلك البعثات الدينية وغير الدينية كانت — كما نقول اليوم — أمراً له ما وراءه .

وعلينا إذن — لدرس تلك العلاقات — أن نرجع لغير كتاب المطران ماثيو، فلنر ما فى الكتابين الثالث والرابع من كتبنا الأربعة، ولنبدأ بالكتاب الثالث.

هذا الكتاب ظهر فى الشهر الماضى فقط ، وفى القاهرة ، وعلى يد جمعيتنا الملكية الجغرافية . وهو مجلد جديد من مجموعة المجلدات العديدة التى وضعها المؤرخ الشيخ — كاميرر — تاريخ البحر الأحمر فى خلال العصور ، والبحر الأحمر من البحار صاحبة التاريخ المفعم بالعبر .

وتاريخ بحر كالبحر الأحمر عبارة عن تاريخ استخدام الإنسان له ، التى ترتبت على هذا الاستخدام ، أو هو — بعبارة أخرى — استعراض روية جديدة لانقلابات وأحداث خطيرة : لهجرات الأقوام ، للانقلابات التجارية ، لتقابل الحضارات ولتصادمها ، لقيام دول وسقوط أخرى ،

لربط ما بين سواحله وما وراءها وأقطار نائية . ومن ثم حق لمؤرخ مصرى من أعيان الجيل الماضى أن يطلق على تاريخ عام وضعه ذلك الاسم الحافل بالمعانى « تاريخ دول البحار » ؛ وينبغى ألا ننسى اسم إسماعيل سرهنك .

بدأ المسيو كامرير وضع كتابه هذا منذ سنوات عديدة ، ووافاه التوفيق فنال رعاية جلالة الملك فؤاد ومن بعده جلالة الملك المعظم حفظه الله ، وبفضل هذه الرعاية تمكنت الجميعية الجغرافية من نشره .

وطريقة المؤلف فى الكتاب تستوجب شيئاً من دقة النظر ، فالظاهر للقارىء أن « مادة » الكتاب مما ينمو فى يد المؤلف نمواً طليقاً . وإن القارىء ليجد متعة فى هذا وبخاصة عند ما يقع نظره على خريطة لم يُسبق المؤلف فى نشرها ، أو على مقتبسات من مخطوط ، أو على رسم غير معروف — أى أن القارىء يصيب تلك اللذة التى يصيبها من أطلق له العمل فى مكتبة قديمة غنية بمخطوطاتها وتحفها وخرائطها — وهذه اللذة لا تخلو — مع الأسف — مما يكدرها . وقد أصبحت أوقات الناس مما يتطلب أيضا شيئاً من الترتيب والتهذيب والتنظيم !

هذا وقد وصل المسيو كامرير بتاريخه للبحر الأحمر لعهد مهم — أطلق عليه اسم « الحبشة فى وجه الإسلام » ، وقد قصد بصفة خاصة إلى بيان امتداد سلطان العثمانيين إلى البحر الأحمر على أثر دخولهم مصر فى القرن السادس عشر ، وإلى ما كان من اصطدامهم بالزحف البرتغالى نحو ذلك البحر من الجنوب . وامتد بالمؤلف موضوع الحبشة فى وجه الإسلام ، فعرض للمحاولة المصرية فى عهد محمد على وإسماعيل ، لتنظيم شئون ذلك البحر إخراجاً له من ركوده وسبقاً للزحف الاستعمارى الأوربى الحديث .

ويتصل الكلام فى مبدئه بوصول البرتغاليين للهند ومحاولتهم بناء إمبراطورية استعمارية ضخمة على السواحل الإفريقية والعربية ، تحقيقا للفكرة الصليبية القديمة التى اختلطت بالأطماع التجارية الجديدة . وصادف هذا بعث جديد للقوة الإسلامية ممثلة فى الدولة العثمانية وامتداد سلطانها لمصر والحجاز واليمن وللساحل الإفريقى المواجه له المتاخم للهضبة الحبشية . وكان اصطدام الـ

ولحد ما لم يكن الاصطدام مباشراً ، فقد اعتمد البرتغاليون على اسر الحبشية ، كما اعتمد العثمانيون على قوة الإمارات الإسلامية القائمة فى الأراضى

المنخفضة بين الهضبة والبحر — وهى الأراضى التى تكون منها ما عرفته الكتب العربية بأسم يصح أن نحييه : الطراز الإسلامى . وقد استحقت تلك الإمارات مؤلفا خاصاً من مؤرخنا الكبير :تقى الدين المقريزى .

وقد شدت كل من الدولتين البحريتين أزر الأفريقيين ، ودارت الحرب يوماً لأولئك ويوماً لهؤلاء وانتهت بنوع من التوازن بين أهل السهول وأهل الهضبة — وذلك عندما انشغل العثمانيون والبرتغاليون عن البحر الأحمر وما يجرى فيه .

وبقى هذا التوازن قائماً إلى أن طرأ على الموقف فى القرن التاسع عشر عاملان جديدان : التنظيم المحمدى العلوى والاستعمار الأوربى . وهنا يؤدى بنا الموضوع لكتابنا الرابع . وموضوع هذا الكتاب الوحدة التى اصطنعها الاستعمار الإيطالى وسماها « إريتريا » من الأقاليم المصرية فى مصوع وما خلفها وما اقتطعه الإيطاليون من المملكة الحبشية ، ومؤلف الكتاب المستر لونجريج الحاكم البريطانى للمستعمرة بعد إزالة الحكم الإيطالى عنها .

وقد شرح المؤلف مبادىء تكوين المستعمرة ، وكانت نواتها الأصلية الأقاليم المصرية على ساحل البحر الأحمر وهى الأقاليم الداخلية الواصلة ذلك البحر بحوض النيل . نزلت إيطاليا تلك الأقاليم عقب تمزيق الدولة المصرية الذى تلا الاحتلال البريطانى لمصر ، وكان من جراء ذلك التمزيق استيلاء فرنسا على تاجوره ، وإنجلتره على زيلع ،وإطلاق يد الأحباش فى مسلمى هرر .

واصطنع الإيطاليون مستعمرة من أراضى المرتفعات والمنخفضات ، يسكنها مسلمون ونصارى وبدو وحضر ،وتكتظ حواضرها بالمهاجرين الإيطاليين . وتتبع المؤرخ لونجريج مساعى الإيطاليين لتوسيع مستعمرتهم ، ووصف حربهم الأولى مع الأحباش التى انتهت بهزيمة عدوة المشهورة ، وأتى على ما كان من أمر غزو الحبشة نفسها فيما بعد وخاتمته المعروفة لنا أجمعين .

وفى الكتاب فصول قيمة مستقاة من مصادرها عن أحوال المستعمرة وسكانها ، وطرق الإيطاليين فى استقلالها وحكم أهاليها .

وهذا عرض سريع لكتب أربعة فى مسائل تاريخية — قديمة معاصرة — لها شأنها س بالنسبة لنا ، من حيث تاريخنا ، ومن حيث واجبنا عند النظر فى شئون البحر اطه بالوادى ، مترسمين فى هذا وذاك خطى قائدينا — محمد على وإسماعيل.

محمد شفيق غربال

مؤلف الأستاذ أوسكار هيلكى

حدود التاريخ الأوربى وأقسامه

Halecki (Oscar) : European Histo y.

هذا المؤلف سفر علمى جليل جاد به الأستاذ هيلكى المؤرخ البولونى العلامة ، وعالج فيه — بما تهيأ له من إلمام شامل واطلاع واسع — مسائل قد تبدو للكثيرين فى المرتبة الثانية من الأهمية . غير أن جميع من تناقلوا الفكر اليونانى القديم ، والثقافة اليونانية القديمة، يعلمون أن لا وجود للحقائق المطلقة فى عالم الزمن والمدى ، وأنها إنما توجد فى عالم القيم وحده ، وما جاء تقسيم التاريخ إلى أدوار وأجزاء ينفصل بعضها عن بعض إلا على سبيل التجاوز المؤقت، مراعاة للوهن البشرى ومجاراة لآفاق العقل المحدودة . وكل مؤرخ مهما هان شأنه — إذا شاء أن يحاضر فى التاريخ الحديث — يجد نفسه مضطراً أن يرجع فى بعض الإيجاز إلى عهود سابقة ، وحتى فى الدراسة المقصورة على تاريخ منطقة محدودة جغرافياً بأضيق الحدود لابد من الإشارة إلى الأقطار والمؤثرات غير الأوربية .

وإذا ما تقدم الأستاذ هيلكى بأقوى الحجج وأقطع البراهين، ونادى بتغيير فى تحديد التواريخ والأقاليم الجغرافية، فإنا لن نعدم أساتذة آخرين يختارون للتواريخ والأقاليم حدوداً أخرى . ومرجع ذلك أن التاريخ دراسة شخصية وإبداع ذاتى ، بل هو رأى شخص واحد فى الماضى، ضيق كل الضيق ، ورأيه هذا انتقائى محدد وشخصى محض .

وكل هذا واضح فى ذهن الأستاذ هيلكى، كما هو واضح فى ذهن القارىء . فما هدفه إذن ؟ إنه يعنى أول ما يعنى بتوكيد وحدة التاريخ الأوربى، وينزع على الأخص إلى إدماج تاريخ أوربا الشرقية فى تيار التقدم الغربى ، وقد تأثر إلى حد بعيد بالأستاذ آرنولد توينبى، فأخذ عن مؤلفه « دراسة التاريخ »

فكرة أن ميدان الحضارات أصلح للبحث التاريخى من ميدان الدول القومية ، غير أنه يبغض التلويح بأن عالم المسيحية الأرثوذكسية يختلف اختلافا جوهريا عن عالم التراث الرومانى . وهو يذهب فى تأييد وجهات نظره إلى الإكثار من المقتبسات من المؤلفات التاريخية التى أنتجتها أوربا الشرقية ، ويسترعى انتباه الناطقين بالإنجليزية إلى عدد كبير من المؤرخين الغير المعروفين لدى هؤلاء ، لأن مؤلفاتهم الأصلية قد نشرت فى مجلة أو دورية صقلبية . ومعلومات الأستاذ هيلكى لا تشوبها شائبة من التعصب ، ومراجعه التى يعتمد عليها لا يصبو أى مؤرخ إلى أكمل أو أوفى منها ، وهو كجميع أهل شرقى أوربا يتحمس أكثر ما يتحمس للعصر الصليبى ، حين وقع عبء الدفاع عن أوربا على كاهل الشعوب الصقلبية ، وسيقابل المصريون بالارتياح إشاراته فى مؤلفه إلى آراء الدكتور عزيز سوريال عطيه . ويعتقد الأستاذ هيلكى أن هناك كثيرا من أوجه الشبه بين ذلك العصر والأحوال التى تمر بنا فى عصرنا هذا ، حين يطلب إلى أوربا الشرقية أن تقف مرة أخرى فى الصف الأول من صفوف الدفاع عن قيم الحضارة الغربية ضد اجتياح أسيوى جديد . ومن الطبيعى أن نراه يرثى لحال الشعوب الصقلبية ، وخاصة مواطنيه من البولونيين ، لما يعانونه من آلام وما يصيبهم من محن فى أثناء تلك الحرب الضروس .

إن كل خسارة تتمخض على الدوام عن كسب ما ، فقد جدد سقوط القسطنطينية الاهتمام بأدب اليونان والثقافة اليونانية ، وكذلك أدى انهيار بعض الدول الأوربية أمام نظم الحكم المطلق إلى تشتيت كثير من العلماء وتفرقهم فى الأرض ، ليوجهوا أنظار العالم إلى حقائق وعصور قلما التفت الناس إليها من قبل . وقد كان شرق البحر المتوسط مدركا على الدوام شأن الشعوب الصقلبية ، أما جماعة الحلف الأطلنطى الجديد فقد تجاهلتهم عامدة . وقد عنى الأستاذ هيلكى — فى إجابته عن السؤال « ما هى أوربا ؟ » بإقامة التوازن ومعادلة الكفتين ، وعلى ذلك فكتابه هذا كسب علمى له خطره تفيد منه فلسفة التاريخ وكتابة التاريخ ، وهو كتاب يهدف إلى أن يقدم لنا صورة جديدة — أو إطارا جديدا — تقع عليه أبصارنا ، فتدرك مكان اتجاهاتنا الضيقة الأفق مما فى هذا الإطار من اتجاهات .

وسواء أكان قد أجاب عما أثار من أسئلة إجابة شافية ، أم لم يجب، فإن الذى لا شك فيه أنه زودنا بمعلومات وافية ونصائح غالية، وأبرز مسائل لا حصر لها جديرة فى ذاتها بالتأمل والاهتمام .

جيمس ج. أخموتى

ترجمة أحمد حلمى على

شيوخ الجامع الأزهر

في

القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي)

١٠٩٠ هـ (١٦٨٠ م) — ١١٩٣ هـ (١٧٧٩ م)

تقديم :

الجامع الأزهر أول مسجد شيد في القاهرة المعزية ، وثالث مسجد أسس بالديار المصرية بعد الفتح الإسلامي لها ، وهو اليوم أكبر معهد ديني علمي إسلامي في الشرق ، وأقدم جامعة علمية في العالم قامت على حفظ علوم الشريعة الإسلامية الغراء أصولها وفروعها ، واللغة العربية وآدابها ، وعلى نشرها ، وتخريج علماء يوكل إليهم تعليم علوم الدين واللغة في مختلف المعاهد والمدارس ، ويلون الوظائف الشرعية في المملكة المصرية .

وللجامع الأزهر شخصية معنوية مصرية الجنس ، وهو من ناحية النظام الإداري للمملكة المصرية يمثل إحدى الوزارات الحكومية ، وإن لم يكن له اسم الوزارة ولا لرئيسه هذا الوصف رسميا .

« وشيخ الجامع الأزهر » : هو الإمام الأكبر لجميع رجال الدين ، والمشرف الأعلى على السيرة الشخصية الملائمة لشرف العلم والدين بالنسبة إلى أهل العلم ، وحملة القرآن الشريف ، سواء أكانوا منتمين إلى الأزهر ، أم غير منتمين إليه.

وهو المنفذ الفعلي العام لجميع القوانين ، والمراسيم ، والأوامر الملكية ، واللوائح ، والقرارات المختصة بالجامع الأزهر(١) .

وهو الذي يمثل الجامع الأزهر في كل ما يتصل بشئونه قبل الغير من المصالح الحكومية ، والهيئات الأهلية ، والأفراد .

ويختار « شيخ الجامع الأزهر » من بين جماعة كبار العلماء ، أو ممن تتوافر فيهم الشروط الآتية : أن تكون سنه خمسا وأربعين سنة على الأقل ،

(١) المادتان رقم ١ ، ٥ من القانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦ ، بإعادة تنظيم الجامع الأزهر .

وأن يكون معروفا بالورع والتقوى فى ماضيه وحاضره ، وحائزاً لشهادة العالمية منذ خمس عشرة سنة على الأقل ، وأن يكون قد اشتغل بالتدريس مدة خمس سنوات على الأقل فى إحدى كليات الجامع الأزهر ، أو بالقسم العالى المقرر بالقانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١م ، أو بإحدى الكليات بجامعتى فؤاد الأول وفاروق الأول ، أو يكون قد شغل منصب مفتى الديار المصرية ، أو عضو بالمحكمة العليا الشرعية .

ويعين « شيخ الجامع الأزهر » بأمر ملكى ، ويصير من يعين شيخا للجامع الأزهر من غير جماعة كبار العلماء عضوا فى هذه الجماعة بحكم القانون(١) .

هذا هو الوضع الذى صار إليه أمر الجامع الأزهر ، ومشيخته فى العصر الحاضر ، أما قديما فلم يكن له شيخ يتولى رياسته الدينية ، ويدير شئونه الإدارية ، بل كان يتولاه الولاية العامة سلاطين مصر وأمراؤها ، كباقى المساجد الجامعة بالديار المصرية ، ويباشر شئونه الداخلية مشايخ المذاهب الأربعة ، ومشايخ الأروقة ، يعاونهم خطيب المسجد ، والمشرف ومعاونوه من العمال والخدم .

بقى هذا النظام متبعا فى الجامع الأزهر غالبا مدة حكم الفاطميين ، والأيوبيين ، والمماليك الأولى (البحرية) ، وفى عهد سلطنة الملك الظاهر برقوق ، أول سلاطين المماليك الثانية (البرجية) عين للأزهر : « ناظر » سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) ، وكان « ناظر الأزهر » يختار من بين كبار موظفى الدولة ، وكان هذا « الناظر » هو الأمير « بهادر » الطواشى كبير المماليك السلطانية ، وكان « ناظر الجامع الأزهر » ينوب عن سلطان مصر ، أو حاكمها فى الإشراف على شئون الأزهر ، والقيام على تنفيذ الأوامر والأحكام السلطانية ، والسهر على رعاية مصالح الجامع الأزهر ، ومصالح أهله من علماء وطلاب .

وقد عرف من « نظار » هذا العهد المملوكى أيضاً الأمير : « سودوب »

---

(١) المادتان رقم ٦ ، ٧ من القانون ٢٦ لسنة ١٩٣٦ ، بإعادة تنظيم الجامع الأزهر ، والمرسوم الملكى المعدل للمادة (٧) من هذا القانون الصادر فى ١٩٤٥/١٢/٢٦ .

القاضى ، وحاجب الحجاب ، ولى « نظارة الجامع الأزهر » سنة ٨١٨ هـ (١٤١٥ م)[١] .

ولما استولى الأتراك العثمانيون على مصر سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) ساروا على نهج من سبقهم من سلاطين مصر وأمرائها ، فحافظوا على الأوضاع المرعية فى الأزهر ، واهتموا برعاية شئونه ، والسهر على مصالح أهله ، واقتدى الولاة العثمانيون بسلاطين آل عثمان فعرفوا لهذا المعهد العلمى الدينى الإسلامى حقه من الرعاية والتقدير ، وجددوا به كل دارس ، وزادوا فى عمارته ، ووسعوا من رقعته ، وأوقف الأمراء ، والولاة ، وكبار رجال الدولة ، والأعيان الكثير من الأموال ، والأملاك ، والعقارات على علمائه وطلبته ، فاتسعت إدارته ، وتشعبت مصالح أهله ، وأصبحت الحاجة ماسة إلى وجود شخص يتفرغ للإشراف على شئون هذا المعهد الدينية والإدارية معا ، ويكون رئيسا لشيوخ المذاهب والأروقة ، وسائر علماء الأزهر وطلابه ، ومسئولا مباشرة أمام الولاة والسلاطين ، وحلقة اتصال بين الحكومة وأقسام الأزهر المختلفة ، فاستحسنت « الدولة العلية » قبيل نهاية القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) أن يعين للأزهر : « شيخ عموم » يدير شئونه ، ويراقب أموره من تعاليم وغيرها ويلقب : « بشيخ الجامع الأزهر » .

ومنذ العهد (التركى العثمانى) والجامع الأزهر يحتفظ بهذه الوظيفة التى تطورت مظاهرها ، واتسعت اختصاصاتها على حسب تطورات الزمن ، ومقتضيات الظروف والأحوال حتى آلت إلى ما هى عليه الآن .

وقد حفظ لنا الجبرتى فى تاريخه المسمى : « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » ثبتاً بأسماء « شيوخ الجامع الأزهر » لأكثر من قرنين من الزمان .

والجبرتى أسبق مصدر فيما أعلم تناول ذكر شيوخ الجامع الأزهر خلال هذه الحقبة التى نؤرخها ، وهم عنده أحد عشر شيخا .

وقد أوردت دائرة المعارف الإسلامية أسماء : « اثنى عشر شيخا »

---

(١) الخطط التوفيقية ، ج ٤ ص ١١ ؛ كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر ، للشيخ سليمان رصد ص ٥١، ٥٦ ؛ كتاب «الأزهر» لمحب الدين الخطيب ، ص ١٧ ، ١٨ ؛ كتاب : «الأزهر» ، للأستاذ عبدالله عنان ، ص ١٢٩ (ينقل عن خطط المقريزى ، ج ٤ ، ص ٥٤) .

خلال هذا القرن الذى نؤرخه ليس منهم الشيخ : « إبراهيم البرماوى » الذى عده الجبرتى من بين شيوخ الجامع الأزهر[١] ، ولا الشيخ : « محمد المنير » الذى ذكر « المرادى » أنه كان شيخا للجامع الأزهر[٢] .

والمعروف فى الدوائر الأزهرية أنه لم يل مشيخة الجامع الأزهر خلال هذه الفترة غير عشرة ليس منهم :

١ ــ الشيخ إبراهيم البرماوى المتوفى سنة ١١٠٦ هـ (١٦٩٥م) .

٢ ــ الشيخ أحمد النفراوى المتوفى سنة ١١٢٥ هـ (١٧١٣ م) .

٣ ــ الشيخ عبد الرحمن العريشى المتوفى سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٩ م) .

٤ ــ الشيخ محمد السمنودى الشهير بالمنّير المتوفى سنة ١١٩٩ هـ (١٧٨٣ م)

وسنقصر بحثنا على : « شيوخ الجامع الأزهر » الذين ذكرهم الجبرتى فى تاريخه خلال القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) وهم المشايخ :

الخرشى ، البرماوى ، النشرتى ، القلينى ، شنن ، الفيومى ، الشبراوى ، الحفنى ، السجينى ، الدمهورى ، العروسى .

وسيلاحظ القارىء أننا لم نستطع تحديد الزمن الذى أنشىء فيه منصب « مشيخة الجامع الأزهر » بالدقة ، وبصورة قاطعة . وأن أول شيوخ الجامع الأزهر لم نعرف على وجه الدقة مبدأ توليه المشيخة ، وسبب ذلك قصور المراجع التى تحت أيدينا ، كما أنه سيلاحظ اقتضابا فى بعض التراجم يجعل البحث قاصرا ومرجع ذلك ما ذكرناه آنفا أيضا ، ومع شعورنا بأن البحث فى صورته هذه يعتبر ناقصا فإنا آثرنا نشره راجين أن تتاح لنا فرصة أوسع لاستكماله ، وسد هذا الفراغ الذى أشرنا إليه حتى يجىء محققاً لأمل الكثير من الباحثين .

وبعد : فهذا جهد المقل أرجو أن يكون مساهمة عملية منا فى تحية الأزهر لمناسبة مرور نيف وألف سنة على تأسيسه ، ذلكم المعهد الخالد الذى فيه تعلمت ، ومنه تخرجت ، وبه أعمل الآن مدرسا فى كلية اللغة العربية ، إحدى كلياته الثلاث .

---

(١) عجائب الآثار للجبرتى ، ج ١ ص ٧٠ (المطبعة الشرفية سنة ١٣٢٢ هـ) .

(٢) سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر ، ج ٤ ، ص١٢٢. (المطبعة الأميرية ، بولاق سنة ١٣٠١ هـ) .

١ ـ الشيخ الخرشي (الخراشى)

١٠٩٠ هـ (١٦٧٩ م) ـ ١١٠١ هـ (١٦٩٠ م)

نشأته وحياته :

هو الإمام العلامة أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن على الخرشى المالكى ، ولد سنة ١٠١٠ هـ (١٦٠١ م) ببلدة (أبو خراش) التابعة لمركز شبراخيت بمديرية البحيرة[١] .

نعته صاحب سلك الدرر بقوله : « الإمام الفقيه ، ذو العلوم الوهبية ، والأخلاق المرضية ، المتفق على فضله ، وولايته ، وحسن سيرته ... »[٢]

وترجم له الشيخ على الصعيدى العدوى المالكى فى خاشيته التى جعلها على شرحه الصغير لمتن خليل [٣] ، فقال : « هو العلامة الإمام ، والقدوة الهمام ، شيخ المالكية شرقا وغربا ، قدوة السالكين عجما وعربا ، مربى المريدين ، كهف السالكين ، سيدى أبو عبدالله بن على الخرشى ... انتهت إليه الرياسة فى مصر حتى إنه لم يبق بها فى آخر عمره إلا طلبته ، وطلبة طلبته ، وكان متواضعا عفيفا ، واسع الخلق ، كثير الأدب والحياء ، كريم النفس ، جميل المعاشرة ، حلو الكلام ، كثير الشفاعات عند الأمراء وغيرهم ، مهيب المنظر ، دائم الطهارة ، كثير الصمت ، كثير الصيام والقيام ، زاهدا ورعا متقشفا فى مأكله وملبسه ومفرشه ، ولا يصلى الصبح صيفا وشتاء إلا بالجامع الأزهر ، ويقضى بعض مصالحه من السوق بيده ،

---

(١) الجبرتى ، ج ١ ، ص ٦٧ ؛ سلك الدرر ، ج ٤ ، ص ٦٣ ؛ الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٣١، ج ٨ ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) سلك الدرر ج ٤ ص ٦٣ .

(٣) هو شيخ الشيوخ على بن أحمد بن مكرم الله الصعيدى العدوى المالكى، ولدبنى عدى سنة١١١٢هـ (١٧٠٠م) ، ونزح إلى القاهرة والتحق بالأزهر ، وتلق العلم على شيوخ عصره، واجتهد حتى ذاع صيته ، وصار إماما بين أقرانه من علماء الأزهر ، وتوفى سنة ١١٨٩هـ (١٧٧٥م) ، (راجع فى ترجمته الجبرتى ج١ص ٤٢٠ـ٤٢٢ ، وسلك الدرر ج٣ص ٢٠٦) .

ومصالح بيته فى منزله . يقول من عاشره : ما ضبطنا عليه ساعة هو فيها غافل عن مصالح دينه أو دنياه ، وكان إذا دخل منزله يتعمم بشملة صوف بيضاء ، وكانت ثيابه قصيرة على السنة المحمدية .

واشتهر فى أقطار الأرض كبلاد المغرب ، .. والشام ، والحجاز ، والروم ، واليمن ، وكان يعير من كتبه من خزانة الوقف بيده لكل طالب مع السهولة إيثارا لوجه الله تعالى .

ولا يمل فى درسه من سؤال سائل ، لازم القراءة سيما بعد شيخه البرهان اللقانى ، وأبى الضياء على الأجهورى ، وكان أكثر قراءته بمدرسة « الآقبغاوية »[١] وكان يقسم متن خليل (فى فقه المالكية) نصفين ؛ نصف يقرؤه بعد الظهر عند المنبر كتلاوة القرآن ، ويقرأ النصف الثانى فى اليوم الثانى .

وكان له فى منزله خلوة يتعبد فيها ، وكانت الهدايا والنذور تأتيه من أقصى بلاد المغرب وغيرها من سائر البلاد فلا يمس منها شيئا ، بل أقاربه ومعارفه يتصرفون فيها .[٢] » .

وهو أول من ولى مشيخة الجامع الأزهر ، وليها حوالى سنة ١٠٩٠ هـ (١٦٧٩ م) وهو فى حدود الثمانين من عمره ، واستمر فى المشيخة حتى وافاه أجله بعد أن نيف على التسعين[٣] .

شيوخه :

وقد أخذ العلوم عن عدة من العلماء الأعلام ، كالعلامة الشيخ على الأجهورى ، وخاتمة المحدثين الشيخ إبراهيم اللقانى ، والشيخ يوسف الفيشى ، والشيخ عبد المعطى البصير ، والشيخ يس الشامى ، ووالده الشيخ عبدالله الخرشى[٤] .

---

(١) المدرسة الآقبغاوية أنشأها الأمير (آقبغا عبد الواحد) مملوك الملك الناصر محمد بن قلاوون بلصق الأزهر على يسار الداخل إليه من الباب الغربى (باب المزينين) ، وبها الآن المكتبة الأزهرية (الخطط التوفيقية ج٤ ص١٨، ١٩ ج٦ ص٣).

(٢) نقل هذه الترجمة على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية ج ٨ ص٢١، ٢٢ .

(٣) الجبرتى ج ١ ص ٦٧ ، وسلك الدرر ج ٤ ص ٦٣ ، والخطط التوفيقية ج ٤ ص٣١، ج ٨ ص ٢١ ، ٢٢.

(٤) الخطط التوفيقية ج ٨ ص ٢١ ، ٢٢ .

تلامذته :

وقد تخرج عليه جماعة حتى وصل ملازموه نحو المائة، منهم: العارف بالله الشيخ أحمد اللقانى ، وسيدى محمد الزرقانى ، والشيخ على اللقانى ، والشيخ شمس الدين اللقانى ، والشيخ داود اللقانى ، والشيخ محمد النفراوى ، وأخوه الشيخ أحمد ، والشيخ أحمد الشبراخيتى ، والشيخ أحمد الفيومى ، والشيخ إبراهيم الفيومى ، والشيخ أحمد الشرفى ، والشيخ عبد الباقى القلينى (ولى مشيخة الجامع الأزهر) ، والشيخ على المجدولى(١) .

مؤلفاته :

وله عدة مؤلفات مقبولة فى سائر الأقطار منها : شرحه الكبير على متن الشيخ خليل وهو ثمانية أجزاء، وشرحه الصغير على خليل أيضاوهو أربعة أجزاء ، وجزء فى الكلام على البسملة نحو أربعين كراسة(٢) .

وفاته :

وقد توفى صبيحة يوم الأحد السابع والعشرين من شهر ذى الحجة سنة ١١٠١ هـ (١٦٩٠ م) ، ودفن مع والده بقرافة المجاورين ، وقبره بها مشهور ، وقد اعتقده عامة الناس وخاصتهم عليه رحمة الله(٣) .

٢ — الشيخ البرماوى
١١٠١ هـ (١٦٩٠ م) — ١١٠٦ هـ (١٦٩٥ م)

نشأته وحياته :

هو السيد إبراهيم بن محمد بن شهاب الدين بن خالد البرماوى الشافعى ، ولد فى « برما » التابعة لمركز طنطا بمديرية الغربية ، وهى قرية كبيرة لها

---

(١) الخطط التوفيقية ج ٨ ص ٢١ ، ٢٢

(٢) المرجع السابق .

(٣) الجبرتى ج ١ ص٦٧، ٢١٤ ، وسلك الدرر ج٤ص٦٣ ، الخطط التوفيقية ج٨ص٢٢ .

شهرة بمعامل تفريخ الدجاج ، وكثير من المعامل بجهات الوجه البحرى يديرها أناس من أهاليها[١] .

نزح إلى القاهرة ، والتحق بالأزهر ، وحضر على علماء عصره ، وأفاد منهم ، وبلغ درجة عظيمة بين أقرانه. وتصدر للدرس ، ونبه شأنه ، وذاع صيته .

وقد ولى مشيخة الجامع الأزهر بعد وفاة الشيخ الخرشى عام ١١٠١ھ (١٦٩٠م). وظل فى منصبه حتى وفاته[٢] .

شيوخه :

وقد تلقى العلم على العلماء الأعلام ، كالشمس الشوبرى ، والشيخ المزاحى ، والشيخ البابلى ، والشيخ الشبراملسى ، ثم لازم دروس الشيخ القليوبى واختص به وتصدر بعده للتدريس وجلس فى مكانه[٣] .

تلامذته :

وممن تتلمذ عليه وروى عنه : الشيخ محمد بن خليل العجلونى ، والشيخ على بن محمد المرحومى . وغيرهما كثير[٤] .

وفاته :

وقد توفى سنة ١١٠٦ ھ (١٦٩٥ م) ، وكان مشهوداً له بالفهم والورع والتقوى عليه رحمة الله[٥] .

---

(١) الجبرتى ج١ص٧٠ والخطط التوفيقية ج ٩ ص٣٥، ٣٦ ، وفيها أن (برما) من مركز أبيار بمديرية الغربية» ، وأبيار الآن تابعة لمركز كفر الزيات غربية ــ وانفرد الجبرتى بإثبات أن البرماوى ولى مشيخة الجامع الأزهر، ولعل من أسقطه من عدادهم تأثر بما هو شائع من أن المشيخة كانت أولا فى السادة المالكية ، ولم تنتقل إلى السادة الشافعية إلى سنة ١١٣٧ھ (١٧٢٤م) حينما تولاها الشيخ الشبراوى الشافعى ، وقد نبه المرحوم تيمور باشا على مشيخة الشيخ البرماوى الشافعى للازهر . ونحن نميل إلى رأى الجبرتى، لأننا لو أسقطناه لو جد فراغ من سنة ١١٠١ ھ إلى ١١٠٦ ھ ، وهى فترة طويلة يبعد أن يخلو فيها منصب مشيخة الجامع الأزهر . هذا ولم نستدل على تاريخ مولده.

(٢) جبرتى ج ١ ص ٧٠ مع بعض التصرف .

(٣) « «

(٤) « «

(٥) « « ويلاحظ أننا لم نستدل على مؤلفاته .

٣ ــ الشيخ النشرتى
١١٠٦ هـ (١٦٩٥ م) ــ ١١٢٠ هـ (١٧٠٩ م)

نشأته وحياته :

هو السيد محمد النشرتى المالكى ، المولود (بنشرت) التابعة لمركز قلين بمديرية « الفؤادية » التى مقرها كفر الشيخ حاليا (١) .

وفد على الأزهر ، وتلقى العلم على شيوخه الأجلاء ، واجتهد فى تحصيله ، وتقدم على أقرانه ، وصارت له مكانة مرموقة ، وتصدر للدرس والإفادة حتى اختير « شيخا للجامع الأزهر » سنة ١١٠٦ هـ (١٦٩٥ م) ، واستمر فى المشيخة أربعة عشر عاما حتى وافاه أجله وهو متوليها .

وفاته :

وقد توفى بعد ظهر يوم الأحد الثامن والعشرين من شهر ذى الحجة عام ١١٢٠ هـ (١٧٠٩ م) ، وصلى عليه بالجامع الأزهر بمشهد حافل فى اليوم التالى ، وحضر جنازته الصناجقة ، والأمراء ، والأعيان ، وكان يوما مشهودا ، وقد عرف بالصلاح وحسن السيرة عليه رحمة الله تعالى (٢) .

٤ ــ الشيخ القلينى
١١٢٠ هـ (١٧٠٩ م) ــ ؟

نشأته وحياته :

هو علامة وقته عبد الباقى القلينى المالكى ، ولد بقرية « قلين » وهى الآن مركز يتبع مديرية الفؤادية التى مقرها مدينة كفر الشيخ (٣) . وإليها

(١) الخطط التوفيقية ج١٧ص٧،وفيها أن(نشرت) تابعة لمركز كفر الشيخ .بمديرية الغربية

(٢) الجبرتى ج ١ ص ٧٣ ، ٢١٤ ، ولم نجد فى مراجعنا ما يرشد إلى : تاريخ مولده ، أو شيوخه ، أو تلامذته ، أو مؤلفاته ، أو يكمل نسبته بذكر أبيه وجده.

(٣) فى الخطط التوفيقية ج ١٤ ص١١٩ أن « قلين » قرية تابعة لمركز كفر الشيخ غربية، وأيضا كنز الجوهر للشيخ رصد ص ١٢٦ .

ينسب وفيها نشأ ، ثم غادرها إلى القاهرة والتحق بالجامع الأزهر ، وعكف على تحصيل العلم وتلقيه على علماء عصره الأعلام ، ونبه شأنه ، وذاع صيته ، وجلس للدرس والتعليم .

ولى مشيخة الجامع الأزهر بعد الشيخ « النشرتى » سنة ١١٢٠ هـ (١٧٠٩م) بعد فتنة دامية بين أتباع الشيخ النشرتى الذين ناصروا الشيخ القلينى ، وطالبوا به ليدرس مكان شيخهم فى المدرسة الآقبغاوية وليكون شيخا للجامع الأزهر ، وبين أنصار الشيخ أحمد النفراوى الذين كانوا يريدون المشيخة له ، وقد اشتد النزاع بين الفريقين وأدى إلى التصادم وإراقة الدماء واستخدموا الأسلحة النارية بداخل الجامع الأزهر وقتل عدد من الأزهريين فى هذا الصراع ، وتعطلت الصلاة بالجامع الأزهر فى ذلك اليوم .

انتهت الفتنة بتدخل كبار الشيوخ ، والسادة الأشراف ، والأمراء وألزم الشيخ أحمد النفراوى بالعكوف فى بيته ، وثبت الشيخ عبد الباقى القلينى فى « مشيخة الجامع الأزهر » واستقر منذ ذلك الوقت فى المشيخة والتدريس حتى وفاته[١] .

وفاته :

لم يتيسر لنا معرفة تاريخ وفاته ، ونتج عن هذا أننا لم نستطع تحديد السنة التى ولى فيها « مشيخة الجامع الأزهر » من جاء بعده عليه رحمة الله[٢] .

٥ — الشيخ شنن
؟ — ١١٣٣ هـ (١٧٢٠ م)

نشأته وحياته :

هو السيد محمد شنن المالكى ، ولد فى حدود سنة ١٠٥٦ هـ (١٦٥٦ م) بقرية « الجدية » وهى قرية صغيرة تابعة لمركز رشيد بمديرية البحيرة تقع

(١) الجبرتى ج ١ ص ٢١٤ .

(٢) كذلك لم نستطع الاستدلال على تاريخ مولده، أو نسبته كاملة، أو أسماء شيوخه وتلامذته ومؤلفاته ، وذلك راجع لقصور المراجع التى تحت يدنا .

على الشاطئ الغربى لفرع رشيد على مسافة نصف ساعة إلى جنوبى رشيد [١] .
ونشأ بها نشأته الأولى ثم نزح إلى الأزهر وتلقى علومه على مشايخه الأعلام ، وجدّ واجتهد حتى تقدم فى العلم وصار له ذكر حسن ، وكان واسع الثراء ، كثير الغنى ، واعتبر فى وقته من أغنى أهل عصره بين أقرانه ، فكان يقتنى المماليك ، والجوارى ، ويملك الضياع والأملاك .

وقد توفى عن ثروة كبيرة آلت إلى ابنه القاصر « موسى » ، وقد أقام عليه وصيًّا قبل وفاته الشيخ « محمد الجداوى » الذى سلم هذه الثروة إلى السيد موسى بعد بلوغه سن الرشد فلم يمض كبير وقت حتى بددها جميعها ومات مدينا رغم الثروة الضخمة والأملاك الكثيرة التى ورثها عن والده [٢] .

وقد ولى الشيخ محمد شنن « مشيخة الجامع الأزهر » بعد الشيخ القلينى ، واستمر فى المشيخة حتى آخر حياته .

وفاته :

وكانت وفاته وهو فى سن السابعة والسبعين عام ١١٣٣ هـ (١٧٢٠ م) عليه رحمة الله [٣] .

٦ ــ الشيخ الفيومى

١١٣٣ هـ (١٧٢٠ م) ــ ١١٣٧ هـ (١٧٢٤ م)

نشأته وحياته :

هو الإمام المحدث إبراهيم بن موسى الفيومى المالكى ، ولد بمدينة « الفيوم » إحدى مديريات الوجه القبلى سنة ١٠٦٢ هـ (١٦٥٢ م) ، ثم قصد القاهرة فى شبابه وانتسب إلى الأزهر وتلقى العلم على جلة علمائه ، وأقبل على دروسه حتى برز وشاع ذكره ، واحتل مكانة مرموقة بين أقرانه من علماء عصره .

---

(١) الخطط التوفيقية ج١٠ ص٥٢ ، ٥٣ .
(٢) الجبرتى ج١ ص ٧٦ ، والخطط التوفيقية ج٤ ص ٣١ .
(٣) » » » » » »
ويلاحظ أننا لم نتحدث عن شيوخه ،او تلامذته ،أو مؤلفاته ، كما أننا لم نصل إلى تحقيق تاريخ توليه مشيخة الجامع الأزهر .

ثم اختير « لمشيخة الجامع الأزهر » بعد وفاة الشيخ محمد شنن سنة ١١٣٣ هـ (١٧٢٠ م) واستمر فى المشيخة حتى وفاته [١] .

شيوخه :

وقد أخذ العلم عن كثير من أفاضل العلماء أمثال : الشيخ محمد بن عبدالله الخرشى (أول شيوخ الجامع الأزهر) ، والشهاب الشيخ الشبراملسى ، والشيخ الزرقانى ، والشهاب الشيخ أحمد البشبيشى ، والشيخ الغرقاوى ، والشيخ على الجزايرلى الحنفى ، والشيخ يحيى الشاوى ، والشيخ عبد القادر الواطى ، والشيخ عبد الرحمن الأجهورى ، والشيخ إبراهيم البرماوى (أحد شيوخ الجامع الأزهر) ، والشيخ محمد الشرنبابلى ، وغيرهم كثير [٢]

مؤلفاته :

وله عدة مؤلفات مفيدة منها : شرح على العزية فى الفقه فى مجلدين [٣] .

وفاته :

وقد توفى وهو فى المشيخة فى سن الخامسة والسبعين عام ١١٣٧ هـ (١٧٢٤ م) ، وكان مشهوراً بالذكاء والفهم ، إماماً فى الحديث ، وكان آخر من ولى مشيخة الجامع الأزهر من السادة المالكية بعد أن استمرت فيهم زهاء نصف قرن من الزمان ، رحمه الله [٤] .

---

(١) الجبرتى ج ١ ص٩٠ ، ٢١٤ ـ والخطط التوفيقية ج٤ ص٣١ ، ج ١٤ ص٩٣ .
ويذكر الشيخ سليمان رصد فى كتابه « كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر » ص١٢٦ ، ١٢٧ : أنه تولى مشيخة الجامع الأزهر سنة ١١٢٦هـ (١٧١٤م) ، وذكر مثل ذلك فضيلة الأستاذ الشيخ « محمود أبو العيون » فى كتابه (الجامع الأزهر) ص٢٧ ، وهما يخالفان جمهرة المؤرخين فى تاريخ توليه المشيخة .

(٢) المراجع السابقة .

(٣) » »

(٤) » »

ويلاحظ أننا لم نثبت شيئا عن تلامذته لإغفال مراجعنا ذلك .

٧ ــ الشيخ الشبراوى

١١٣٧ هـ (١٧٢٤ م) ــ ١١٧١ هـ (١٧٥٧ م)

نشأته وحياته :

هو الحجة أبو محمد جمال الدين عبدالله بن محمد بن عامر شرف الدين الشبراوى الشافعى (١) .

ولد سنة ١٠٩٢ هـ (١٦٨١ م) تقريباً ، وكان بيته بيت علم وجلالة ، التحق بالأزهر فلم يزل يجد ويجتهد ، ويترقى فى الأحوال والأطوار ، ويفيد ويملى ويدرس حتى صار إماماً فى الفقه ، والحديث ، والأصول ، والتوحيد . بارعاً فى الأدب والشعر ، وأصبح أعظم الأعاظم فى وقته ، ذا جاه ومنزلة عند رجال الدولة . مسموع الكلمة ، مقبول الرجاء .

وما زال نجمه فى صعود حتى برع وترأس . واختير « شيخاً للجامع الأزهر » وتقدم على أقرانه ، وكان لأهل العلم على أيامه مكانة رفيعة ، وهيبة ومقام عند الخاصة والعامة ، وحمل بسلوكه الطلاب على الاحترام ، والتحلى بالأدب والأخلاق الفاضلة .

واشتهر بميله إلى كل طريف مستملح ، فاقتنى الطرائف والتحف النادرة ، وجمع الكثير من الكتب النادرة النفيسة ذات الخط الحسن ، والتجليد الفاخر . واتخذ لنفسه داراً عظيمة على بركة الأزبكية تناسب مركزه الجليل ، ومكانته العظيمة ، ومظهره الفخم (٢) .

ولى « مشيخة الجامع الأزهر » بعد الشيخ الفيومى سنة ١١٣٧ هـ (١٧٢٤ م) وكان أول من ولى مشيخة الأزهر من السادة الشافعية (٣) ، وظل شيخاً للجامع الأزهر حتى وفاته .

---

(١) لم أستطع معرفة بلده ، وقد سألت الكثير من شيوخ الأزهر فلم يعرفوا ، وليست له صله بأسرة « الشبراوى » من بلدة « شبرى زنجى » بالمنوفية .

(٢) الجبرتى ج ١ ص٢١٣ ــ ٢١٥ ، مع بعض تصرف ، والخطط التوفيقية ج ٤ ص٣١ ، وفى سلك الدرر ج٣ ص ١٠٧ : أنه ولد سنة ١٠٩١هـ (١٦٨٠م) .

(٣) هذا يتفق مع رأى من يسقط الشيخ البرماوى الشافعى من عداد شيوخ الجامع الأزهر ، ويقول صاحب سلك الدرر ج٤ ص١٢٢ : إن الشيخ محمد السمنودى الشهير بالمنير المتوفى سنة ١١٩٩هـ =

شيوخه :

أخذ العلم عن جملة من فطاحل العلماء كالعلامة الشيخ محمد بن عبدالله الخرشى المالكى (أول شيوخ الجامع الأزهر) ، وقد أجازه قبل وفاته بسنة وهو فى سن الثامنة [١] ، وأبى مفلح الشيخ خليل بن إبراهيم اللقانى ، والشهاب الشيخ أحمد بن محمد الخليفى ، والإمام الشيخ محمد بن عبد الباقى الزرقانى ، والشهاب الشيخ أحمد بن غانم النفراوى ، والجمال الشيخ منصور المنوفى ، والعلم الشيخ صالح بن حسن البهوتى الحنبلى ، والشيخ محمد المغربى الصغير ، والشيخ عيد بن على النمرسى ، والجمال الشيخ عبدالله بن سالم البصرى [٢] .

تلامذته :

وتتلمذ عليه كثير من أبناء عصره ، وقد عرف منهم : الشيخ محمد الزرقانى بن عبد الباقى بن يوسف الأزهرى المالكى [٣] .

مؤلفاته :

وله عدة مؤلفات قيمة منها : ديوان شعره المسمى : « مفاتح الألطاف فى مدائح الأشراف» [٤] وشرح الصدر فى غزوة أهل بدر ، وديوان يحتوى على غزليات وأشعار ومقاطيع ، وغير ذلك [٥] .

وفاته :

وتوفى صبيحة يوم الخميس السادس من شهر ذى الحجة عام ١١٧١ هـ

(١٧٨٥م). «صار شيخ الجامع الأزهر،وهو أول من انتزع مشيخة الأزهر من السادة المالكية» ، والجبرتى(ج١ص٣٠٠ ، ج ٢ ص١٠٠ـــ ١٠٢)ترجم له ولم يذكر أنه ولى مشيخة الجامع الأزهر.

(١) فى سلك الدرر(ج٣ ، ص ١٠٧) أنه أجازه سنة وفاته (أى سنة ١١٠١ هـ) .

(٢) الجبرتى ج١ ص٢١٤ ، وسلك الدرر ج ٣ ص ١٠٧ .

(٣) سلك الدرر ، ج ٤ ، ص ٣٢ .

(٤) الجبرتى ج١ص٢١٥ ، وفى الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٣١ (مطامح ...) ، وفى سلك الدرر ج٣ص١٠٧ (منائح ...) ، وقد أورد صاحب سلك الدرر عدة أبيات شعرية منسوبة إليه

(٥) المراجع السابقة .

(١٧٥٧ م) عن ثمانين سنة تقريباً ، وصلى عليه بالجامع الأزهر فى مشهد مهيب حافل ، ودفن بتربة قرافة المجاورين ، وكان رحمه‌الله ذا جاه عريض ، وحرمة وافرة [١] .

٨ — الشيخ الحفنى

١١٧١ هـ (١٧٥٧ م) — ١١٨١ هـ (١٧٦٧ م)

نشأته وحياته :

هو العارف بالله أبو المكارم نجم الدين محمد بن سالم الحفنى (الحفناوى) الشافعى الخلوتى ، ينتهى نسبه إلى الحسين رضى الله عنه [٢] ، وكان والده (مستوفياً) عند بعض أمراء مصر اشتهر بالأمانة والعفه ، وقد ولد الشيخ (الحفنى) سنة ١١٠٠ هـ (١٦٨٨ م)[٣] بقرية حفنا (حفنة) التابعة لمركز بلبيس بمديرية الشرقية . ونشأ بها . وحفظ بها القرآن إلى سورة الشعراء ، ثم أشار الشيخ عبد الرءوف البشبيشى على أبيه بإرساله إلى الأزهر فألزمه والده بذلك . فقصد الأزهر فى سن الرابعة عشرة ، وكمل به حفظ القرآن الكريم ، واشتغل بحفظ المتون ، فحفظ ألفية ابن مالك (فى النحو) ، ومتن السلم (فى المنطق) ، والجوهرة (فى التوحيد) ، والرحبية (فى الفرائض) ، ومتن أبى شجاع (فى فقه الشافعية) وغير ذلك .

وأقبل على در[illegible] د فى تحصيلها ، وأفاد من شيوخه حتى مهر فى العلم وحا[illegible] بالإفتاء والتدريس ، فدرس أولا : بالسنانية ، والوراقين [illegible] ية [٤] .

[illegible] درسها لطلابه : الأشمونى (نحو) ، وجمع [illegible] فقه شافعى) ، ومختصر السعد (علوم بلاغة :

[illegible] سلك الدرر يذكر أن وفاته كانت سنة ١١٧٢هـ (١٧٥٨م)

[illegible] ميدة (ترك) ابنة السيد سالم بن محمد بن على بن عمد الكريم [illegible] ج١ ص ٢٩١) .

[illegible] ٥ : أنه ولد سنة ١١٠١هـ (١٦٨٩م).

(٤) بالأزهر على يمين الداخل من الباب الغربى الكبير (باب المزينين) ، وبها الآن مكان إعارة الكتب للطلاب من مكتبة الأزهر ، أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازندارى سنة ٧٠٩ هـ .

معانى ، بيان ، بديع) ، وغير ذلك من الكتب الأخرى فى الفقه ، والمنطق والأصول ، والحديث ، والتوحيد ، ولم تكن سنه وقتئذ قد تجاوزت الثانية والعشرين [١] .

وكان بجانب ذلك أديباً : شاعراً وناثراً ، له مقطوعات شعرية وأزجال مستلمحة ورسائل نثرية غير أن شهرته العلمية طغت على شهرته الأدبية[٢] .

وكان رحمه الله كريم الطبع ، جميل السجايا ، مهيب الجانب ، حليماً متواضعاً ، سخياً ، له صدقات وصلات ظاهرة وخفية ، وكان بيته مقصد الواردين ليلا ونهاراً ، يجتمع على مائدته الأربعون ، والخمسون ، والستون يومياً ، وكان رزقه فياضاً ، يصله الملوك ، والأمراء ، والكبراء بالهدايا السنية ، ومع ذلك لم تعلق نفسه بشىء من متاع الدنيا ، وقد أقبلت عليه الدنيا بعد إملاق ، وشظف عيش ، وضيق حال ، حتى بلغ به الأمر إلى الاشتغال بنسخ الكتب ليستعين على الحياة ، ويقوى على طلب العلم ، ولم يترك نسخ الكتب إلا حينما منّ الله عليه بالكرامات فحسن حاله ، وأقبلت عليه الدنيا فبذلها لمن يريدها ، وأظهر نعمة الله عليه مما أكسبه الذكر الحسن ، وسجل له صفحة ناصعة بين الخالدين [٣] . وقد سلك طريق الصالحين ، فدخل فى الطريقة الخلوتية واشتهر بها ، وأصبح من كبار أنصارها ، أخذ العهد بهذه الطريقة عن السيد مصطفى بن كمال الدين البكرى الصديقى ، وأجازه فى تسليك المريدين ، فقصده الناس من كل مكان ، وكثر أبناؤه فى الطريق ، ولم يمنح أحداً العهد بالطريق إلا بعد عودته من زيارة أستاذه (الصديقى) فى دمشق سنة ١١٤٩ هـ (١٧٣٦ م) ، وكان قد أقام عنده أربعة أشهر عاد بعدها إلى القاهرة ، وتصدر للتدريس ، وإعطاء العهود حتى اختير لمنصب « مشيخة الجامع الأزهر » الجليلة ، وقد وليها بعد وفاة الشيخ « الشبراوى » سنة ١١٧١ هـ (١٧٥٧ م) ، وبقى بها حتى وفاته .

وقد ذاع صيته ، وطبقت شهرته أرجاء البلاد ، وسعى الناس

---

(١) الجبرتى ج١ص٢٩١ .

(٢) خلد آثاره الشعرية والنثرية كتّاب سيرته ، كالشيخ حسن المكى المعروف بشمه ، والشيخ محمد الدمنهورى المعروف بالهلباوى . (الجبرتى ، ج ١ ، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٦) .

(٣) الجبرتى ، ج ١ ، ص ٢٩٢ .

التماساً للبركة ، ورغبة فى الاستزادة من العلم ، وقد كتبت الهداية على يديه لكثير من النصارى الذين أسلموا استجابة لدعوته ، وفاز بتقدير كافة الناس من كل جنس ودين حتى قيل : « إن الشيخ الحفناوى سقف على مصر من نزول البلاء » ، كما قيل : « إنه من عجائب الدنيا » لفضله ، وورعه ، وعظيم بركته [١] .

شيوخه :

حضر على كثير من علماء عصره الأجلاء ، وتلقى على كثير منهم أكثر من فن ، أمثال الشيخ أحمد الخليفى ، والشيخ محمد الديربى ، والشيخ عبد الرءوف البشبيشى ، والشيخ أحمد الملوى ، والشيخ محمد السجاعى ، والشيخ يوسف الملوى ، والشيخ عبده الديوى ، والشيخ محمد الصغير ، والشيخ محمد بن عبدالله السجلماسى ، والشيخ عيد بن على النمرسى ، والشيخ مصطفى بن أحمد العزيزى ، والشمس الشيخ محمد بن إبراهيم الزيادى الملقب بعبد العزيز ، والشيخ على بن مصطفى السيواسى الحنفى الضرير ، والجمال الشيخ عبدالله الشبراوى (أحد شيوخ الجامع الأزهر) ، والشهاب الشيخ أحمد الجوهرى ، والسيد الشيخ محمد بن محمد البليدى [٢] .

ومن أجل شيوخه الذين تخرج عليهم الشيخ محمد بن محمد البديرى الدمياطى الشهير « بابن الميت » ؛ أخذ عنه التفسير ، والحديث ، والمسندات ، والمسلسلات ، والإحياء للإمام الغزالى ، وصحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، وسنن أبى داود ، وسنن النسائى ، وسنن ابن ماجة ، وكتاب الموطأ (للإمام مالك) ، ومسند الشافعى ، والمعجم الكبير ، والأوسط ، والصغير للطبرانى ، وصحيح ابن حبان ، والمستدرك للنيسابورى ، والحلية للحافظ بن نعيم ، وغير ذلك [٣] .

تلامذته :

وحينما تصدر للتدريس أقبل عليه الطلاب فكان يحضر درسه نحو

---

(١) الجبرتى ج ١ ص ٢٩١ — ٣٠٤ ، وسلك الدرر ج ٤ ض ٤٩ — ٥٠ .

(٢) الجبرتى ج ١ ص ٢٩١ ، وسلك الدرر ح ٤ ص ٥٠ ، وقد أوضح الجبرتى الفنون التى أخذها عن كل واحد منهم .

(٣) المراجع السابقة .

الخمسمائة طالب من طلبة العلم ، وتخرج عليه غالب أهل عصره ، وطبقته ، ومن دونهم : كأخيه الشيخ يوسف الحفنى ، والشيخ إسماعيل الغنيمى ، وشيخ الشيوخ الشيخ على الصعيدى العدوى ، والشيخ محمد الغبلانى ، والشيخ محمد الزهار (١) .

ومن تلامذته فى الطريقة الخلوتية الشيخ محمد السمنودى الشهير بالمنيّر شيخ القراء والمحدثين ، وصدر الفقهاء والمتكلمين (٢) ، والشيخ حسن الشبينى ، والشيخ حسن السنهورى ، والشيخ محمد الزعيرى ، والشيخ خضر رسلان ، والشيخ محمود الكردى ، «وقد قام للإرشاد والتسليك (إعطاء العهود) بعد انتقال شيخة الحفنى » ، والشيخ على القناوى ، والشيخ محمد الرشيدى الملقب بشعير ، والشيخ يوسف الرشيدى الملقب بالشيال ، والشيخ محمد الشهير بالسقا ، والشيخ محمد الفشنى ، والشيخ عبد الكريم المسيرى الشهير بالزيات ، والشيخ أحمد العدوى الملقب بدردير ، والشيخ محمد الرشيدى الشهير بالمعصراوى ، والشيخ أحمد الصقلى المغربى ، والشيخ سليمان النبزاوى الأنصارى ، والشيخ إسماعيل اليمنى ، والشيخ حسن المكى المعروف بشمة ، وغيرهم كثير (٣) .

مؤلفاته :

وله عدة تصانيف نافعة منها : حاشية على شرح رسالة العضد للسعد ، وحاشية على شرح الرحبية للشنشورى فى الفرائض ، وحاشية على شرح الهمزية لابن حجر ، وحاشية على شرح رسالة الوضع ، وحاشية على حاشية الحفيد على المختصر ، وحاشية على شرح السمرقندى للياسمينية فى الجبر والمقابلة ، وحاشية على شرح العزيزى للجامع الصغير (٤) .

وغالب حواشى أخيه الشيخ يوسف الحفنى مأخوذة منه (٥) .

---

(١) الجبرتى ج ١ ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ .

(٢) وهو الذى قيل عنه إنه ولى مشيخة الجامع الأزهر ، وأول من نزعها من السادة المالكية (سلك الدرر ج ٤ ص ١٢٢ ، الجبرتى ج٢ ص ١٠٠ ـ ١٠٢) .

(٣) الجبرتى ج ١ ص ٣٠٠ ـ ٣٠٢ .

(٤) الجبرتى ج ١ ص ٢٩٢ ، وسلك الدرر ج ٤ ص ٥٠ .

(٥) سلك الدرر ج٣ص٥٠ ، وتراجع ترجمة الشيخ يوسف الحفنى فى الجبرتى ج١ص٢٦٨ ، وفى سلك الدرر ج ٤ ص ٢٤١ ـ ٢٤٤ .

وفاته :

وقد توفى رضى الله عنه قبل ظهر يوم السبت السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ١١٨١ هـ (١٧٦٧ م) ، ودفن فى اليوم التالى بعد الصلاة عليه فى الجامع الأزهر فى مشهد حافل عظيم . وكان يوم هول كبير (١) ، لعظم الخطب ، وفداحة المصاب عند أتباعه ومريديه ، ولأنه كان قطب وقته ، وحجة عصره عليه رحمة الله .

٩ ـ الشيخ السجينى

١١٨١ هـ (١٧٦٧ م) ـ ١١٨٢ هـ (١٧٦٨ م)

نشأته وحياته :

هو أبو الجواد عبد الرءوف بن محمد بن عبد الرحمن بن أحمد السجينى الشافعى ، ولد بقرية « سجين » التابعة لقطور بمديرية الغربية ، ونشأ بها ثم نزح إلى الأزهر ، وتلقى علومه على شيوخه الأجلاء ، وبلغ فى العلم درجة محمودة ، وتصدر للدرس فلازم درسه كثير من الطلاب واشتهر بين أقرانه حتى اختير شيخاً للجامع الأزهر ، وكان ذلك بعد الشيخ « الحفنى » سنة ١١٨١ هـ (١٧٦٧ م) وظل فى المشيخة حتى وفاته ، وقد أظهر نشاطاً محموداً أثناء توليه المشيخة ، وسار فيها بشهامة وحزم وصرامة . غير أن مدته لم تطل بها .

شيوخه :

وقد تتلمذ على كثير من علماء الأزهر ، وعرف من شيوخه عمه : الشيخ شمس الدين السجينى ، فقد لازمه ، وأخذ عنه ، وتخرج عليه ، وبعد وفاة عمه جلس مكانه ودرس كتاب « المنهج » فى فقه الشافعية .

---

(١) الجبرتى ج١ ص٣٠٥ ، وسلك الدرر ج ٣ ص٥٠ ، وتراجم خلاصة لترجمته فى الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٣٢ ، ج ١٠ ص ٧٤ ـ ٧٥ .

وفاته :

وقد وافاه أجله فى الرابع عشر من شهر شوال سنة ١١٨٢ هـ (١٧٦٨ م) وصلى عليه بالجامع الأزهر . ودفن بجوار عمه بأعلى البستان عليه رحمة الله [١].

١٠ — الشيخ الدمنهورى

١١٨٢ هـ (١٧٦٨ م) — ١١٩٢ هـ (١٧٧٨ م)

نشأته وحياته :

هو أبو المعارف شهاب الدين أحمد بن عبد المنعم بن يوسف بن صيام الشافعى ، الحنفى ، المالكى ، الحنبلى ، الدمنهورى ، ولد بمدينة دمنهور سنة ١١٠١ هـ (١٦٨٩ م) وهى عاصمة إقليم البحيرة وهو منسوب إليها[٢].

وقد نزح إلى القاهرة وهو صغير وكان يتيما ، ثم التحق بالجامع الأزهر ، واشتغل بالعلم وجدّ فى تحصيله ، واجتهد فى تكميله ، وأجازه علماء المذاهب الأربعة ، حتى عرف « بالمذاهبى » وكانت معرفته بالمذاهب الأربعة أكثر من أهلها قراءة وفهماً ودراية ، وقد اشتهر بقوة الحافظة ، وكانت له اليد الطولى فى سائر العلوم والفنون من دينية وعربية ، وغيرها كالكيمياء ، والطب ، والهيئة والأوفاق ، فاكتسب لذلك شهرة عظيمة بين أهل عصره ، وذاع صيته حتى قصده الملوك من الأطراف ، وقدموا إليه الهدايا الفاخرة ، واحترمه ولاة مصر لعظم هيبته ، وكبر منزلته ، وهابه الأمراء والكبراء لالتزامه قول الحق والصراحة .

وقد حج مع الركب المصرى سنة ١١٧٧ هـ (١٧٦٤ م) ، فاستقبل فى مكة المكرمة من حاكمها وعلمائها استقبالا كريماً يليق بجلالة قدره ، وعظم مكانته باعتباره علما من أعلام الإسلام العاملين .

---

(١) تراجع ترجمته فى : الجبرتى ج ١ ص ٣١٩ ، والخطط التوفيقية ج ٤ ص ٣٢ ،ج ١٢ ص ١٢ ، وكتاب : « كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر »للشيخ سليمان رصد ص ١٢٩ .
وقد أغفلت المراجع التى وصلنا إليها: تاريخ مولده ، كما أنها لم تذكرنا فى شيوخه ،ولا تلامذته

(٢) الجبرتى ج٢ص٢٦ ، وفى سلك الدرر ج١ص١١٧ : أنه ولد فى حدود سنة١٠٩٠هـ (١٦٧٩م) .

وكان كريماً جواداً فى ماله يبذل ما يملك من مال لكل قاصد ، غير أنه كان ضنيناً بعلمه ، فلم ينتفع بعلمه ولا تصانيفه لبخله فى ذلك لأهله وغير أهله ، وربما أباح فى المناسبات للغرباء ببعض الفوائد العلمية النافعة .

وكان من عادته الجلوس للتدريس بمسجد الإمام الحسين رضى الله عنه فى شهر رمضان ، وكان يخلط دروسه هذه ببعض الحكايات التى كانت تستغرق الدرس كله فى غالب أوقاته ، ولعل هذا بعض مظاهر بخله بعلمه الحقيقى على الناس(١) .

وقد ولى مشيخة الجامع الأزهر ، بعد الشيخ : « السجينى » عام ١١٨٢ هـ (١٧٦٨ م) ، وبقى بها حتى وفاته(٢) .

شيوخه :

وقد تلقى العلم على جملة من علماء عصره مثل أفقه علماء الشافعية فى عصره الشيخ عبدربه بن أحمد الديوى ، والشيخ أحمد الخليفى ، والشيخ أبى الصفاء الشنوانى ، والشيخ عبد الدايم الأجهورى ، والشيخ محمد بن منصور الأطفيحى ، والشيخ عبد الرءوف البشبيشى . والشيخ عبد الوهاب الشنوانى ، والشيخ عبد الجواد المرحومى ، والشيخ محمد الغمرى ، والشيخ عبد الجواد الميدانى ، والشيخ محمد بن أحمد الورزازى ، والشيخ أحمد بن غانم النفراوى ، والشيخ عبد الله الكنكسى ، والشيخ محمد بن عبدالله السجلماسى ، والسيد محمد السلمونى شيخ المالكية ، والشيخ محمد بن عبد العزيز الحنفى الزيادى ، والشيخ أحمد المقدسى الحنبلى ، والسيد محمد الريحاوى ، والشيخ أحمد بن محمد الهشتركى ، والشيخ منصور المنوفى ، وعلى هؤلاء تلقى علومه الدينية والعربية(٣) .

وتلقى عن الشيخ الزعترى الميقات ، والحساب ، والمجيب ، والمقنطرات ، والمنحرفات ، وبعضاً من اللمعة ، ودرس على الشيخ السحيمى منظومة

---

(١) الجبرتى ج ٢ ص ٢٦ ، وسلك الدرر ج ١ ص ١١٧ ، والخطط التوفيقية ج ١١ ص ٣٤ ، ٣٥

(٢) الخطط التوفيقية ج ١١ ص ٣٤ ، وكنز الجوهر فى تاريخ الأزهر للشيخ سليمان رصد ص ١٣٠ ، وفى الجبرتى ج ٢ ص ٢٦ ، وسلك الدرر ج ١ ص ١١٧ ؛ أنه ولى مشيخة الجامع الأزهر بعد الشيخ « الحفنى » . ولعل هذا وقع سهواً من الجبرتى وتابعه الشيخ رصد .

(٣) الجبرتى ج ٢ ص ٢٦ — ٢٧ ، وسلك الدرر ج ١ ص ١١٧ ، وفى الجبرتى بيان واف للعلوم التى تلقاها عن كل شيخ بالتفصيل .

الوفق المخمس ، وروضة العلوم ، وعلى الشيخ على سلامة الفيومى ، أشكال التأسيس ، وعلى الشيخ عبد الفتاح الدمياطى لفظ الجواهر ، وسالة قسطا ابن لوقا فى العمل بالكرة ، ورسالة ابن المشاط فى الأسطرلاب ، ود بن المجدى (١) .

ومن شيوخه كذلك الشيخ أحمد بن الحبازة ، والشيخ حسام الدين الهندى ، وحسين أفندى اواعظ ، والشيخ أحمد الشرفى ، والسيد محمد الموفق التلمسانى ، والشيخ محمد السودانى ، والشيخ محمد الفاسى والشيخ محمد المالكى (٢) .

مؤلفاته :

وله عدة مؤلفات قيمة منها : حلية اللب المصون بشرح الجوهر المكنون ، ومنتهى الإرادات فى تحقيق الاستعارات ، وإيضاح المبهم فى معانى السلم ، وإيضاح المشكلات من متن الاستعارات ، ونهاية التعريف بأقسام الحديث الضعيف ، والحذاقة بأنواع العلاقة ، وكشف اللثام عن مخدرات الأفهام على البسملة ، وحسن التعبير لما للطيبة من التكبير فى القراءات العشر ، وتنوير المقلتين بضياء أوجه الوجه بين السورتين ، والفتح الربانى بمفردات ابن حنبل الشيبانى ، وطريق الاهتداء بأحكام الإمامة والاقتداء على مذهب أبى حنيفة ، وإحياء الفؤاد بمعرفة خواص الأعداد ، والدقائق الألمعية على الرسالة الوضعية ، ومنع الأثيم الحائر على التمادى فى فعل الكبائر ، وعين الحياة فى استنباط المياه ، والأنوار الساطعات على أشرف المربعات وهو الوفق المئينى ، وحلية الأبرار فيما فى اسم على من الأسرار ، وخلاصة الكلام على وقف حمزة وهشام ، والقول الصريح فى علم التشريح ، وإقامة الحجة الباهرة على هدم كنائس مصر والقاهرة ، وفيض المنان بالضرورى من مذهب النعمان ، وشفاء الظمآن بسر قلب القرآن ، وإرشاد الماهر إلى كنز الجواهر ، وتحفة الملوك فى علم التوحيد والسلوك ، منظومة فى مائة بيت ، وإتحاف البرية بمعرفة العلوم الضرورية ، والقول الأقرب فى علاج لسع العقرب ،

---

(١) الجبرتى ج ٢ ص ٢٧ .

(٢) المرجع السابق .

وحسن الإنابة فى إحياء ليلة الإجابة ، وهى ليلة النصف من شعبان ، والزهر الباسم فى علم الطلاسم ، ومنهج السلوك إلى نصيحة الملوك ، والمنح الوفية فى شرح الرياض الخليفية فى علم الكلام ، والكلام السديد فى تحرير علم التوحيد ، وبلوغ الأرب فى اسم سيد سلطان العرب ، وغير ذلك ، وغالبها رسائل صغيرة منثورة ومنظومة (١) .

وفاته :

وتوفى يوم الأحد العاشر من شهر رجب سنة ١١٩٢ هـ (١٧٧٨ م) بمنزله ببولاق وهو فى حدود المائة من عمره ، بعد أن أقعده المرض والشيخوخة ، وعجز عن تحمل تبعات منصبه ، وقد خرجت جنازته فى مشهد حافل ، وصلى عليه بالجامع الأزهر ، ودفن بالبستان ، رحمه الله رحمة واسعة فقد كان أمة وحده علماً ، وفضلا ، ورفعة مقام (٢) .

الشيخ العروسى
١١٩٣ هـ (١٧٧٩ م) — ١٢٠٨ هـ (١٧٩٤ م)

نشأته وحياته :

هو السيد أحمد بن موسى بن داود أبو الصلاح العروسى الشافعى ، ولد « بمنية عروس » التابعة لمركز أشمون جريس بمديرية المنوفية سنة ١١٣٣هـ (١٧٢٠ م) ، وإليها ينسب ،(٣) وعائلته بها ذات شهرة واسعة ، ونفوذ قوى ، ومكانة رفيعة ، وكان رجالها يعتبرون من أهل الحل والعقد فى البلاد .

---

(١) الجبرتى ج ٢ ص ٢٧ .

(٢) الجبرتى ج٢ ص ٢٨ ، وسلك الدرر ج ١ ص ١١٧ ، والخطط التوفيقية ج١١ص٣٥، وفى الخطط التوفيقية ج ٤ص٣٢ وكتاب (الأزهر) لعبد الحميد يونس وعثمان توفيق ص١٢٧ وكتاب (الأزهر...) لمحب الدين الخطيب ص ٣٧ : « أنه توفى سنة ١١٩٠هـ (١٧٧٦م) مع أن على باشا مبارك ينقل فى خططه ج ١١ ص ٣٥ : أنه توفى سنة ١١٩٢هـ (١٧٧٨م) نقلا عن الجبرتى .

ويلاحظ أن مراجعنا أغفلت ذكر « تلامذته » فلم نثبت شيئا عنهم بسبب ذلك .

(٣) فى كتاب : « كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر » للشيخ سليمان رصد ص ١٣٣ : أنه ولد سنة ١١٣٢هـ (١٧١٩م).

قضى ببلدته صدراً من شبابه ، ثم نزح إلى الأزهر ، وتلقى العلم على شيوخه ، وجدّ في تحصيل العلم حتى احتل الصدارة بين علماء عصره ، وصار من كبار علماء الشافعية لوقته .

وكان معروفاً بالإقدام والجرأة على الأمراء والحكام ، وخاصة فيما يتصل بالصالح العام ، وتوفير أسباب الرفاهية ، وتحقيق المنفعة للناس كافة .

كما كان رقيق الطبع مهذباً لطيفاً ، جم التواضع ، كثير الرفق بالناس ، مراعياً لإخوانه حق الصحبة القديمة ، والمحبة الأكيدة (١) .

ولى مشيخة الجامع الأزهر بعد الشيخ : « الدمنهورى » بنحو سبعة أشهر فى أوائل سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٩ م) بعد نزاع شديد على المشيخة بين الأحناف والشافعية ، وذلك أنه حين تقدمت السن بالشيخ الدمنهورى ، وأقعدته ، وأعجزه المرض عن مباشرة مهام منصبه ، وتبين للناس قرب وفاته تطلع الشيخ « عبد الرحمن بن عمر العريشى » الحنفى إلى منصب مشيخة الجامع الأزهر ، فتوسل إلى تحقيق غرضه بادعاء أن الشيخ الدمنهورى قد أقامه وكيلا عنه . وأعلن ذلك لشيوخ الأزهر فى مواجهة شيخ البلد إبراهيم بك الذى كان يرافقه فى زيارة الجامع الأزهر ، ولم يلبث الشيخ الدمنهورى أن توفى بعد أيام ، فاستبد لشيخ العريشى بمنصب « مشيخة الجامع الأزهر » ، وكاد يتم له الأمر بمعونة بعض مناصريه من الأمراء والعلماء .

غير أن السادة الشافعية أبوا عليه ذلك ، واجتمعوا ورفعوا إلى إبراهيم بك شيخ البلد ، ومراد بك ملتمساً ينكرون فيه على الشيخ « العريشى » ، تولى مشيخة الجامع الأزهر بحجة : « أن المشيخة من مناصب الشافعية ، وليس للأحناف فيها قديم عهد ، وخصوصاً إذا كان متوليها آفاقيا (أجنبيا) كالشيخ عبد الرحمن العريشى ، وأن فى علماء الشافعية من هو أهل لذلك علماً وسنا » ، واقترحوا تعيين الشيخ أحمد العروسى الشافعى شيخاً للجامع الأزهر .

غير أن الأمراء أنكروا على السادة الشافعية ذلك وقالوا : « أليس الحنفية مسلمين ؟ وأن مذهب أبى حنيفة أقدم المذاهب ، والأمراء أحناف ، والقاضى حنفى ، والوزير حنفى ، والسلطان حنفى » ورفضوا إجابة ملتمسهم .

غضب الشافعية لذلك ، فاجتمعوا وقصدوا مسجد الإمام الشافعى

---

(١) الخطط التوفيقية ج ١٦ ص ٧٠ ، ٧١ .

رضى الله عنه وقرروا الاعتصام به حتى يجابوا إلى مطلبهم ، وبلغ قرارهم الأمراء ، وتجمع الناس حول المسجد واهتموا بالأمر ، فاهتم الأمراء ، وسار الوسطاء بين الفريقين ، وانتهى الموقف على إقرار الشيخ العريشى شيخاً للحنفية ، والشيخ العروسى شيخاً للشافعية ، والشيخ الدردير شيخاً للمالكية .

غير أن هذه النتيجة لم تقرر مصير منصب « شيخ الجامع الأزهر » موضوع النزاع الأصلى . وتفاقم الأمر ، وانقسم علماء الأزهر وطلابه إلى حزبين : حزب يناصر الشيخ العريشى ، يؤيدهم الأمراء وطائفة الشوام ، والمغاربة ، وحزب يناصر الشيخ العروسى وجماعته ، وتطورت الأحداث حتى توعد أنصار الشيخ العريشى الفريق الآخر ، وتصدوا لهم ليمنعوهم من دخول الجامع الأزهر .

حدث كل هذا خلال السبعة الأشهر التالية لوفاة الشيخ الدمنهورى ، ثم حدث صدام داخلى فى الأزهر بين الطلاب الشوام والأتراك ، وجنح الشيخ العريشى لبنى جلدته الشوام ، وتعصب الأتراك لبنى جنسهم الأتراك وتدخلوا لنصرتهم ، وأعلنوا غضبهم على الشيخ العريشى وبنى وطنه وطلبوه فاختفى ، كما فر الشوام من رواقهم بعد إغلاقه ، وكانت فرصة لعزل الشيخ : « العريشى » عن الإفتاء ، وتثبيت الشيخ : « العروسى » فى منصب : « مشيخة الجامع الأزهر » ، وكان ذلك فى أواخر شهر ربيع الأول سنة ١١٩٣هـ (١٧٧٩ م) ، وخلص الأمر نهائياً للشيخ « أحمد العروسى » ، واستمر شيخاً للجامع الأزهر حتى وفاته (١) .

شيوخه :

وقد حضر على غالب علماء عصره مختلف الفنون ، كالشيخ أحمد الملوى ، والشيخ عبدالله الشبراوى (أحد شيوخ الجامع الأزهر) ، والسيد البليدى ، والشيخ الحفنى (أحد شيوخ الجامع الأزهر) ، والشيخ العزيزى ، والشيخ على قايتباى الأطفيحى ، والشيخ حسن المدابغى ، والشيخ سابق ، والشيخ عيسى البراوى ، والشيخ عطية الأجهورى ،

كما تلقى عدة فنون على الشيخ على الصعيدى العدوى ولازمه السنين العديدة ، وأفاد منه كثيراً ، وكان معيداً لدروسه ، كما سمع من الشيخ

(١) الجبرتى ج ٢ ص٥٥ ــ ٥٧ ، ص٢٦٧ ــ ٢٦٩ .

ابن الطيب ، والشيخ يوسف الحفنى ، والشيخ إبراهيم الحلبى ، والشيخ إبراهيم بن محمد الدلجى .

كما لازم الشيخ حسن الجبرتى (والد المؤرخ العظيم الشيخ عبد الرحمن الجبرتى) . وقرأ عليه فى الرياضيات ، والجبر والمقابلة ، وكتاب الرقائق للسبط ، وقوللى زاده على المجيب ، وكفاية القنوع ، والهداية ، وقاضى زادة .

وتلقى العهد (بالطريقة الخلوتية) عن السيد مصطفى البكرى ولازمه كثيراً ، ثم اتصل بقطب عصره الشيخ أحمد العريان فأحبه ولازمه واعتنى به الشيخ وزوجه إحدى بناته ، وبشره بالسيادة ، وبمنصب « مشيخة الجامع الأزهر » وتحققت بشارته بعد وفاته (١) .

تلامذته :

وحينما تصدر للتدريس والإفادة جلس إليه كثير من طلاب عصره وتخرجوا عليه وقد عرفنا منهم الشيخ عبد الرحمن الجبرتى صاحب التاريخ المشهور وقد لازم دروسه فى « المغنى » لابن هشام بتمامة ، « وشرح جمع الجوامع » للجلال المحلى ، و « المطول » و « عصام على السمر قندية » و « شرح رسالة الوضع » و « شرح الورقات » ، وغير ذلك من الفنون (٢) .

مؤلفاته :

وله جملة مؤلفات نافعة منها : شرح على نظم التنوير فى إسقاط التدبير للشيخ الملوى وهو نظم ، وحاشية على الملوى على السمرقندية ، وغير ذلك(٣) .

وفاته :

وتوفى فى اليوم الحادى والعشرين من شهر شعبان سنة ١٢٠٨ هـ (١٧٩٤ م) ، وصلى عليه بالجامع الأزهر فى مشهد رهيب حافل ، ودفن بمدفن صهره الشيخ العريان ، وقد أعقب أربعة من البنين كلهم سادة

---

(١) الجبرتى ج ٢ ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .
(٢) « « « ٢٦٨ ، ولم تذكر المراجع التى تحت يدنا اسم غيره من تلامذته .
(٣) « « « ٢٦٩

نجباء ، وهم : السيد محمد الذى جلس مكان أبيه فى الأزهر للتدريس ، والذى اختير « شيخاً للجامع الأزهر » بعد الشيخ : « الشنوانى » سنة ١٢٣٤هـ (١٨١٨ م) ، ثم السيد أحمد ، والسيد مصطفى عليهم رحمة الله جميعاً[١] .

قد أتممنا الآن الحديث عن « شيوخ الجامع الأزهر » خلال القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) ، وانتهت بذلك الحلقة الأولى من هذا البحث . ويليها « الحلقة الثانية » وتبدأ بالشيخ « الشرقاوى » .

---

(١) الجبرتى ج ٢ ص ٢٦٩ ، ج ٤ ص ٣١٥

شيوخ الجامع الأزهر
فى
القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى)

١ ــ الشيخ الشرقاوى
١٢٠٨ هـ (١٧٩٤ م) ــ ١٢٢٧ هـ (١٨١٢ م)

نشأته وحياته :

هو الإمام الحجة عبدالله بن حجازى بن إبراهيم الشافعى ، ولد بقرية « الطويلة » التابعة لمركز فاقوس حالياً بمديرية الشرقية سنة ١١٥٠ هـ (١٧٣٧ م) تقريبا (١) ونشأ بها ، فلما شب وترعرع وحفظ القرآن نزح إلى القاهرة والتحق بالجامع الأزهر وتلقى دروسه على شيوخه ، وعكف على الدرس والتحصيل حتى تقدم فى العلوم وأصبح أهلا للتدريس فجلس يدرس بالجامع الأزهر ، وبمدرسة السنانية بالصنادقية ، وبرواق الجبرت ، وبالمدرسة الطيبرسية ، وأفتى فى مذهبه ، وبرز فى الإلقاء والتحرير (٢) .

ولما رغب فى الانتساب إلى الطريقة « الخلوتية » واقنه الشيخ الحفنى الاسم الأول « حصل له وَلَه واختلال فى عقله ، وأدخل المارستان ومكث به أياما ، ثم شفى ولازم الإقراء والإفادة .. » ، ثم تلقن من الشيخ محمود الكردى وقطع الأسماء عليه وألبسه التاج وواظب على مجالسته (٣) .

وكان فى مستهل حياته رقيق الحال فقيراً ، لا يأنف من قبول الهدايا

---

(١) الجبرتى ج ٤ ص ١٧٠ ، حيث يذكر أن الطويله بلدة بشرقية بلبيس بالقرب من العرين ، والخطط التوفيقية ج ١٣ ص ٦٣ ، وفيها أن الطويلة قرية صغيرة من مديرية الشرقية بمركز العرين ، وبينها وبين القرين نحو ثلث ساعة ... ، ونعرف أنها كانت إلى وقت متأخر تابعة لمركز ههيا شرقية .

(٢) الجبرتى ج ٤ ص ١٧٠

(٣) الجبرتى ج ٤ ص ١٧١

من الطعام أو غيره ، أو تلبية الدعوة لتناول الطعام خارج منزله ، وعُرف ذلك عنه فرق لحاله أهل اليسار من عارفى فضله ومكانته فوصلوه بهداياهم وصلاتهم ، فحسن حاله ، وظهرت عليه أخلاف النعمة فتجمل فى مظهره وتأنق فى لباسه(١).

ولما توفى أستاذه الشيخ محمود الكردى خلفه فى الطريق الخلوتية ، والتف حوله أبناء الطريق ، وتلامذته وصاروا يجتمعون به فى كل ليلة عشاء ومعهم المنشدون وغيرهم ممن يقرأ القرآن عند ختام المجالس ، فيذكرون معه ، ويعد لهم طعاماً فى بعض الليالى ، أو يذهب بهم إلى بعض البيوت فى المياتم ، أو فى المناسبات الأخرى فيأكلون عشاء ويقضون بعد ذلك هزيعاً من الليل فى الذكر والإنشاد ، ثم يتناولون وجبة طعام ثانية وينصرفون بعد أن يتقاضوا أجر سهرتهم ، وقد اتسع رزقه من هذا الباب أيضاً ، واشترى لنفسه داراً وترك الذهاب إلى بيوت الناس إلا فى النادر ، واستمر على حاله حتى توفى الشيخ : « أحمد العروسى » فاختير بعده : « لمشيخة الجامع الأزهر » (٢) وكان ذلك عام ١٢٠٨ هـ (١٧٩٤ م) ، وكانت تعارضت فيه وفى الشيخ « مصطفى الصاوى » ثم تم الاتفاق على اختيار الشيخ : « عبدالله الشرقاوى » على أن يحتفظ الشيخ « الصاوى » بوظيفة التدريس بالمدرسة الصلاحية المجاورة لمسجد الإمام الشافعى رضى الله عنه وكانت من وظائف مشيخة الجامع الأزهر (٣) ، فكان أعظم من تولى مشيخة الجامع الأزهر ، وإن كان عهده أكثر اضطراباً من سلفه ، بل أكثر عهود « المشيخة » اضطراباً فى تلك العصور الخالية (٤) .

بعض أحداث عهده

١ ــ النزاع بينه وبين الصاوى :

لم يكد الشيخ الشرقاوى يستقر فى منصبه حتى حدث بينه وبين الشيخ مصطفى الصاوى جفوة ونزاع بسبب التدريس بالمدرسة : « الصلاحية » .

(١) الجبرتى ج ٤ ص ١٧١

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ــ والمدرسة الصلاحية نسبة إلى صلاح الدين الأيوبى.

(٤) كتاب « الأزهر » لعبد الحميد يونس ، وعثمان توفيق ص ١٢٩

لأن بطانة الشيخ الشرقاوى حرضته على انتزاع وظيفة التدريس بهذه المدرسة من الشيخ الصاوى ، بحجة أن « المشيخة » لا تتم إلا بوظيفة التدريس فى هذه المدرسة ، وكان رحمه الله « أذُناً » يتأثر بما يلقى إليه ، وينقاد إلى ما يملى عليه فاستجاب لرغبة حاشيته ، واتصل بالشيخ : « محمد بن الجوهرى » و « أيوب بك الدفتردار » وتحدث إليهما فى ذلك فوجد منهما موافقة شجعته على تنفيذ عزمه ، ووثق فى معونتهما عند الحاجة ، فجمع أنصاره وقصدوا جميعا المدرسة الصلاحية يتبعهم خلق كثير من أنصارهم وألقى بها درساً ، فغضب الشيخ الصاوى وحنق على الشيخ الشرقاوى وأعوانه واتصل لوقته بأنصاره وتشاوروا فى طريقة الانتقام ، وانتهى رأيهم على اتصال الشيخ الصاوى « برضوان كتخدا إبراهيم بك الكبير » وكانت له به صلة ، وبينهما صداقة ومعاملة ومقارضة . فقابله وتحدث إليه فى الأمر بعد أن تنازل له عن ديونه قبله ، فاهتم « رضوان كتخدا » بالأمر ، وقابل الشيخ الشرقاوى وناقشه فى الموضوع وأفحمه ، وفى اليوم التالى قصد إليه فى منزله ثانية ومعه الشيخ الصاوى وجماعته ، وفى المجلس تنازل الشيخ الشرقاوى عن حقه فى التدريس بهذه المدرسة للشيخ الصاوى ، وتقرر ذلك بعد ملاحاة كلامية بين الشيخين ، واستمر الشيخ الصاوى فى هذه الوظيفة حتى مماته (١) .

٢ — وقفه عن العمل :

وقضية هذه المدرسة تطورت بعد وفاة الشيخ : « الصاوى » حتى كادت تطوح بالشيخ الشرقاوى من فوق كرسى : « مشيخة الجامع الأزهر » ؛ وذلك أنه قد عادت إليه وظيفة التدريس بالمدرسة الصلاحية بعد موت الشيخ الصاوى دون منازع ، فواظب على التدريس بها ، وقد رأى أن يتقاضى مخصصات هذه الوظيفة فطالب سدنة الضريح بمعلومها فماطلوه ، وألح عليهم فى الطلب فلم يستجيبوا له مما حمله على سبهم والشجار معهم ، فاستعانوا عليه بالفقهاء وغيرهم وتعصب الجميع ضده ، ورفعوا أمره إلى « الباشا » بعد أن لفقوا له عدة تهم ، وجمعوا ضده عدة مخالفات ، واستطاعوا أن يوغروا صدر « الوالى » حتى هم بعزله من مشيخة الجامع الأزهر ، غير أن

(١) الجبرتى ج ٤ ص ١٧١ ، ١٧٢ .

الرأى استقر أخيراً على : « وقفه عن العمل » فألزم بالاعتكاف فى منزله ، وعدم الخروج منه ، أو ممارسة أى شىء من الأشياء ، أو التدخل فى شأن من الشئون ، غير أن هذا « الإيقاف » لم يمكث غير فترة قصيرة ، إذ عفا عنه « الباشا الوالى » بشفاعة القاضى ، وأذن له فى الخروج وممارسة مهام منصبه فيما عدا وظيفة التدريس بالمدرسة « الصلاحية » التى أناب عنه فيها الشيخ : « محمد الشبراوينى »(١) .

٣ — موقفه من الفرنسيين :

لم يمض على الشيخ الشرقاوى فى منصب « مشيخة الجامع الأزهر » أكثر من خمسة أعوام حتى احتل مصر « نابليون بونابرت » بجيوشه فى مستهل عام ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) فكان ذلك من أعظم الأحداث وأخطرها فى تاريخ مصر الحديثة ، وفى عهد مشيخة الشيخ الشرقاوى .

وبعد ثلاثة أشهر من دخول الفرنسيين مصر فكروا فى إدخال بعض الإصلاحات على النظم السياسية بإنشاء مجلس نيابى أطلقوا عليه اسم : « الديوان الوطنى » .

وحينما شرعوا فى تكوينه اتجهوا إلى المشايخ لتنفيذه ، وكان هذا الاتجاه يساير إذ ذاك روح العصر ، ويتفق مع ما كان معروفاً فى أوربة خلال العصور المتوسطة ؛ إذ كان للعلماء ورجال الدين منزلة سامية من التقديس والاحترام فى نفوس الناس سببها اعتقادهم فى ورعهم وصلاحهم وتقواهم ، بجانب ما كان يتمتع به الكثير منهم من الثراء ، وعظيم الجاه ، فكان العلماء ورجال الدين فى تلك العصور أهم عنصر يمثل البلاد ، ويتولى الكلام باسم أهلها ، ويذود عن حقوقهم ، ويخطب ودهم الحكام (٢) .

لم تغب هذه الاعتبارات عن (نابليون) حينما شرع فى تكوين « الديوان الوطنى » فأرسل إلى شيوخ الأزهر وغيرهم من الأعيان والتجار ، فلبوا دعوته فى « الرابع والعشرين من شهر ربيع الثانى سنة ١٢١٣ هـ » (سبتمبر سنة ١٧٩٨ م) ، وكان فى مقدمة الشيوخ شيخ الجامع الأزهر الشيخ عبدالله

---

(١) الجبرتى ج ٤ ص ١٧٢ مع بعض تصرف ، ولعل الوالى الذى وقفه هو : « صالح باشا » الذى ولى من ١٢٠٩هـ — ١٢١٠ هـ حيث خلفه باكر باشا — الخطط التوفيقية ج ١ ص ٦٠

(٢) تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثه لمحمد رفعت بك ص ٣٥ مع تصرف .

الشرقاوى . ولما التأم المجلس شرع « ملطى القبطى » فى إلقاء بيان أعده نابليون أشاد فيه بمركز مصر وخصبها وغناها ، وكيف أن هذا سبب لها المتاعب ، وأطمع فيها الأعداء ، وأنه يريد حمايتها وإنقاذها من أعدائها ، ويرغب فى تنظيمها وإصلاح أحوالها ، وأن هذا مما يوجب شكر المصريين له ، وخلودهم إلى السكينة والهدوء حتى ينهض بمهمته ... إلخ .

وطلب فى ختام بيانه من المجتمعين اختيار شخص ليكون كبيراً ورئيساً عليهم يمتثلون أمره ، ويستمعون له ، فأشاروا إلى الشيخ « الشرقاوى » فأبى نابليون ان يكون الاختيار بهذه الطريقة ، وأشار عليهم بالاقتراع فتم ذلك وأسفرت نتيجة الاقتراع عن انتخاب الشيخ : « عبدالله الشرقاوى » شيخ الجامع الأزهر رئيساً « للديوان » (١) .

وكان هذا الديوان مكوناً من تسعة أعضاء غير رئيسه وغير سكرتيره الشيخ : « المهدى » وبذلك كان نابليون أول من أدخل المبدأ « النيابى » فى مصر الحديثة ، وكان تأسيس هذا « الديوان » أول خطوة لإشراك العناصر الوطنية مع الحكام فى إدارة شئون البلاد (٢) .

وكانت تلبية الشيوخ لدعوة نابليون ، وقبول شيخ الجامع الأزهر لرئاسة الديوان الوطنى بمثابة اعتراف للحكم الجديد ، وبالتالى مظهراً من مظاهر التعاون مع الحكام الجدد فى إدارة دفة الحكم فى البلاد ، غير أن هذا اللون من السياسة ، وهذا الضرب من الإصلاح الذى أدخله نابليون بمصر لم يجد ترحيباً كافياً من عامة الشعب ، ورأى الناس أن هذا كله خداع وغش ليمكنوا لأنفسهم فى البلاد فداخل الناس الشك ، وارتابوا فى نوايا الفرنسيين فثاروا ضدهم ، وكانت بين الفريقين مصادمات سفكت بسببها الدماء ، وأزهقت فيها أرواح نتيجة السرعة فى الإصلاح من جانب الفرنسيين ، وسوء الظن والشك من جانب المصريين .

---

(١) الجبرتى ج٣ ص٢٣ ، ٢٤

(٢) تاريخ مصر فى الأزمنه الحديثة لمحمد رفعت بك ص٦٠، وتاريخ العصر الحديث للدكتور محمد صبرى ص٢٧ . وقد تطور نظام الحكم فى عهد نابليون ؛ فبعد أن أنشأ «ديوان القاهرة» أنشأ الجمعيه المسماة «بالديوان العام» التى لم تجتمع إلا مرة واحدة ، ثم جعلها من هيئتين : «الديوان العمومى الكبير ، والديوان الخصوصى» ، وبعد ذلك ضمت هيئتا الديوانين بعضهما لبعض وجعلتا ديواناً واحداً سمى « الديوان »)

راجع فى ذلك كتاب تاريخ الحياة النيابية فى مصر تأليف الأستاذ محمد خليل صبحى ج ٤ ص ٥ .

٤ ـ موقف الفرنسيين من الأزهر وأهله :

يتجلى هذا الموقف عقب أحداث ثلاثة : ثورة القاهرة الأولى ، ومصرع الجنرال كليبر ، وثورة القاهرة الثانية :

(ا) أما عن الموقف الأول ؛ فإنه حينما حدثت ثورة القاهرة الأولى فى شهر جمادى الأولى سنة ١٣ ١ ه (١٧٩٨ م) ، استعمل الفرنسيون فى قمعها وإخمادها كل الأساليب الحربية الحديثة المعروفة لوقتهم ، وضربوا الأزهر الشريف ، وحى الحسينية بالمدافع الثقيلة ، فدمرت قنابلها الكثير من المبانى ، وقضت على العدد الوفير من الأرواح ، وهرع الناس من شدة الهول إلى الأماكن الآمنة طلباً للنجاة ، وحبًّا للحياة .

ولم يكتف الفرنسيون بما نزل بالناس من روع ، وما أصابهم من هلاك ، بل ارتكبوا أفظع جرم ، وأعظم إثم لا يزال وصمة عار لنابليون ورجال حملته إلى اليوم وهو دخولهم الأزهر بخيولهم ، وتفرقهم فى صحنه ومقصورته . وربطهم للخيول فى قبلته ، وعبثهم بما فى الأروقة والحارات ، وتكسيرهم القناديل ، وتهشيمهم خزائن الطلاب واستيلاؤهم على أمتعتهم ، وإتلافهم للكتب والمصاحف وطرحها أرضاً ، ووطئهم لها بالنعال ، وإخراجهم من فى الأزهر من الطلاب حتى صار الأزهر بمثابة إسطبل لخيولهم ، و « قشلاق » لهم ، إلى أن تدخل المشايخ فى الأمر فأمر نابليون بإخلاء الأزهر من الجنود بعد أن تتبع الكثير من شيوخه الذين اتهموا بتزعم الثوار وقبض على معظمهم وحبسهم فى « بيت البكرى » أمثال الشيخ سليمان الجوسقى ، والشيخ أحمد الشرقاوى ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوى ، والشيخ يوسف المصيلحى ، والشيخ إسماعيل البراوى .

كانت تلك أولى المحن القاسية التى حلت بالأزهر وبنيه فى عهد الفرنسيين ، وقد بقى هؤلاء الزعماء من لمشايخ فى محبسهم ، ولم تنفع فيهم شفاعة عاجلة ، بل ماطل الفرنسيون فى إطلاق سراحهم ، وطلبوا من الشفعاء التريث والانتظار ، ثم كانت النتيجة أن ساقوهم عرايا إلى القلعة ، وضربوهم ضرباً مبرحاً ، وأخيراً قتلوهم رمياً بالرصاص وألقوهم خلف القلعة (١) .

---

(١) الجبرتى ج٣ص٢٦ ــ ٢٩ ، وتاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة لمحمد رفعت بك ص ٦٤ ، وكتاب « الأزهر » لعبد الحميد يونس وعثمان توفيق ص ١٣٠.

(ب) وأما عن الموقف الثانى : فإنه لما قتل الجنرال « كليبر » خليفة بونابرت بمصر فى شهر المحرم سنة ١٢١٥ هـ (يونية سنة ١٨٠٠ م) ، وعرف أن القاتل يحتمى بالأزهر ، وهو : « سليمان الحلبى » انتهكوا ثانية حرمته بالتفتيش والبحث عن الجانى وشركائه فى جميع أروقته وحاراته ، وعبثوا بما فيها من أمتعة وغيرها حتى اهتدوا أخيراً للقاتل وعرفوا شركاءه فأجروا تحقيقاً دقيقاً اتجهوا فيه إلى اتهام شيخ الجامع الأزهر الشيخ « عبدالله الشرقاوى » حيث وجهوا للمتهم سؤالا : « هل تحدث إلى الشيخ الشرقاوى فيما عزم عليه من قتل كليبر ؟ ... ولم ينج الشيخ الشرقاوى إلا إجابة المتهم : « بأنه لم ير هذا الشيخ وأنه ليس من دينه (يريد مذهبه) ؛ لأن الشيخ شافعى ، وهو حنفى » (١) .

وكان هذا بلاء من لون جديد ، يهدف إلى إشراك شيوخ الأزهر فى جريمة قتل سياسى ليكون ذلك مبرراً لانتقام جديد ، وشفيعاً لهم أمام الرأى العام عما ارتكبوه فعلا من آثام ولكن لم ينجح التدبير ، وبقى الوزر يثقل كاهلهم ، والجور والإرهاق والعسف بطبع سياستهم مما أدى إلى انفجار جديد . وبلغ من ظلمهم أن حرموا على الطلبة الأتراك دخول الأزهر ، وبقى هذا المنع حتى تم جلاؤهم عن مصر (٢) .

(جـ) وأما عن موقفهم الثالث : فإنه عقب انفجار أهل القاهرة فى ثورتهم الثانية آمن الفرنسيون أن هذه الثورات من تدبير المشايخ ، وأنهم روحها الحى . فأسرفوا هذه المرة فى مطاردتهم إياهم ، واستعملوا معهم أشد الأساليب قسوة وعنفاً ، وقبضو على جمهرة منهم ، وطوحوا بهم فى غياهب سجون ، وتركوهم يقاسون مرارة السجن ، وألم التعذيب دون أن يعبأوا بما لهم من حرية ، وظلوا فى محبسهم حتى أطلق سراحهم نتيجة لمعاهدة العريش سنة ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) بينهم وبين العثمانيين والإنجليز ، وكان ممن أفرج عنهم الشيخ الشرقاوى ، والشيخ الأمير ، والشيخ محمد المهدى ، كما أفرج عن شيخ السادات ، وعن حسن أغا المحتسب ، ورضوان كاشف الشعراوى ، وغيرهم(٣).

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٢١ ، ١٣٥ .
(٢) كتاب : « الأزهر ...» لعبد الحميد يونس وعثمان توفيق ص ١٣١ .
(٣) الجبرتى ج ٣ ص١٩٢ .

لم يلبث الفرنسيون أن نزحوا عن البلاد نهائياً بتسليم الجنرال « مينو » فى شهر ربيع الثانى سنة ١٢١٦ هـ(سبتمبر سنة ١٨٠١ م) بعد أن مكثوا بها ثلاث سنوات ، وثلاثة أشهر تقريباً أرهقوا فيها أهل البلاد عامة من أمرهم عسراً ، ونالوا من قداسة الجامع الأزهر ، وكرامة أهله ، وأنسوا الناس بعض ما لهم من فضل التوجيه نحو الإصلاح السياسى والاجتماعى ، والاقتصادى بسبب قسوتهم معهم حتى دفعوهم إلى ناحية المعسكر الآخر المؤلف من العثمانيين ، والمماليك ، والإنجليز ، وتضافرت جهود الجميع حتى أخرجوهم من البلاد ، وانتزعوا السلطة من أيديهم(١) .

٥ ــ الشيخ الشرقاوى وولاية محمد على الكبير لمصر : ة

(ا) وفد : « محمد على الكبير » إلى مصر ضمن أفراد القوة العسكرية التى سيرتها الدولة العلية إليها سنة ١٢١٦ هـ (١٨٠١ م) بقيادة القبطان حسين باشا ، وقد أبدى تفوقاً ، ومقدرة ، وشجاعة فى كل المعارك التى اشترك فيها وبخاصة موقعة : « قلعة الرحمانية » فكوفئ بالترقية إلى رتبة (قائد) فى الجيش ، ثم ألحق بمعية والى مصر « خسرو باشا » تقديراً لجهوده وبسالته .

وقد أتاحت له الإقامة الطويلة بمصر أن يشاهد عن كثب الصراع المرير بين الولاة العثمانيين والأمراء المماليك منذ مغادرة الفرنسيين البلاد ، كما وقف على الآلام والمحن التى كان يقاسيها الشعب المصرى من جراء هذا العداء الدائم . ورأى بثاقب فكره أن الظروف مناسبة لكى يعمل شيئاً لنفسه ، فأخذ يتدخل فى الأحداث الجارية ولكن بحذر وحيطة حتى لا يتهم فى ولائه للدولة العلية ، أو فى إخلاصه وحبه للشعب المصرى ، وظل يرتقب الوقت المناسب للعمل ، ولم يطل انتظاره حيث كانت الأحداث تجرى على مسرح السياسة المصرية بسرعة فائقة حتى جذبت « محمد على » إليها واضطر أن يقف من الوالى « أحمد باشا خورشيد » موقفا صريحاً حينما امتنع عن إمداده بجنده الدلاة (المغاربة) لمواصلة قتال المماليك بالوجه القبلى ، ووقف على سوء نيته حينما صرح للمشايخ : « بأنه إذا لم يرجع محمد على لمقاتلة المماليك فإنه لابقاء له فى مصر بل يجب أن يذهب إلى بلده ، وأن

---

(١) الجبرتى ج ٣ص ٢٠٤ مع التصرف .

بيده أمراً من السلطان بعزل من يشاء ، وتولية من يشاء ... » ، ولم يكن الشيخ الشرقاوى ، ولا الشيخ البكرى ، ولا الشيخ المهدى من شهود هذا المجلس فكتب إليهم الوالى بالحضور ليتضامنوا معه فى منع « محمد على » من دخول القاهرة ، ولكن « محمد على » تمكن من دخولها بجنده فى المحرم سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) وأخذ فى التدبير على « أحمد باشا خورشيد » وخلعه بعد الذى بلغه من تحديه له ، ومحاولته منع الناس من الاتصال به ، أو التعاون معه (١) .

(ب) ولاية « محمد على » مصر :

وقد اتسعت شقة الخلاف بين الرجلين ، ولم تنفع الوساطات لإزالة ما بينهما ، وكثر عبث الجند وفسادهم ، وضج الشعب من هذه الفوضى ، وفى أثناء ذلك قدم رسول من « إسلامبول » يحمل تقليداً بولاية « محمد على » (جدّة) فأظهر الامتثال ، وأخذ يستعد للسفر ، غير أن استشراء الشر والفساد حمل المشايخ وعامة الناس على التفكير فى خلع الوالى « خورشيد باشا » وتولية « محمد على » مكانه ، فاجتمعوا ببيت القاضى ، واستعرضوا الحالة وانتهوا إلى وجوب تولية « محمد على » فركبوا إلى بيته وقالوا له : « إنا لا نريد هذا الباشا حاكماً علينا ولا بد من عزله من الولاية ، فقال : ومن تريدونه يكون والياً ؟ قالوا له : لا نرضى إلا بك ، وتكون والياً علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير » فامتنع أولا ثم رضى وأحضروا له « كركاً وعليه قفطان » وقام إليه السيد عمر مكرم ، والشيخ عبدالله الشرقاوى فألبساه له ، ونادوا بذلك فى المدينة ، وأرسلوا بالخبر إلى (أحمد باشا خورشيد) فلم يمتثل وقال : « إنى مولى من طرف السلطان فلا أعزل بأمر « الفلاحين » ، ولا أنزل من القلعة إلا بأمر من السلطنة » ، وظل على امتناعه رغم وصول فرمان بإقرار « محمد على » فى منصبه استجابة لرغبة الشعب بتوليته فى أوائل شهر صفر سنة ١٢٢٠ هـ (مايو سنة ١٨٠٥ م) ، وبقى على عناده حتى وفد رسول من قبل السلطان وهو : « صالح أغا القابجى » فى شهر ربيع

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٢٩٦ ، ٣٠٠ — ٣٠٤ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، والخطط التوفيقية ج١ ص ٦٢ — ٦٥ ، وكتاب تاريخ العصر الحديث ... للدكتور محمد صبرى ص ٣٢ .

الثانى سنة ١٢٢٠ هـ (يوليه سنة ١٨٠٥ م) ومعه فرمان مضمونه : « أن محمد على والى جدّة سابقاً ، ووالى مصر حالا ابتداء من عشرين ربيع الأول (١٢٢٠ هـ — ١٨٠٥ م) حيث رضى بذلك العلماء والرعية ، وأن أحمد باشا معزول عن مصر ... إلخ » ، فنفذ الأمر بعد مشاورات طويلة ونزل من القلعة بأهله وحاشيته وسلمها فى العاشر من شهر جمادى الأولى سنة ١٢٢٠ هـ (أغسطس سنة ١٨٠٥م) (١)

(ج) محمد على والأزهر :

نزل بالأزهريين أيام الحملة الفرنسية كثير من المظالم ، فلما كان عهد « محمد على » لم يجد الأزهر عطفاً من النهضة القومية أول الأمر ، ولم يكن فى مقدور « محمد على » أن يحتفظ للأزهر بمقام خاص ، بل لقد اضطرت الحكومة فى عهده إلى الاستيلاء على أملاك الأزهر الواسعة عندما دعت مصلحة الدولة إلى ذلك (٢) .

ومع ذلك فإن رغبة « محمد على » فى الإصلاح ، وفى إقامة بناء دولته الجديدة على أسس سليمة جعلته يرغب فى الاسترشاد بالأفكار الأوربية ، فاتجه إلى استشارة الفنيين من الغربيين ، وإلى إرسال البعوث العلمية ، فأنشأ فى سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦ م) البعثة العلمية فى باريس ، واختار لها طائفة من أنجب طلاب الأزهر ليتلقوا العلم على أساليب جديدة ، فكانت هذه خطوة عملية من جانبه فى سبيل إصلاح الأزهر ، وإدخال أساليب البحث الحديثة فيه ، والحث على الاهتمام بالعلوم الحديثة التى كانت مهملة كالرياضيات ، وعلوم الحساب ، والطبيعة ، والتاريخ ، والجغرافية .

وقد نجحت هذه السياسة التعليمية فى الأزهر حيث احتلت تلك العلوم مكانتها بين باقى المواد التى تدرس فى الأزهر ، وأخذت تدب الحياة فى الأزهر بعد الركود الذى أصيب به من قبل ، وأخذ الجيل الجديد يترجم

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٣٤٨ — ٣٦١ ، والخطط التوفيقية ج١ ص ٦٥ ، وكتاب تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة لمحمد رفعت بك ص ٨٠ — ٨٧ ، وكتاب تاريخ العصر الحديث...» للدكتور محمد صبرى ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (عدد يونية سنة ١٩٣٥) ص ٥٤ ، ٦٠ .

المصنفات الأوربية . وخرج الأزهر من عزلته ، وشارك العالم فى حياته المتجددة ، وتوالت بعد ذلك عناية الولاة ، والسلاطين ، والملوك من هذه الأسرة العلوية الكريمة على هذا المعهد العتيق حتى وصل إلى ما هو عليه الآن من تقدم ورقى يعتز بهما بين جامعات العالم ، وصار يفخر بزعامته العلمية وقدمه عليها جميعها(١).

بناء رواق الشراقوة :

من أهم الآثار التى خلفها الشيخ الشرقاوى ، والتى لا تزال باقية إلى اليوم « رواق الشراقوة » بالأزهر ، فهو صاحب فكرته ، وهو القائم على تشييده ، والمشرف على رعاية أهله ، وتنظيم حياتهم ، وأرزاقهم على عهده . يقول الجبرتى : « واتفق للمترجم فى أيام الأمراء المصريين أن طائفة المجاورين بالأزهر من الشرقاويين يقطنون بمدرسة الطيبرسية بباب الأزهر ، وعمل لهم المترجم خزائن برواق (معمر »(٢) فوقع بينهم وبين المجاورين بها مشاجرة فضربوا (نقيب) الرواق ، فتعصب لهم الشيخ إبراهيم السجينى شيخ الرواق على الشرقاويين ومنعوهم من الطيبرسية وخزائنها وقهروا المترجم وطائفته ، فتوسط بامرأة عمياء فقيهة كانت تحضر عنده فى درسه إلى « عديلة هانم » ابنة إبراهيم بك فكلمت زوجها إبراهيم بك المعروف بالوالى : بأن يبنى له مكاناً خاصاً بطائفته فأجابه إلى ذلك ، وأخذ سكناً أمام الجامع المجاور لمدرسة الجوهريةمن غير ثمن وأضاف إليه قطعة أخرى وأنشأ ذلك رواقاً خاصاً بهم . ونقل إليه الأحجار ، والعمود الرخام الذى بوسطها من جامع الملك الظاهر بيبرس خارج الحسينية وهو تحت نظر الشيخ إبراهيم السجينى ليكون ذلك نكاية له نظير تعصبه عليه ، وعمل به قوائم وخزائن ، واشترى له غلالا من جرايات الشون وأضافها إلى أخباز الجامع ، وأدخلها فى دفتره يستلمها خباز الجامع ويصرفها خبز قرصة لأهل ذلك الرواق فى كل يوم ووزعها على الأنفار الذين اختارهم من أهل بلاده(٣) » .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية (عدد يونية سنة ١٩٣٥) ص ٦٠ـ٦٣ مع بعض التصرف

(٢) رواق معمر ، أو رواق ابن معمر : هو رواق عام لجميع الأجناس

(٣) الجبرتى ج ٤ ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

ولا يزال هذا الرواق عامراً إلى اليوم يحمل اسم مؤسسه ، وينتسب إليه طلاب مديرية الشرقية .

شيوخه :

وقد تلقى العلم فى الأزهر الشريف على جملة من عظماء علماء عصره ، وسمع الكثير من كبار الشيوخ أمثال : الشيخ الملوى ، والشيخ الجوهرى ، والشيخ الحفنى (أحد شيوخ الجامع الأزهر)،وأخيه الشيخ يوسف ، والشيخ الدمنهورى (أحد شيوخ الجامع الأزهر)، والشيخ البليدى ، والشيخ عطية الأجهورى ، والشيخ محمد الفاسى ، وشيخ الشيوخ الشيخ على الصعيدى العدوى ، والشيخ عمر الطحلاوى ، وسمع الموطأ فقط على الشيخ على بن العربى الشهير بالسقاط [١]

مؤلفاته :

وله عدة مؤلفات جليلة تدل على سعة اطلاعه ، وتمكنه ، وعظيم فضله منها : حاشيته على التحرير ، وشرح نظم يحيى العمريطى ، وشرح العقائد المشرقية والمتن له أيضاً ، وشرح مختصر فى العقائد ، والفقه ، والتصوف ، وشرح رسالة عبد الفتاح العادلى فى العقائد ، ومختصر الشمائل وشرحه له ، ورسالة فى لا إله إلا الله ، ورسالة فى مسألة أصولية فى جمع الجوامع ، وشرح الحكم والوصايا الكردية فى التصوف ، وشرح ورد سحر للبكرى ، ومختصر المغنى فى النحو [٢] .

وله أيضا طبقات جمعها فى تراجم الفقهاء الشافعية المتقدمين والمتأخرين من أهل عصره ومن قبلهم من أهل القرن الثانى عشر (الهجرى) ، نقل تراجم المتقدمين من طبقات السبكى والأسنوى ، وأما المتأخرون فنقلهم عن تاريخ الجبرتى .

وله تاريخ مختصر فى نحو أربعة كراريس عدد فيه ملوك مصر ، وذكر فى آخره خروج الفرنسيين ودخول العثمانيين [٣] .

---

(١) الجبرتى ج٤ص١٧٠ ، ولم تذكر المراجع التى تحت يدنا أسماء تلامذته .

(٢) الجبرتى ج ٤ ص ١٧٠ .

(٣) الجبرتى ج ٤ ص١٧٤ . ويذكر أن كتاب التاريخ (فى غاية البرود) وينسب إليه الغلط فيه ، ولم يتأت لنا الاطلاع عليه حتى كنا نقف على مدى صحه هذا الحكم .

وفاته :

ومكث الشيخ الشرقاوى فى منصب مشيخة الجامع الأزهر مدة عشرين عاماً ، مرت به خلالها عدة أحداث جسام ، ومحن قاسية ، ووقائع مشهورة ، ثم مرض وتوفى يوم الخميس الثانى من شهر شوال سنة ١٢٢٧ هـ (١٨١٢ م) وصلى عليه بالجامع الأزهر فى مشهد حافل رهيب ، ودفن بمدفنه الذى بناه لنفسه بالخانكاه التى أنشأتها (خوند طغاى الناصرية) بالصحراء خارج باب البرقية على يمين السالك إلى قرافة البستان ، وكان الشيخ الشرقاوى ناظراً عليه

وقد عقد على مدفنه قبة ، وجعل تحتها مقصورة بداخلها تابوت عال مربع ، وعلى أركانه عساكر فضة [١] .

ويقول الجبرتى : « ووضعوا على تابوته المذكور عمامة كبيرة أكبر من طبيزيته التى كان يلبسها فى حياته بكثير ، وعمموها بشاش أخضر ، وعصبوها بشال كشميرى أحمر ، ووقف شخص عند باب مقصورته وبيده مقرعة يدعو الناس لزيارته ويأخذ منهم دراهم ، ثم إن زوجته وابنه ومن يلوذ بهم ابتدعوا له موالد وعيداً فى أيام مولد العفيفى وكتبوا بذلك فرماناً من الباشا ونادى به تابع الشرطة بأسواق المدينة على الناس بالاجتماع والحضور لذلك المولد ، وكتبوا أوراقاً ورسائل للأعيان وأصحاب المظاهر وغيرهم بالحضور ، وذبحوا ذبائح وأحضروا طباخين وفراشين ومدوا أسمطة بها أنواع الأطعمة والحلويات والمحمرات والخشافات لمن حضر من الفقهاء والمشايخ والأعيان وأرباب الأشاير والبدع ... »[٢] عليه رحمة الله .

تعقيب :

وبعد فتلك صورة حية مشرفة لما كان عليه معظم « شيوخ الجامع الأزهر » فى الماضى ، وهى جديرة حقاً بأصحاب المناصب الدينية الكبيرة ، ومنصب : « شيخ الجامع الأزهر » من أعلى المناصب فى الدولة ، وشاغله من رجال الصف الأول بين موظفيها ، فمقامه الدينى الممتاز ، ومركزه الاجتماعى

---

(١) الجبرتى ج ٤ ص ١٧٣ ، ١٧٤ .
(٢) الجبرتى ج ٤ ص ١٧٤

العظيم يحتم عليه أن يكون من الطراز الأول ديناً ، وخلقاً ، وعلماً ، يهب نفسه ، ووقته ، وماله لرعاية مصالح الجماعة الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها ، ويجعل بابه كعبة لكل القصاد ، وبيته مثابة وأمناً لمريدى علمه ، ورفده ، ومعونته الأدبية ، وبخاصة فى هذه الأزمنة التى قست فيها القلوب ، وأنكر فيها الإنسان أخاه الإنسان ، فلا ود ، ولا تعاطف ، ولا رحمة ، ليكون هذا السلوك إحياء لسيرة هؤلاء الشيوخ الأماثل ، ونهجاً قويماً يسلكه أبناء الجيل الحاضر فيما بينهم ، وهداية لمن يأتى فى العصور المقبلة بعدهم .

ولعل المشرع حينما وضع شروطاً خاصة لمن يلى منصب : « مشيخة الجامع الأزهر » قد لاحظ كل هذه المعانى والمثل حتى يضمن أن يربط مشايخ الجامع الأزهر اللاحقون حاضرهم بماضى أسلافهم المجيد ، وحتى يبقى لهذا المنصب الجليل قدسيته ، وجلاله وهيبته فى نفوس العامة والخاصة .

وفقنا الله جميعا إلى أقوم سبيل . وأعاننا على إكمال هذه الحلقة فى أقرب فرصة والله المستعان .

زكى محمد غيث